الإمام الصادق

كما عرفه علماء الغرب

ترجمة

الدكتور نور الدين آل علي

دار الكتاب الإسلامي

الإمام الصادق

كما عرفه علماء الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الصادق (ع)

كما عرفه علماء الغرب

نقله إلى العربية

الدكتور نور الدين آل علي

راجعه

الأستاذ وديع فلسطين

دار الذخائر للمطبوعات

قم - ايران

شبكة كتب الشيعة

shiabooks.net

mktba.net < رابط بديل

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

الكتاب : الامام الصادق كما عرفه علماء الغرب

المؤلف : دكتور نورالدين آل علي

الناشر : دار الذخائر - قم

المطبعة : النهضة بقم

الطبعة : الاولى

المطبوع : ٢٠٠٠ نسخه

الصفحة والقطع : ٤٢٤ وزيرى

سنة الطبع : ١٤١٢ هـ. ١٣٧٠ش.

ايران - قم - شارع ارم - قيصريه القدس

ص . ب ٦٣٣ هاتف : ٢٦٢٥١

توطئة

بقلم
محمد قبازرد

يطيب لي أن أقدم إلى قراء العربية هذا السفر الجليل الذي ظهر من قبل في اللغتين الفرنسية والفارسية ، لأنه يتناول دراسة التراث الاسلامي العظيم ودوره في نهضة علوم العصر من عقلية وعملية دراسة أكاديمية محورها جميعا الإمام جعفر الصادق (ع) إمام الأئمة ، وأستاذ الفحول من سدنة الشريعة الاسلامية ، وفي طليعتهم الإمامان مالك وأبو حنيفة .

وقد اتصل علمي بهذا الكتاب لأول مرة عندما أهداني صديق عزيز نسخة من نصه الفارسي مترجمة عن أصله الفرنسي ، إذ هو مجموعة من البحوث التي توافر على اعدادها علماء الاستشراق في الجامعات المختلفة ، وألقوها في ندوة نظمتها جامعة استراسبورغ الفرنسية ، ثم نشرتها في سفر ضخم يحمل طغراء هذه الجامعة العريقة .

وانتابتني وأنا أطالع هذا الكتاب مشاعر هي خليط من الاعجاب والدهشة ، فكيف يكون علماء الغرب أوفر عناية بنشر حقائق الاسلام وذخائره وتراثه من المسلمين أنفسهم ، وكيف يلتفتون إلى رسالة الاسلام الحضارية والعلمية والانسانية التفاتا ربما فاقوا فيه التفات المسلمين

أنفسهم ؟ فالجوانب الحضارية والانسانية والعلمية والفكرية للإمام الصادق (ع) التي خصّها كتاب هذا السفر بعنايتهم الموثقة ، تضيف إلى صورة الامام الدينية والفقهية المعروفة اضواء شديدة اللمعان والاشراق .

والمسلمون ، ولا سيما الشيعة الجعفرية منهم المتسبون إلى الإمام جعفر الصادق (ع) لا يعرفون إمامهم بأنه زعيم روحي عالم بالكتاب والسنة مجتهد في استنباط الأحكام في ضوء القرآن الكريم فحسب ، بل يعرفونه إلى جانب ذلك عالما عبقريا استقى علومه من منهل الرسالة العذب ، فبلغ بنبوغه واجتهاده وقدرته المنزلة الرفيعة في حل مسائل الفقه وفي الاتيان بنظريات رائدة سبق بها عصره في الفلسفة وعلوم الطبيعة والفلك ، وجاءت القرون الطوال من بعده فأثبتت صدق نظرته بعد تجارب ومكتشفات أجراها علماء العصور ، ناهيك عن المسائل الالهية والاسانية والاجتماعية والحضارية التي فاتت فلاسفة عصره .

والإمامة في نظر الشيعة أصل من أصول الدين ، ينيطها الله العلي العظيم بخاصة عباده وأوليائه . والإمام ، هو حجة الدين القيم على شؤون المسلمين من أتباعه ، وهو بهذه الصفة ، مؤهل لشرح الرسالة وحمل الامانة بفضل علمه بأسرار الكتاب والسنة . وهو الذي يقوم على تطبيق الشريعة بما يكفل العدالة ويحقق الخير والسعادة لمجموع أتباعه من المسلمين . والإمامة امتداد للرسالة ، ونيابة عن النبوة ، وهي صورة صادقة لفضائل السمو والجلال . والإمام هو الذي يفسر الكتاب والسنة تفسيرا يهتدي به المسلمون إلى المحجة الصحيحة والطريق السوي الذي رسمه الله تعالى للصالحين من عباده .

وعلوم الإمام في نظر الشيعة علوم الهية ، ولا سيما العلوم التي خص الله بها أصفياءه ورفعهم إلى أعلى مراتب الاحاطة بالمعارف الدينية

والدنيوية . والإمام ينطوي على صفاء نفس وطهارة سريرة ، وهو يستضيء بقبس من نور الباري جل شأنه .

والإمام الصادق (ع) هـو سادس الأئمـة الاثني عشر . تلقى العلم عن أبيه الإمام محمد الباقر (ع) فترة غير قصيرة في مدرسته بالمدينة المنورة، وكان إذ ذاك في حـداثة العمـر ، ولكنه أقبـل على الأخـذ من علوم الدين وعلوم الـدنيا حتى أصبـح باجتهـاده وارادته أعلم أهـل زمانـه ، وأكثـرهم بصـراً بالقضايا الالهية والدنيوية ، وأشدهم زهداً في أعراض الدنيا . ولا غرو أن يزدحم ببابه العلماء ، حتى بلغ عدد رواد مـدرسته والمتتلمـذين عليه أربعـة آلاف .

ولوفرة الدراسات الاكاديمية التي يحتوي عليها هـذا السفر ، ولغـزارة مادتها في الابانة عن فضل الإمام جعفر الصادق وفضائله وأياديه على الدين والانسانية جميعاً ، ارتأيت أن أسهم في تعريف قراء العربية بمـا يقولـه علماء الغرب عن هذا الامام التقي العالم . فرغبت إلى المحقق الفاضـل الدكتـور نـور الـدين آل عـلي في نقـل هـذا الكتـاب إلى اللغـة العـربيـة بشيء من التصـرف ، مستندا في ذلـك إلى نصه الفـارسي المنقول عن الفـرنسية بقلم العلامة الاستاذ ذبيح الله منصوري في ترجمة أمينة ، برغم رحابـة المجالات التي تنوولت في الكتاب .

والدكتور آل علي متضلع من اللغات الفارسية والعربية والفـرنسية ، وقـد درس عـلى علماء الغـرب والمستشـرقـين وزامـل بعضهم في جـامعـة السوربون الفرنسية أيام تلقيه دراساته العليـا في باريس . وهـو قد أضـاف إلى الكتاب هوامش وتعليقات زيادة في الضبط والتحقيق والافادة .

ولئن اثنيت على صنيع الدكتور منصوري الذي عرّف قراء الفـارسية

بهذا السفر فـالدكتـور آل علي خليق بـدوره بأوفـر الثناء لأنـه حقق لي أمنية ظلت تلحّ علـيّ ثلاث سنـين ، وقام بنقـل هذا الكتـاب إلى اللغة العـربيـة خدمة للاسلام والمسلمين من قراء هذه اللغة فليجزل الله مثوبتـه على هـذا العمل الجليل . وما توفيقي إلا بالله .

محمد قبازرد

تقديم

قدّم له

بقلم فضيلة العلّامة الكبير

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

إن اضاءة التاريخ الاسلامي ، والكشف عن أصول حضارة الاسلام ، وتجلية الفكر العلمي والروحي والتقدمي لأئمة الاسلام ، ودراسة حياة أعلام المسلمين دراسة منهجية قائمة على حقائق التاريخ ، لهو فرض على كل قادر عليه ، مستطيع له ، وواجب محتوم على العلماء والمفكرين المسلمين . فتقديم الاسلام في صورته الحضارية واجب الجيل نحو أجيال الشباب المسلم ، الذي بعدت حياته عن مصادر الفكر الاسلامي . وفي تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، وحياة أئمة الاسلام الكثير من المفاخر التي يقف الانسان أمامها مذهولاً .

وإذا كان علماء الاستشراق في أوروبا قد عنوا عناية كبيرة بالكشف عن أصول حضارة الاسلام ، فما أجدرنا ـ نحن العلماء من أبناء المسلمين ـ بأن نجرد القلم للاسهام في هذا الواجب المحتوم بحظ من الحظوظ ، على قدر ما نستطيع .

والغرب الذي قد طالما أفاد من علوم الشرق وحضارته ، وانتفع بها ، والذي تعد مدنيته مدينة للمدنية الاسلامية منذ عهد طويل بديون كثيرة لا يفوت علماؤه أن يبينوا كيف عملت الحضارة الاسلامية أعمالا جادة من

أجل التقاء الحضارات ، وامتزاج الثقافات والافادة من كل ما وصلت إليه الانسانية في تاريخها الطويل من أجل رفاهية الانسان ، واستمرار التقدم ، ومن أجل التعرف إلى مقومات التقدم والنهضة والمعرفة ، والحصول عليها ، وبلوغ الغاية في سبيل ذلك كله .

فليس اذن أمام الجامعات العربية إلّا أن تسير في الطريق، وتؤدي ما عليها نحو العلم نفسه ونحو الأجيال القادمة التي تريد أن تعرف كل حقائق التاريخ ودروسه و معجزاته ومنجزاته خلال العصور السالفة.

وأمامنا الآن جامعة استراسبورغ الفرنسية التي قامت بعمل جليل من أجل خدمة الدراسات الاسلامية والشرقية. فها هي ذي تخرج بين الحين والحين ومنذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حتى اليوم العديد من البحوث القيمة التي تتميز بالعمق والموضوعية حول الشؤون الاسلامية والشرقية.

ومن أجل هذه البحوث التي قامت بها الدراسات الاكاديمية التي ألقيت في الدورة العلمية المعقودة في شهر مايو سنة ١٩٦٨، عن التاريخ العلمي والحضاري للإمامية، وحياة الامام جعفر الصادق وفكره، ولقد شارك في هذه الدورة أكثر من عشرين عالما من اعلام المستشرقين والعلماء في الجامعات الاوربية وشاركهم علماء متخصصون من جامعات لبنان وايران.

وقد نشرت هذه البحوث الأكاديمية دار المطبوعات الجامعية الفرنسية في باريس عام ١٩٧٠.

وقام بنقلها من الفرنسية وترجمتها الفارسية الى العربية وتحقيقها وثبت مراجعها استاذ كبير متخصص في الدراسات الشرقية والاسلامية وفي تاريخ

الشرق الاوسط وحضاراته، وهو الدكتور نور الدين آل علي. وراجع هذه الترجمة علم من اعلام الترجمة في عالمنا العربي هو الاستاذ وديع فلسطين. وكان لي شرف تقديم هذه الدراسات الى قراء العربية، وإلى الباحثين والمتخصصين في كل مكان من الشرق أو الغرب على السواء.

وإن القارىء لهذه الفصول ليقف امام صفحاتها المضيئة مذهولا حقا، ولسوف يجد نفسه امام عظمة هذه الروح العلمية، التي انعكس ضوؤها على هذه الدراسات، فكان من وراء ذلك عالم فسيح كشف عنه هؤلاء العلماء، وبدا في صدر هذه الصور الرفيعة صورة الامام جعفر الصادق، مشرقة شامخة بفكره الرفيع وبشخصيته الجليلة المهيبة، وبحكمته الصادقة وتجاربه الواسعة في فهم الحياة والناس.

وتجلت عظمة هذه الشخصية في عظمة هذه البحوث، فكان من وراء ذلك كله حقيقة رائعة، لم نكن نعرف عنها شيئا، حقيقة هذا العقل العظيم الذي بنى للانسانية وللانسان أروع ما يمكن أن يبنيه من أصول حضارة الدنيا ورفاهيتها.

وإذا ذكرنا الامام الصادق، ذكرنا أرفع منقبة، وأجل مأثرة، وأعظم شخصية من الشخصيات الرائدة في تاريخ الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية، وفي نشأة المذاهب الفقهية التشريعية لأئمة علماء المسلمين.

وحدّث عن الامام الصادق ولا حرج، حدّث عن سليل بيت النبوة، ووارث فضائلها،ومناقبها ومفاخرها وعلومها وحكمتها.

حدّث عنه في ورعه وزهده وفي دينه وتقواه، وفي علمه وفقهه، وفي عراكه للاحداث ونضاله للخطوب وفي مجابهته الظلم ومقاومته للطغيان، وفي خبرته بالحياة، ومعرفته العميقة بالزمان وناسه، وفي حبه للسلام،

وكراهيته لإراقة الدماء، بل في كل محمدة من المحامد التي يُذكر بها الناس ويُعرف بها عظماء التاريخ.

جعفر الصادق

ابن الإمام محمد الباقر
ابن السجاد زين العابدين علي بن الحسين
ابن امام الشهداء الحسين
ابن الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه.

سلسلة رفيعة من النسب النبوي الشريف، وما أجل وأكرم، وما أرفع وأعظم هذه السلسلة الذهبية النبيلة من سلاسل النسب في تاريخ الاسلام والمسلمين.

أنذكر جده الأعلى، رسول الله، وخاتم النبيين، محمدا صلى الله عليه وعلى آله أجمعين؟

أم نذكر الإمام الأكبر، ابن عم رسول الله، صلوات الله عليه، علي بن أبي طالب؟

أم نذكر جده زين العابدين، علي بن الحسين (٣٨ - ٩٤ هـ)، الذي كان أعلام المسلمين يقولون عنه: أنه سيد الناس. والذي كان الإمام ابن شهاب الزهري (١٢٤ هـ) يقول فيه: «ما رأيت أفقه من زين العابدين». ويقول عنه كذلك: «ما رأيت قرشيا أفضل منه».

ويقول عنه أيضا: «ما رأيت هاشميا أفضل من علي بن الحسين ولا أفقه منه».

والذي قال عنه الإمام الشافعي: «هو أفقه أهل المدينة».

أم نذكر أباه الجليل، الإمام محمد الباقر (٥٧ ـ ١١٤ هـ)، الذي قال عنه الإمام التابعي الجليل، الحسن البصري (١١٠هـ): «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الانبياء».

أم نذكر جدته الكبرى سيدة نساء أهل الجنة فاطمة الزهراء، بنت رسول الله وزوج الإمام علي، والتي قال فيها شاعر الاسلام، محمد اقبال:

هي بنت من؟
هي زوج من؟
هي أم من؟
من ذا يداني في الفخار أباها؟

أرفع نسب، أنبل وراثة، أكرم بيت، أشرف أبوة وأمومة، أعظم عشيرة ونجار في الاسلام.

على أن أم الصادق ايضا هي بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

وماذا نقول في الإمام الصادق جعفر، وقد قال عنه الإمام مالك رضي الله عنه (١٧٩ هـ): «ما رأت عين، ولا سمعت اذن، ولا خطر على قلب بشر، أفضل من جعفر الصادق فضلا وعلما، وعبادة وورعا».

وماذا نقول عن الصادق؟ الذي تتلمذ عليه الامام أبو حنيفة (١٥٠ هـ) وعلى ابي حنيفة تتلمذ مالك (١٧٩ هـ)، وعلى مالك تتلمذ الشافعي (٢٠٤ هـ)، وعلى الشافعي تتلمذ الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ). وبذلك يكون الصادق إمام الفقهاء واستاذهم بلا استثناء.

كما تتلمذ على الصادق كذلك أربعة آلاف من الرواة، وكتب عنه أربعمائة كاتب وحسبك من تلامذته أبو حنيفة، ومالك، وسفيان بن عيينة، وسواهم..

وكان الإمام الصادق يجيد عدة لغات من بينها الفارسية لغة جدته شهربانو بنت كسرى يزدجرد بن شهريار، التي تزوجها الحسين بن علي، رضي الله عنه، فكان له منها ابنه زين العابدين.

كما كان الصادق كذلك يجيد السريانية والنبطية.

ولقد كانت معارف الإمام الصادق واسعة في: الطب والكيمياء وعلوم الهيئة والنجوم وعلوم الفيزياء والفلسفة والجغرافيا.

وقد سمع عن كتاب «المجسطي» لبطليموس في درس والده، كما سمع نظرية بطليموس عن كروية الأرض، وخطأ بطليموس في رأيه بوجود حركتين للشمس.

وقد درّس الإمام الصادق علوم الطب لتلاميذه في مدرسته ، التي كانت أول مدرسة في الاسلام . كما فنّد الصادق أيضاً القول بالعناصر الأربعة ، وكان أول من اهتدى إلى الاكسجين . وكانت له نظريات حول أشعة النجوم ، وحول الزمان والمكان ، وحول الضوء ، وحول نشأة الكون ، وحول حقائق كثيرة في الفكر والدين والحضارة والحكمة والفلسفة والطبيعة والبيئة والتاريخ ، وغيرها مما سبق في كثير منه علماء الغرب المعاصرين .

وكان شعار مدرسة الصادق حرية الرأي والفكر ، وقد دونت العلوم في عصره ، الذي كان عصر انبعاث لحركة التجديد في تاريخ العالم

الاسلامي . وكان الصادق ينهي عن المغالاة في العقيدة ، وعن الخلاف ، وعن العزلة .

بل أن الصادق كذلك هو مؤسس العلوم العرفانية والروحية في الاسلام ، وكان أول من دعا إلى المذهب التجريبي ، وأخذه عنه تلميذه جابر بن حيان أول كيميائي في المسلمين . والصادق أيضاً أول من رصد جائزة أدبية في تاريخ العرب .

وكان أديباً بليغاً ، وأدبه وحكمته جديران بالدراسة والبحث . .

هذا هو الإمام الصادق ، كما يراه المستشرقون وعلماء الغرب ، وهذا هو البحث الاكاديمي الرائع الذي يعد من أعمق البحوث العلمية الجامعية في السنوات الأخيرة .

ولقد عاش الصادق في عصر الطغيان السياسي الكبير ، الذي سادت فيه دولة بني أمية ، وتبعتها دولة بني العباس ، حيث أسرفوا جميعاً في اضطهاد آل البيت وتعقبهم بالقتل والتشريد والحبس والنفي والمصادرة ، خوفاً من نفوذهم الروحي الشعبي الكبير ومن وثوبهم إلى الخلافة وطلبهم لها .

وكان الصادق عميق الفهم لعصره ومجتمعه ، وللناس من حوله ، فاستطاع أن يحفظ على نفسه حياته ، وان يبقى عليها حتى لا يراق دمه بيد الأمويين أو العباسيين من بعدهم .

وكان يكره السياسة والتطلع إلى ما في أيدي الحاكمين ، يرى الغنم والسلامة في البعد عن ذلك كله . وحاول الخلفاء ـ أمويين وعباسيين ـ ان يجروه إلى أرض المعركة للقضاء عليه وسفك دمه ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ولم يستطيعوا كذلك الامساك بأي خيط يدل على تطلعه إلى

الخلافة ، أو على اشتراكه في أية مؤامرة على الدولة ، أو زعامته لأي تنظيم ، أو تشجيعه لخارج على الخلافة .

وحين انتصر أبو مسلم الخراساني في القضاء على دولة بني أمية كتب إلى الامام الصادق يقول له : « اني قد أظهرت الكلمة ، ودعوت الناس إلى الانصراف عن بني أمية وإلى موالاة أهل البيت فإن رغبت فلا حزن عليك » .

فرد عليه الامام : ما أنت من رجالي ، ولا الزمان زماني .

لقد كان الصادق بحق يكره أن تمس كرامة الانسان كما كان يكره اراقة الدماء ، وكان عميق الفهم لطبيعة نفوس الحاكمين ، يرى أن الحمق كل الحمق ، إنما هو في التطلع إلى ما في ايدي الحكام من شئون الحكم .

وإن تربية الأجيال من شباب الأمة أهم بكثير جداً من التطلع إلى زعامة سياسية أو دنيوية .

وكان الإمام يحاول جهده ابعاد آل البيت عن حمق التردي إلى حافة الهاوية وإلى منازعة الحكام خلافة المسلمين . وكان من رأيه دائماً البعد عن السياسة ، والانصراف إلى العلم وحلقاته وحدهما . وبذلك نجا وسلم من المؤامرات والفتن والأحداث .

هذا هو الإمام الصادق ، رحمه الله .

وهذه هي شخصيته .

وتلك هي البحوث القيمة التي تناولت الصادق من جميع جوانب حياته ، والتي تحدث فيها كبار العلماء من مختلف الجامعات في انحاء العالم .

ولا ريب أن هـذا البحث جديـر بالاهتمـام والتقديـر ، لأنـه يؤرخ عصر الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، عصر نشوء المـذاهب الفقهية في الاسلام .

رحم الله الصـادق الامـام ، وأجـزل لـه الأجـــر والثـواب . في دار رحمته ، دار البقاء والخلود .

د . محمد عبدالمنعم خفاجي
جامعة الأزهر الشريف ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعرّب

بين يدي القارىء الكريم تعريب بتصرّف لمجموعة الأبحاث العلمية التي أعدّها مركز الدراسات العليا المتخصصة في تاريخ الأديان بجامعة استراسبورغ الفرنسية بمشاركة نخبة من علماء الاستشراق وأساتذة الجامعات الأوربية والأمريكية ، وعدد من العلماء المتخصصين من جامعات الدول الاسلامية .

وجامعة استراسبورغ هي من الجامعات الأوربية العريقة التي أُثر عنها اهتمامها بالدراسات الشرقية والاسلامية منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي(١) وقد أهدت إلى المكتبة الشرقية مجموعة من الكتب والدراسات القيّمة التي تتميز بالعمق والموضوعية شأن أغلب الدراسات العلمية الجادّة التي تصدر عن جامعات أوربا وأمريكا .

وقد يلاحظ القارىء المسلم أن الباحث الغربي لا ينظر إلى الاحداث والوقائع التاريخية والشخصيات المرموقة في التاريخ الاسلامي نظرة المسلم

---

(١) استراسبورغ Strasbourg تحولت إلى المانيا عام ١٨٧١ م فاشتهرت بكبار مستشرقيها مثل نولدكة وغيره من الاعلام ، وقد استعادتها فرنسا عام ١٩١٨ م .

المؤمن إليها وإليهم ، كما أنه لا يتقبل بالرضا كل ما احتوت عليه كتب المؤرخين الاسلاميين ، فهو يرى أن حقيقة الأحداث والوقائع التي تتعلق بتاريخ صدر الاسلام والقرون الأولى منه تحجبها ، فضلاً عن بُعد الزمان ، هالة من القداسة والتقدير . أو الحب والايمان والاعتقاد ، أو الحكم المسبق في هذه الكتابات وهي هالة تحول في أحيان كثيرة دون استقصاء الحقائق والوقوف على فحواها الدقيق بموضوعية وتجرّد تامّين .

وأما رؤ ية المستشرقين للأحداث والوقائع التاريخية فهي رؤ ية علمية موضوعية يحدوها الشك والتأمل في دراسة كل حدث وموضوع . لهذا نرى أنهم يولون اهتماماً كبيراً ودقة فائقة لسرد القضايا التاريخية ومعرفة الظروف المحيطة بالأحداث ، حتى ينتهوا إلى استخلاص النتيجة واستخراج الحقيقة منها .

ولا يصح تعميم هذا الحكم على الجميع طبعاً ، إذ أن بعضاً منهم اتجه إلى الاهتمام بالدراسات الشرقية والاسلامية لا بدافع علمي ولا بشوق نفسي بل توخّياً لأغراض سياسية أو أهداف دينية تبشيرية ، فأساء بذلك إلى الاسلام بما وجه إليه من تهم وهمية . ودل ذلك على ما يضمره هؤلاء من أحقاد صليبية دفينة بهجومهم البغيض على الاسلام والمسلمين ، وليس هؤلاء ـ وهم قلة ـ موضوع بحثنا ودراستنا هنا .

فإذا ما أخذنا الابحاث العلمية والدراسات التاريخية التي اضطلعت بها النخبة النزيهة من المستشرقين ، لوجدنا أنهم قدّموا للثقافة والحضارة العربية الاسلامية خدمات جليلة للتعريف بها ووضعها موضع اهتمام العالم الغربي والشرقي معا ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى خدموا شعوبهم بتقديم صورة واضحة لهم عن محتوى الحضارة الاسلامية وثقلها وأهميتها . ودليل هذا ما يتضح من فصول هذا الكتاب ـ مثلاً ـ والذي يرينا كيف أن

الغرب طالما استفاد من علوم الشرق وحضارة الاسلام وانتفع بها ، وأن حضارة الغرب مدينة لحضارة الاسلام منذ عهد بعيد .

فمعرفة هذه الحقائق تدفع المسلم إلى الاستمساك بدينه عن وعي ، وتشد من عزيمته واخلاصه في إسلامه واعتزازه بتراثه وتاريخه .

وقد جرى هذا المجمع العلمي على عقد ملتقيات علمية عالمية متعاقبة داعيا اليها أجلّ العلماء والباحثين من مختلف الجامعات الاوروبية والامريكية بعد تعيين الموضوع وتحديد موعد انعقادها بفترة لا تقلّ عن سنة ، وأحياناً سنتين ، لإتاحة مهلة كافية لإعداد البحث العلمي ، ثم تدفع بهذه البحوث إلى أهمّ دور النشر الفرنسية لطبعها ونشرها .

وقد وقف هذا المجمع العلمي دورته التي انعقدت في شهر مايو عام ١٩٦٨ م على دراسة الشيعة الإمامية وتاريخها العلمي والحضاري . وكان المشاركون في هذه الدورة ، وعددهم خمسة وعشرون ، من اشهر العلماء والمستشرقين في جامعات فرنسا وبريطانيا وايطاليا وسويسرا وبلجيكا وامريكا ومن جامعات لبنان وايران نورد اسماءهم مرتبة ترتيباً ابجديا . ونعرّف بكل منهم تعريفاً وجيزا :

١ ـ البروفسور آرمان آبل — Prof. Armand Abel

الأستاذ بجامعتي بروكسل وكان في بلجيكا .

٢ ـ البروفسور جان أوبن — Prof. Jean Aubin

الأستاذ بجامعة السوربون في باريس(١)

---

(١) جان أوبن : من المستشرقين المهتمين بدراسة اللغات الشرقية ، وخاصة الفارسية : وله من المؤلفات والأبحاث : امراء أرموز من القرن ١٣ إلى القرن ١٥ ، بعض وثائق كونيولي ـ بالفارسية ، حول كتاب المختصر المفيد ، المغول ، شاه اسماعيل الصفوي =

٣ ـ البروفسور روبرت برانشويتس Prof. Robert Branschvic

الأستاذ بجامعة السوربون في باريس سابقا[1]

٤ ـ البروفسور كلود كاهن Prof. Claud Cahen

رئيس قسم الدراسات التاريخية ، ومن الأساتذة بجامعة السوربون في باريس[2] .

= وأشراف العراق الفارسي ، تيمورلنك في بغداد ، اللغة والقواعد الفارسية . دراسات عن ايران جغرافيا وسكانياً ولغات وتواريخ .

(١) الأستاذ روبرت برانشويتس ، ولد ١٩٠١ في فرنسا ، كان أستاذاً للغة العربية وحضارتها بجامعة بوردو Brodeaux أولاً ثم جامعة باريس ، وقد أشرف على إنشاء كرسي الدراسات الإسلامية تتمة للقسم العربي بالسوربون ، وتولى مع البروفسور شاخت الإشراف على مجلة الدراسات الإسلامية Studia Islamica وله طائفة كبيرة من المؤلفات والمقالات والأبحاث منها :

مدارس تونس ، ومظهر الأدب التاريخي والجغرافي في الإسلام (١٩٣٥) ، والتملك في تاريخ الشرع الإسلامي ، وبلاد البربر الشرقية تحت حكم الحفصيين ، وتمدن العصر الوسيط والقانون الاسلامي ، وتاريخ الاسواق في الاسلام ، وآراء اجتماعية في القانون الاسلامي القديم ، وأوج الثقافة وانحطاطها في تاريخ الاسلام ، والواجب والسلطة ، وأصول الفقه عند الإمامية .

(٢) الأستاذ كلود كاهن ولد عام ١٩٠٩ بفرنسا وتخرج من مدرسة اللغات الشرقية في السوربون ومدرسة المعلمين العليا ، وعين محاضرا في مدرسة اللغات الشرقية في باريس (١٩٣٨) وأستاذاً لتاريخ الاسلام بجامعة استراسبورغ (١٩٤٥) ثم جامعة باريس . وله طائفة كبيرة من المؤلفات القيمة عن تاريخ الاسلام السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري في مختلف فتراته منها : المغول في البلقان (١٩٢٤) والتاريخ الشيعي من عهد الصليبية (١٩٣٥) وتواريخ العرب المتعلقة بسورية ومصر والعراق منذ الفتح العربي إلى الاحتلال العثماني (١٩٣٦) ، وكشاف بالمخطوطات العربية الاسلامية في مكتبة الفاتيكان ، وتاريخ الاسلام في صقلية (١٩٣٧) وكتاب المنتظم لابن الجوزي (١٩٤٣) والضرائب والملكية في العراق على عهد أوائل الخلفاء العباسيين ، وتاريخ الشرق الاسلامي الاجتماعي والاقتصادي في العصر الوسيط ، والاسلام والأقليات الطائفية خلال التاريخ ، والجديد عن الحدود في الاسلام في العصر الوسيط ، والحركات الشيعية في آسيا المسلمة في العصر الوسيط ، وحفاوة نصارى الشرق بالاسلام ، ودراسة =

٥ ـ البروفسور أنريكو جرولي Prof. Enrico Gerulli

أستاذ الدراسات الشرقية ، ونائب مدير المجمع العلمي الايطالي بروما، ايطاليا[١] .

٦ ـ البروفسور هنري كورين Prof. Henry Serain

رئيس كرسي الإسلاميات وأستاذ الدراسات الإسلامية بمدرسة الدراسات العليا بجامعة باريس سابقا[٢] .

= الضرائب بمصر في العصر الوسيط ، وصلات سياسية ثقافية بين ايران والمغرب ، وعبد اللطيف البغدادي : مختارات غير منشورة من مذكراته ، وتصنيف تاريخ الزراعة في البلدان الاسلامية . هذه نماذج نفيسة من أنشطته تومىء إلى وفرتها وتنوعها .

(١) أنريكو جرولي هو من المستشرقين الايطاليين ، وقد ولد ١٨٦٨ م في نابولي وتخرج من جامعتها بالدراسات الأثيوبية بما فيها لغتها الحديثة وعني بالدراسات الاسلامية والصومالية (١٩١٧) وأقام في الصومال أكثر من عشر سنوات ، تخصص في تاريخ الشعب الصومالي ، وخصائص سلالاته ودخوله في الاسلام وشعره وأدبه . نشر دراساته عن الصومال في ثلاثة أجزاء بروما ثم قضى في ايران اربع سنوات (١٩٥٠ ـ ١٩٥٤) قام فيها بجمع ١١٠٠ مسرحية ايرانية ودراستها ، وشغل مناصب رسمية منها ، عضوية عصبة الأمم (١٩٣٤ ـ ١٩٣٧) وعمل مستشارا للدولة وسفيرا ونائب رئيس معهد الدراسات الشرقية بروما ، وهو عضو في مجامع علمية كثيرة منها معهد فرنسا ، ومجمع اللغة البريطاني والمجمع الألماني والجمعية البرتغالية للتاريخ والمجمع الملكي الأسباني والبلجيكي . وله مؤلفات كثيرة منها :
تاريخ الأدب الأثيوبي والصومالي في ٣ أجزاء ، والمكتبة الفاتيكانية في جزءين ، ونصوص من الأرامية الحديثة في ايران ، وعلم الاجتماع الاسلامي ، ودانتي والاسلام ودراسات مستفيضة عن أثيوبيا والصومال وباكستان .

(٢) الفيلسوف الشهير هنري كورين ولد في باريس (١٩٠٣) وتخرج من قسم الفلسفة من جامعة السوربون ، ثم من مدرسة اللغات الشرقية في باريس (١٩٢٩) . وفي الاسلاميات تتلمذ كورين على أحد أعلامها وهو لويس ماسينيون ، واعجب بالسهروردي وفلسفة الأشراف ، وقضى ست سنوات في تركيا بحثا عن مخطوطات السهروردي ومؤلفاته ، ونشر خلالها المجلد الأول من مجموعة آثار السهروردي ومؤلفاته (١٩٤٥) ، واختير خلفا لماسينيون وبإصرار منه ، وظل يشغله حتى أحيل إلى التقاعد .

٧ ـ البروفسور توفيق فهد Prof. Tufic Fahd

الأستاذ بجامعة استراسبورغ ، فرنسا

٨ ـ البروفسور فرانشيسكو جبرائيلي Prof. Francisco Gabrielle

كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها ، بجامعة روما في ايطاليا[١] .

- وفي عام (١٩٤٦) اختير رئيساً لقسم الايرانيات في المعهد الفرنسي بطهران حيث أتيحت له فرصة طيبة لدراسة مدارس التصوف والعرفان في ايران وفلاسفتها ، فنشر سلسلة كتب بعنوان المكتبة الايرانية ، وطفق يتردد على ايران كل خريف ويلقي محاضراته في جامعتها .
وكان أبرز المستشرقين في دراسة الشيعة والفلسفة في ايران ، وأخصبهم انتاجا ، وقد بلغت مؤلفاته ٢٢٠ عنواناً منها :
عن السهروردي وفلسفة الاشراق : حكمة الاشراق (١٩٤٩) وجامع الحكمتين (١٩٥٣) وشرح شطحات الشيرازي ، والانسان الكامل للنسفي،وايران واليمن ، وكتاب الفصوص لمحي الدين العربي في مجلدين ، والصلات بين حكمة الاشراف وفلسفة ايران القديمة ، وتاريخ الفلسفة الاسلامية ، وفي ارض الاسلام الايرانية . واعترافات ميرداماد ، والصابئة والاسماعيلية ، وكتاب جابر بن حيان عن الكيمياء ، والملا حيدر الأملي ، والجهاد الروحي للشيعة . والفلسفة الشيعية ، والملا صدرا الشيرازي ، والإمام الغائب وتجديد الانسان في التفكير الشيعي ، والولاية في الشيعة ، والبعث عند ملا صدرا، ونقد الوجود في معرفة الوجود لملا حيدر الأملي (وقد زودت المرحوم بصورة ميكروفيلم عن النسخة الفريدة لهذا الكتاب وكانت ضمن كتب المرحوم آية الله السيد محمد مشكوة وأهديت إلى مكتبة جامعة طهران ، وكان هذا بطلب من المرحوم وأنا طالب في فرنسا) . ولمزيد من المعلومات حول مؤلفات المترجم له راجع مجلة « المنتدى » العدد الثاني ١٩٧٩ القاهرة .

(١) الأستاذ فرانشيسكو جبرائيلي ، ولد عام (١٩٠٤ م) وهو كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها بجامعة روما في ايطاليا . برز في دراسة الشعر العربي من الجاهلية إلى العهد الحديث ، وفي تحقيق التاريخ الاسلامي ودقة نقله وترجمته ، وانتخب عضواً مراسلا في المجمع العلمي العربي بدمشق(١٩٤٨)وغيره من المجامع العلمية .من آثاره : الشيعة في عهد المأمون (١٩٢٩) والشعر العربي وتأثره بنظرية أرسطو ، وعمر الخيام (١٩٣٠) ، وابن المقفع (١٩٣٢) ، ورسالة فارسية في تاريخ الأديان ، وديوان الوليد بن يزيد (١٩٣٤) ، وأصالة لامية العرب ، والمدخل إلى الفردوسي (١٩٣٥) والمخطوطات =

٩ ـ البروفسور ريتشارد جرام ليخ Prof. Richard Gramlion

الأستاذ بجامعة هامبورج في المانيا الغربية

١٠ ـ الأستاذة آن لامبيتون Prof. Ann M.S.Lambton

مديرة معهد الدراسات الشرقية والأستاذة فيه بجامعة لندن في انجلترا [١] .

١١ ـ البروفسور جرار لوكنت Prof. Gerard Lecomte

الأستاذ بقسم الإسلاميات ومعهد اللغات بباريس في فرنسا [٢] .

١٢ ـ البروفسورة ايفون لينان دوبل فوند Prof. Yvon Linatd De Bellefonds

مديرة معهد الابحاث العلمية بباريس في فرنسا .

١٣ ـ البروفسور ويلفريد مدلونك Prof. Wilferd Madlung

الاستاذ بجامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الامريكية

= الفارسية للفردوسي في ايطاليا (١٩٣٥) ، وسيرة الحسن البصري (١٩٣٥) ، والمتنبي ، وتيار الأدب العربي المعاصر وصوره (١٩٣٩) ، وتاريخ الأدب العربي وتاريخ وحضارة الاسلام ، وهو من أعظم علماء الغرب في دراسة تاريخ العرب والاسلام وتحليله . ومؤلفاته تربو على المائتين .

(١) الأستاذة آن كاترين سين فورد لامبيتون ،ولدت(١٩١٢) وعينت أستاذة للغة الفارسية بجامعة لندن منذ(١٩٥٣)، شغلت منصب الملحق الصحفي بسفارة بريطانيا بطهران (١٩٣٩ ـ ٤٥) وعملت كبيرة لأساتذة اللغة الفارسية بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية (١٩٤٥ ـ ٤٨) ثم أستاذة بجامعة لندن .

من آثارها : محاورات فارسية ثلاثة (١٩٣٨) ، والملكية والاقطاعية في ايران (١٩٥٣) ، وقواعد اللغة الفارسية (١٩٥٣) ، والمصطلحات الفارسية (١٩٦٤) ، والإصلاح الزراعي في ايران (١٩٦٢ ـ ٦٦) ، وتاريخ الاسلام في جزءين نشر كمبردج (١٩٧١) .

(٢) الأستاذ جرار لوكنت هو أستاذ بقسم الاسلاميات في السوربون وله من المؤلفات : الحياة المدرسية في بيزنطة وفي الاسلام ، ومعجم فرنسي عربي للسيارات ، واللغة العربية والحضارة الحديثة ، كما أن له مؤلفات عديدة حول ابن قتيبة منها :

إصلاح الأغلاط لابن قتيبة مع مقدمة وتعليقات ، وابن قتيبة الرجى ومصنفاته وأفكاره .

١٤ ـ البروفسور هنري ماسه Prof. Henry Masse

مـدير قسم الـدراسات الشـرقية واستـاذ هذه الـدراسـات بجـامعـة استراسبورغ في فرنسا [١]

١٥ ـ الاستاذ الدكتور سيد حسين نصر

الاستاذ بجامعة طهران ورئيس الجمعية الفلسفية بايران سابقاً .

١٦ ـ البروفسور جورج ويدا Prof. Georg Vadja

الاستاذ بجامعة ليون بفرنسا [٢] .

---

(١) هنـري ماسـه (١٨٨٦ ـ ١٩٦٩) هو من علماء الاستشـراق الأفـاضـل الـذين قـدمـوا دراسات قيمة نزيهة عن الثقافات الشرقية ، وقد نقل إلى اللغة الفرنسية بأمانة ودقة روائع الأدب الفـارسي والعربي . كـان أستاذاً بجـامعـة الجـزائـر (١٩١٦ ـ ١٩٢٧) ومـديـراً للمـدرسة الـوطنية للغـات الشرقيـة (١٩٢٧) وعضـواً في مجمـع الكتـابـات والآداب ، والمجمع العلمي الايراني (١٩٣٨) والمجمع العلمي بدمشق .
من آثـاره : روضـة الـورد للسعـدي الشيـرازي (١٩١٩) ، والاسـلام (المـذاهب والمؤسسـات القضـائيـة) (١٩٣٠) . وتحقيق كتـاب الاكتفـاء للكلاعي في جـزءين (١٩٣٣) ، ومنتخبات فارسية مترجمة إلى الفرنسية (١٩٥٠) ، وترجمة كتاب دانشنـامه لابن سينا من الفارسية ، وحسن التصرف في تقاليد الشيعة ، ونصوص عبـرية عـربية في فـاس ، وتفسير أبي الفتـوح الـرازي (١٩٥٠) ، ومـلامـح الحـج إلى مكـة في الشعـر الفـارسي ، وعشرون قصيـدة غزل للحـافظ الشيرازي ، وقصيـدة ابن هانيء الانـدلسي الشيعي في غـزو مصر (١٩٥٧) ، وقصـائـد رثـاء الأئمـة عنـد الشيعـة ، ومـاسينيـون وايران ، وأنشودة محتشم الكاشاني ، وكتـاب الخصائص ، والمـوازنة لحمـزة الأصفهاني ، وغيرها .

(٢) جـورج ويدا : ولـد عام ١٩٠٨ ، وتخـرج من مدارس بـودابست ، ومدرسـة اللغـات الشرقية والسوربون ، وعين أستاذاً في المعهد الديني الاسـرائيلي بفـرنسا ، ثم في المـدرسة العلمية للدراسات العليا بالسـوربون (١٩٣٧) ، وأصبـح مديـراً لها (١٩٥٤) ، ورئيسـاً للقسم الشـرقي في معهد أبحـاث تاريخ النصوص (١٩٤٠) . معـظم آثاره في الفلسفـة وتـاريخ اليهـود والعرب ، ومن أشهـرها : اليهـود والمسلمون بحسب الحـديث ، وصيام المسلمين وصيام اليهود ، وابراهيم برحيا والفـارابي ، وأثر فلسفـة ابن سينا في أوروبـا في =

١٧ ـ البروفسور شارل بلا Prof. Charles Pella

الاستاذ بجامعة السوربون في باريس بفرنسا[١] .

١٨ ـ الإمام السيد موسى الصدر .

رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى بلبنان

١٩ ـ البروفسور روبرت أرنالديز Prof.R.Arnaldez

الاستاذ بجامعة ليون في فرنسا[٢] .

= العصر الوسيط ، والمدخل الى التفكير اليهودي في القرون الوسطى ، وكشاف المخطوطات العربية في مكتبة باريس الوطنية (١٩٥٣) ، والترجمتان العبريتان عن العلم الإلهي لابن رشد ، وحبّ الله في علم الدين اليهودي في القرون الوسطى (١٩٥٧) ، والتعلم في نظر الكندي (١٩٧٢) . والإسلام والصليبية (١٩٦٩) .

(١) الاستاذ شارل بلاّ ولد في سوق أحرس بالجزائر ١٩١٤ ، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء بالمغرب ، وحصل على ليسانس اللغة العربية من جامعة بوردو بفرنسا (١٩٣٥) وشهادة العربية من معهد الدراسات المغربية العليا بالرباط ، وشهادة لغة البربر من جامعة الجزائر ، ثم الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس ١٩٥٠ ، وعين أستاذاً في معهد مراكش (١٩٣٤ ـ ١٩٣٥) ، ثم في مدرسة اللغات الشرقية (١٩٥١ ـ ١٩٥٦) . وفي السوربون منذ ١٩٥٦ ، وكان مديراً لقسم الدراسات الاسلامية ١٩٧٢ ومديراً لدائرة المعارف الإسلامية في نشرتها الفرنسية .

أربت آثاره على ١٣٨ مؤلفاً و٢٦٠ مقالاً نشرت في طائفة من المجلات ، ويعتبر بلاّ من أخصب علماء الاستشراق إنتاجاً ومن آثاره :

الجاحظ وآثاره ، والمسعودي المؤرخ وآثاره ، واسبانيا الاسلامية والمغرب ، وأدب البربر ، واللغة العربية وحضارتها ، ومراحل انحطاط الثقافة في بلدان الشرق العربي ، والبصرة وطن الواقعية والعقلانية ، وتاريخ الإسلام ، وترجمة كتاب البخلاء للجاحظ ، والجاحظ في بغداد وسامراء ، والإمامة في عقيدة الجاحظ ، واسبانيا المسلمة في مصنفات المسعودي ، ومروج الذهب ، نشرها نصاً وترجمة في باريس ، والمسعودي والإمامة ، وقواعد ومعجم البربرية ، وغيرها .

(٢) الاستاذ أرنالديز هو من المستشرقين الفرنسيين المهتمين بالدراسات الفلسفية ويعمل أستاذاً للفلسفة بجامعة ليون بفرنسا، وله مؤلفات قيّمة منها: العقل وتعريف الحقيقة بحسب ابن حزم القرطبي (١٩٥٦) ، والتضاد لدى ابن حزم والغزالي (١٩٥٣) . وأوج الثقافة وانحطاطها في تاريخ الإسلام (١٩٥٧) ، والقدر وحرية الاختيار عند الرازي ، =

٢٠ ـ البروفسور ألياش Prof. Aliash

الاستاذ بجامعة كليفورنيا بلوس انجلوس في الولايات المتحدة الاميركية .

٢١ ـ الاستاذة دورن هينج كليف Prof. Dorn Hingkelif

الاستاذة بجامعة لندن في انجلترا

٢٢ ـ البروفسور فريتزيمير Prof. Fraitzimier

الاستاذ بجامعة بال بسويسرا

٢٣ ـ البروفسور جوزف مانوز Prof. Joseph Manouse

الاستاذ بجامعة فريبورغ بالمانيا الغربية

٢٤ ـ البروفسور هانس مولر Prof. Hence Mouler

الاستاذ بجامعة فريبورغ بألمانيا الغربية

٢٥ ـ البروفسور هانس رومر Prof. Hence Romer

وقد قامت دار نشر المطبوعات الجامعية الفرنسية بطبع هذه الابحاث ونشرها سنة ١٩٧٠ في باريس ، وقام بنقلها الى اللغة الفارسية بتصرّف الكاتب القدير الاستاذ ذبيح الله منصوري ، وهي تنقل الى لغة الضاد لأول مرة معززة بايضاحات وشروح ، مع الاحالة الى مصادر عربية .

وصاحب الفضل الأول في نشر هذه الدراسات باللغة العربية هو جناب الوجيه الفاضل المحبّ للعلم الحاج محمد قبازرد حفظه الله ورعاه(١) .

= ومصنفات فخر الدين الرازي ، والعلوم والفلسفة في حضارة بغداد على عهد أوائل العباسيين (١٩٦٢) ، واكتشافات فلسفية في تفسير القرآن لفخر الدين الرازي ، وما وراء الطبيعة والسياسة في تفكير الفارابي ، والاتباعية والتبدل في العالم الإسلامي ، والقرآن وأصول الفقه (١٩٧٠) .

(١) الحاج محمد حسين قبازرد هو من كبار رجال الاعمال والتجارة في منطقة الخليج ، وقد =

فمنذ أن عرفته وارتبطت به (ديوانيته/الديوان) الذي هو مجمع العلماء والأدباء ورجال الأعمال والسياسة جدير باسم « دار الحكمة » بحق ، وجدت لديه حرصاً شديداً على التعرّف على كل ما يصدر من جديد في ميادين العلوم والفنون ، وعلى كل ما يكتبه الغربيون حول الإسلام وتراثنا الحضاري باللغات الاجنبية ، وهو حرص قلّ من يجاريه فيه أو يباريه في ميدانه أحد .

ولهذا الأريحي النبيل فضل كبير على الحركة العلمية وقد اضطلع بنشر طائفة من الكتب الاسلامية والثقافية ، رغبة منه في اعطاء صورة امينة واضحة عن الإسلام وكيف يتراءى في الأوساط العالمية والإسلامية .

وقد رغّب إليّ سيادته ، وأنا في الخارج ، النهوض بهذه الترجمة ، متوخياً بذلك خدمة القارىء وإعلاء شأن الحضارة الإسلامية ، والتعريف بحقائق تاريخية عن أصالة الفكر الإسلامي وتاريخنا العتيد الذي قلّ من يعرفها من طلابنا وأبناء أمتنا الإسلامية .

ولم يسعني إلّا الاستجابة لهذه الرغبة الكريمة من جانبه ، عرفاناً مني

= ولد في عام ١٩٢٠ ، وتابع الدراسة حتى أتمها ويجيد عدداً من اللغات . وانخرط في سلك الوظائف والعمل الحكومي ، واسندت اليه مسؤوليات هامة في دولة الكويت الفتية ، نهض بها بكفاءة فائقة ، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل تقدم الكويت وازدهاره منذ وقت مبكر . ومن المناصب التي تقلدها منصب المدير العام لادارة الموانى ، وقد شغله بين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦١ وكان له الفضل في انشاء وتنظيم هذا المرفق الهام حتى بات يضاهي أحدث الاجهزة المماثلة في أرقى الدول .

وعين مندوباً للحكومة في شركة النفط الامريكية Aminoil بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٢ ، وانتخب نائباً في البرلمان (مجلس الأمة) في دورة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧ .

وآثر بعد ذلك أن ينصرف إلى الاعمال الحرة ، فعمل في ميادين التجارة والصناعة ، وصار من كبار المسهمين في النهوض بالاقتصاد القومي .

بجميله ، ومشاركة متواضعة في نشر هذا السفر الجليل ، وقد رحّبت بالقيام بهذا العمل بشعور هو مزيج من الاعتزاز والفخر ، مستعيناً على تذليل المشاق بالاتّكال على المولى القدير الذي هو نعم المولى ونعم النصير ، راجياً أن يعمّ النفع جميع المشتغلين بالعلم والدين والتراث والحضارة ، وما توفيقي إلّا بالله .

تمهيد

ولد الإمام ابو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) في المدينة المنورة في يوم الاثنين السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين[1] أو سنة ثمانين للهجرة[2] . وأمه هي فاطمة بنت قاسم بن محمد بن أبي بكر ، المكّناة بأم فروة ، وأمها اسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، أي أن نسبها ينتهي إلى أبي بكر من ناحيتي الأب والأم .

وقام جدّه علي بن الحسين زين العابدين بتربيته ورعايته طوال مدة اثنتي عشرة سنة ، فنهل منذ صباه من منهل جده زين العابدين (ع) في الأدب والفقه والمعارف الاسلامية والزهد والتقوى . أما والدة الإمام علي ابن الحسين زين العابدين (ع) فهي شهربانويه بنت يزدجرد بن شهريار بن كسرى ، ويسمونها أيضاً شاه زنان ، وقيل جهان بانويه ، وقيل سلافة ، وقيل خولة .

---

(١) أصول الكافي : للكليني ج ١ ص ٤٧٢ .
مناقب آل ابي طالب : ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٢٨٠ .
(٢) الفصول المهمة : ص ٢٠٨ ، ٢١٦ .

وكان أمير المؤمنين (ع) سمّاها مريم ، وكانت تدعى سيدة النساء[1] . قضى الإمام زين العابدين (ع) بضع سنين في كنف جدّه الإمام علي أمير المؤمنين (ع) ، ثم نشأ في مدرسة عمه الحسن وأبيه الحسين سبطي الرسول (ص) وتغذى من نمير علوم النبوة ، واستقى من مصادر آبائه الطاهرين ، فهو وارث علم جدّه علي (ع) وعمه الحسن (ع) وأبيه الحسين (ع) .

وأما عن زهده وورعه ومواعظه ، فهو إمام الزهاد وقدوة المتقين وهداية المتعظين ، وقلّ أن تجد كتاب زهد وموعظة لم يرد فيه . « قال علي بن الحسين ، أو قال زين العابدين (ع) » . وقد جاء في سيرة الإمام أنه كان يخطب الناس في كل جمعة ويعظهم ، ويزهدّهم في الدنيا ، ويرغبهم في اعمال الآخرة ، ويقرع أسماعهم بتلك القطع الفنية من ألوان الدعاء والحمد والثناء التي تمثل أروع صورة للعبودية المخلصة لله سبحانه وتعالى .

وقد ترك لنا زين العابدين (ع) هذه الأدعية والخطب في وثيقة سميت « بالصحيفة السجادية » تعتبر تراثاً ربانياً فريداً ، يبقى على مر الدهور مصدر عطاء ومشعل هداية ومدرسة اخلاق وتهذيب ، فهذه الوثيقة هي حقاً ثمرة المدرسة المحمدية وتراثها الخالد ، وقد قدّر للإمام زين العابدين (ع) أن يعاصر مرحلةً من أدق المراحل التي مرت على الأمة

---

(١) المناقب : ج ٤ ص ١٧٦ .
ربيع الأبرار عن الزمخشري : روى عن النبي (ص) انه قال : « لله من عباده خيرتان ، فخيرته من العرب قريش ومن العجم فارس » . وكان علي ابن الحسين يقول أنا ابن الخيرتين ، لأن جده رسول الله (ص) ، وأمه بنت يزدجرد ، وقد قال فيه أبو الأسود الدولي :

وإن غلاماً بين كسرى وهاشم . . . لأكرم من نيطت عليه التمائم .

المناقب ج ٤ ص ١٦٧ .

الإسلامية في القرون الأولى من تاريخ الإسلام .

فقد شهد النصف الثاني من القرن الأول امتداداً للفتوح الإسلامية من الحجاز إلى ادنى الشرق وأقصى الغرب ، فزعزع المسلمون عروش الأكاسرة والقياصرة ، وضمّوا إليهم شعوباً مختلفة وبلاداً واسعة ، وأصبح المسلمون قادة القسم الأكبر من العالم المتمدين وقتئذ وخلال نصف قرن .

ومع أن هذه القيادة جعلت من المسلمين قوةً كبرى على الصعيد العالمي من الناحيتين السياسية والعسكرية ، إلّا أنها عرضتهم لخطرين داهمين خارج النطاق السياسي والعسكري ، وكان لا بد من الإقدام على عمل حاسم للوقوف في وجهها :

أما الخطر الأول فهو الذي نجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات الأمم المتحضرة ، وعلى أعراف تشريعية ، وأوضاع اجتماعية مختلفة نتيجة لتفاعلهم مع الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجاً ، وكان لا بد من عمل على الصعيد العلمي يؤكد للمسلمين أصالتهم الفكرية وشخصيتهم التشريعية المتميزة المستمدّة من الكتاب والسنّة .

وكان لا بد من حركةٍ فكرية اجتهادية تفتح آفاقهم الذهنية ضمن ذلك الإطار لكي يستطيعوا أن يحملوا مشعل الكتاب والسنّة بروح المجتهد البصير ، والممارس الذكي ، الذي يستطيع أن يستنبط ما يفيده في كل ما يستجد له من حالات[1] ، فكان لا بد إذن من تأصيل الشخصية الاسلامية ، ومن بذر بذور الاجتهاد ، وهو ما قام به زين العابدين علي بن الحسين (ع) الذي انشأ حلقةً للبحث والدرس في مسجد الرسول (ص) ليحدّث الناس بصنوف المعرفة الإسلامية من تفسير وحديث وفقه ،

---

(١) الإمام محمد باقر الصدر : مقدمة « الصحيفة السجادية » ص ١٤ .

ويفيض عليهم من علوم آبائه الطاهرين ويمرّن النابهين منهم على الفقه والاستنباط .

وقد تخرج من هذه المدرسة عدد كبير ، منهم فقهاء المسلمين من الصحابة والتابعين الذين وردت أسماء بعضهم في كتب سير الصحابة من أمثال جابر بن عبد الله الانصاري ، وعامر بن واثلة الكناني ، وسعيد ابن جهان الكناني ، وسعيد بن المسيّب بن حزن . وقد قال زين العابدين (ع) عن الأخير : « سعيد بن المسيّب أعلم الناس بما تقدم من الآثار » .

ومن التابعين سعيد بن جبير ومحمد بن جبير بن مطعم وأبو خالد الكابلي والقاسم بن عوف واسماعيل بن عبد الله بن جعفر وإبراهيم والحسن ابنا محمد بن الحنفية وحبيب بن أبي ثابت وأبو يحيى الأسدي وأبو حازم الأعرج وسلمة بن دينار المدني وغيرهم[1] ، فجمع من حوله الفقهاء ورواة الحديث ، وأقرّ المسلمون جميعاً بعلمه واستقامته وأفضليته ، وانقاد الواعون منهم إلى زعامته وفقهه ومرجعيته ، حتى لقد اعترف أعداؤه بفضله ، واستنجدوا بعلمه وإرشاداته ، فهذا عبد الملك بن مروان وقد اصطدم بملك الروم ، الذي هدده باستغلال حاجة المسلمين إلى استعمال نقود بلاد الرومان في التعامل حيث أراد بذلك اذلال المسلمين وفرض شروطه عليهم ، فوقف عبد الملك متحيراً ، وضاقت به الأرض ، وقال كما جاء في الرواية « أحسبني أشأم مولودٍ وُلد في الاسلام » .

وجمع أهل الرأي واستشارهم ، فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به ، فقال له القوم : « إنك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر » . فقال : « ويحكم ، مَن ؟ » قالوا : « الباقي من أهل بيت النبي (ص) .

---

(١) المناقب ج ٤ ص ١٣٦ .

قال : « صدقتم » ، وهكذا كان ، فقد فزع إلى الإمام زين العابدين (ع) ، الذي بعث ولده محمداً الباقر إلى الشام ، وزوده بتعليماته الخاصة ، فوضع خطة جديدة للنقد الاسلامي ، وأنقذ الموقف عندئذٍ[1] ولقد فصّل الدميري في حياة الحيوان القول في هذه القضية وذكرها بالأرقام .

وإننا لو جمعنا ما قيل في علي بن الحسين زين العابدين (ع) وعلمه وفضله وزهده وعبادته لأصبح كتاباً مستقلاً ، وروضة تسرّ الناظرين ، ولكننا نخرج بذلك عن الهدف ، وقُصارى الأمر أن نسوق ما قاله بعض الأئمة فيه ، فقد قال الزهري : « ما رأيت هاشمياً من علي بن الحسين ، ولا أفقه منه » . وقال سعيد بن المسيّب : « ما رأيت قط مثل علي بن الحسين » . وقال الإمام مالك : « إنما سمي زين العابدين لكثرة عبادته » . وقال سفيان بن عيينه : « ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين زين العابدين ، ولا أفقه منه » . وعَدَّ الإمام الشافعي علياً بن الحسين « أفقه أهل المدينة » .

وكانت مدرسة الإمام زين العابدين (ع) توطئةً لما نشأ بعد ذلك من مدارس الفقه ، ودعامةً لحركته الناشطة .

وقد استطاع الإمام بفضل هذا الاسلوب استقطاب الحركة الفكرية الاسلامية الاصيلة عند القراء وحملة الكتاب والسنّة ، حتى قال سعيد بن المسيّب : « إن القرّاء كانوا لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج علي بن الحسين ، فخرج وخرجنا معه ألف راكب »[2] .

---

(١) المناقب : ج ٤ ص ٣٠٣ ـ ومحمد باقر الصدر : مقدمة « الصحيفة السجادية » ص ٩٠ .
(٢) المناقب ج ٤ ص ١٣٦ .

أما الخطر الثاني ، فقد نجم عن موجة الرخاء التي عمّت المجتمع الاسلامي في أعقاب ذلك الامتداد الهائل وهيّأت للمجتمع أسباب الانسياق مع ملذات الدنيا والإسراف في الزخرف وزينة الحياة ، وقد وردت أخبار الترف والإسراف في كتب التاريخ والسيرة بكثرة ، وحسبنا في هذا المقام مراجعة كتاب « الاغاني » لأبي الفرج الاصفهاني مثلاً ، لنقف على اطراف ذلك .

وقد أدرك الإمام زين العابدين (ع) مدى هذا الخطر ، وتصدى لعلاجه بدعوة المسلمين إلى التوجه إلى الله والدعاء له ، واتخذ من الدعاء أساساً لهذا العلاج ، واستطاع بما أوتي من بلاغة نبوية فريدة ، وتمكن تام من أساليب التعبير العربي ، وذهنية ربانية تتفتق عن اروع المعاني وأدقها في تصوير صلة الانسان بربه ووجده بخالقه وتعلقه بمبدئه ومعاده ، واستطاع بذلك وبما أوتي من المواهب أن ينشر من خلال الدعاء جواً روحانياً يشد من عزيمة الانسان المسلم أمام المغريات ، ويشده إلى ربه .

هذه هي مدرسة الإمام زين العابدين (ع) ، وهي المدرسة الأولى التي تعلّم فيها الإمام جعفر الصادق (ع) منذ نعومة أظفاره برعاية جده واهتمامه به وحنانه الأبوي عليه .

وقد توفي الإمام زين العابدين (ع) سنة خمس وتسعين هجرية ، وكان الصادق عندئذ في الخامسة عشرة أو في الثانية عشرة من عمره الشريف .

وآلت الإمامة والزعامة الروحية بعد الإمام زين العابدين (ع) إلى ابنه الإمام أبي جعفر محمد الباقر (ع) .

الإمام أبو جعفر محمد الباقر (ع)

ولد الإمام الباقر (ع) بالمدينة المنورة سنة سبع وخمسين من الهجرة النبوية ، وكان أول مولود اجتمع بنسبه الإمامان الحسن والحسين (ع) ، لأن أمه هي فاطمة أم عبد الله بنت الحسن بن علي ، فهو هاشمي من هاشميين ، وأول علوي من علويين ، وأول فاطمي من فاطميين . أقام مع جده الحسين ثلاث سنين أو أربع وحضر واقعة كربلاء كما عاش مع أبيه زين العابدين أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر ، أو تسعاً وثلاثين سنة، وبعد أبيه تسع عشرة سنة[1]. وعاصر من الخلفاء الأمويين وليداً ابن يزيد ، وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك وأخاه هشاماً والوليد بن يزيد وأخاه إبراهيم ، وقُبض بالمدينة في ذي الحجة سنة أربع عشرة ومائة ، وله يومئذ سبع وخمسون سنة مثل عمر أبيه وجده .

وهو ربيب مدرسة أبيه زين العابدين (ع) ، وجامع علومه ، ووارث فضائله ومكارمه ، وقد قام بدوره بحمل عبء الإمامة الدينية والزعامة العلمية في عصره ، فاجتذب إلى مدرسته الصديق والمعاند ،

---

(١) المناقب ج ٤ ص ٢١٠ .

والمحب والمبغض ، واعترفوا جميعاً بفضله وعلمه .

سئل جابر الجعفي : «لِمَ سُمي الباقر باقراً ؟» قال : «لأنه بقر العلم بقراً ، أي شقه شقاً ، واظهره إظهاراً»[1] ولم يكن اهتمامه منصباً على الفقه وعلوم القرآن فحسب ، بل تعداهما إلى علوم أخرى كالحكمة والتاريخ والكيمياء واللغات وغيرها مما نرى أخباره أو اشارات عنه في تاريخ حياة الإمام ، وفي طيات كتب السير والحديث .

ومما قاله موسى بن أكيل النميري : «جئنا إلى باب دار أبي جعفر (ع) نستأذن عليه ، فسمعنا صوتاً حزيناً يقرأ بالعبرانية ، فدخلنا عليه ، وسألنا عن قارئه ، فقال (ع) : «ذكرت مناجاة إيليا فبكيت من ذلك»[2] . وروي عن سماعة بن مهران أنه قال : «جئنا نريد الدخول على أبي جعفر (ع) ، فلما صرنا في الدهليز ، سمعنا قراءة سريانية بصوت حزين ، يقرأ ويبكي حتى أبكى بعضنا»[3] .

وقد قيل إنه لم يظهر من أحد من أولاد الحسن والحسين عليهما السلام من العلوم ما ظهر منه من التفسير والكلام والفُتيا . قال محمد بن مسلم : «سألته عن ثلاثين ألف حديث ، وقد روى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التابعين ورؤساء فقهاء المسلمين»[4] . ووفد إليه كل طالب علم ، واستقى من منهله العذب كل متعطش لمعرفة الحقيقة . فهذا الدهري يسأله تارة ، وهذا الخارجي يجادله أخرى ، وهؤلاء أئمة المذاهب يأخذون عنه ويعترفون بعلمه وفضله وزهده .

---

(١) علل الشرايع ج ١ ص ٢٣٣ وبحار الأنوار ج ٤٦ ص ٢٣١ .
(٢) المناقب ج٤ ص ١٩٥ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .

فهذا الأبرش الكلبي يقول للامام الباقر (ع) : « يا ابن علي ، هل قرأت التوراة والانجيل والزبور والفرقان ؟ » . قال : « نعم » ، قال : « فإني سائلك عن مسائل » . قال : « فإن كنت مسترشداً فستنتفع بما تسأل عنه[1] .

وهذا عبدالله بن نافع الأزرق وهو من رؤساء الخوارج جاء ليسأل الباقر (ع) عن مسائل[2] ، وتكلم رؤساء الكيسانية مع الباقر (ع) في حياة محمد بن الحنفية وقد رد الامام قولهم في ابن الحنفية[3] .

وفي (حلية الأولياء لأبي نعيم الاصفهاني) : قال عبدالله بن عطاء المكي : « ما رأينا العلماء عند أحد أصغر منهم عند أبي جعفر ، يعني الباقر (ع ، ولقد رأيت الحكم ابن عيينة مع جلالته وسنه عنده ، كأنه صبي بين يدي معلّم يتعلم منه » .

عن محمد بن مسلم قال : « ما شجرني في قلبي شيء قط إلّا سألت عنه أبا جعفر (ع) حتى سألته عن ثلاثين ألف حديث ، وسألت أبا عبدالله (ع)[×] عن ستة عشر ألف حديث »[4] . وهناك أمور هامة في تاريخ حياة الامام الباقر وسيرته (ع) تجدر الاشارة إليها ؛ الأول ، ان الامام الباقر انصرف في مدرسته إلى إفادته النخبة الجليلة التي حملت لواء العمل ومشعل الهداية في كل قطر ومصر ، وان ابتعاد الامام الباقر (ع)

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المناقب ٤ : ١٩٤ .
(٣) المصدر السابق .
(×) يعني الصادق (ع) .
(٤) الاختصاص ص ٢٠١ ورجال الكشي ص ١٠٩ .

عن الزعامة السياسية وتفرغه للعلم كفاه شر الخلفاء الأمويين ، ويسرّ عليه أداء هذه الرسالة الروحية السامية . وقد كان حريصاً على نشر الرسالة العلمية في خفية عن الأعين واعتكاف عن الناس ، نأيا بنفسه عن غضب السلطان ، ودرءاً للعداوات والأحقاد .

عن أبي القاسم اللالكائي في « شرح حجج أهل السنة » : قال أبو حنيفة لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين (ع) : « أأجلس » وكان أبو جعفر قاعداً في المسجد ، فقال أبو جعفر : « أنت رجل مشهور ولا أحب أن تجلس إليّ » . قال : « فلم يلتفت إلى أبي جعفر وجلس . . . »[1] وهذا جابر الجعفي يقول : « دخلت على أبي جعفر (ع) فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة ، فقال : ممن ؟ قلت : من جعف . قال لِمَ قدمت إليَّ ها هنا ؟ قلت : طلباً للعلم . قال : ممن ؟ قلت : منك . قال : إذا سألك أحد من أين أنت فقل من أهل المدينة . قلت : أيحل لي أن أكذب ؟ قال : ليس هذا كذباً . من كان في مدينة فهو من أهلها حتى يخرج »[2] .

ثانياً ، أن الامام الباقر (ع) ، وهو زعيم المدرسة العلميّة المحمدية بالمدينة ، لم يمنعه اشتغاله بالافادة والتدريس من العمل لكسب العيش ، مهما كانت ظروف العمل وأوضاعه ، فقد ضرب باضطلاعه بأعمال صعبة أروع الأمثلة على بذل الجهد والجدّ في طلب الحلال ، ليكون بذلك إماماً وقدوة للعلماء العاملين ، يقول محمد بن المنكدر : خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة ، فلقيت محمداً بن علي (الباقر) ، وكان رجلًا بديناً ، وهو متكيء على غلامين له موليين ، فقلت في نفسي : شيخ

---

(١) المناقب ج ٤ ص ١٩٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا ؟ فدنوت منه ، فسلمت عليه ، فسلّم عليّ ببهر[1] وقد تصبب عرقاً ، فقلت : أصلحك الله ، لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال ؟ فخلّى عن الغلامين ، ثم تساند وقال : لو جاءني والله الموت وأنا في هذه الحال ، جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله تعالى أكف بها نفسي عنك وعن الناس ، وإنما كنت أخاف الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله .

ثالثاً : كان الباقر (ع) ، مع علمه وزهده ، لا يحرم على نفسه ما أحل الله له من نِعَمِ الأكل والشرب واللباس . في « الكافي » ، عن أبي خالد الكابلي قال : دخلت على أبي جعفر (ع) ، فدعا بالغداء ، فاكلت معه طعاماً ما أكلت طعاماً قط انظف منه ولا أطيب ، فلما فرغنا من الطعام قال : يا أبا خالد ، كيف رأيت طعامك ، أو قال : طعامنا ؟ قلت : جُعلت فداك ؟ ما رأيت أطيب منه قط ، ولا أنظف . ولكني ذكرت الآية في كتاب الله عز وجل « ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم »[2] . فقال أبو جعفر (ع) : إنما تسألون عما أنتم عليه من الحق .

وفي « الكافي » عن زرارة قال : خرج أبو جعفر (ع) يصلي على بعض أطفالهم ، وعليه جُبّة خَزّ صفراء ، ومطرف خَزّ أصفر[3] .

وأيضاً عن الحسن الزيات البصري قال : دخلت على أبي جعفر (ع) أنا وصاحب لي ، فإذا هو في بيت منجد وعليه ملحفة وردية ، وقد حفّ لحيته واكتحل ، فسألناه عن مسائل . . . . .[4] .

---

(١) البهر بالضم : انقطاع النَفَس من الأعياء .
(٢) سورة التكاثر الآية (٨) .
(٣) الكافي ج ٦ ص ٢٨٠ .
(٤) المصدر السابق ج ٦ ص ٤٥٠ .

وأما عن زهده وورعه وعبادته فحدّث ولا حرج ، فهو ربيب زين العابدين علي بن الحسين (ع) . في « الكافي » : عن ابن القداح عن أبي عبدالله جعفر (ع) قال : كان أبي (ع) كثير الذكر ، لقد كنت امشي معه وإنه ليذكر الله ، وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله ، ولقد كان يحدّث القوم ، وما يشغله ذلك عن ذكر الله . وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول : لا إله إلا الله ، ولقد كان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا ، كان لا يقرأ منا أمره بالذكر[1] .

هذه هي بيئة الإمام الصادق (ع) وأسرته والمدارس التي تعلم فيها وتخرج منها مما هيأه لحمل عبء الإمامة والزعامة العلمية الفريدة في عصره .

وها نحن مقبلون على دراسة حياة الإمام الصادق (ع) الحافلة ، والوقوف على جوانب علومه وثقافته المتشعبة . وقد مرّ أن الدراسات الأسلامية وكتابات علماء المسلمين عن سيرة الرسول (ص) وحياة الأئمة (ع) انصبت ، وما زالت ، على جانب العبادة ومعرفة الحلال والحرام ، حتى يومنا هذا ، في حين أن دراسة المستشرقين للإمام الصادق (ع) ومدرسته العلمية ، ركزت على الجوانب العلمية والتاريخية والاجتماعية . وفي هذه الدراسة يقف القارىء للمرة الأولى على نظريات الإمام الصادق (ع) العلمية في الكيمياء والفيزياء والنجوم والفلك وعلم الصحة والطب وغيرها ، مع شروح ومقارنات تبين دقة النظرية وأهميتها وسبقها للاكتشافات العلمية التي تحققت في عصر النهضة في أوربا .

وقد تواتر القول بأن جابراً بن حيّان ، وهو أبو الكيمياء ، قد تتلمذ

---

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٤٤٧ .

على الصادق (ع) ، وأنه جمع افادات الصادق (ع) له في كتاب في ألف ورقة[1] ولكن لم يتسن لأحدٍ من الباحثين والمؤرخين أن يطرح مسألةٍ علمية أفادها الإمام الصادق (ع) ، أو أن يبرز أهمية تلك المسألة ويحللها ويشرحها .

على أن هذا الكتاب يطالعنا بأمثلة شتى من القضايا والنظريات والنواميس العلمية التي أثارها الإمام الصادق (ع) ، وقام بعض تلاميذه وأصحابه بإثباتها وتسجيلها ، وهي في مجموعها تثير دهشة القارىء بسعة علم الإمام ودقة وصفه . فالقارىء يلقي نفسه تارة تلقاء عالم في الكيمياء ، وكأنه خارج لتوّه من مختبره يحدّث طلابه بحصيلة تجاربه واختباراته ، وهو تارة تلقاء عالم في الفلك ، وكأنه تقدّم بالسبق والريادة على علماء الفلك في القرن العشرين في رصد حركات الفلك والمنظومات الشمسية ، وهو تارة أمام طبيب حاذق يقوم بتشريح جسم الإنسان وتبيين الأمراض والأسقام وعللها وطرق معالجتها . فإذا انتقلنا من الجانب العلمي النظري إلى الجانب الروحي ، رأينا فيه ذلك العالم الرباني ، والوجه الملائكي ، والإمام القدوة لكل عالم وتقي ، وقد قال عنه عمرو بن أبي المقدام : كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين[2] .

كما قال فيه الإمام مالك بن أنس (رض) : ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً[3] . ونود في هذه المقدمة أن نشير ولو بإيجاز إلى الجوانب غير

(١) الفهرست : ابن النديم .
(٢) النووي : تهذيب الأسماء واللغات ١ ـ ١٤٩ .
(٣) المناقب ٤ .

المعروفة من ثقافة الإمام وعلومه لنثير شوق الطالب إلى مزيد من البحث والتنقيب اغترافاً من هذا البحر الزاخر .

من رأي الإمام علي (ع) أن الإمام ينبغي أن يكون عالماً بكل شيء ، وأعلم الناس في كل علم وفن ، فهو لسان ولغة ، كما أنه يراعي ما يقتضيه حكم العقل ، والإمامية ترى أن علم الإمام لا يدخل فيه الرأي والاجتهاد ، فيحاسب الإمام على المصدر والمسند ، وإنما علمه إلهي موروث ، ولدنّي غير اكتسابي[1](*) .

فالإمام إذن في رأي الإمامية يعرف جميع العلوم والصنايع واللغات ، وقد أفرد الشيخ المفيد (ق) فصلاً في كتابه « أوائل المقالات » سماه « القول في معرفة الأئمة بجميع الصنايع وسائر اللغات » ، جاء فيه : (أقول إنه ليس يمتنع ذلك منهم ، ولا واجب من جهة العقل والقياس ، وقد جاءت أخبار عمن يجب تصديقه بأن أئمة آل محمد (ص) قد كانوا يعلمون ذلك . . .) وعلى قولي هذا جماعة من الإمامية . وقد خالف فيه بنو نوبخت ، رحمهم الله ، وأوجبوا ذلك عقلاً وقياساً ، ووافقتهم في المفوّضة كافة وسائر الغلاة[2] . ولكي نعطي الطالب الدارس مفتاح عبقرية الإمام وشخصيته الفذة نشير إلى أنه (ع) كان يتقن لغات الأمم المتحضرة في عصره ، واللغة هي المفتاح أو المنفذ إلى ثقافة أهلها كما هو معروف ، وسنورد طرفاً من اللغات التي كان يعرفها الإمام الصادق (ع) ويتحدث بها(*) ، ثم طرفاً من اهتمامه بالطب والفلك والكيمياء ، وهي علوم يدور حولها معظم ابحاث هذا السفر النفيس .

---

(١) الإمام الصادق : محمد المظفر ١٣٩ ـ ١٨٥ .
(*) لدني : من لدن العزيز الحكيم ، قال تعالى : من لَدُنّا علماً .
(٢) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات : الشيخ المفيد ص ٣٨ طبع قم ، إيران .
(*) وقد مرّ بنا أن الإمام الباقر (ع) يقرأ بالعبرانية والسريانية .

جوانب من علومه وثقافته

١ ـ معرفته باللغات

مرّ في تاريخ حياة الامام الباقر (ع) أنه كان يعرف العبرية والسريانية ، وأن جدته ، أي والدة الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) ، كانت الأميرة الفارسية شهربانو بنت كسرى يزدجرد . فلا عجب أن يعرف الامام جعفر الصادق (ع) هذه اللغات وثقافات أممها ، وأن ينطلق في التحدث أو القراءة والكتابة فيها ، وسيأتي أثناء عرضنا لبعض الروايات المأثورة عن الامام أبي عبد الله (ع) ما يثبت ذلك ، وفضلا عن اتقانه لهذه اللغات ، كان يعرف النبطية والصقلبية والحبشية ويتحدث بها أيضاً .

أ ـ الفارسية :

عن محمد بن أحمد عن أبي عبد الله قال : دخل عليه قوم من أهل خراسان ، فقال ابتداء من غير مسألة : « من جمع مالا من مهاوش أذهبه الله في نهابر » . فقالوا : « جُعلنا فداك ، لا نفهم هذا الكلام » ، فقال عليه السلام : « ازباد آيد بدم بشود »[1] (ما تأتي به الريح يذهب به) .

---

(١) بصائر الدرجات ج ٧ باب ١١ ص ٩٦ .

وقال أحمد بن محمد بن الأهوازي عن النضر عن يحيى الحلبي عن أخي مليح عن فرقة : « كنت عند أبي عبد الله (ع) وقد بعث غلاما اعجميا ، فرجع إليه ، فجعل يغيّر الرسالة فلا يخبره ، حتى ظننت أنه سيغضب . فقال له : تكلم بأي لسان شئت ، فإني أفهم عنك »(١) .

وعن أبي بصير أنه قال : كنت عند أبي عبد الله (ع) وعنده رجل من أهل خراسان وهو يكلمه بلسان لا أفهمه(٢) .

وأيضاً في « بصائر الدرجات » ، دخل على أبي عبد الله (ع) قوم من أهل خراسان فقال ابتداءً : « من جمع مالا يحرسه ، عذّبه الله على مقداره » . فقالوا بالفارسية : « لا نفهم العربية » . فقال (ع) لهم : « هركه درم اندوزد جزايش ذوزخ باشد » .

وكان مجلسه ودرسه يجمع احياناً بين العرب والعجم على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، فيحدث كلّاً منهم بلغته ، ويفهمه بلسانه .

وعن أبان بن تغلب قال : غدوت من منزلي بالمدينة وأنا أريد أبا عبد الله (ع) ، فلما صرت بالباب ، وجدت قوما عنده لم أعرفهم ، ولم أر قوما أحسن زيا منهم ، ولا أحسن سيماء منهم ، كأن الطير على رؤوسهم ، فجعل أبو عبد الله (ع) يحدثنا بحديث ، فخرجنا من عنده ، وقد فهم خمسة عشر نفرا منها متفرقوا الالسن ، منها اللسان العربي والفارسي والنبطي والحبشي والصقلبي . فقال البعض : ما هذا الحديث الذي حدثنا به ؟ قال له آخر لسانه عربي : حدّثني كذا بالعربية . وقال الفارسي : ما فهمت ، إنما حدثني كذا وكذا بالفارسية . وقال الحبشي : ما حدثني إلا بالحبشية . وقال الصقلبي : ما حدّثني إلا بالصقلبية ، فرجعوا إليه ،

---

(١) المصدر السابق ج ٧ باب ١٢ ص ٦٧ (وفيه فلا يخبرنا) .
(٢) الاختصاص ٣٢٥ .

فأخبروه ، فقال (ع) : الحديث واحد ، ولكنه فسر لكم بألسنتكم[1] .

ب ـ العبرية :

وأما معرفته بالعبرية وتحدثه بها فمما لا شك فيه أيضا . فقد جاء في ثنايا الأحاديث المرويّة عنه ما يثبت ذلك ، وسنسوق حديثنا عنه (ع) استشهادا لا استقراء .

في « بصائر الدرجات » : عن عامر بن علي الجامعي قال : قلت لأبي عبد الله (ع) جُعلت فداك ، إنا نأكل ذبائح أهل الكتاب ، ولا ندري ايسمون عليها أم لا ؟[2] .

فقال : إذا سمعتموهم قد سمّوا ، فكلوا ، أتدري ما يقولون على ذبائحهم ؟

فقلت : لا .

فقرأ ، كأنه شبه يهودي ، قد عذها ، ثم قال : بهذا أمروا .

فقلت : جُعلت فداك ، ان رأيت أن نكتبها .

قال : اكتب : « نوح أيوا ادينوا يلهيز مالحوا عالم اشرسوا أو رصوبنوا (يوسعه) موسق ذعال اسطحوا »[3] .

وفي حديث آخر جاء النص كالآتي : « باروح أنا أدوناي إيلوهنوا ملخ عولام اشرفدشنوا عبسوتا وسينوانوا على هشخيطا » . يعني تباركت

(١) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٩٩ ، قال الجزري في « صفة الصحابة » : كأنما على رؤوسهم الطير ، وصفهم بالسكون والوقار وأنه لم يكن فيهم طيش ولا خفة لأن الطير لا تكاد تقع إلا على شيء ساكن . « اسد الغابة ١/٣٦ » .

(٢) التسمية : النطق باسم الله عند الذبح ، عملا بالآية الكريمة « ولا تأكلوا مما لم يذكر إسم الله عليه » الأنعام آية/١٢١ .

(٣) ج ٧ باب ١١ ص ٩٥ وبحار الانوار ج ٤٧ ص ٨١ .

أنت الله إلهنا مالك العالمين الذي قدّسنا بأوامره ، وأمرنا على الذبح[1] .

ج - النبطية[×] :

بدخول الإسلام بلاد الشام وفلسطين (بيزنطة الشرقية) ازداد عدد الأنباط في حاضرة العالم الإسلامي ، سواء الأحرار منهم أم الموالي ، وكثر التزاوج بينهم وبين العرب ، فتعلم البعض النبطية من هذا الإختلاط .

وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يعرف النبطية ويتحدث بها . ولا شك أن إبناه الكرام الذين تخرجوا من مدرسته وتخلقوا بأخلاقه هم حملة علمه ووارثو فضلة[*] .

فهذا أمير المؤمنين (ع) حين أتى أهل النهروان ، نزل « قطفتا » فاجتمع إليه أهل « بادوريا »[2] فشكوا إليه ثقل خراجهم ، وكلموه بالنبطية ، وقالوا أن لهم جيرانا أوسع أرضا وأقل خراجا ، فأجابهم بالنبطية « رعر روطا من عوديا » ، أي ما معناه ، رُبَّ رجز صغير خير من رجز كبير[3] .

وهذا يونس بن ظبيان النبطي يحدثه الإمام الصادق (ع) بالنبطية ويخبره عن أول خارجة خرجت على موسى بن عمران ، وعلى المسيح ، ثم على أمير المؤمنين بالنهروان . ثم قال لي : كيف « مالح ديـر بير ماكي

---

(١) المناقب ٤ : ٣١٨ والدمعة الساكبة أيضا .

(×) ذكر القزويني في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات عن علي عليه السلام أنه قال : وأن تسألوا عنا فأنا نبط من كوثى ـ انظر مادة كوثى (على وزن موسى) .

(*) وفي عقيدة الشيعة أن النبي محمد (ص) والأئمة من بعده (ع) يعرفون جميع اللغات ـ بالعلم اللدني من الله سبحانه ، ولهم على ذلك أدلة ليس هنا مجال لذكرها .

(٢) بادوريا : طسوج من كورة الاستان بالجانب الغربي من بغداد (معجم البلدان) .

(٣) بصائر الدرجات ج ٧ باب ١١ ص ٩٦ .

مالح » ، يعني عند قريتك ، وهو بالنبطية (١) .

فمن خلال هذا العرض السريع والاشارات الواضحة ، يبين أن الصادق (ع) كان على معرفة تامة بلغات أهل عصره وأبناء مجتمعه مهما بعدت أوطانهم واختلفت ثقافاتهم .

٢ ـ الطب

لا ريب في أن الإمام جعفراً الصادق (ع) كان على المام تام بالطب وما يتعلق به . وقد تحدث وأبان ، في ما روي عنه ، عن الطبائع والأمزجة ، وعن الأشياء ومنافعها ومضارها ، مما يثبت وقوفه على هذا العلم .

وقد جمع بعض علماء السلف شيئاً كثيرا من آراء الأئمة في الطب وسماه « طب الأئمة » . ويروي المجلسي (قد) الكثير عن هذا الكتاب في كتابه « بحار الانوار » ، وكذلك الشيخ الحرّ العاملي في « وسائل الشيعة » ، إلا أن هذا الكتاب لا وجود له اليوم .

وقد خصص الإمام الصادق (ع) في ما القاه على المفضّل بن عمر الجعفي فصلا تحدّث فيه عن الطبائع وفوائد الأدوية وتشريح الجسم ومعرفة وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) .

وفي ثنايا كتب الأحاديث وما إليها حديث مستفيض من كلام الإمام الصادق (ع) عن خواص الأشياء وفوائدها وعلاج الأمراض والأوجاع والحمية والوقاية . وسنورد بعض هذه الاحاديث للتدليل على هذا القول تدليلا قاطعا .

قال محمد بن مسلم سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : ما وجدنا

---

(١) نفس المصدر ج ٧ باب ١١ ص ٩٧ .

للحمّى مثل الماء البارد . وفي حديث آخر : الحمّى من فيح جهنم . فاطفئوها بالماء البارد(١) .

وفي وجوب غسل الفاكهة قبل الأكل قال (ع) : « أن لكل ثمرة سما ، فإذا اتيتم بها فأمسكوها واغسلوها بالماء(٢) .

وفي « الكافي » عن أحمد بن محمد عن بعض اصحابه قال : كنت أجالس أبا عبد الله (ع) فلا والله ما رأيت مجلسا انبل من مجالسه . قال : فقال لي ذات يوم : من أين تخرج العطسة ؟ .

فقلت : من الأنف .
فقال لي : أصبت الخطأ .
فقلت : جُعلت فداك ، من أين تخرج ؟
فقال : من جميع البدن ، كما وأن النطفة تخرج من جميع البدن . . . أما رأيت الانسان إذا عطس نفض اعضاءه ؟(٣) .

وهذا ابن ماسوية ، اشهر اطباء عصره ، ينصت للامام الصادق (ع) في شرحه وتوضيحه للطبائع وعلى الامراض . وحدث ابو هفان في محضر ابن ماسوية(*) بأن جعفرا بن محمد (ع) قال : الطبائع أربع : الدم وهو عبد ، وربما قتل العبد سيده ، والريح ، وهو عدو ، إذا سددت له بابا أتاك من آخر . والبلغم وهو ملك يُدارى ، والمرة ، وهي الأرض إذا رجفت رجفت بمن عليها . فقال ماسوية : أعد عليّ ، فوالله ما يُحسن جالينوس أن يصف هذا الوصف(٤) .

---

(١) وسائل الشيعة ٢ : ٦٤٧ .
(٢) المصدر السابق كتاب الاطعمة والاشربة ٣ : ٢٧٦ .
(٣) الأصول من الكافي ٣ : ٦٥٧ .
(*) هو يوحنا بن ماسوية من اطباء العصر العباسي المشهورين وقد توفي عام ٢٣٤ هـ .
(٤) المناقب ٤ : ٢٥٩ .

وهذا طبيب المنصور يحضر عنده ليقرأ عليه كتب الطب ، فإذا به يحضر مرة وعنده الصادق (ع) ، فجعل ينصت لقراءته ، فلما فرغ ، قال : يا أبا عبد الله ، اتريد مما معي شيئاً ، قال : لا ، لأن ما معي خير مما هو معك . قال : ما هو ؟ قال : أداوي الحار بالبارد ، والبارد بالحار ، والرطب باليابس ، واليابس بالرطب ، وارد الأمر كله إلى الله ، واستعمل ما قاله رسول الله (ص) وأعلم أن المعدة بيت الأدواء وأن الحمية هي الدواء ، وأعود البدن ما اعتاد. قال (الطبيب) وهل الطب إلا هذا ؟

قال الصادق : اتراني عن كتب الطب أخذت ؟

قال : نعم .

قال : لا والله ما أخذت إلا عن الله سبحانه وتعالى . فاخبرني : أأنا أعلم بالطب أم أنت ؟

قال الطبيب : بل أنا .

قال الصادق : فأسألك ؟

قال : سل .

فسأله عشرين مسألة ، وهو يقول : لا أعلم . فقال الصادق (ع) : ولكني أعلم[1] ويبدأ بشرحها وتفصيلها . وهذا مذكور في كتب الحديث .

وقد فصّل (ع) الحديث عن الهيكل العظمي والاعصاب والجوارح في جسم الانسان وشرحها شرحا دقيقا عندما سأله الطبيب النصراني عن ذلك . فقد روى سالم الصرير : ان نصرانيا سأل الصادق (ع) تفصيل الجسم ، فقال (ع) : ان الله تعالى خلق الانسان على اثني عشر وصلا ، وعلى مائتي وستة واربعين عظما ، وعلى ثلاث مائة وستين عرقا . فالعروق

(1) المصدر السابق : ٤ : ٢٦٠ .

هي التي تسقي الجسد كله ، والعظام تمسكها ، والشحم يمسك العظام ، والعصب يمسك اللحم . وجعل في يديه اثنين وثمانين عظما في كل يد واحد وأربعون عظما ، منها في كفه خمسة وثلاثون عظما ، وفي ساعده اثنان ، وفي عضده واحد ، وفي كتفه ثلاثة ، وكذلك الأخرى .

وفي رجله ثلاثة واربعون عظيما ، منها في قدمه خمسة وثلاثون عظما ، وفي ساقه اثنان ، وفي ركبته ثلاث ، وفي فخذه واحد ، وفي وركه اثنان ، وكذلك في الأخرى .

وفي صلبه ثماني عشرة فقارة ، وفي كل واحد من جنبيه تسعة أضلاع ، وفي عنقه ثمانية ، وفي رأسه ستة وثلاثون عظما ، وفي فيه ثمانية وعشرون واثنان وثلاثون[1] .

ولا يتسنى تفصيل الجسم البشري والهيكل العظمي بهذه الدقة إلا لمن أتيحت له فرصة دراسة الطب والتشريح . وقد أفاد الإمام (ع) غيره بهذا العلم ، وتخرج من مدرسته هذه عدد من أصحابه .

ومن خريجي مدرسة الإمام الصادق (ع) العلمية في مجال الطب والصيدلة جابر بن حيّان الطرطوسي . فهو بالإضافة إلى تخصصه في الكيمياء صنف مؤلفات في الطب أورد منها ابن النديم : « رسالة في الطب » و« كتاب السموم » و« كتاب المجسة » و« كتاب النبض » و« كتاب التشريح »[2] .

وكان جابر بن حيّان أول من أشار إلى طبقات العين ، فسبق بذلك يوحنا ابن ماسوية المتوفي سنة (٢٤٣ هـ) ، وسبق حنين بن اسحاق المتوفي سنة (٢٦٤ هـ) ، وهما من أعلام الطب في هذا العصر .

---

(١) المناقب ٤ : ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٢) الفهرست ٣١٢ .

ومن أبناء هذه المدرسة أبو علي الحسن بن فضل ، وهو من أصحاب الإمام الرضا (ع) ومن علماء الشيعة العظام في عصره الذين برعوا في علم الطب وألفّوا فيه . ومن مؤلفاته « كتاب الطب » و « كتاب النجوم »[1] .

٣ ـ الكيمياء

تتزايد أهمية الكيمياء يوماً بعد يوم ، وتثبت التجارب العلمية الحديثة أن الحياة تتألف من عمليات كيميائية معقّدة ، كما ثبت أن الوراثة وليدة للتفاعلات الكيميائية .

بل لعلم الكواكب والأرض تكونت نتيجة لعمليات كيميائية مستمرة ، كما أن التغييرات التي تطرأ على الكون هي في كثير من الحالات ذات طبيعة كيميائية .

ومن الشائع الثابت أن الإمام الصادق (ع) كان على علم بخواص الأشياء منفردة ومركّبة ، وأنه درّس علم الكيمياء في مدرسته قبل إثني عشر قرناً ونصف قرن . واشتهر من تلامذته في هذا العلم هشام بن الحكم المتوفي حوالي سنة (١٩٩ هـ) وهو من أصحاب الصادق (ع) وتلامذته ، وله نظرية في جسميّة الأعراض كاللون والطعم والرائحة ، وقد أخذ إبراهيم بن سيّار النظّام المعتزلي هذه النظرية لمّا تتلمذ على هشام .

وقد أثبتت صحة هذا الرأي النظريات العلمية الحديثة القائلة إن الضوء يتألف من جزئيات في منتهى الصغر ، تجتاز الفراغ والاجسام الشفافة ، وأن الرائحة أيضاً من جزئيات متبخرة من الاجسام تتأثر بها الغدد الأنفية ، وأن المذاق جزئيات صغيرة تتأثر به الحليمات اللسانية .

ومن تلامذة الإمام الصادق (ع) الذين اشتهروا ببراعتهم في

---

(١) المرجع السابق .

الكيمياء والعلوم الطبيعية جابر بن حيان الصوفي الطرطوسي ، الذي دوّن وألّف خمسمائة رسالة من تقريرات الإمام (ع) في علمي الكيمياء والطب في الف ورقة[1] .

وقد ذكر ، ابن النديم في الفهرست واطال فيه الكلام ، وذكر له كتبا ورسائل في مختلف العلوم ولا سيما في الكيمياء ، والطب ، والفلسفة والكلام .

وقد أكبر المؤلفون المسلمون منزلة جابر ، وعدّوه مفخرةً من مفاخر الإسلام . ولا بدع ، فإن من تزيد مؤلفاته على ثلاثة آلاف كتاب ورسالة في مختلف العلوم ، وجلّها في العلوم النظرية والطبيعية التي تحتاج إلى زمن طويل في تجاربها وتطبيقاتها ، لجدير بالتقدير والإكبار .

وقد تمكن جابر من تحقيق وتطبيق طائفة كبيرة من النظريات العلمية ، أهمّها تحضير (حامض الكبريتيك) بتقطيره من الشبّة . وسمّاه (زيت الزاج). كما حضّر (حامض النتريك) و (ماء الذهب) و (الصودا الكاوية) .

وكان جابر أوّل من لاحظ ترّسب (كلورود الفضة) عند إضافة محلول ملح الطعام إلى محلول (نترات الفضة) .

وينسب إليه تحضر مركّبات أخرى مثل كربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم وغير ذلك مما له أهمية كبرى في صنع المفرقعات والاصباغ والسماد الصناعي والصابون وما إلى ذلك .

ولم تقف عبقرية جابر في الكيمياء عند حدّ تحضير هذه المواد فحسب ، بل انبعث منها إلى ابتكار شيء جديد في الكيمياء هو ما سمّاه

---

(١) ابن خلكان في أحوال الصادق ١ : ١٥٠ وكتاب الفهرست .

بعلم « الميزان »، أي معادلة ما في الاجساد والمعادن من طبائع ، وقد جعل لكل جسد من الأجساد موازين خاصة بطبائعه ، وكان ذلك بداية لعلم المعادلات في طبائع كل جسم(1).

وقد امتّد نشاط جابر إلى ناحية أخرى من الكيمياء هي التي يسمونها بالصنعة ، أي تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة من ذهب وفضة . ويعدّ جابر رائداً لمن أتى بعده من العلماء الذين شُغفوا بهذه الناحية من الكيمياء ، كالرازي وابن مسكويه والصغرائي والمجريطي والجلدكي .

وكانت نظرية تحويل المعادن إلى ذهب أو فضة نظرية يونانية قديمة فُتن بها المسلمون من بعدهم ، فوضع جابر فيها رسائل كثيرة ، وشرح قواعدها وأصولها في كتبه المتعددة .

يقول ابن النديم : « حدّثني بعض الثقات ممن تعاطى الصنعة أنه (أي جابر) كان ينزل في شارع باب الشام في درب يعرف بدرب الذهب ، وقال لي هذا الرجل أن جابراً كان أكثر مقامه بالكوفة ، وبها كان يدير « الاكسير » لصحة هوائها ، ولمّا أصيب الأزج الذي وجد فيه هاون ذهب ، فيه نحو مائتي رطل . كان من موضع دار جابر بن حيان ، فإنه لم يصب في ذلك الأزج غير الهاون فقط »(2).

ويعتقد الدكتور محمد يحيى الهاشمي أن الذي يقصده جابر « بالاكاسير » هو « الراديوم » نفسه ، أو أحد الأجسام المشعّة فيقول : « ومما يزيد إعجابنا ادّعاء جابر بأن هذا السّر له دخل في جميع الأعمال ، وأننا إذا أمعنّا النظر في الوقت الحاضر ، لوجدنا اكتشاف الأجسام المشعّة التي تؤدي إلى قلب عنصر المادة وتحطيم الذرة لم يكن من نتائجها القنبلة

---

(1) فلاسفة الشيعة ص ٦٣ .

(2) الفهرست : ٤٩٩ .

الـذرية فحسب بـل إيجـاد منـابع قـوى جـديـدة لم تكن تـطرق عـلى بـال الإنسان »[1].

وصلت نظرية « الصنعـة » ضربـاً من ضروب الآمـال والاحلام بـل الأوهـام ، وكان من يشتغـل بها يُـرمى بالعتـه والهوس ، حتى إن الكنـدي وابن خلدون نبذا هذه الفكـرة ، وأكدّا عـدم إمكان تحـويل أي عنصـر إلى عنصر آخر .

غـير أن ما حـدث في عام ١٩١٩ من تحـطيم ذرّات « النتـروجـين » وتحويلها إلى ذرات « الاكسجيـن » و « الهيدروجـين » قد بـدّل مفهوم هـذه الفكرة ، وأثبت إمكان تحقيقها بالفعل .

وقد توالت بعد ذلك تجارب شطر نواة الذّرة ، باستخدام قذائف من جُسيمات « ألفا » أي نـوى « الهليوم » ، ومن جسميـات أخف ولكن أكبر أثراً منها وهي البروتونـات أي نُوى « الهيـدروجين » بعـد إطلاقهـا بسرعـة فائقة ، وأمكن بذلك شطر نواة الذّرة وتحويل عدد من العناصر إلى عنـاصر أخرى ، كتحويل الهيدروجـين إلى عنصر الهليـوم ، وتحويـل الصوديـوم إلى مغنسيوم ، والليثيوم والبورون إلى هليوم ، فتحقق فعلاً أمر تحليل العناصـر وتحويل بعضها إلى بعض .

وقـد افرد الأستـاذ محمد يحيـى الهـاشمي لهذا المـوضوع كتـابـا سمـاه « الإمام الصادق ملهم الكيميـاء »[2]، نحيل إليـه القارىء طلبـا لمزيـد من البحث .

---

(١) الإمـام الصادق ملهم الكيميـاء : ١٥٦ للاستـاذ محمد يحيى الهـاشمي / مطبعـة النجـاح ببغداد/ ١٩٥٠ م .

(٢) الإمام الصادق ملهم الكيمياء : مطبعة النجاح ، بغداد ، ١٩٥٠ م .

وللمستشرق الفرنسي بول كراوس [1] (Kraus)كتاب وبحث مستفيضان حول شخصية جابر بن حيان العلمية ، وإن كان فيهما ما يدعو إلى التأمل والمناقشة ، خاصة استبعاد ، لبعض هذه النظريات العلمية في عصر الصادق (ع). وقد قام الكاتب والعالم المصري اسماعيل مظهر بمناقشة آراء كراوس والرد على ما أورده ، من شكوك واهية ، في سلسلة مقالات نشرتها مجلة « المقتطف »[2]. كما أن الاستاذ احمد زكي صالح نشر سلسلة أخرى من المقالات في نفس الموضوع في مجلة « الرسالة » المصرية[3]. وللفيلسوف الفرنسي هنري كوربلن بدوره مؤلف عن جابر بن حيان وكتابه الكيمياء[4].

٤ ـ علم الهيئة والنجوم

كان الإمام الصادق (ع) من علماء الفلك والنجوم[*]، وله آراء ونظريات في دوران الكرة الأرضية وحركتها ، وفي مقدار أشعة النجوم ، وحركة الضوء . وكان يلقي دروسه وإفاداته في هذا العلم على تلاميذه وطلاب العلم ، ويناقش محترفي علم النجوم ، ويصحح آرائهم ، ويوضح لهم اخطاءهم .

دخل على الصادق (ع) منجم يماني .

فسأله الإمام : ما صناعتك يا سعد ؟

---

(١) P. Kraus, Jabir Ibn Hayan
Contribution L'histoire Des Idees Scientfiques Dans I'Islam, Le Caire, 1943.

(٢) مجلة المقتطف في أعدادها (٦٨ : ٥٤٤ ـ ٥٥١ ومن ٦١٧ ـ ٦٢٥).

(٣) مجلة « الرسالة » (السنة الثامنة ص ١٢٠٤ ـ ١٢٠٦ ومن ١٢٣٥ ـ ١٢٣٧ ومن ١٢٦٨ ـ ١٢٧٠ ومن ١٢٩٩ ـ ١٣٠٢).

(٤) انظر المقدمة .

(*) قولنا إن الإمام عالم بالفلك والنجوم لا يعني أنه فلكي أو منجم .

قال : أنا من أهل بيت ننظر في النجوم .
فقال : كم ضوء الشمس على ضوء القمر درجة ؟
قال : لا أدري .
قال : فكم ضوء القمر على ضوء الزهرة درجة ؟
قال : لا أدري .
قال : فكم للمشتري من ضوء عطارد ؟
قال : لا أدري .
قال : فما اسم النجوم التي إذا طلعت هاجت البقر ؟
قال : لا أدري .
قال : يا أخا أهل اليمن ، عندكم علماء ؟
قال : نعم . إن عالمهم ليزجر الطير ويقفو الاثـر في الساعـة الواحـدة مسير سير الراكب المجد .

فقال (ع): إن عالم المدينة(*) أعلم من عالم اليمن ، لأن عالم المدينة ينتهي إلى حيث لا يقفو الاثر ويزجر الطير ، ويعلم ما في اللحظة الواحـدة مسيرة الشمس .
قال : ما ظننت أن أحدا يعلم هذا ويدري[1] .

كان هذا الفلكي من اليمن التي كانت من مراكـز الاهتمام بـالنجوم وعلم الفلك بـين النهرين وواسط . وقـد جاء فلكي من « واسط » ودخـل عـلى الإمام الصـادق (ع)، فسألـه الصادق (ع) عن المنـظومة الشمسيـة وحـركة الكـرة الأرضية ، وجـرى بينهـما حـوار مفصـل ورد في « الكـافي » نجتزىء منه بما يهمنا في هذا المقام .

(*) يقصد الإمام بعالم المدينة نفسه .

(١) بحار الأنوار : ٤٧ : ٣١٨ .

قال الفلكي : قلت ما خلفت بالعراق ابصر بالنجوم مني .
فقال الإمام (ع): كيف دوران الفلك عندكم ؟
قال : فاخذت قلنسوتي عن رأسي فأدرتها .
فقال الإمام (ع): إن كان الأمر على ما تقول ، فما بال بنات النعش والجدي والفرقدين لا يرون يدورون يوما من الدهر في القبلة ؟
قال : قلت : والله هذا شيء لا أعرفه ، ولا سمعت احدا من أهل الحساب يذكره .
فقال لي : كم السكينة من الزهرة جزءا في ضوئها ؟
قال قلت : هذا والله نجم ما سمعت به ، ولا سمعت احدا من الناس يذكره .
قال : سبحان الله ، فأسقطتم نجما بأسره ، فعلى ما تحسبون ؟

إلى أن قال (ع): صدقت ، أهل الحساب حق ، ولكن لا يعمل ذلك إلا من علم مواليد الخلق كلهم[1].

وكان من تأثير توجيهات الإمام وإرشاداته في علوم الهيئة والفلك أن اهتم تلامذته بهذه العلوم ، واشتغلوا بالارصاد والازياج والتقاويم والتنجيم والاختبارات وغير ذلك من فروع علم الفلك من أقدم الأزمنة .

كان ابو اسحاق ابراهيم بن حبيب الفزاري المتوفي عام (١٦١ هـ - ٧٧٧ م)، وهو من أصحاب الإمامين الصادق وموسى بن جعفر (ع)، أول من عمل الاصطرلاب في الاسلام[2]. وأول من ألف فيه . وله في ذلك « كتاب العمل بالاصطرلابات ذوات الحلق »، وكتاب « العمل

(١) الكافي ٨ : ٣٥١ .
(٢) فلاسفة الشيعة : ص ٧٤ .

بالاصطرلاب المسطح »[1].

والاصطرلاب لفظة يونانية مأخوذة من كلمة « الاصطرلابون »، ومعناها مرآة النجم (اصطر : النجم ، لابون : مرآة). وقيل أنها لفظة فارسية أصلها (ستارة باب) أي كاشف النجم .

وهذا أحمد بن الحسن بن أبي الحسن الفلكي الطوسي ، تخصص في علم الفلك حتى اشتهر به ، ووضع كتاب « المنار » وكتاب « شرح التهذيب في الإمامة » وله في النجوم والفلك كتاب « ريحان المجالس وتحفة المؤانس »، وقد نقل عنه السيد ابن طاووس . وقال عنه في كتابه « فرج المهموم » إن الكتاب عندي ، وفيه ذكر أحاديث الكواكب وأسرارها واختيارها[2].

وهذا محمد بن مسعود العياشي التميمي ، وصفه ابن النديم بقوله : من فقهاء الشيعة الإمامية . أوحد أهل دهره وزمانه في غزارة العلم ، له كتاب « النجوم والفأر »، و « القيافة والزجر » و « كتاب الطب »[3].

وهذا ابو علي الحسن بن فضال من أصحاب الإمام علي بن موسى الرضا (ع)، وله كتاب « النجوم » و « كتاب الطب »[4].

تدوين العلوم في عصر الصادق (ع)

طالعنا في العرض الموجز غزارة علم الإمام وتشعب معارفه، فكان

---

(١) الاصطرلاب انواع منها المسطح والمبطح والتام والهلالي ، ومن أجهزة الرصد الأخرى التي صنعها علماء الشيعة اللبنة ، والحلقة الاعتدالية ذات الأوتار ، وذات الحلق ، وذات الشعبتين ، وذات الجيب ، وذات السمت والارتفاع .

(٢) انظر الذريعة إلى تصانيف الشيعة .

(٣) الفهرست : ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

(٤) المصدر السابق : ٣١٢ .

يحق له أن يكون مهوى للانظار وملاذاً فريداً للباحثين، وعوناً للعارفين والموالين، مهما بعدت أوطانهم، فكانوا يأتونه من كل بقعة و ارض، ويتوجهون إليه من كل ناحية وصوب، يستحضرون الدواة والقرطاس ليكتبوا ما ما يمليه عليهم الإمام، وقد كثر من استقى منه العلم، حتى بلغ من عرف منهم أربعة آلاف أو يزيدون، فهو منعطف هام في تاريخ الشيعة العلمي. أما الذين أخذوا عنه العلم من غير الإمامية، فكانوا يرون جلالته وسيادته وإمامته، وقد عدّوا أخذهم عنه منقبةً شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها[1]. وفي «صواعق» ابن حجر؛ ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان.

ومما قاله النووي: «اتفقوا على إمامته (الصادق) وجلالته وسيادته». قال عمرو بن أبي المقدام: «كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد؛ علمت أنه من سلالة النبيين»[2].

وهذا ابن أبي الحديد قد أرجع علم المذاهب الأربعة إليه في الفقه[3]. ولنفاسة العلم وشرفه حض على طلبه وإن كلف غالياً فقال: «اطلبوا العلم ولو بخوض المهج وشق اللجج»[4].

وحثهم على كتابة العلم ونشره، فقال (ع): «اكتبوا، فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا»[5] ومما قاله لمفضل بن عمر: «اكتب وبث علمك في إخوانك، فإن متَّ فورِّث كتبك بنيك، فإنه يأتي زمان هرج، ما يأنسون فيه إلا بكتبهم».

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات، وشرح النهج لابين ابي الحديد: ١ : ٦.
(٢) تهذيب الاسماء واللغات ١ : ١٤٩ ـ ١٥٠.
(٣) شرح النهج ١ : ٦.
(٤) بحار الانوار ٤٦ : ٢٦٥.

وقال (ع) : «احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها»[1].

وكان من تأثير توجيهه هذا ان جمع شطر من الاحاديث التي رويت عنه وعن آبائه وأبنائه في الأخلاق والآداب والاحكام وحدها، فكانت الحصيلة أربعة كتب هي : «الكافي» و«من لا يحضره الفقيه» و«التهذيب» و«الاستبصار».

هذا بالاضافة إلى من ألف في مختلف العلوم من الطب والكيمياء والنجوم والفلك مما مر ذكره. فمن عصر الامام الصادق (ع) ابتدأ التأليف ونشط التدوين عند الشيعة.

فهذا جابر بن حيان يسجل تقريرات الإمام في خمسمائة رسالة وفي ألف ورقة[2]. وهذا اسماعيل بن مهران بن أبي نصر السكوني وهذا ابو جعفر احمد بن خالد البرقي، وهذا أحمد بن الحسن بن ابي الحسن الفلكي الطوسي، وهذا ابو النضر محمد بن مسعود العياشي التميمي، وهذا ابو علي الحسن بن فضال وغيرهم من أصحاب الصادق وابنه (ع)، لكل منهم تأليف وتدوين في الحديث والطب والفلك والكيمياء.

ويطالعنا الكتاب بالجوانب غير المعروفة من حياة الإمام (ع) العلمية التي لم تنل حقها من عناية كتّابنا الاسلاميين، اذ كان جلّ اهتمام علماء المسلمين من الشيعة والسنة منصرفاً - كما نعلم - الى دراسة الفقه والتفسير والأخلاق، وكل ما روي عن الرسول الأعظم في ما يتعلق بأمور العبادة والروح. فهذه إذن دراسة علمية وافية لجوانب أخرى مجهولة لنا من مدرسة الإمام الصادق (ع)، وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم التجريبية

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الفهرست ٤٥٠ - ٤٩٨.

والنظرية كالطب والرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء ومبادىء علمية أخرى لم تظهر أهميتها إلا بعد عصر النهضة في أوروبا مع ثورة الاختراعات الحديثة والاكتشافات العلمية المذهلة في هذه الميادين.

موقف الإمام (ع) من الخلافة والخلفاء

وقد تفرغ الإمام الصادق (ع) لأداء الرسالة العلمية، واستغنى عن طلب الرئاسة والسلطة السياسية[1]، في حين أنه كان يحمل على عاتقه عبء الحفاظ على مكانة بني هاشم وعلى دمائهم، لأن الإمام (ع) كان أكبرهم منزلة. وفي سنة (١٢٥ هـ ٧٤٣م) قتل عمه زيد بن علي بن الحسين (ع) في حرب بني أمية، وكان لها وقع شديد في نفس الإمام (ع)، وزاد موقفه حرجاً. وزاد ثقل العبء على كاهله، غير أنه استطاع بمقدرته ولباقته اجتناب غضب بني أمية بزهده في دنياهم واعتزاله في بيته ومدرسته، حيناً في المدينة وحيناً في الكوفة، منصرفاً الى افادة طلاب العلم والعبادة.

ثم جاءت الدولة العباسية، فظن البعض أن الغمة قد انجابت، فإذا بني العباس أشدّ إلحاحاً في تعقب آل علي (ع) من بني أمية، فاستمر الإمام (ع) في عزلته وانصرافه الى التعليم والإفادة.

وكانت أيام السفاح (أول الخلفاء العباسيين) أربع سنين، وهي مدة غير كافية للقضاء على بني أمية قضاءاً مبرماً، ولا لبناء أسس الملك وترسيخ دعائمه. ولكنه مع ذلك لم يدع الصادق (ع) وشأنه، بل بعث إليه من يتعقبه من المدينة المنورة الى الحيرة ليفتك به، وكان دافعه في الإقدام على

---

(١) يقول الشهرستاني انه (ع) ما تعرض للإمامة قط. ولا نازع احد الخلافة، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط، ومن تعلى الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط.

هذا العمل الشائن ضدّ رجل اشتغل بالعبادة والتعليم والارشاد، فضلا عن كونه من أبناء عمومته، خوفه من أن يتجه القوم الى الصادق (ع) ويعرفوا منزلته. وكانت الناس الى ذلك العهد، ترى أن الخلافة جماع للسلطتين الروحية والزمنية، ولا تراها سلطاناً خالصاً مبتوت الصلة بالدين.

وبسبب هذه الخشية ترصد المنصور للصادق (ع) ، فرأى الامام (ع) منه ضروباً من الآلام والمكاره. قال ابن طاووس: إن المنصور دعا الصادق (ع) سبع مرات كان بعضها في المدينة والربذة حين حج المنصور، وبعضها يرسل إليه الى الكوفة، وبعضها الى بغداد، وما كان يرسل عليه مرة إلا ويريد فيها قتله[1].

وقال ابن حمدون: كتب المنصور الى جعفر بن محمد (ع): «لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟ فأجابه ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له. ولا أنت في نعمة فنهنئك، ولا تراها نقمة فنعزيك بها، فما نصنع عندك؟».

قال: فكتب اليه: تصحبنا لتنصحنا.

فأجابه : من أراد الدنيا لا ينصحك ، ومن أراد الآخرة لا يصحبك.

فقال المنصور: «والله لقد ميز عندي منازل الناس، من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة، وأنه ممن يريد الآخرة»[2].

نعم إن الامام الصادق، بزهده في دنياهم، وبحذره ولباقته ومقدرته استطاع اداء تلك الرسالة العلمية الخالدة، وقدّر للشيعة أن ينتسبوا من بين

---

(١) بحار الانوار ٤٧ : ١٨٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٧ : ١٨٤.

الأئمة الاثني عشر إلى الامام جعفر الصادق (ع)، وأن يشتهروا بالجعفرية بفضل ما ترك الصادق (ع) من التراث العلمي .

الصادق (ع) ونظرته الاقتصادية الى الحياة

كان الامام الصادق (ع) مهوى الافئدة، ومرجعا لكل طالب علم ومحب ومُوالٍ ، هذا من شيعته بخراسان يهديه الملابس البيضاء، وهذا من محبيه من أمراء الصين يرسل إليه بجارية[1]، وهذا من شيعته بالعراق يرسل اليه بما فرضه الله عليه .

ولكن هذا كله ما كان يمنعه من طلب الرزق والكسب الحلال بجهده وعرقه ليستغني عما في أيدي الناس، ويستقل بأمور نفسه، فضرب بذلك أروع مثل للعلماء العاملين. وكان حقا قدوة لمن يريد الاقتداء بسيرته والسير على منهاجه .

جاء في «الكافي»: عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: استقبلت ابا عبدالله (ع) في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر، فقلت: جُعلت فداك، حالك عند الله عز وجل، وقرابتك من رسول الله (ص)، وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم؟ فقال: يا عبدالأعلى، خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك»[2].

أما العمل الشاق الذي كان يضطلع به في أحوال جوية عاتية وظروف شديدة الوطأة احيانا، فهو العمل في التجارة حينا وفي المضاربة أو الزراعة حينا، يقوم به أما بنفسه وإما بالاستعانة بغيره، وهكذا يحتفظ بكبريائه واستقلاله .

---

(١) الخرائج والجرائح: ٢٣٢ وبحار الأنوار ٤٧ : ٩٧.

(٢) الكافي ٨ : ٨٧.

وجاء في «الكافي»: عن اسماعيل بن جابر قال: أتيت أبا عبدالله (ع) وإذا هو في حائط له (أي مزرعة مسورة)، بيده مسحاة وهو يفتح بها الماء (أي يسقي الزرع)، وعليه قميص شبه الكرابيس، كأنه مخيط عليه من ضيقه[1].

وفي حديث آخر: وبيده مسحاة وعليه ازار غليظ يعمل في حائط له، والعرق يتصبب عن ظهره، فقلت: جُعلت فداك، اعطني أكفك، فقال لي: «إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة»[2].

وكان عليه السلام يباشر بنفسه جميع اعمال الزراعة وجمع الثمار وكيلها وبيعها. جاء في «الكافي»: عن داود بن سرحان قال: رأيت أبا عبدالله (ع) يكيل تمراً بيده، فقلت: جعلت فداك، لو أمرت بعض ولدك أو بعض مواليك، فيكفيك؟[3].

وكان عليه السلام إذا استأجر أو استعان بأجير بادره بدفع حقه قبل مطالبته إياه.

وجاء في «الكافي»: عن حنان بن شعيب قال: تِكارينا لأبي عبدالله (ع) قوما يعملون في بستان له، وكان أجَّلهم إلى العصر، فلما فرغوا قال لمعتب: اعطهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم[4].

وكان الصادق (ع) يهتم بالتجارة الى جانب الزراعة ويعطي ماله أحيانا بالمضاربة لمن يتجر به، ثم يحاسبه ويستوفي حقه وربحه منه، لا حُبّاً

---

(١) الكافي: ٥ : ٧٦.
(٢) المصدر السابق: ٥ : ٧٦.
(٣) المصدر السابق ٥ : ٨٧.
(٤) المصدر السابق ٥ : ٢٨٩.

في الأربـاح واستزادة من المـال والثروة، بـل رغبة منـه في العمـل وفي دفـع عجلة الاقتصاد في الجماعة الاسلامية الى الامام.

عن محمد بن عذافر قال: اعطى ابو عبدالله (ع) ابي الفا وسبعمائة دينار فقال له: اتجر لي بها، ثم قال: أما أنه ليس لي رغبـة في ربحها، وإن كـان الربـح مرغـوبا فيـه، ولكني احببت ان يراني الله عـز وجل متعـرضـا لفـوائده. قـال أبي: فربحت لـه فيه مـائة دينـار، ثم لقيته فقلت لـه: قـد ربحت لك فيها مائة دينـار، قال: ففـرح ابو عبـدالله (ع) بذلـك فرحـا شديدا، ثم قـال لي: اثبتها في رأس مـالي. قال: فمـات أبي والمال عنـده. فـأرسل إلى أبـو عبدالله (ع) وكتب: عـافانـا الله وإياك، إن لي عنـد أبي محمد ألفا وثماني مائة دينار أعطيته يتجر بها فأدفعها إلى عمر بن يزيد[1].

وكان الامام الصادق (ع) ينهى عن الاحتكار والاستغـلال بمختلف أشكاله وصوره وخاصة في ما يتعلق بالارزاق العامة، وما تشتد إليه حـاجة الناس والمجتمع، فما كان يرضى أن يدخر حاجته على المـدى البعيد ليـريح نفسه ما دام أهله والناس في حاجة أو مشقة.

عن جهم بن أبي جهم عن معتب[2] قال: قال لي ابـو عبدالله (ع) وقد تزيد السعر بالمدينة، كم عندنا من طعام؟

قال: قلت عندنا ما يكفينا أشهرا كثيرة.

قال: أخرجه وبعه.

---

(١) الكافي ٥ : ٧٦.

(٢) «معتب» كان مولى لابي عبدالله (ع)، وهو من أهل المعرفة والفضل ومن الموثوق بهم في الحـديث، وقد عـده الرجـاليون في اصحـاب الصـادق والكـاظم عليهـا السـلام، وعن الصادق (ع) ان مواليه عشرة وان خيرهم وافضلهم معتب.

قال وقلت له : وليس بالمدينة طعام

قال : بعه.

فلما بعته ، قال : أشترِ مع الناس يوماً بيوم[1].

ومما يدلّ على عطف الامام (ع) على النـاس جميعاً سـواء أكانـوا من أهل مدينته أم من غيرها من المدن والأقاليم أنه (ع) دفع مبلغاً من المال لمـولاه مصادف[2] ليتجـر به . وعـاد مصادف من رحلة تجـارية قـام بها إلى مصر مع ربح مضاعف ، فاستكثر الصادق (ع) الربح ، وانكر على مولاه فعله ، وعده حراماً ، فأخذ الأصل وترك الربح .

عن أبي جعفر الفزاري قال : دعا أبو عبدالله (ع) مولى له يقـال له مصادف ، فأعـطاه ألف دينار وقـال له : تجهـز حتى تخرج إلى مصـر ، فإن عيالي قد كثروا .

قـال : فتجهز بمتـاع ، وخرج مـع التجار إلى مصـر . فلما دنـوا من مصر ، استقبلتهم قافلة خارجة من مصر فسألوهم عن المتاع الذي معهم ، ما حالـه في المدينـة ، وكان متـاع العامـة ، فأخبـروهم أنه ليس بمصـر منه شيء . فتحالفوا وتعاقدوا على الا ينقصوا متـاعهم من ربح دينـار دينارا ، فلما قبضوا أموالهم ، انصرفوا إلى المدينة .

فدخل مصادف على أبي عبدالله (ع) ومعه كيسان في كل منهـما ألف دينـار ، فقال : جُعلت فـداك ، هـذا رأس المـال ، وهـذا الآخـر ربـح . فقال : إن هذا الربح كثير . ولكن ما صنعتم في المتاع.

---

(١) الكافي ٥ : ١٦٦ .

(٢) مصـادف من موالي الصـادق (ع) وعده أربـاب الرجـال في أصحاب الصـادق والكاظم عليهما السلام ، وكان عارفاً بالحديث ، وثقه فيه .

فحدّثه كيف صنعوا وكيف تحالفوا ، فقال : سبحان الله ، تحلفون على قوم مسلمين ألّا تبيعوهم إلا بربح دينار ديناراً ؟ ثم أخذ أحد الكيسين فقال : « هذا رأس مالي ، ولا حاجة لنا في هذا الربح » . ثم قال : « يا مصادف مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال »[1] .

وكان الإمام يتابع بنفسه أعمال وكلائه ومواليه في البيع والشراء والتجارة ، ويحاسبهم حساباً دقيقاً .

عن محمد بن مرازم عن أبيه قال : اشهدت أبا عبدالله (ع) وهو يحاسب وكيلا له ، والوكيل يكثر من قول : « والله ما خنت » .

فقال له أبو عبدالله (ع) : يا هذا ، خيانتك وتضييعك عليّ مالي سواء ، الا أن الخيانة شرها عليك[2] .

وهكذا كان الصادق (ع) يهتم بتنظيم أمر المعيشة ، والتجارة ويعلق على الاقتصاد أهمّيّةً قصوى ، فكان مثالا يقتدى به في أمر الدنيا والدين على السواء . دون أن يحرّم على نفسه وعلى أهله طيبات ما أحل الله له .

فهذا سفيان بن عيينه يقول لأبي عبدالله (ع) أنه يروى أن علياً ابن أبي طالب (ع) كان يلبس الخشن من الثياب ، وأنت تلبس القوهي المروي[3] .

---

(١) الأصول من الكافي ٥ : ١٦١ .
(٢) الكافي : ٥ : ٢٠٤ .
(٣) القوهي : ضرب من الثياب البيض ، يصنع في فوهستان أي بلاد الجبال (الديلم / جيلان الجالية) . والمروي نسبة إلى مرو وهي في خراسان .

قال : ويحك ، إن عليّاً (ع) كان في زمان ضيق ، فإذا اتسع الزمان ، فأبرار الزمان أولى به[1] . وفي حديث آخر : فخير لباس كل زمان لباس أهله[2] .

(١) رجال الكشي ٢٤٨ .
(٢) الكافي ٦ : ٤٤٤ .

مَولِدُ العَبقري

ولد للامام محمد الباقر (ع) ـ في دار والده الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) بالمدينة المنورة يوم السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٨٣ هجرية ولدٌ سمّي جعفر ، ولُقِّب بالصادق .

وكان ضعيف البنية عند الولادة بحيث ظنت القابلة ألّا أمل في حياة هذا الطفل طويلا ، ولكن هذا لا يحول دون طلب الجائزة والعطيّة لأن المولود ذكر .

بادرت القابلة بالخروج من الحجرة لأخبار الأهل والأسرة بأن المولود ذكر ، وهو بُشرى تُدخل الفرحة في قلب الآباء في شبه الجزيرة العربية ، وتشجعهم على تقديم العطايا ونصب الموائد ، مهما كانت ظروفهم المادية .

ولم ينس العرب بعد مرور ٨٢ سنة على ظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية عاداتهم الجاهلية في إيثار الولد على البنت ، ولم يكن أحد يخفي فرحته عند مولد الولد وتفضيله إياه .

فبحثت القابلة عن الوالد ، فلم تجده في الدار . ولكن قيل لها أن جد الطفل في الدار . فاستأذنت في الدخول على الامام زين العابدين

(ع) ، وزفت إليه البشرى . فسألها : هل أخبرت والده ؟ .

قـالت : لا ، لأنه غـائب عن البيت . فأدرك زين العـابـدين (ع) رغبة القابلة في أن يشاهد المولود ، وقـال : لكنني لا أحب أن تخرجـوه من الحجرة خوفاً من البرد ، ولكن أخبريني ، هل الـطفل يتمتـع بصحة الجسم وكماله ؟

لم تجروء القابلة على ابلاغ الإمام بأن الـطفل ضعيف جـداً ، ولكنها قالت : ان له عينين زرقاوين جميلتين .

فقال الامام زين العابدين : فعيناه إذن تشبهان عيني والـدتي ، رحمة الله عليها .

كانت للسيدة شهربانو بنت يزدجرد الثالث آخـر ملوك الأمبراطـورية الساسانية ، وهي والدة الامام زين العابـدين ، عينان زرقـاوان ، وها هـو جعفر الصادق يرث حسب قانون مندل[1] لون عينيه من جدّته .

وهنـاك رواية تقـول أن كيهان بـانـو ، وهي شقيقـة شهـربـانـو بنت يزدجرد . وقعت في الأسر في فتح عاصمة الأكاسرة « المدائن » ، حيث أتوا بها مع بقية الأسرى إلى المدينة ، وكانت لها بـدورها عينـان زرقاوان . فـإن صحت هـذه الـروايـة ، فـالامـام الصـادق قـد ورث عينيـه من أميــرتـين فارسيتين ، لأن كيهـان بانـو بنت يزدجـرد كانت جـدة الامام الصـادق من ناحية الأم أيضاً .

وكان الإمام علي (ع) قد عطف على الأسـرى من الأسرة المـالكة ،

---

(١) يوحنا مندل (Mendel) ولد عام ١٨٢٢ وتوفي عام ١٨٨٤ ، وهو راهب وعالم نباتي نمسوي ، قام باجراء تجارب على الصفات المتوارثة في النبـات والحيوان ، واستنبط نـاموس الـوراثة المعروف باسمه (المترجم).

وزوج شهربانو بنت يزدجرد لابنه الحسين (ع) ، وكذلك زوج كيهان بانو لمحمد ابن أبي بكر (الخليفة الأول) ، والذي كان يحبه ويرعاه كأحد أبنائه ، وقد ولّاه في ما بعد مصر ، ولكنه قُتل في أثناء ولايته بتواطوء من معاوية بن أبي سفيان .

وقد ولد لمحمد بن أبي بكر وكيهان بانو ولد سمي (القاسم) ، وولدت للقاسم بنت سميت (أم فروة) تزوجها الإمام محمد الباقر (ع) ، فأنجبت له جعفراً الصادق (ع) ، وبهذا ارتبط جعفر الصادق (ع) من ناحيتي الأب والأم بأميرتين فارسيتين كما سلف ذكره كما ارتبط بالخليفة أبي بكر من ناحيتين أيضاً .

وكانت العادة المرعيّة بين أهل المدينة المنورة الذين هاجروا إليها من مكة المكرمة جلب المرضعات من عرب البادية .

وعند مولد الصادق (ع) ، كان قد مضى على بدء الهجرة النبوية ٨٣ سنة ، وقد نسي الناس من هم المهاجرون ومن هم الأنصار . ولكن المكيين لم ينسوا عادة تسليم الرضيع إلى المرضعة ، وحاول بيت الإمام زين العابدين (ع) الاهتداء إلى مرضعة للمولود الجديد ، لولا أن أم فروة (أمه) قبلت أن تقوم بنفسها بارضاع الطفل ورعايته ، لا سيما وهو ضعيف واهن ، ولا يسع أمه أن تدعه تحت رحمة المرضعة ، مهما أبدت نحوه من العطف والحنان .

وفي كتب الشيعة مجموعة من الروايات عن أيام رضاعة جعفر الصادق (ع) وطفولته ، منها ما تواترت روايته منسوباً إلى الرواة المختلفين ، ومنها ما ذكر دون إيراد سند . ومن جملة الأخبار التي رُويت دون سند أن جعفراً الصادق (ع) ولد مختوناً ، ومكتمل الأسنان ، أما أن يكون جعفر الصادق (ع) ولد مختوناً فهذا أمر جائز، وربما أثبته الطب. أما أن

يكون مولوداً بكامل أسنانه ، فهي رواية تحتاج إلى وقفة وتأمل ، لأنها لا تتفق مع علم البيولوجيا ، وتتعارض مع طبيعة الطفل والرضاعة . إذ ثبت أن الطفل يهجر ثدي أمه متى نبتت أسنانه ، ناهيك عن الألم الذي تحدثه الأسنان للأم عند الرضاعة .

ومن هذه الروايات أن جعفراً الصادق (ع) ولد ذرب اللسان ، وخرج إلى الدنيا يتكلم . وروي عن أبي هريرة أنه قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : سيولد من ولدي من اسمه جعفر ولقبه الصادق ، ينطق لسانه بالحديث من يوم ولادته .

ولكن هناك أحاديث منسوبة إلى أبي هريرة ولم تثبت صحتها ، وإن كان أبو هريرة عرف بالصلاح ، ولم يكن يختلق الأحاديث ، كما أنه صحب الرسول (ص) فترة طويلة ، وكان يحبه حباً عظيماً ، ويقضي ساعات طويلة من وقته في حضرة الرسول (ص) . لذلك كان واضعو الحديث ومختلقوه ينسبون كل حديث موضوع إلى أبي هريرة ليصادف من الناس قبولاً . على أن بعض هؤلاء المزوّرين ندم على فعلته ، وأقر بالإثم الذي اقترفه[1] .

وقد يتفق بعض هذه الروايات مع رأي الشيعة في الإمام بأنه الطاهر النقّي من الزلات ، وأن الله اختار الأئمة من بين العباد ، وخصهم بخصائص دون غيرهم ، وأن للإمام من القدرة في الصغر ما له في الكبر إلا أن الباحث أو المؤرخ(*) مضطر إلى التماس الحقائق التاريخية ، لأنها

(١) كان هذا الرأي المؤلف في أبي هريرة . وأما آراء المسلمين في الموضوع فيرجع إليها في كتاب « شيخ المضيرة أبو هريرة » للشيخ محمود أبو رية ، طبع دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ .

(*) وخاصة إذا كان ممن لا يدينون بدين سماوي أو إيمان يتيح لهم الأعتراف بخوارق العادات هذه .

أدعى إلى التعويل عليها من روايات تدور حول الكرامات والمعجزات .

نعرف من طفولة الصادق (ع) أموراً توحي بأن الاقدار آثرته برعايتها ، وخصته بها دون غيره من الصبيان ، وأن الدينا لم تتهجم له في حداثته .

وأول هذه الأمور أن الصادق (ع) الذي ولد ضعيف البنية هزيلاً وعانى من أمراض الرضاعة والطفولة عناءً شديداً ، قد استقوى على هذه المتاعب التي كانت تحصد الأطفال ، واشتد عوده وهو يستقبل الثالثة من عمره .

والأمر الثاني هو أن جعفراً الصادق (ع) ولد لأسرة عريقة تتمتع باحترام الجميع ، وأفرادها من أواسط الناس ماديّاً .

والأمر الثالث هو أن أم فروة والدة الصادق كانت كغيرها من نساء بيت الخليفة الأول أبي بكر امرأة متعلمة مثقفة ، وأن محمداً الباقر (ع) والد الصادق كان أعلم أهل عصره بلا منازع .

أما الأمر الرابع فهو أن والد الصادق وجده عليهما السلام اهتما برعايته وتعليمه وتربيته من السنة الثانية . ويعترف علماء التربية في هذا العصر بأن أفضل سني تعليم الطفل هي ما بين الثانية والخامسة ، لأن قوة الذاكرة لدى الطفل تكون في هذه الفترة أقوى منها في غيرها .

ومن آراء علماء التربية أن الطفل بين الثانية والسادسة يستطيع أن يتعلم لغتين أخريين إلى جانب لغة الأم .

ومن مؤديات القاعدة العامة أن يكون نصيب الطفل من التعليم في الأسرة المتعلمة والمثقفة أكثر ، وحظه في ارتقاء المدارج العلمية أوفى من حظ غيره .

كان الإمام الباقر (ع) والد الصادق (ع) باعتراف الجميع ، أعظم العلماء في عصره ، وكان جدُّه زين العابدين (ع) أيضاً من أكابر العلماء والزّهاد ، وقد ذكر ابن النديم في كتابه « الفهرست » بعض مؤلفاته التي لدينا جزء منها .

وقد حظى جعفر الصادق باهتمام والده وجدّه ووالدته « أم فروة » ، فعكفوا جميعاً على تعليمه دون غيره من إخوته ، ولعل السبب في ذلك أن جعفراً (ع) كان قوّي الذاكرة وكان مقبلاً على العلم .

وفي رأي الشيعة أن قوة الذاكرة لدى الصادق (ع) وعمق ادراكه كانا من الصفات والخصائص التي منحها الله إياه لإمامته ، ولو بحثنا في الشرق أو في الغرب ، لوقعنا على أطفال آخرين يتمتعون بدورهم بقوة الذاكرة والادراك ، ولكن دون أن يكونوا أئمة ، ومن هذا القبيل مثلاً ابن سينا ، وأبو العلاء المعري من الشرق ، وتاسيت[1] في الغرب ، فقد كانوا يتمتعون بذاكرة قوية تسجل كل ما سمعوه أو قرأوه مرة واحدة ، فلا ينسونه .

إن القابلة التي زفت بشرى ميلاد جعفر الصادق (ع) إلى جدّه زين العابدين (ع) كانت سعيدة الحظ ، لأن ميلاد الولد في أسرة من الأشراف كان يعتبر حدثاً هاماً .

وقد نظمت الأراجيز فرحاً بالمولود ، منها هذه الأرجوز :

« أبشروا حبابا * قدّه طال نما * وجهه بدر السماء »

---

(١) تاسيت مؤرخ رومي ولد سنة ٥٥ ميلادية وتوفي ١١٨ م ، والف مالايقل عن مائتي كتاب ، بقي منها ثلاثة : ١ ـ جرمانيا : وهو تاريخ الشعوب الألمانية في مجلد واحد .
٢ ـ كتاب التاريخ في أربعة مجلدات .
٣ ـ تقويم الرزنامج في اثني عشر مجلداً.

وقد حفظها جعفر الصادق (ع) وهو في الثانية من عمره . وكان جعفر يلعب مع بقية الصبيان لعبة الأسياف مستعيناً بسيف صغير ، وهي لعبة متداولة عند العرب صغاراً كانوا أم كباراً .

وكانت دار الحسين بن علي (ع) جدّ جعفر الصادق (ع) التي ولد فيها الصادق (ع) تقع إلى جوار مسجد الرسول (ص) ، ولكنها هدمت فيما بعد لتوسيع المسجد ، واستخدم الذي دُفع فيها من بيت المال في شراء أرض في المسقى حيث بنيت دار أخرى بأيدي معماريين من الفرس شأنها شأن بيوت الأشراف في مكة والمدينة ، وكان صحن الدار يتسع لجعفر الصادق (ع) وغيره من الصبيان حيث يلعبون ويمرحون .

دراساته الأولى :

لدينا روايتان مختلفتان عن بدء دراسة جعفر الصادق (ع) ، تقول الأولى إنه بدأ الدراسة برعاية والده وهو في الثالثة من عمره ، في حين أن الرواية الثانية تشير إلى أن بداية الدراسة كانت من السنة الخامسة .

يقول محمد بن أبي رندفة ، وهو من مؤرخي المغرب الاسلامي (ولد ٤٥١ هـ وتوفي ٥٢٠ هـ) في كتابه « الاختصار » : أن جعفراً الصادق (ع) كان يحضر درس والده محمد الباقر وهو في سن العاشرة . وهذه رواية مقبولة معقولة .

ولا ريب في أن محمداً الباقر (ع) كان يعلّم ابنه جعفراً أشياء كثيرة قبل هذا الموعد ولكن لعله وهو في العاشرة من عمره انضم إلى حلقات درس الوالد ، الذي كان مجمعاً ومدرسة علمية للطلبة والباحثين .

الدراسة في هذه الفترة :

مع كل ما ورد في أحاديث الرسول (ص) وخطب الإمام علي (ع)

من توصيات تدعو إلى طلب العلم ولو في الصين ، كانت الرغبة في التعليم ضئيلة جداً آنذاك ، وذلك بسبب الأسلوب المتبع في التعليم ، فضلاً عن أن العرف المتبع في ذلك الوقت هو الاعتماد أساساً على الاستظهار والحفظ . فلمّا جاء جعفر الصادق (ع) ، وانبرى بنفسه للنهوض بمهمة التعليم والإفادة ، غير الأسلوب الدارج في التعليم ، وحوّله من الحفظ والاستظهار إلى البحث والاستقراء .

وكانت دروس الإمام محمد الباقر (ع) تنعقد في رحاب المسجد الذي بناه الرسول محمد (ص) والذي أتسع فيما بعد في عهد الخلفاء .

أما المواد التي كانت تدرس في مدرسة الإمام الباقر (ع) فهي شيء من التاريخ ، وعلم النحو ، وعلم الرجال والسنة أو الفقه ، والأدب المنظوم ولكن دون اهتمام بالنثر أو الخطب أو النصوص الأدبية ، ولا بد من الاشارة إلى أن العرب ، إلى عهد الإمام الباقر (ع) ، كانوا يفتقرون إلى الأدب المنثور ، ما عدا ما رُوي من خطب قصار من العهد الجاهلي ، وما روي عن الإمام علي (ع) من الخطب والرسائل .

ولم يكن لدى الطلبة في مدرسة الإمام الباقر (ع) كتاب معينّ مقرر ، ولا كان لدى الإمام نفسه كتاب أو مؤلّف خاص للتدريس ، فكانت الدروس تلقى على الطلبة ارتجالاً وسليقةً ، فإن كان الطالب متميّزاً بذاكرة قوية ، كان حظه في الاستفادة من درس الإمام أوفر ، وإن كان غير ذلك ، اقتصر على كتابة الدرس على لوحة تمكّنه من استعادة فحواه في المدرسة وفي البيت ، وربما دوّن موجزاً له على الجلد أو الورق الذي كان نادراً عزيزاً ليبقى مسجلاً محفوظاً . وكان اللوح يهيىء للطالب الاحتفاظ بالدرس لفترة قصيرة معيّنة ولا يلبث أن يمحي ، ليكتب عليه من جديد .

والطلبة في عصرنا هذا يتصورون أن دراسة المواد العلمية من غير

كتاب أو نص مكتوب أمر مستحيل ، في حين أن الدراسة في الماضي البعيد سواء في الشرق أو في الغرب كانت مركّزة على المشافهة دون الكتاب ، فكان الطالب يسعى إلى استظهار درس استاذه ، فإن كان قليل الثقة في ذاكرته ، استعان على ذلك بكتابة الدرس في منزله .

ونلاحظ اليوم أيضاً أن من الأساتذة من يثق في ذاكرته ويلقي المحاضرة دون مراجعة مذكرات أو كتاب ، فقد تمكن البعض من مادتهم وتعمقوا فيها وهان عليهم أن يرتجلوا الحديث دون لجلجة أو تلعثم أو توقف .

ولم تتوسع مدرسة الإمام محمد الباقر (ع) في تدريس العلوم ، ما عدا علوم الأدب . أما التاريخ ، فاقتصر على ما ورد في القرآن الكريم والتوراة ، ولم تكن الترجمة قد ازدهرت بعد ، ولا كانت كتب اليونان وفارس قد نُقلت بعد إلى اللغة العربية ، ولا كان المسلمون قد عرفوا بعد تاريخ أوربا والعالم .

وكان الإمام جعفر الصادق (ع) يحضر مجالس والده ، ويتابعها بذكائه الوقّاد ، ويأخذ عنه الدروس ويحفظها في سهولة ويسر .

وتقول الشيعة أن الإمام محمداً الباقر (ع) سُمّي باقراً لأنه كان يبقر العلم ، أي يشقّه ويوسعه[1] . وأظن أنه سمّي باقراً لأنه عمد في القرن

---

(١) عن الطالقاني ، عن الجلودي عن المغيرة بن محمد عن رجاء بن سلمة عن عمرو بن شمر قال : سألت جابراً الجعفي فقلت له : ولِمَ سمي باقراً ؟ قال : لأنه بقر العلم بقراً ، أي شقه شقاً ، واظهره اظهاراً .
١ ـ علل الشرايع ج ١ ص ٢٣٣ .
٢ ـ معاني الأخبار ص ٦٥ .
٣ ـ عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٥٦ .
٤ ـ بحار الأنوار ج ٤٨ ص ٢٢١ (المترجم) .

الأول من الهجرة ، وفي السنوات العشر الأخيرة منه على وجه التحديد إلى إدخال دراسة الجغرافيا وسائر العلوم الغريبة عن ذلك المجتمع إلى مدرسته ، إلى جانب دراسة الأدب والفقه ، وكان جعفر الصادق (ع) وقتئذ في السابعة عشرة أو العشرين من عمره .

ويعتقد البعض أن علم الجغرافيا دخل إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق ترجمة الكتب السريانية ، في حين أن العرب عرفوا هذا العلم عن طريق مصر ، ووقفوا في رحلاتهم إلى مصر على جغرافيا بطليموس ، وجاء جعفر الصادق (ع) فأدخل تدريس هذه المادة في مدرسته في وقت لاحق .

ولبطليموس هذا دراسة في علم الهيئة (الفلك) ، فضلاً عن دراسته عن الجغرافيا ، وسنرى في ما بعد أن جعفرا الصادق (ع) كان ذا ضلع في علم النجوم ، ولعله أخذ هذه العلوم جميعاً عن مدرسة أبيه الامام الباقر (ع) وعن كتب بطليموس المصري(*) .

والحقيقة أن العرب عرفوا الصور الفلكية والنجوم ، ووضعوا لها أسماء وتعاريف قبل أن يتصل بهم أمر بطليموس وجغرافيته وهيئته .

ولكننا لا نعرف على وجه التحديد متى وضعت تلك الأسماء ، ومن هو واضعها ؟ وإن كان من المؤكد أن العرب كانوا قبل دخولهم مصر ومعاشرتهم للقبط ووقوفهم على كتب بطليموس ، يعرفون المنظومة الفلكية ، كما كانت لديهم أسماء عربية للنجوم .

فليس صحيحاً إذن أن يكون جعفراً الصادق (ع) تعلم النجوم وأخذ علومها عن كتب بطليموس ، ولكن الجائز إنه استعان بكتب

(*) عند الشيعة أن الأئمة (ع) لا يأخذون العلوم عن أحد ولا يدرسون عند أحد لكون علمهم لدنياً إلهياً في مصدره كما سبق .

بطليموس في دراسته للنجوم والفلك في مدرسة والده الإمام الباقر (ع) بجانب العلوم الأخرى .

والمعروف أن الامام الباقر (ع) أدخل في مدرسته دراسات عن الجغرافيا وغيرها من العلوم إلى جانب علوم زمانه . ولئن كنا نفتقر إلى سند تاريخي(+) يعزز هذا الرأي ، فهناك من الشواهد والقرائن ما يؤكد هذا الرأي ويسانده . فمن المستبعد مثلاً أن يُلقَّب الإمام محمد بن علي (ع) في عصره بالباقر لمجرد أنه أدخل دراسة علم الجغرافيا والهيئة في مدرسته آنذاك ، ولكن الذي لا يكاد يعتوره شك ، هو أن الباقر (ع) اكتشف بنفسه علوماً غريبة عن مجتمعه ، أو لعله أحاط بها ، ثم قام بتدريسها والترويج لها في مدرسته ، فكان ذلك سبباً في تلقيبه بالباقر(×).

ومن القرائن أيضاً أن الإمام جعفرا الصادق (ع) عندما انبرى لمنصب التدريس والإفادة في مدرسة والده الإمام الباقر (ع) كان يدرّس بالإضافة إلى الجغرافيا والهيئة علوم الفيزياء والفلسفة الاغريقية ، ومن الواضح بأن الفيزياء والفلسفة والعلوم الاغريقية الأخرى لم تكن في زمان الامام الصادق قد نقلت بعد إلى اللغة العربية ، وأن حركة النقل والترجمة بدأت ونشطت في وقتٍ تالٍ ، وقام المترجمون بعد عصره (ع) بنقل تلك الكتب والمؤلفات من الفارسية والسريانية إلى اللغة العربية دون أن تكون لديهم في البداية معرفة دقيقة بالمصطلحات الفلسفية الاغريقية .

فأقوى الظنون أنه تعلم هذه العلوم بمدرسة والده الامام الباقر (ع) فتمكن منها بنبوغه وذكائه ، وتعمق في مباحثها ودراساتها ، وصارت له فيها

(+) عدا كتب الأحاديث والأخبار عن آل البيت عليهم السلام .

(×) ترى الشيعة أن القاب الأئمة (ع) من عند الرسول (ص) بالوحي الالهي وقد مرّ بك أن أبا هريرة روى عن الرسول (ص) حديثاً .

نظرات صائبة ، ولو لم يأخذ هذه العلوم عن أبيه ، لما كان مستطاعاً عقلاً أن يقوم بتدريسها في وقت لم تكن هذه العلوم قد نُقلت فيه بعد من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية .

والشيعة ترى أن احاطة الامام بهذه العلوم تنبع عن علم الهي لدني(*) ، وتعتقد أن الشعور الداخلي في كل انسان هو على النقيض من شعوره الظاهري ، كنز للمعرفة ومدخر للعلوم والمعارف البشرية في العالم .

ولهذه النظرية في عصرنا الحاضر ما يعززها من مكتشفات العلوم ، فقد انتهى علم البيولوجيا الحديث إلى أن مجموعات الخلايا التي يتكون منها جسم الانسان تدَّخر في داخلها من المعارف والمشاعر الخاصة بها ما قد تحصّل منذ بدء الخليقة وإلى هذا اليوم .

وفي رأي الشيعة أنَّ من اختاره الله نبيّاً أو جعله إماماً ، يزال الحائل أو الستار الموجود بين شعوره الظاهري وشعوره الباطني ، ولأنَّ النبي أو الامام متمكن من الشعور الباطني ، فهو يستفيد من المعرفة والمعلومات التي تتعلّق بالانسان أو غير الانسان في دنياه هذه أو في العالم المحيط به .

وفي ضوء هذا الرأي تفسِّر الشيعة بعثة النبي محمد بن عبدالله (ص) رسول الاسلام بأنها كانت من هذا النمط .

بمعنى أن الرسول (ص) كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وفي ليلة البعثة وفي غار حراء بجبل قرب مكة ، نزل عليه جبريل (ع) وخاطبه بقوله : اقرأ ، فرد عليه الرسول (ص) : ما أنا بقارىء ، فقال له جبريل (ع) مرة ثانية جادّاً : إقرأ ، فأزيل الحائل بين شعوره الظاهري وشعوره

(*) كما أوردنا في حاشية سابقة .

الباطني ، وفي لحظة واحدة علم القراءة وأحاط بكل علوم الانسان .

والشيعة ترى أن للشعور الباطني مرحلتين هما الشعور الباطني الاعتيادي والشعور الباطني النهائي أو العالي ، وترى أن الانسان في منامه يرتبط بشعوره الباطني الاعتيادي ، وأن ما يراه في المنام من الرؤيا هو عن طريق الشعور الباطني الاعتيادي ، أما النبي أو الامام فيحيط بكل معرفة وعلم عن طريق الشعور الباطني النهائي (العالي) ، وفي ليلة البعثة ، ارتبط الرسول (ص) وفي لحظة واحدة بشعوره الباطني النهائي .

وعلى أساس هذه العقيدة أو الرأي تذهب الشيعة إلى أن علم الامام الصادق (ع) علم لدني ، أي أنه نابع من ينبوع الشعور الباطني النهائي . والشيعة يسلمون بهذه العقيدة ولا يجادلون فيها أو يناقشون ، أما الباحث أو المؤرخ فيبحث عن الدلائل المادية ، والشواهد التاريخية التي تفسر له كيف أن رجلاً كجعفر الصادق ، لم يخرج من شبه الجزيرة العربية طوال أيام دراسته وشبابه[1] ، قد درّس الفلسفة والفيزياء والكيمياء وعلّمها ، وكلها علوم لم يعهد أحد بتدريسها في شبه الجزيرة العربية إلى ذلك التاريخ .

وأغلب الظن أن هذه العلوم كغيرها من علوم الجغرافيا والهيئة انتقلت إلى العرب عن طريق القبط ، وتدوول تدريسها في مدرسة الامام الباقر (ع) ، وتوسع الامام بنفسه في مباحثها وفروعها .

---

(١) ولكنه خرج إلى العراق بعد ما تولى الامامة ، عدة مرات .

(*) (المترجم) .

(*) وأيضاً إلى الشام مع أبيه (ع) زمن الوليد بن عبدالملك حين طلب الامام الباقر (ع) من المدينة المنورة ، وقصة ذهاب الامامين الباقر والصادق (ع) إلى الشام والمناظرات بينهما وبين العاقب أو الجاثليق (رئيس النصارى) مشهورة ومذكورة في عدد من كتب الروايات والأخبار . . .

وفي سنة ٨٦ للهجرة ، وكـان جعفر الصـادق في الثالثـة من عمره ، تـوفي عبـدالملك بن مـروان الخليفـة الأمــوي ، وخلفـه ابنــه الـوليــد بن عبدالملك .

وكـان أول حكم صدر عنـه عزل هشـام بن اسماعيـل والي المـدينـة المنورة ، وتولية عمر بن عبدالعزيز(١) ، الذي كـان يبلغ من العمر الـرابعة والعشرين ، وكان يتمتع بصباحة المنظر والوجه ، حاكماً ووالياً على المـدينة (المنورة) مكانه .

وكان مقر الخليفـة في ذلك الـوقت مدينـة دمشق في الشام ، وكـانت التشريفات والمراسم الملكية البيزنطيـة تحكم القصر الأمـوي ، وكان الـوالي الوافد يقيم قصـراً أو داراً في مقر ولايتـه (في أي من المدن الاسـلامية يـلي أمرها) ويطبق فيه مراسم دار الخلافة في الشام وتشريفاتهـا ، وكان الحكـام يعيشون بالتشريفات والمظاهر الملكية .

وكـان هشام بن اسمـاعيل (الـوالي المعزول) في المـدينـة يقلّد حيـاة الخليفـة الأمـوي في التـرف والمـظاهـر ، ولكن الـوالي الجـديـد عمـراً ابن عبدالعزيز وصل إلى المدينة المنورة دون تشريفات ، واتجه إلى مسجـد النبي (ص) فـور وصولـه ليلتقي بالإمـام الباقـر (ع) ، وكانت دروس الإمـام تنعقد بالمسجد النبوي ، فسلّم على الإمام البـاقر (ع) قـائلاً : كنت أعلم أنك في مثل هـذا المكان في مثـل هذا الـوقت ، وكان أجـدر بي ان آتي الى دارك ، لـولا حرصي وشـوقي للقائـك والاستماع إلى حـديثـك ، واود أن

(١) عمر بن عبدالعزيز بن مروان (٦١ ـ ١٠١ هـ) ابن عم الوليـد بن عبدالملك وواليـه على المدينة . تولى الخلافة بعد ذلك (٩٩ هـ) واشتهر بتقـواه وتمسكه بـالسنة . انصـرف إلى الاصلاح الداخلي والمالي ، وأظهر تسامحاً مع العلويـين ، فنهى عن سب علي (ع) عـلى المنابر . كما كان متسامحاً مع النصارى والموالي . (المترجم) .

أقول انني سأنفذ أوامرك وطلباتك ، فَمُرْ بما تشاء تُجَبْ .

ولا بد من الاشارة إلى أن العلويين (أولاد الإمام أمير المؤمنين علي (ع)) كانوا يعيشون في المدينة المنورة دون غيرها من المدن الاسلامية .

والمدينة المنورة ، وهي التي اشتهرت بأنها مدينة النبي (ص) ، كانت مسقط رأس الإمامين ، وبها من أهلها ومحبيها الجمع الكثير ، بحيث لم يجرؤ الوالي أو الحاكم الأموي على ايذائهما أو منعهما من الحديث أو التدريس ، ذكرنا هذا حتى يعلم القارىء كيف كان الإمام الباقر (ع) يلقي دروسه بحرية وعلى مرأى من الناس ، مع وجود حاكم أموي كهشام بن اسماعيل .

وقد عزم الوليد بن عبدالملك في السنة الثالثة لحكمه ، أي في سنة ٨٨ هجرية ، على أن يوسّع مسجد النبي (ص) ، وكان هذا الجامع قد بُني على يد الرسول (ص) ، وتاريخ بنائه معروف لا يحتاج إلى التكرار .

وكان المسجد قد وُسِّع قبل هذا التاريخ مرة دون هدم بيوت زوجات الرسول (ص) التي بقيت بمبانيها في المسجد . وكان بعض زوجات الرسول (ص) قد ابتعن بيوتاً غيرها ، وانتقلن إلى البيوت الحديثة بمساعدة الخلفاء الراشدين ، بينما آثر البعض الأخر حياة التقشف ، وبقين في البيوت الصغيرة بداخل الحرم النبوي الشريف .

وفي سنة ٨٨ هجرية ، انتقلت آخر زوجات الرسول (ص) إلى رحمة الله ، فخلا المسجد منهن نهائياً .

وأمر الخليفة الأموي واليه في المدينة آنذاك (عمراً بن عبدالعزيز) بأن يهدم بيوت زوجات الرسول (ص) ، ويضم إلى المسجد البيوت

المجاورة حتى تتسع رقعة المسجد إلى مائتي ذراع طولاً ومـائتين عـرضاً (أي ما مساحته أربعون ألف ذراع) .

وقـد أمر عمـر بن عبدالعـزيز معمـاراً فارسيـاً بـأن يخـطط لتـوسيـع المسجد ، بحيث لا يحول البناء دون مواصلة الإمام الباقر (ع) إلقاء درسه وبحثه ، وقال لـه : إنني أحب هذا الـرجل ، ولا أريـد أن يلحقه أذى من عمّالك وصنايعك أثناء عملهم .

وعندما بدأ العمل في توسيع المسجـد النبوي ، كـان جعفر الصـادق (ع) قد بلغ الثامنة ، أو الخامسـة (لاختلاف الـرواية حـول مولـده ، كما اسلفنا) فطلب من أبيه الإمام الباقر (ع) السماح له بالعمل والمشاركة مع الصناع في بناء المسجد .

فقال له أبوه (ع) : إنك طفل لا تُطيق مثل هذا العمل .

فقال الصادق (ع) : إنني أحب أن اشـارك في بناء المسجـد كجدي رسول الله (ص) .

فلم يسعه إلا الموافقة على اشتراكه في العمل .

ويرى البعض أن رغبة الصادق (ع) في المشاركة في بناء المسجد إنما انبعثت عن رغبة كل طفل في اللعب بالماء والطين ، ولكن الواقع أن رغبته كـانت تختلف عن رغبة الأطفـال الآخرين في اللعب ، بـالنظر إلى مـا كان يبذله من جهد كبير بالنسبة لجسمه الصغير ، وكان يأبى تلبية دعوة الأطفـال الذين هم في مثل سنّه للعب في شارع المسقى اثناء عمله في المسجد ، وإن كان قد شارك أطفالاً في مثل عمره بعض اللعب المتداولة في المـدينة المنـوّرة آنذاك .

ولعب الأطفال تتشابه في العالم كله ، ولكن كـانت في المدينـة المنورة

لعبتان متداولتان ، تختلفان عن لعب الأطفال في العالم .

أما اللعبة الأولى، فهي لعبة يراد منها شحذ الذهن وأعمال الفكر لحل اللغز واكتشاف المجهول . ومن مؤدى هذه اللعبة أن يجلس جعفر الصادق (ع) في مكان الأستاذ . والأطفال من حوله ملتفون ، ثم يلقي عليهم أسئلة عن خصائص شيء ما وأوصافه ، ويطلب منهم الاستدلال بذكائهم على هذا الشيء ، ومن ذلك مثلاً أنه كان يسألهم : ما اسم الفاكهة التي تنبت في منطقة كذا ولونها كذا وطعمها كذا وتقطف في فصل كذا ؟ (وبديهي أن الأمثلة التي نسوقها هنا تختلف عمّا كان يطرحه (ع) فعلاً من الأسئلة على الأطفال) . وكان على الأطفال الجالسين كالتلامذة من حول الصادق (ع) أن يحلّوا اللغز ، ومن سَبَقَ إلى حلّه ، اتخذ مكان الأستاذ ، وأخذ على عاتقه أن يطرح الأسئلة على الآخرين ، ولكن الصادق لم يكن يطيل مجلسه في موضع التلاميذ ، إذ أنه سرعان ما كان يحل اللغز مرةً أخرى ، ويعود بذلك إلى مكانه العتيد كأستاذ .

وكان جعفر الصادق (ع) قد تلقى أدبه وتربيته في أسرة من أشراف المدينة ، ولم يكن الأطفال الآخرون في شارع المسقى من نفس المستوى أو من نفس التربية والتعليم ، ولم يكن أحد منهم ينعم برعاية والد وجد ووالدة كالرعاية التي نعم بها جعفر الصادق .

ومعروف أن للأسرة تأثيرا عميقا في تربية الأولاد وتوجيه الطفل . وبسبب اختلاف أساليب التربية ، ينشأ الأطفال مختلفين في الطباع والعادات حتى وإن تجاوروا في المسكن أو كانوا من أسرتين متقاربتين .

ومن آثار التربية في نفس جعفر الصادق أنه (ع) كان لا يقول إلا صدقا ، ولعله ورث هذا عن أسرته ، أو تلقاه منها بفضل التنشئة والتربية . ولم يكن الصادق يجيز الكذب ، حتى وإن أنجاه ذلك عن عواقب وخيمة .

أما أترابه من الأطفال ، فإن كثرتهم الكاثرة لم تكن على هذه الشاكلة من حيث التربية الأصلية ، وما أكثر ما كانوا يكذبون إذا رأوا في ذلك مصلحة أو منفعة .

وعندما كان واحد من هؤلاء الأطفال يقعد مقعد الأستاذ في هذه اللعبة ، ثم يشرع في طرح الأسئلة الملغزة على زملائه ، كان الصادق يجيب إجابة صحيحة بعد سؤال أو اثنين ، ولكن الطفل الجالس في مكان الأستاذ ، حرصا منه على الاحتفاظ بهذه الرئاسة ، كان يزعم بأن رد الصادق بعيد عن الصواب ، وهو أمر كان الصادق يتألم منه تألما شديدا يحدوه أحيانا إلى اعتزال اللعبة ، وبغيابه تفقد اللعبة جديتها وطرافتها ، فيوافيه الأطفال معتذرين طالبين عودته إليهم . وعندئذ يقبل عذرهم مشترطا ألا يكذب أحد منهم .

أما اللعبة الثانية فهي لعبة خاصة بالمدينة المنورة ، وإن عرفت في غيرها ، ومن مؤداها أن الأطفال كانوا يختارون من بينهم أستاذا وعددا من التلاميذ ، ثم يأخذون كلمة « معينة » على وزن معين ، مثل كلمة (الشراعية) ، وكان على التلميذ أن يُعيد هذه الكلمة ويكررها كلما سئل . ورغبة من الأستاذ في اختبار مقدرة التلميذ على الحفظ ، كان يسوق على مسامعه الفاظا على وزن الكلمة المنتقاة ، مثل الدراعية والذراعية والصناعية والكفائية والزراعية وما إلى ذلك ، فيردد الطالب الكلمة المنتقاة ، أي « الشراعية » في كل مرة ، ولم يكن يشترط أن تكون للكلمات الجارية على وزن الشراعية أي دلالة أو معنى ، لأن الهدف من هذه اللعبة هو محاولة ايقاع التلميذ في خطأ بذكره لفظة وزنها مخالف لوزن الكلمة (الشراعية) ، وفي هذه الحال يخرج التلميذ من اللعبة ، ويحل محله آخر .

وهاتان اللعبتان كانتا تفرضان على الأطفال الجلوس والتحدث ، بينما

تتطلب الألعاب الصبيانية الأخرى حركات بدنية أو مسابقات في العدو ، وكان جعفر الصادق يشارك في هذه الألعاب أيضا .

وفي سنة ٦٠ هجرية ، انتشر مرض الجدري في المدينة المنورة ، فأصاب من أصاب من الأطفال ، وكان الصادق في السابعة أو العاشرة من عمره (على اختلاف الرواية) ، فقررت أم فروة الابتعاد عن المدينة المنورة بطفلها احترازاً من الأوبئة ، وسافرت ومعها جعفر الصادق إلى الطنفسة[١] وهي من القرى الريفية القريبة من المدينة .

ومعروف أن أسماء كثير من المدن والقرى مأخوذة من أسماء منتجاتها الصناعية أو غلّتها الزراعية ، الظاهر أن قرية الطنفسة اشتهرت بصنع نوع من الحصير الجميل من الألياف النباتية ، فاشتهر الموضع باسم هذا المنتج وهو « الطنفسة » .

وقد تغير اليوم اسم هذه المدينة أو استبدل به اسم آخر ، كما هو الشأن بالنسبة لأسماء المدن الاسلامية في القرنين الأول والثاني ، كيثرب مثلا التي سميت بالمدينة المنورة .

واستقرت أم فروة مع ابنائها في الطنفسة نأيا بهم عن اخطار هذا المرض الساري ، ومع ذلك أصيبت هي به دون أن تشعر في بادىء الأمر إلى أن ظهرت اعراض المرض على جلدها . فتنبهت بذكائها وثقافتها إلى خطورة الموقف ، وعوضا عن الاهتمام بعلاج نفسها ، طلبت إبعاد الأطفال عنها إلى مكان آخر بعيداً عن هذا الموضع ، فأخذوهم إلى قرية أخرى والأم تصارع آلام المرض وسريانه في جسمها .

---

(١) الطنفسة ، ج طنافس : البساط ، الحصير ، الثوب (فارسية) ، القاموس .

فإضطر الإمام محمد الباقر (ع) ، بعد وقوفه على النبأ ، أن يكف عن درسه بعض الوقت ويقرر الذهاب إلى الطنفسة ، وكعادة الهاشميين عند الملمات والأخطار ، زار قبر جدّه رسول الله (ص) في المسجد الشريف ، داعياً الله لإنقاذ زوجته من هذا المرض .

فلما رأت أم فروة زوجها الحنون ، خافت عليه من العدوى وقالت له : أوَ ما تعلم أن هذا المرض مُعْدٍ ، وأن السلامة تقضي بعدم لقاء المصابين به ؟

فقال الإمام الباقر (ع) : لقد دعوت الله عز وجل عند قبر جدّي رسول الله (ص) أن ينجيك من هذا المرض ، وإنني لواثق من أن جدي لا يردني ، وهو سيقضي لي حاجتي ومطلبي ، فثقي بأنك ستشفين من هذا المرض ، وأنا أيضا مصون منه إن شاء الله .

وقد تحقق ما قاله الإمام الباقر (ع) ، وشفيت أم فروة ، وزال عنها المرض الوبيل ، بل أن هذا المرض لم يخلّف فيها أي آثار سيئة ، مع أن هذا نادر الحدوث ، ومن خصائص هذا المرض أنه لا يصيب الكبار في السن إلا نادرا ، فإن أصابهم ، فقل من ينجو منه .

وفي رأي الشيعة أن الإمام يتمتع بقدرة غيبية غير محدودة ، وأن أم فروة شُفيت من المرض لزيارة الإمام ودعائه لها ، أي أنها شفيت بقدرة الإمامة ، وهذا رأي لا يسع المؤرخ تقبله على علاته خاصة وأن الأطباء كانوا آنذاك عاجزين عن معالجة هذا المرض ، وشفاؤها منه هو حالة استثنائية .

عادت أم فروة إلى المدينة المنورة بمفردها بعد شفائها ، ولم تستصحب أولادها معها لأن المرض كان ما زال متفشيا هناك .

جعفر الصادق في مدرسة الإمام الباقر :

منذ سنة ٩٠ هجرية وجعفر الصادق (ع) يحضر درس أبيه الإمام الباقر (ع) ، والمؤرخون متفقون على أن جعفرا الصادق (ع) كان يحضر درس أبيه (الدروس العامة) وهو في العاشرة من عمره .

وكانت دروس الإمام الباقر (ع) في مدرسته تعتبر آخر مرحلة من مراحل الدراسة ، أو هي من قبيل الدراسات المتقدمة في مدينة الرسول (ص) . وكان معظم طلابه من الفقهاء والعلماء أو الباحثين . فمن سديد الرأي أن نقول إن جعفراً الصادق (ع) بدأ دراساته العليا من العاشرة ، وهو أمر غير مستبعد بالنسبة لمن كان كالصادق (ع) قوة ذاكرة وذكاء .

والمعروف في الغرب أن كثيراً من مشاهير العلماء بدأوا دراساتهم الجامعية في سن مبكرة .

وقد أشرنا في ما مر إلى المواد والدروس التي كان الإمام الباقر (ع) يدرسها في مدرسته ، وعندما حضر جعفر الصادق (ع) درس والده لأول مرة ، بدأ الإمام الباقر يدّرس جغرافية بطليموس ، وفي هذه الجلسة سمع الصادق (ع) للمرة الأولى عن كتاب المجسطي لبطليموس ، وعن رأي هذا العملاق الجغرافي في شأن كروية الأرض ، وهو الرأي الذي قال به بطليموس في القرن الثاني الميلادي .

ويعتقد البعض أن كوبرنيكوس المنجم البولوني الشهير الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي هو الذي اكتشف نظرية كروية الأرض[١] ، ولكن الواقع أن معظم المنجمين والعلماء في مصر القديمة أيام

---

(١) كوبرنيكس (Copernic) فلكي بولوني ولد عام ١٤٧٢ م وتوفي ١٥٤٣ م . وقد أقام البرهان على دوران الكرة الأرضية حول نفسها وحول الشمس.

الفراعنة قد قالوا بكروية الأرض .

وفي مكتبة الفاتيكان بروما مخطوطات علمية يرجع تاريخ تأليفها إلى اكثر من ألف سنة قد تناولت موضوع كروية الأرض ، بالإضافة إلى أن كريستوف كولمبس[1] بدأ رحلته البحرية (استناداً إلى نظرية كروية الأرض) ووجهته الوصول إلى جزر الأعشاب الطبية في الشرق عن طريق الغرب ، وذلك قبل أن يدعو كوبرنيكوس إلى نظرية كروية الأرض ودورانها حول الشمس ، وقبل أن يدوّن هذه النظرية .

وقبل ذلك أيضاً ، بدأ ما جلّان البرتغالي رحلته البحرية ليطوف حول العالم ويعود إلى اسبانيا بعد ثلاث سنين . وقد ضم في رحلته البحرية هذه عدداً من البحّارة بمساعدة ملك اسبانيا ، الذي كان يعمل في خدمة بلاطه ، ولكن الحظ لم يواته ، وقتل في إحدى الجزر الفلبينية ، بينما أتم زملاؤه الرحلة . وعادوا إلى اسبانيا بعد سفر طويل حققوا فيه نظرية كروية الأرض[2] بصورة عملية .

فالقول بكروية الأرض كان سابقا إذن على نظرية كوبرنيكوس ، بل قد دعا إليه المصريون والأغريق القدماء ، وأكده بطليموس في كتابه المجسطي[3] ، ولكن بطليموس كان يقول بأن الأرض هي مركز العالم ،

---

(١) كريستوف كولومبس (C. Colombos) ١٤٥١ م - ١٥٠٦ م بحار رائد ، ولد في جنوب ايطاليا وتوفي باسبانيا وهو مكتشف أمريكا .
أبحر من بالوس في ٣ آب ١٤٩٢ ووجهته بلاد الهند عن طريق الغرب ، فوصل إلى شواطيء سان سالفادور (أمريكا الجنوبية) في ١٢ تشرين الأول ١٤٩٢ (المترجم) .

(٢) فردنان دي ماجلان (Magellan) (١٤٨٠ - ١٥٢١ م) رائد برتغالي ، اكتشف المضيق المعروف باسمه في عام ١٥٢٠ م وقام بأول رحلة حول العالم ، ولكنه قتل في إحدى جزر الفلبين (المترجم) .

(٣) بطليموس القلوذي (بطولوميوس كلوذيوس) صاحب « المجسطي » أشهر كتب الفلك في العصور الأولى ، ثم أقليدس صاحب كتاب الهندسة المشهور (المترجم) .

وأن الشمس والقمـر والنجوم الأخـرى تـدور حـولهـا ، في حـين أن كوبرنيكـوس يقول أن الأرض كـروية ، وإنها تـدور حول الشمس وحـول نفسها . وإن الشمس هي مركز العالم .

واتفق في سنـة ٩١ هـ ، وجعفـر الصـادق (ع) مـا زال طـالبـاً في مدرسة أبيـه ، أن حدث حـدثان كـان لهما أثـر كبير في الإبـانة عن مـواهبه وقدراته العلمية . أولهما أن محمداً بن فتى ، وهو من تـلامذة الإمـام الباقـر (ع) ، عاد من مصر حاملاً معه هدية إلى الإمام الباقر (ع) قـوامها كـرة أرضية مصغّرة مصنوعة من دقيق الخشب . وكان صنّاع مصـر يستخدمـون نشـارة الخشب أو الخشب نفسـه في صنـع كثيرٍ من التمـاثيـل والنمـاذج الزخرفيـة التي تنقل إلى خـارج مصر لتقـدم كهدايـا أو تذكـارات . وكانت الكـرة الأرضية المصغـرة التي حملها محمـد بن فتى من مصر ، مـركّبـة عـلى قاعدة مستديرة في سمائها مجمـوعة من النجـوم كما تصـورها بـطليموس في كتابه « المجسطي » في القرن الثاني الميلادي .

وكان بطليموس قد قسّم النجـوم التي تُرى بـالعين المجـردة إلى ثمان وأربعـين صورة ، وكـان هذا هـو التقسيم الشائـع لـدى علماء الفلك قبـل بطليموس ، غير أنه أتمّه ووضحه .

أما المجموعات الفلكية الثابتة ـ حسب رأي بـطليموس ـ فهي ثمـان واربعون ، ولكل منهـا صورتهـا الخاصـة وشكلها المعـيّن . وقد صـور هذه المجموعات حول الكرة ، ودوّن عليها اسماءها باللغة المصرية القديمة .

وصوّر على الكرة نفسها اثنتي عشرة مجموعـة من النجوم ، من بـرج الحمل حتى برج الحـوت ، على هيئـة حزام يـطوّق الكرة . وكـانت صورة الشمس تقـع خلف الكرة بحيث تكشف عن دورانها حـول الأرض ، ومن على منطقة البروج مرة كل سنة .

وصوّر على الكرة أيضاً القمـر والسيّارات الأخـرى وهي تدور حـول الأرض .

كـانت هـذه الكـرة أول نمـوذج مصغّـر للكـرة الأرضيـة والسيّـارات الأخرى يراه جعفر الصادق (ع) ، ومع أنه كـان آنذاك في الحـادية عشـرة من عمره ليس إلا ، فقد انتبه بذكائه الوقّاد إلى الخطأ الكبير الذي وقع فيـه بـطليمـوس . وفي هـذا قـال : إذا كـانت الشمس تـدور حـول الأرض ، وتنتقل من برج إلى آخر في ثلاثين يوماً لتتم دورتها مـرة كل سنـة ، فما هـو السر إذن في غياب الشمس كل ليلة لتظهر في صباح اليوم الثاني ؟ .

وإذا كانت الشمس تستقر في كل برج شهراً واحداً ، فلا بد إذن أن نراها بصورة مستمرة ، فلا تغيب عنا كل مساء .

كان نقد جعفر الصادق (ع) نقداً علمياً دقيقاً ، فقام بتخطئة بطليموس في رأيه القائل بوجود حركتـين للشمس ، حركـة في البروج الاثني عشـر حول الارض مرة كل سنة ، وحركـة حول الارض مـرة في كل يـوم وليلة ، ومن هنا نرى الشمس ، حسب رأي بطليموس ، تغيب عنا كل ليلة في المغـرب لتظهر صباحاً من المشرق ، وهي حركة يومية نسبها إلى الشمس .

ورأى الصادق (ع) أن هناك استحالة في التقاء هاتـين الحركتـين في آن واحد ، لأن الشمس إذ تسير في منطقة البـروج لا يسعها أن تتـرك هذا المسار لتدور حول الارض مرة كل يوم .

وفي ذلك الوقت ، كان قد مـرّ على وفـاة بطليمـوس ٥٦٠ سنة ، ولم يكن أحد قد تنبه في هذه الفتـرة الطويلة إلى هـذا المشكل ، ولا كـان أحد ليجروء على انتقاد رأي بطليموس أو تخطئته .

ولم يكن رأي بطليموس رأيـا يمتنع عـلى النقد أو المنـاقشة ، كـما كان

شأن الآراء الفلسفية والدينية اذ ذاك ، ولكننا نعتقد أنه كان هناك سببان اساسيان وراء انتشار هذا الرأي وذيوعه دون نقد أو اعتراض .

الأول : ما كان يتمتع به الاستاذ في القديم من منزلة عليا واحترام كبير ، مما كان يورث التلاميذ اعتقاداً بأن الأستاذ على حق دائما في كل ما يذهب إليه ويقول به من آراء .

والسبب الثاني هو قلة حفاوة الطلبة بالمسائل العلمية المعقدة التي تحتاج إلى امعان الفكر واجراء التجارب العملية .

ومن الغريب ان جامعات الغرب لم تطرح بدورها رأي بطليموس على بساط البحث والنقد ، شأنها شأن الجامعات والمدارس العلمية في الشرق . وكان جعفر الصادق أول من التفت إلى الخطأ أو الفساد في هذه النظرية وهو آنذاك في سن مبكرة يدرس في مدرسة والده الامام محمد الباقر (ع) .

ومن هذا اليوم بدأ جعفر الصادق يفكر في مكمن الخطأ في نظرية بطليموس ، وكيف أن الشمس تغيب في كل ليلة وفي نفس الوقت تقول أنها تدور حول الأرض في منطقة البروج لتكمل الرحلة في سنة كاملة .

أشرنا قبلاً إلى ان مدرسة الإمام محمد الباقر (ع) كانت تدرس علوم الجغرافيا والهندسة والهيئة إلى جانب الفقه والتفسير ، وأن الامام الباقر (ع) كان يقوم بنفسه بتدريس هذه المواد العلمية ، ويبدو أن علمي الهندسة والهيئة وصلا إلى المدينة المنورة عن طريق أقباط مصر ، وأن الإمام الباقر (ع) كان واقفا على القواعد الهندسية التي وضعها اقليدس اليوناني ، لأن اقليدس عاش في القرن الثالث قبل الميلاد وكان يقول بكرويّة الأرض ، ورغم براعة اقليدس في الهندسة ، فقد اخفق في تحديد

حجم الكرة الأرضية أو مساحتها .

وكان الاعتقاد السائد وفقاً للاساطير اليونانية القديمة ، وقبل تدوين تاريخ اليونان العتيقة لالقاء الضوء على التفكير الاغريقي حول توالي الليل والنهار ، أن هناك آلافاً من الأجرام الشمسية ، وأن الشمس التي تغيب ليلا تغوص في وادٍ مجهول لتشرق في مكانها شمس أخرى في اليوم التالي ، وأن شمس هذا اليوم تختلف عن الشمس التي غربت في الليلة الفائتة ، ومن مؤدى رأي الاغريق القدماء ـ بذلك ـ ان لكل يوم شمسا مستقلة تشرق من المشرق ، خلاف الشمس التي غربت في اليوم السابق ، وأن زيوس (Zeus) رب الآلهة (ويقال له في اللاتينية جوبيتر Jupiter(*)) يملك كثيرا من الأنوار والمصابيح التي يطلق منها في كل فجر مصباحا يسبح في السماء ليضيء الأرض ويدفئها ، ومتى استنفذ وقود المصباح ، أو صارت النار رمادا ، حل الغروب ، أما المصابيح والأنوار المستهلكة ، فتسقط في مكان مجهول لا سبيل إلى الاهتداء إليه .

وثمة سؤال هو : هل كان زيوس (رب الآلهة) يُعيد تزويد المصابيح بالوقود ليطلقها من جديد إلى السماء مرة أخرى ؟

لم يكن الرد على هذا السؤال مؤكدا ، اذ ان البعض كان يعتقد بأن لزيوس مثل هذه القدرة بل أكثر ، في حين أن البعض الآخر كان يرى ان شمس كل يوم غير شمس اليوم السابق .

وكان الأغريق في القديم يفسّرون المسائل الفلكية في ضوء ما يقرره « زيوس » العالم ، وما ينسبه إليه .

وابتداء من مطلع القرن الخامس قبل الميلاد ، الذي يعتبر عصر

(*) يقابلها في العربية لفظ (المشتري) . ....Jupiter

النهضة العلمية في اليونان ، وتحت ايدينا التاريخ العلمي لهذه الفترة ، اخذ اهتمام اليونان بمسائل الفلك يتضاءل ، وظهرت الفلسفة وعلوم الاجتماع على المسرح ، واستأثرنا باهتمام معظم علماء اليونان ، فاهتم سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وهم من أشهر فلاسفة اليونان ، بعلوم الاجتماع والفلسفة دون سواها من أبواب المعرفة ، وإن كان أرسطو اهتم بالفيزياء والأرصاد الجوية والفلك ، وألّف في هذه العلوم ، ولكن معظم اهتمامه انصب على الفلسفة ايضاً ، واشتهرت مدرسته بالفلسفة المشائية ، وقد عالجت موضوعات علم الاجتماع ايضاً .

في مثل هذا المجتمع ، ظهرت محاولات أخرى من بعض علماء الفلك والنجوم ، منهم اقليدس الذي كان رياضياً مهندساً أكثر منه منجماً أو فلكياً ، وهو الذي فنّد الرأي القائل بأن زيوس هو الذي يرسل في فجر كلّ يوم شمساً إلى السماء لتذوب ويخبو ضياؤ ها عند الغروب .

وقد عاش اقليدس أربعة قرون ونصف قرن قبل بطليموس في الاسكندرية ، وكان يرى أن الشمس التي تغرب عن أعيننا عند الغروب هي نفسها التي تشرق مرة أخرى في فجر اليوم التالي ، وذلك لأنها تدور حول الارض الكروية في كل يوم وليلة .

وقد اكتشف هذا الرأي في مؤلفات اقليدس بعد موته بسنين ، والغريب في الأمر ، أن اقليدس لم يجروء على إبراز هذه النظرية طيلة حياته ، مع أن عصره أي القرن الثالث قبل الميلاد ، كان عصر العلم وعصر انطلاقة حركة البحث العلمي والتحقيق . وكان « بيرون »(*) ، المعاصر لإقليدس (في اليونان) يناقش آراء أرسطو وأفلاطون ويعارضها ،

(*) هو رئيس الشكاكين من الفلاسفة . . .

بل ينفي وجود آلهة للاغـريق قائـلا أن ذلك خـرافة ، مـع العلم بأن هـذا الموقف كان معارضة منه للمذهب الرسمي في اليونان .

ولكن بيرون كان يعيش في مـدينة « أليس » . وقضى حيـاته في غـير الاسكنـدرية ، وتـوفي سنة ٢٧٠ ق. م. وكـانت المدن اليـونانيـة في ذلـك الوقت شبه مستقلة ، يحكمها حكام وأمراء يختلفون من حيث منهج التفكير وأسلوب الحكم والنظرة إلى الحياة والكون وما إلى ذلك .

عـاش إقليدس في الاسكنـدرية أيـام حكم بطليمـوس الأول ، وهو مؤسس أسرة البطالسة ورأسها وكان ينادي بحرية الـرأي ويحترم العلماء مـا داموا لا يتعرضـون لموضـوع الآلهة ونقـد الدين ، وهـو الذي أسس مكتبـة الاسكندرية الشهيرة التي ذاع صيتها في ما بعد .

وكـان من توجيهـات بطليمـوس الأول ألا تتعرض المبـاحث العلمية للمسائل الدينية ، فإن تعرضت نـظرية علميـة مع رأي ديني ، وجب عـلى العالم التراجع ، فلا يتصدى للعقيدة والرأي الديني .

لهذا فقد تعـذر على إقليـدس في حياتـه أن يعارض العقيـدة الدينيـة القائلة بأن زيوس يرسل شمساً في إشراقة كل يوم إلى السماء ، وأن يصحح هذه العقيدة بقوله إن الشمس هي التي تدور حول الارض ، وقد عثر على هذا الرأي مدوّناً في مذكرات إقليدس ومؤلفاته بعد وفاته .

ولمّا جاء العـالم الجغرافي بـطليموس بعـد حوالي قـرن من إقليدس ، أخرج هذه النظرية إلى النور ، ولا يستبعد أن يكون قد نقلهـا عن مؤلفات إقليدس ومذكراته الموجودة في مكتبة الاسكندرية ، فقام بتـدوينها واعـلانها حتى اقترنت هذه النظرية باسمه .

أما « بيرون » اليوناني ، الذي كان ينفي وجـود آلهة الأغـريق ، فلم

يتحـدث عن توالي الليـل والنهـار أبـداً ، ولكنـه اشتهـر في تـاريـخ العلوم الاغريقية بأنه (أبو الشكاكين) لمعارضته للعقائد الدينية وتفنيده لها ، وكان من مذهبه أننا نفتقر إلى دليل علمي دقيق يهدينـا إلى معرفـة كنه الـوجود ، وكان يقول إن الآراء والنظريات الفلسفية المتعلقة بالوجود يتعارض بعضهـا مع البعض الآخر ، أو يمكن الردّ عليها بآراء ونظريات أخرى(*) .

وللمثال ففي كل سنة تتساقط على الارض ملايين من ثمرات التفاح الناضجة على مرأى من الآلاف ومسمع ، ومع ذلـك لم يخطر ببـال أحد أن يسـأل عن سبب سقوطهـا ، ولِمَ لا تطير في الهـواء . أو تنحـرف شـرقـاً أو غرباً ، أو تقع في مكان آخر خلاف الأرض . وظل هذا التسـاؤ ل غائبـاً ، إلى أن جاء نيوتن في القرن السابـع عشر الميـلادي واكتشف قانـون جاذبيـة الأرض عندما سقطت تفاحة على رأسه .

صحيـح أنـه كـان هنـاك الآلاف من العلماء والفـلاسفـة في الشـرق والغرب ، الذين اتيـح لهم في مطلع القـرن الثامن الميـلادي أن يقفوا عـلى نظرية بطليموس بشأن دوران الشمس حول الأرض ، ولكن أحـداً منهم لم يسأل عن الشمس ، وكيـف أنها تدور حول الأرض في منطقـة البروج ، ثم تتـرك هذا المسـار (في منطقـة البروج) لتـدور في نهار وليـل حـول الأرض أيضاً .

وكانت مدينـة الاسكندريـة الواقعـة في شمال مصـر مركـزاً للفلسفة والعلوم منذ أن أسست فيها المكتبة الشهيرة على يدي رأس أسرة البطالسـة (بطليموس الأول) ، وظلت تتمتع بهذه المنزلة إلى يـوم سقوطهـا في أيدي الجيش العربي عند الفتح الإسلامي وعند إحراق مكتبتها[1] ، أي ما يقرب

(*) وعليه فيتعين الشك في هذه الآراء والنظريات كلها جملة واحدة . . .

(١) قضية إحراق مكتبة الاسكندرية أو مكتبة جنديسابور بأيدي جيوش الفتـح الاسلامي هي =

من تسعمائة عام . وقد اشتهر علماء مدرسة الاسكندرية بآرائهم الفلسفية ، وكانوا على قدر وافر من النشاط والعمل العلمي الدائب ، ومع ذلك فلم ينبر أحد من المفكرين والعلماء في هذه المدرسة العلمية لمناقشة نظرية بطليموس بشأن دوران الشمس في منطقة البروج . ودورانها في نفس الوقت حول الارض مرة في كل يوم وليلة ، كما لم يتنبه أحد إلى فساد هذا الرأي ، إلى أن جاء جعفر الصادق (ع) وتنبه إلى استحالة اجتماع هاتين الحركتين معاً ، مع أنه كان آنذاك في مطلع شبابه ، وكان يعيش في مدينة بعيدة عن الاسكندرية وليست مركزاً علمياً مشهورا مثلها ، وما ذلك إلّا لأن هذا الشاب اليافع كان ذا عقلية علمية تفوق بكثير العقليات التي وجدت في مدرسة الاسكندرية والتي عاشت في قرون متوالية بعد ذلك .

ولم يكن لجعفر الصادق (ع) اهتمام في أيامه هذه بالشؤون الاقتصادية ، ولا عقلية تجارية أو مالية ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للصبية في مثل سنّه ، إذ أنهم لا يتحملون تبعة كسب القوت ولا يعولون أسرهم ، ولكنه (ع) كان يملك القدرة على التفكير السليم ، وكانت له عقلية علمية منظمة فذة تساعده على اكتناه الأمور والوصول إلى النتائج الصحيحة في أبحاث العلوم ، ولا سيما أبحاث النجوم والفلك التي قصرت عن إدراكها عقليات غيره من معاصريه .

وعندما أعلن جعفر الصادق (ع) رأيه في استحالة اجتماع حركتي الشمس (١ ـ في منطقة البروج و٢ ـ حول الأرض) لم تستطع العقلية العلمية لغيره من معاصريه أن تدرك أهمية هذا الرأي وتستوعب حقيقة

= من القضايا الملفقة ضد المسلمين ، ولا دليل عليها في أي مرجع تاريخي يعتد به ، وأما ما قيل من أن الخليفة عمر بن الخطاب قال لقائد جيوش المسلمين في أرض فارس عندما سأله عما ينبغي عمله بالنسبة للمكتبة : « احرقوها ، كفانا كتاب الله » ، فرواية ضعيفة . (المترجم) .

مداه ، لأن هذه العقلية كانت من الضعف بحيث استعصي عليها هذا الفهم ، وتعذر عليها بالتالي أن تولي آراء الصادق ما هي أهل له وجديرة من الاهتمام والعناية .

وهذا هو حال كل عبقري أو مفكر يرتفع بتفكيره الوسط الذي يعيش فيه ، فهو يرى الأمور بعين ومنظار يختلفان عن مقاييس رؤ ية عامة الناس لها ، وهي رؤ ية لا تتجاوز الأمور المحسوسة والحاجات اليومية الدارجة .

فمثلاً هذا التقدم الذي أحرزه الطيران في عصرنا هذا ، والرحلات الفضائية أو المكوكية التي يسرت على الانسان أن يضع قدميه لأول مرة على سطح القمر ، لا ريب في أنه يعود الفضل فيها إلى نظرية نيوتن الخاصة بجاذبية الأرض . والغريب ان اكتشاف نيوتن لقانون جاذبية الأرض ، الذي هو قطعاً من أهم القوانين الطبيعية التي اهتدى إليها الانسان ، لم يصادف من عامة الناس في عصره اهتماماً يُذكر ، بل ان جريدة « الديلي نيوز » ، وهي أولى الصحف البريطانية في ذلك الوقت ، وكانت تصدر اسبوعيا ، لم تحفل بنشر نبأ هذا الكشف العلمي في حينه ، وطبيعي أن الصحف الأخرى لم تهتم بدورها بهذا الكشف ، ولم تورد النبأ إلا بعد ثلاث سنين أو أربع ، هذا في الوقت الذي كانت فيه هذه الصحف مشغولة بانباء السرقات وجرائم النهب والسلب والقتل والاحداث اليومية ، لأن في عرفها أن لهذه الاخبار ـ دون غيرها ـ أهمية قصوى للقراء لارتباطها بحياة الناس .

أما العلماء والباحثون الذين وقفوا على هذا الكشف العلمي ، فلم يشيروا اليه لكونهم لم يشتركوا في الاهتداء الى ناموس الجاذبية ، ولأن الحسد هو من طبيعة البشر ، ولكن العالم عرف هذه النظرية العلمية في ما

بعد، واهتمت بها بريطانيا، وكرّمت صاحبها نيوتن بمنحه لقب سر (Sir) ,

فإذا كان القوم في القرن السابع عشر لم يهتموا في الغرب باكتشاف نيوتن لناموس الجاذبية، فلا عجب أن يكون أهل المدينة المنورة في القرن الثامن قد نظروا بقلة اهتمام الى ما كشف عنه جعفر الصادق (ع)، ولكن الفرق بين عامة الناس في المجتمع البريطاني في القرن السابع عشر وبين الذين كانوا يحضرون مدرسة ا لإمام الباقر (ع) في القرن الثامن، فرق شاسع، إذ أن رواد مدرسة الإمام الباقر (ع) كانوا من العلماء والباحثين، ولم يكن مقبولا منهم أن يمرّوا بالمسائل العلمية دون التفات واهتمام، فإن كان قد فاتهم من قبل أن يهتدوا إلى ما اهتدى اليه جعفر الصادق (ع) من استحالة الجمع بين حركتي الشمس (في دائرة البروج ودورانها حول الأرض)، وهو الرأي الذي ذهب اليه بطليموس، فقد كان منتظرا منهم أن يستقبلوا رأي الصادق (ع) بالاهتمام والمدارسة، وأن يبحثوا عن سبب آخر لتعاقب الليل والنهار، ولكن تفكيرهم العلمي كان محدودا جدا، ولم يسعهم مناقشة هذه النظرية مع منشئها جعفر الصادق (ع) نفسه. ولعل من أسباب تقاعسهم أن جعفراً الصادق (ع) كان في ذلك الوقت طري العود، وعمره لا يزيد على اثني عشر ربيعا، بينما أصحاب الامام الباقر (ع) وطلاب مدرسته كانوا في غالبيتهم رجالا متوسطي العمر أو متقدمين في السن، ولعل هؤلاء كانوا يرون في أقوال الصادق (ع) كلام صبية، ولو أنهم دققوا النظر فيها، لاستبان لهم وجه الحقيقة ناصعا مجلوّا.

لقد كان جعفر الصادق (ع) يرى حول الأرض دائرة واسعة مقسمة الى اثني عشر برجا، وكان يرى صورة الشمس وهي تدور في هذه الدائرة من برج إلى برج، فسأل نفسه قائلا: إذا كان لا بد للشمس أن تدور في هذه الدائرة مرة واحدة في كل سنة، فكيف لها أن تغادر هذه الدائرة لتدور

حول الارض مرة واحدة كل نهار ومساء؟ ان اجتماع هاتين الحركتين معا غير مستطاع عقلاً.

وقد تكون هذه النظرية واضحة ومفهومة للناس جميعا في يومنا هذا، ولكنها لم تكن واضحة أو مفهومة لطلاب مدرسة الباقر (ع) فكيف لعامة الناس آنذاك؟

وفي القرن السابع عشر الميلادي وحين نادى كوبرنيكوس البولوني بنظرية دوران الأرض حول الشمس، لم تصادف هذه النظرية اهتماما أو قبولا في مجتمعه بدوره، بل ان الموت كان يترصد له لدعوته الى رأي مخالف للعقيدة الدينية القائمة عندئذ، ولم ينقذه منه إلا أنه كان يعيش في بولونيا، وليس في روما أو المانيا أو في اسبانيا مثلا حيث كانت محاكم التفتيش العقائدية Inquisition تلاحق الخارجين على الدين والمعارضين والمناوئين للمسيحيين للمتشددين المسيحيين (التوركفادا) Turquevada، وتحكم عليهم في الأغلب بالسجن أو التعذيب حتى في أتفه مسائل الخلاف، وقد كانت نظرية كوبر نيكوس هذه دخيلة على التفكير المسيحي السائد، لقوله بأن الأرض وسيارات أخرى هي التي تدور حول الشمس، وهو ما يكون جزاء صاحبها الاعدام بلا ريب، ولقد سبق لهذه المحاكم أن عاقبت جاليليو Galilée وحرمته من مزاولة الطقوس الدينية وطردته من الكنيسة.

ولكن بولونيا كانت خارجة عن دائرة نفوذ هذه المحاكم ولذلك أبدى كوبر نيكوس رأيه هذا في دوران الأرض حول الشمس، دون أن يمسه أذى هذه المحاكم وعقابها المنتظر، في حين أن جاليليو، الذي اخترع منظار المراصد (التلسكوب) وبرهن على رأي «كوبرنيكوس» علميا وعمليا، لم يستطع النجاة من سطوة هذه المحاكم القاسية، فألقي القبض عليه، وأودع السجن، وكان من المنتظر أن يحكم بإحراقه لولا تدخل بعض أصحاب

النفـوذ وحمايتهم لـه، مع أنـه ورغم تدخـل هؤلاء السياسيـين أو أصحاب السلطة، فإن المحكمة لم تفرج عنه بـل فرضت عليـه أن يسحب قولـه بأن الأرض تدور حول الشمس وأن يتوب عن هذه الهـرطقات، ويتعهـد بعدم تكرار مثل هذا القول من أقوال الكفار والملاحدة.

وبين أيدينا رسالة جاليليـو في التوبـة وطلب العفو والاعتـذار، وهي تثبت أن نظرية دوران الأرض حول الشمس لم تكن من ابتداع جاليليو بـل نقلها عن كوبرنيكوس البولوني.

حرية البحث العلمي في الاسلام

لا ريب في أن المدينة المنورة في عام ٩١ للهجرة ومدرسة الإمام الباقر (ع) بها كانتا تتمتعان بحرية لم تتمتع بها معظم المدارس والجامعات الأوروبية في القرون الوسطى، بل في القرنين الأول والثاني من عصر النهضة أيضا[١].

وقد رأينا كيف أن جعفرا الصادق (ع) انتقد وفنّد نظرية بطليموس في دوران الشمس حول الأرض في يوم وليلة، بعدما وقعت في يده الكرة الارضية التي جيء بها من مصر، في حين أن العلماء والباحثين في بداية عصر النهضة لم يتمكنوا من المجاهرة بالاعتراض على هذه النظرية.

وفي الوسع القول بأن المسلمين عامة كانوا أكثر حرية في دراسة المسائل العلمية ومناقشتها، حتى لو تعارضت مع مذهب أو رأي ديني، وحتى في أحلك فترات الحكم في التاريخ الاسلامي، كأيام بعض الخلفاء

---

(١) عصر النهضة أو التجديد (Renaissance) عند الاوربيين هو عصر العلم والصنعة واكتشاف البخار، وهو يبدأ من سنة ١٤٥٣ ميلادية أي من تاريخ سقوط القسطنطينية وفتحها على يدي السلطان محمد الفاتح. (المترجم).

العباسيين، وأن الباحث المسلم كان أكثر حرية من الباحث الأوربي في الإتيان بالنظريات العلمية.

وأما الفترات العصبية التي مرت بالتاريخ الاسلامي في أيام بعض الخلفاء العباسيين، والتي حُجر فيها على البحث في بعض الموضوعات الفلسفية أو المذهبية، كالبحث مثلا في موضوع خلق القرآن وهل هو قديم أم حادث، فقد كانت دواعيها هي خوف الخليفة من أن يفقد احترام الناس له ولمنزلته التي تقترب من القداسة، وبالتالي نفوذه وسلطانه.

ولو أن النقد الذي وجهه جعفر الصادق (ع) الى نظرية بطليموس ساق مثله باحث في اوربا، لأصابه على أقل تقدير جزاء التكفير والطرد من المجتمع الديني. ولو أن باحثاً أبدى هذا الرأي في اوربا في القرن الثالث عشر الميلادي والقرن الذي بعده، لكانت عقباه الاعدام والإحراق بالنار، وقد نص القانون الصادر عن المجمع الديني المنعقد عام ١١٨٣ ميلادية في مدينة «ورون» على أن جزاء الخارج على الدين الإعدام بالمقصلة (La Guillotine) ثم جاء البابا جورجيس التاسع ، ووضع قواعد محاكم التفتيش العقائدية (Inquisition) في سنة ١٢٣٣ للميلاد. ومنذ ذلك التاريخ، نفذت الأحكام الصادرة عن هذه المحاكم بإحراق كل من يدان بالاعتقاد بعقيدة تخالف المسيحية واعتباره خارجا على الدين.

وكانت لهذه المحاكم سلطة واسعة في التحري والتفتيش، حتى في حرم المدارس والجامعات، وكانت عقوباتها الصارمة في انتظار أي طالب يجرؤ على توجيه سؤال غير مألوف أو خارج عن قواعد الدين إلى الاستاذ، حتى ولو كان ذلك في قاعة الدرس وفي حرم الجامعة.

واستمرت هذه المحاكم تزاول نشاطها الى سنة ١٨٠٨ ميلادية عندما

تولى نابليون الأول السلطة، كامبراطور لفرنسا، فأمر بحلها وإلغائها، ولكن هذا الالغاء لم يستمر طويلا، اذ انها أعيدت في اسبانيا اعتبارا من سنة ١٨١٤ ميلادية، وظلت تزاول نشاطها إلى ما بعد عام ١٨٣٤ للميلاد.

وتكمن اسباب الجمود والتأخر وما يسمى بظلمة القرون الوسطى في اوربا في انعدام حرية الرأي والبحث، بينما تقدمت الحركة العلمية وتوسعت في العالم الاسلامي في هذه الفترة، فقد كان محظورا على الباحث أو العالم الأوربي أن يدلي بأي رأي أو نظرية تخالف نظرية الكنائس المسيحية، وكانت العقوبة شديدة لمن تسوّل له نفسه معارضة الآراء الدينية النصرانية، في حين أن الحرية في البحث وفي العكوف على نفس العلوم والنظريات العلمية(*)، وقبولها أو مناقشتها أو ردها، كانت سائدة في المجتمع الاسلامي في القرون الوسطى.

ومع أن اشعاعا من العلوم والفنون الشرقية كان يصل الى الغرب، الا أن الجو الحاكم المهيمن على ذلك المجتمع كان غارقاً في ظلام حالك، ولم تتمكن علوم الشرق وثقافته من النفاذ الى الوسط العلمي هناك، اللهم إلا بالنسبة لبعض فروعها كالطب والصيدلة.

فقد انتقلت الى العرب أرجوزة ابن سينا في الطب، ووضعت لها ترجمة باللاتينية، وقل من لم يحفظ أو يقرأ الترجمة اللاتينية بهذا المرجع بين اطباء الغرب في تلك الفترة، أما علوم الهيئة والنجوم فلم يكن يسمح بنقلها الى الغرب.

(*) بما فيها تلك النظريات المخالفة للآراء الدينية والمذهبية.

الخليفة الأموي ومدرسة الإمام الباقر (ع)

أشرنا الى أنه قد وقع للصادق في سنة ٩١ هجرية حدثان هامان كانا من الأهمية بمكان، الأول وصول نموذج الكرة الجغرافية من مصر، أما الثاني فكان قيام الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك برحلة الى الحجاز، وزيارته للمدينة المنورة.

وكانت رحلة الخليفة من عاصمة الأمويين في الشام الى الحجاز، من قبيل الزيارات الرسمية التي تقترن بالتشريفات والأبهة والمراسم الملكية المنقولة عن التشريفات الامبراطورية البيزنطية (بلاد الروم الشرقية). ومن مقتضى هذه التشريفات أن تسبق الخليفة طلائع من الحرس والخدم، ليهيئوا له أسباب الراحة في كل منزل وموقع.

خرج والي المدينة عمر بن عبدالعزيز مسافة خمسين فرسخا ليستقبل الخليفة بعدما أعد أوسع بيوت المدينة ودورها لنزول الخليفة وحاشيته.

ووصل الوليد بن عبدالملك الى المدينة، وأذن للناس بالدخول عليه في اليوم التالي، وكان عمر بن عبدالعزيز يحثّ الاشراف والتابعين من الصحابة على أن يكونوا في مقدمة الزائرين والمرحّبين بالخليفة، وكان يعلم أن الامام الباقر (ع) ليس ممّن يسعى الى الخلفاء والملوك، فتدارك الأمر، وجاء بنفسه الى الامام الباقر (ع) وسأله: هل تزور الخليفة غداً؟

فرد عليه الامام بالنفي.

فلم يستفسر عمر بن عبدالعزيز عن سبب ذلك، لأنه كان يعلم أن الامام الباقر (ع) لا يرى للخليفة بيعة في عنقه، ولا ولاء أو حباً له في قلبه يدعوه الى زيارته.

ولكنه قال للإمام الباقر (ع): إن هذه المدينة مدينة جدك، والزائر

لها أينما نزل نزل بدارك، وهو ضيف عليك، وهذا هو الوليد بن عبدالملك إن لم يكن خليفة فهو مسلم زائر نزل بدارك. أوَمَا تكرّمه؟

فأجاب الباقر (ع): من نزل علينا كزائر وضيف وجب حقه علينا، ولكن الوليد ابن عبدالملك نزل هنا. ويرى نفسه صاحب الحق والخلافة، فهو إذن صاحب الدار وليس ضيفاً علينا.

فقال عمر بن عبدالعزيز: إنني أعلم سبب امتناعك عن لقاء الوليد، حتى لا يقول الناس إنك بايعته واعطيته يدك.

فوافقه الإمام الباقر (ع) على قوله.

وعاد عمر بن عبدالعزيز يقول: إن جدك بايع على غير رغبة الخليفة الأموي، وكانت في تلك البيعة مصلحة للمسلمين، فزيارتك للوليد غداً ليست بيعة، وإنما هي لمنع الفساد ولمصلحة المسلمين، وامتناعك عن زيارته سيجلب عليّ المشاكل.

قال الامام الباقر (ع): وكيف يكون ذلك؟

قال عمر بن عبد العزيز: أنت تعلم أن للوليد أعينا في كل مكان يخبرونه عن كل ما يجري (وكان للدولة الأموية ـ بالفعل ـ جهاز للأمن أسسه معاوية بن أبي سفيان لأول مرة في التاريخ الاسلامي، واستمر نشاطه مع الخلافة)، والخليفة يعلم ما أكنُّ لك من ودٍ واحترام، فإذا امتنعت عن لقائه، فقد يظن إن هذا من صنعي أنا، وسيقول: لولا احترامك له ما حدث هذا، وقد ينتهي الأمر بعزلي من منصبي ومسؤوليتي هذه، وأنا أحب أن أحظى بلقائك والاستماع إلى حديثك دوما.

فقال الإمام الباقر (ع): ما كان ذلك غروراً أو كبرياء مني، ولكني آثرت العزلة على مخالطة السلاطين، وما دام الأمر كما تقول،

فسآتيه غداً لأمنع الغدر عن المسلم .

ففـرح عمر بن عبـد العزيـز عندئـذ ، وآستأذن الإمـام في أن يخبـر الخليفة بذلك ، فأذن له .

وفي اليوم التالي دخل الإمام الباقر (ع) على الوليـد بن عبد الملك . فقام الخليفة من مكانه وأجلسه بجانبـه ، وهذا تعبـير عن الاحترام الفـائق عند العرب، وخاصة لرؤسـاء القبائـل والأشراف ، والإمـام الباقـر (ع) كـان زعيم بني هاشم ، وسيـد قريش في زمـانـه ، وكـان الخليفـة الأمـوي يعتـرف بعلمـه وتقـواه ، وكـان خلفـاء بني أميـة يتـظاهـرون بحبّ العلماء واحترامهم ، فجرى حديث ودّي بين الخليفة والإمام الباقر (ع) .

وسأل الوليد الإمام الباقر (ع) عما يملك في المدينة ؟ .

فأجاب : أن لي مزرعة يكفيني وأهلي زرعها ، ولم يـبق لي ما يمكن بيعه.

قال الوليد : إن شئت أعطيناك أرضا ومزرعة في أية بقعة من الـدولة الاسلامية الشاسعة لتعيش مع أبنائك وأهلك وذويك في يسر وراحة .

فأجابـه الإمام البـاقر (ع) : إن هـذه المزرعـة تكفيني وأهلي ، وإن أولادي سوف يعملون ، وإن الله يرزقهم جميعـا ، ثـم قام من مجلسـه وودّع الخليفة وخرج .

كان الغرض الأول من زيارة الوليد للمدينة المنورة هو تفقد مـا أنجز في توسيع مسجد النبي (ص) ، ومتابعة أعمال الترميم والتوسيع بنفسه .

وكانت مدرسة الإمام الباقر (ع) وحلقات دروسه تنعقـد في مسجد النبي (ص) أيضا ، ودخل الوليد المسجـد النبوي ، فشـاهد مـا أنجز من أعمـال التعمير والتـوسيع ، فسـره ذلك ، ثم أتى إلى رواق الإمـام البـاقـر (ع) ، وسلم عـلى الإمام ، فتـوقف الإمـام (ع) عن التـدريس ، ولكن

الوليد طلب منه المضي فيه ، وكان موضوع الدرس الجغرافيا ، فاستمع الخليفة إلى حديث الإمام ، وكان غريبا على مسمعه .

فسأل الإمام : ما هذا العلم ؟

فأجابه : إنه علم يتحدث عن الأرض والسماء والشمس والنجوم ، فوقع نظر الخليفة على جعفر الصادق (ع) بين الحاضرين ، ولم يكن قد رآه من قبل ، فسأل عمّن يكون هذا الصبي بين الرجال ؟

فقال عمر بن عبد العزيز : هو جعفر بن محمد الباقر (ع) .

فأعجبه ذلك ، وسأل : وهل هو قادر على فهم الدرس واستيعابه ؟ .

فقال عمر بن عبد العزيز : إنه أذكى من يحضر درس الإمام ، وأكثرهم سؤالا ونقاشاً .

فاستدعاه الوليد وسأله : ما أسمك ؟

قال : اسمي جعفر .

فسأله الخليفة : أتعلم من كان صاحب المنطق ؟

أجاب جعفر : كان أرسطو ملقّباً بصاحب المنطق ، لقّبه إياه تلامذته وأتباعه .

قال الخليفة : ومن صاحب المعز ؟

قال جعفر : ليس هذا إسماً لأحد ، ولكنه اسم لمجموعة من النجوم ، وتسمى أيضا « ذو الأعنّة »[1] .

فاستولت الحيرة على الخليفة ، وعاد يسأله : هل تعلم من صاحب السواك ؟ .

---

(١) هذه المجموعة من النجوم تسمى في مصطلح علم النجوم الحديث « أوريكا » أو أوريجا .

أجاب جعفر : هـو لقب عبد الله بن مسعـود صاحب جـدي رسول الله (ص) .

فقـال الوليـد : مرحبـاً ومرحبـاً بك ، وخـاطب الإمام البـاقر (ع) قائلا : إن ولدك هذا سيكون علاّمة عصره .

وصـدق الوليـد ، وتحقق ما تـوسم في جعفر الصـادق (ع) ، لأنـه أصبح من أعلم العلماء ، بل أعلمهم على الاطلاق .

وكان الصاحب بن عباد المتوفي سنة ٣٧٥ للهجرة يقول : لم يظهر في الإسلام بعد وفاة رسول الله (ص) شخصية علمية بعظمة جعفـر الصادق (ع) ، ومن كـان كالصـاحب بن عباد علماً ومنـزلة سيـاسيـة لا يقـول إلا حقاً ، ولا يجامل في حكمه ورأيه ، فهو وزير البويهيين والشخصية العلميـة الفريدة في عصره ، وكانت مكتبتـه في مدينـة « الري » تضم مـا يزيـد على مائة ألف كتاب .

العلوم التجريبية في مدرسة الإمام الباقر (ع)

مـر بنا أن الإمـام البـاقـر (ع) كان يُعني في مـدرسته بتـدريس علوم أخـرى عدا القـرآن والحديث ، كـالتاريـخ والجغرافيـا والطب . أمـا في ما يتعلق بالطب ، فهناك روايتان مختلفتان ، تذهب الأولى إلى تـأكيد تـدريسه له ، في حين أن الثانية تنسب تدريسه إلى الإمام جعفر الصادق (ع) .

وأيـا كان الأمـر ، فليس ثمة شـك في أن الإمام جعفـراً الـصـادق (ع) كان ملماً بالطب ، وكان يلقي دروساً فيه ، أفاد منها كثـير من الأطباء والباحثين والمرضى في القرنين الثالث والرابع .

ومن نظرياته التي انتفع بها الأطباء في عصـره وبعد وفـاته ، رأيـه في إمكان تنشيط الدورة الدموية عند حدوث سكتة مفاجئة أو تـوقف مؤقت ،

حتى ولو ظهرت على المريض إمارات الموت أو علامات شبيهة بعلامات الموتى . وقد يُعيد الحياة إلى مريض بقطع وريد بين أصابع يده اليسرى إسالة للدم منه[1] .

وقد أثبت صحة هذه النظرية واقعة تاريخية حدثت في أيام هارون الرشيد ، الخليفة العباسي ، فقد ذكر المؤرخون أن ابراهيم بن صالح (ابن عم هارون الرشيد) مرض ، فعاده جبرائيل بن بختيشوع الطبيب[2] ، ثم دخل على هارون الرشيد وهو جالس إلى المائدة . فسأله هارون الرشيد عن ابراهيم بن صالح ، فأجاب بختيشوع أنه لا أمل في حياته ، وهو يعيش لحظاته الأخيرة ، وقد تركته والطبيب الهندي ابن بهلة يدخل عليه[3] .

---

(١) قال أبو هفان قلت لإبن ماسويه (الطبيب): أن جعفراً بن محمد (ع) قال : الطبائع أربع : الدم وهو عبد وربما قتل العبد سيده ، والريح وهو عدو إذا سددت له باباً أتاك من باب آخر ، والبلغم وهو ملك يدارى ، والمرة وهي الأرض إذا رجفت رجفت بمن عليها ، فقال ابن ماسويه : أعد عليّ ، فوالله ما يحسن جالينوس أن يصف هذا الوصف .
مناقب آل أبي طالب : لأبي جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهرآشوب المتوفي سنة ٥٨٨ هـ طبع قم ايران ج ٤ ص ٢٥٩ .
وقد عين علم الطب الحديث بأن المرة أو الصفراء هي اليوريا (Uree) وأن البلغم أو السوداء البلغي : هوحامض اليوريا (Acide Urique) (المترجم) .

(٢) جبرائيل بن بختيشوع من أسرة أطباء أصلهم من جنديسابور ، خدموا الخلفاء العباسيين قرابة ثلاثة قرون ، وجبرائيل بن بختيشوع من أشهرهم ، وله كتب نافعة في الطب والمنطق ، وله رسائل وجهها إلى المأمون ذكرها ابن النديم في الفهرست توفي عام ٢١٤ هـ ـ ٨٢٨ م . والاسم مركب من بُخت بضم الأول أي الخادم أو العبد ، ويشوع أي المسيح ، يعني عبد المسيح . (المترجم) .

(٣) جاء ذكر هذا الطبيب وأخباره في « تاريخ الشعوب الاسلامية » لبروكلمان ، الذي ذكر أن الطبيب الهندي الذي استدعاه هارون الرشيد من الهند اسمه « منكه » . « تاريخ الشعوب الاسلامية » ج ١ ص ٢٠٢ .

فقال هارون الرشيد : نعم ، لقد أرسلت في طلبك مرتين ولم أجدك ، فأرسلت في طلب ابن بهلة الطبيب ليعود ابراهيم بن صالح ، وكان ابن بهلة الهندي طبيباً في بغداد أيضا وهو ينافس بختيشوع ويحسده على مقامه عند الخليفة .

فأفزعه النبأ ، وترك الطعام ، وأمر برفع المائدة ، وبعد ساعة ، دخل ابن بهلة على الخليفة ، وشاهد الحزن والقلق مرتسمين على وجهه .

فابتدره هارون الرشيد بالسؤال عن ابن عمه ، وهل هو يحتضر .

فرد عليه ابن بهلة قائلا : لا ، فقد فحصته ، وأنا واثق من أنه سيبرأ من مرضه هذا .

فقال هارون الرشيد : أتكذّب ابن بختيشوع ، وهو طبيب أباً عن جد ؟

فقال ابن بهلة : يا أمير المؤمنين ، إن مات ابن عمك الليلة ، فلك كل ما أملك ونفسي . فسره هذا ، وزال عنه الحزن ، وأمر بالطعام من جديد ، وطلب الشراب ، وافرغ كأسا بعد أخرى ، وفي هذه الأثناء ، دخل عليه غلام ناعياً ابراهيم بن صالح قائلا إنه مات لتوه ، فأحزنه النبأ ، وأغضبه أنه كان يتناول الشراب وقت وفاة ابن عمه ، ولولا نشوة الخمر ، لكان غضبه أشد ، وأقبلت عليه الحاشية معزية مسرية .

وارتدى الخليفة السواد ، وجاء إلى بيت ابن عمه ليشارك في تجهيزه ودفنه ، وكان من جملة المجتمعين في البيت ابن بهلة الطبيب الذي كان ينظر إلى الميّت نظرة تفحص وتأمل وهو مسجى على منضدة الغسل . فوقع نظر الخليفة على هذا الطبيب ، وناداه غاضباً ، فأقبل الطبيب على أمير المؤمنين قائلا : لا تغضب ولا تتعجل مؤاخذتي لأن ابن عمك سيعيش .

فقال الخليفة : إني أمقت الكذب وأبغض الكذابين ، وهذه فرية غليظة منك .

فقال ابن بهلة : إن ابن عمك لم يمت ميتة كاملة ، فما زالت به نسمة حياة ، ولسوف يعيش ، ولكنني أخشى إن هو نهض ورأى نفسه عارياً على المغتسل أو في الكفن أن يكون وقع الصدمة عليه قاتلا ، فلعلك تأمر بإزالة آثار الكافور عنه ، وإعادته إلى ثيابه ، ووضعه في سريره لأقوم بعلاجه .

فأمر هارون الرشيد بإنفاذ ما طلبه ابن بهلة ، الذي تناول سكيناً حادة ، وقطع عرقاً بين أصابع اليد اليسرى للمريض ، فنزف دمه ، وعندئذ رآه الجميع وهو يتحرك ببطء . ولم يلبث أن فتح عينيه ، فرأى هارون الرشيد واقفا عند رأسه ، وشكره بصوت خفيض متخيلاً أن الخليفة جاء لعيادته .

سبق القول بأننا نفتقر إلى شواهد تؤكد أن الإمام محمداً الباقر (ع) كان يدرس الطب ، ولكننا واثقون من أن جعفرا الصادق (ع) درس علوم الطب في مدرسته ، وكانت له فيها آراء ونظريات لم يسبقه إليها أحد في الشرق ، ولا يقصد بالشرق هنا شبه الجزيرة العربية ، إذ هي لم تعرف مدارس الطب ، اللهم إلا الذي عرف عن العرب في هذا الميدان قبل الاسلام ، من أن بعضاً منهم درس الطب أو غيره من العلوم في جنديسابور بفارس ومنهم النضر بن الحارث الذي عاصر الرسول (ص) ، وكان له موقف في معارضة الدعوة الاسلامية .

فإن قيل أن جعفرا الصادق (ع) تعلم في مدرسة أبيه محمد الباقر (ع) ، وأخذ الطب وسائر العلوم عن أبيه ، فمن أين استقى الإمام الباقر (ع) هذه العلوم ؟ .

مر بنا أن الهندسة والجغرافيا انتقلا من مصر إلى المدينة المنـورة ، على أيـدي أقباط مصـر ، أما الـطب فلم تكن لـه عنـد العـرب مـدرسـة قبـل الاسلام ، في حين أن مصر وفارس عرفتا مدارس شهيرة للطب(١) .

ولا يستبعـد أن يكـون هـذا العلم قـد انتقـل بـدوره من الفـرس أو القبط ، يؤكـد ذلك أن في طب الصـادق آراء ومسـائـل وردت في تـاريـخ الطب عند الفرس . فالطب في القديم لم يكن حكـراً لقوم دون آخـرين ،

---

(١) أشهر مدارس الطب في مصر مدرسة سائيس ، أما فارس ، فأشهر مدارسها مدرسة جنديسابور في القطاع الجنوبي لفارس ، وقد كانت على درجة كبيرة من التقدم ، واحتضنت عدداً كبيراً من طلبة الفرس وغيرهم . وكانت الدولة الساسانية معنية بالعلوم والفنون عناية كبيرة ، ولكن العقبة التي اعترضت سبيلها هي وجود طبقي سائد يقصر الدراسة على أبناء طبقة معينة ، ويمنع عنها من لا ينتمي إلى هذه الطبقة مهما كان ذكاؤه أو رغبته في العلم . وكانت هذه التفرقة الطبقية عاملا من العوامل التي أدت إلى قيام الثورة المانوية في أيام الدولة الساسانية ، إذ كان « ماني » يعارض النظام الطبقي السائد ويقول أن العلم للجميع وأن من الواجب على الدولة أن تهيىء أسباب العلم لجميع أبناء الوطن . ولكن « ماني » لم ينجح في نشر أفكاره الثورية ، فقبض عليه وقتل ، وأغمد السيف في أنصاره وأتباعه وفرّ من نجا منهم إلى الصين ، وهناك استوطنوا في إقليم طورفان (تركستان الصينية) وأبقوا على لغتهم الفارسية ، ولقنوها لأبنائهم ، وأسسوا مدرسة للطب ، وكان إقليم طورفان من المراكز الهامة التي حافظت على ثقافة فارس وحضارتها وعلى الخط البهلوي . وهناك طائفة كبيرة من العلوم والكتب التي دونت بالخط الساساني . وتعطينا الآثار الباقية من حضارة طورفان التركية المغولية صورة جلية عن مستوى العلم والحضارة الفارسية فيها ، وقد حرص الفرس في هذه المنطقة على الأحتفاظ عبر القرون باللغة والعادات والتقاليد الفارسية القديمة ، وبقيت اللغة البهلوية على ما كانت عليه ، ولم تبتل بالتغيير (هزوارش) الذي ادخله الكتبة الآراميون على الكتابة البهلوية، فقد كان من عادة الآراميين أن يكتبوا اللفظة بالآرامية وينطقونها بالبهلوية . فمن ذلك مثلاً أن الفرس يقال لهم في الآرامية (كتل) ، فكان الآراميون يكتبون لفظة (كتل) وينطقونها (أسب) ، أي الفرس بالبهلوية . فأصبح نطق الألفاظ يختلف عما كان عليه ، وجاء الجيل الجديد وهو لا يعرف أصول لغته ، فهجرت البهلوية في عقر دارها ، ولكنها على قيد الحياة في مناطق أخرى منها منطقة طورفان . (المترجم) .

وإنما كانت هناك شعوب كثيرة كالإغريق والقبط والفرس تعني بتطور أساليب العلاج والتطبيب بالعقاقير .

وكانت مدرسة الإمام الصادق (ع) في الطب أول مدرسة تؤسّس في الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، ولم تكن للعرب يومذاك عناية بالعلاج أو الوقاية ، فمن اجتاز منهم أمراض الطفولة[1] قلّ أن يمرض طول حياته ، نظراً لصلابة أجسامهم وقوة احتمالهم لقساوة البيئة في البادية ، فإن مرض في كبره ، تركوه عند الآلهة حتى يشفى أو يموت .

والقواعد العامة لعلم الطب التي كانت تتداول وتُدرّس في مختلف المدارس هي قواعد متشابهة ، غير أننا نرى في مدرسة جعفر الصادق ما لا نراه في مدرسةٍ قبلها ، مما يدل على أنه هو المستنبط لهذه القواعد والواضع لهذه النظريات[*] .

المذكرات اليومية

قلنا إن الطلبة في مدرسة الإمام الباقر (ع) كانوا يكتبون الدرس على لوحة خشبية ليسهل نقله على الجلد أو الورق إن وجد في ما بعد . ولا ريب في أن هذه الطريقة ، أي طريقة استنساخ الدرس أو الكتب ، كانت متبعة في المعاهد العلمية كجنديسابور والاسكندرية والرها وغيرها . والمعروف أن جزءاً كبيراً من كتب حكماء اليونان وصل الينا بفضل المذكرات والتسجيلات اليومية للدروس التي كانوا يلقونها على تلاميذهم .

---

(١) كانت امراض الأطفال المعدية واسعة الانتشار (المترجم) في شبه الجزيرة العربية يقول لورانس الانجليزي في كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » إن عدد سكان شبه الجزيرة العربية في نهاية القرن الثامن عشر لم يختلف عنه في صدر الاسلام ، بسبب تفشي الأوبئة وأمراض الأطفال .

(*) سبق القول بأن بعض قواعد الطب قد وردت في أحاديث الرسول (ص) التي جمع بعضها في كتب الطب النبوي المتداولة والمشهورة .

وكـان الاهتمام بـالكتب العلمية لحفـظها واستنسـاخها منحصـراً في الـطلبة والبـاحثين ، أمـا عامـة الناس أو الجمهـور فلم يكـونـوا يهتمون إلا بالكتب الأدبية وبدواوين الشعراء الخـاصة ، فكـان نصيب هذه الكتب من الحفظ والاستنساخ والشيوع أوفى وأكبر من الكتب العلمية .

يضـاف إلى هذا أن العلماء والحكـماء لم يجـدوا من الـوقت مـا يكفي لتسجيـل آرائهم أو لتدوين الكتب ، فكيف بـاستنساخهـا وتناقلها؟ وكان الواحد منهم يقضي أحيانا نصف عمره أو يزيـد في تأليف كتـاب أو تدوين نسخة منه .

وبصـورة عامـة ، فهناك كثـير من الآراء والنظريـات العلميـة لعلماء أفـذاذ تاهت الينـا بفضل المـذكرات أو التسجيـلات التي دوّنها تلميـذ من تلامذتهم بخط يده .

وكان لتشجيع الحكام والسلاطين دور كبير في نشـر العلوم واستنساخ الكتب . فمن ذلـك مثلاً أنـه لولا تشجيـع الملك الساسـاني شـابـور وابنـه واهتمـامهما بجمـع « الاوفستا » (كتـاب زردشت المقدس) وتـدوينه ، لمـا وصلت إلينا نسخة من هذا الكتاب الديني المقدس .

ومن المؤسف أننا لا نجد في النصوص البهلوية القـديمة التي وصلت الينـا ، نصاً في الـطب ، وليس معنى هذا أن المـدارس والمعـاهـد العلميـة القديمة كجنديسابور واصطخر وبلخ وغيرها في فارس لم تخلّف إنتاجاً علمياً ولا سيما في الطب ، فـالمؤكد أن الحـوادث والحروب المتـلاحقـة أتت عـلى الكثير من هذه الآثار .

يقـول البـرفسور إدوارد بـراون : إن كثيـراً من ابنـاء الفـرس (الزردشتيين) الذين توجهوا إلى الهند وأقاموا بها ، كانوا يتدارسون الكتب

العلمية الفارسية في الطب والصيدلة والعقاقير .

ومن المعروف أيضاً أن كتب الطب والصيدلة في العالم تحمل كثيراً من اسماء النباتات والحشائش والعقاقير الفارسية ، مما لا يدع مجالاً للشك في أن الكتب والمؤلفات القديمة في هذا الباب قد دمّرت أو أحرقت ، أو أتت عليها الحروب والزلازل وأسباب الخراب ، ولا يستبعد أيضاً أن يكون الإمام جعفر الصادق (ع) قد تناول بعض هذه الكتب واطّلع على فنون الطب عند الفرس[1] .

العناصر الأربعة

لئن كنّا نفتقر إلى مصادر ومعلومات وافية عن دراسة الطب ومستواه في مدرسة الإمام الباقر (ع) . فإنَّ الوضع بالنسبة إلى الفيزياء والهندسة يختلف عن ذلك .

كانت الفيزياء من العلوم التي تُدرس في مدرسة الإمام الباقر (ع) ، ولدينا معلومات وافية عن الأبواب التي كانت تُدرس في الفيزياء والهندسة في هذه المدرسة .

أما الفيزياء والأبواب العلمية التي كانت تدرس في مدرسة الإمام الباقر (ع) ، فكانت تدور حول فيزياء أرسطو ، والفيزياء عند أرسطو تضم علوماً شتى كالميكانيكا ، وعلم الحيوان وعلم النبات والجيولوجيا ، وإن كان العلماء في يومنا هذا لا يعدّون علم الحيوان وعلم النبات من علوم الفيزياء .

---

(١) وقد مر في التمهيد بأن الامام جعفراً الصادق (ع) كان يعرف الفارسية ويتحدث بها . (المترجم) .

ولكن ، إذا كان مدلول الفيزياء يعني علم الأشياء ، فقد كان أرسطو محقاً في اعتبار هذه العلوم جميعاً جزءاً من الفيزياء .

وأغلب الظن أن هذا العلم وصل إلى شبه الجزيرة العربية بنفس الأسلوب الذي وصلت به علوم الهندسة والجغرافيا ، أي عن طريق أقباط مصر ، وهناك من يعتقد بأن الطب انتقل من مدرسة الاسكندرية إلى مدرسة الامام الباقر (ع) ، على أنه ينبغي الا يغيب عن اذهاننا أنه بحلول هذا الوقت لم يعد باقياً أي أثر من آثار مدرسة الاسكندرية أو الحركة العلمية بهذه المدينة أو مكتبتها العامرة الشهيرة ، وقُصارى ما بقي في متناول الناس هو بعض الكتب المستنسخة من مكتبة الاسكندرية ، أو بعض ما بقي على قيد الحياة من تلاميذ هذه المدرسة ، ولا سيما دعاة الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، وقد انتهى الينا فعلاً ما سجلوه عن هذه الفلسفة ونقلوه جيلاً بعد جيل .

تعلم جعفر الصادق (ع) الفيزياء والجغرافيا في مدرسة والده الامام الباقر (ع) . وقد أوردنا في ما تقدم نقده لنظرية بطليموس بشأن دوران الشمس حول الأرض ، وملاحظاته عليها ، وخروجه بنظرية علمية أخرى قلبت النظرية السابقة .

وكان مما سمعه من والده الامام الباقر (ع) في درس الفيزياء رأي ارسطو في أصل الكون ، وانه يتألف من عناصر أربعة هي : التراب ، والماء ، والهواء ، والنار[1] فأبدى جعفر الصادق (ع) استغرابه لأن ارسطو

(١) القول بالعناصر الأربعة ، أو جوهر الكون يرجع تاريخه إلى المذاهب الفلسفية الأولى في اليونان ، أي مع ظهور المذهب الأيوني .
وقد حاول الايونيون أن يردوا الأجسام المختلفة في الكون إلى أصل جوهري أو عنصر واحد ، فزعم أولهم طاليس المالطي (٦٢٤ ـ ٥٤٥ ق. م) الذي تعلم الهندسة في مصر ، وانشلك في بابل ، واشترك مع قومه اليونانيين في قتال الفرس ، زعم أن أصل=

لم ينتبه إلى أن العناصر الأربعة ومنها التراب ليست عناصر بسيطة غير قابلة للتجزئة ، وقال إن التراب مركب من اجزاء وعناصر كثيرة ، منها الحديد وهو بدوره مركب من اجزاء كل جزء منها يعتبر عنصراً مستقلاً .

وكان الاعتقاد بوجود عناصر أربعة سائداً منذ عصر أرسطو وإلى أيام الامام الباقر (ع) : أي ما يقرب من ألف سنة ، والناس تذهب إلى ما ذهب إليه فلاسفة اليونان حول أصل الكون ، وكانت العناصر الأربعة تعتبر ركناً هاماً في علم الأشياء ، ولم يشكك أحد في صحة هذه النظرية طوال هذه الفترة الممتدة .

ولكن ، ظهر بعد ألف سنة من قال بعدم صحة هذه النظرية ، وبأن التراب انما يتألف من عناصر متباينة وليس قوامه عنصراً بسيطاً . أما صاحب هذا الرأي فهو أصغر الطلبة سنّاً وأعمقهم تفكيراً في مدرسة الامام

- الكون هو المادة ، واكد خلفه اناكسيمندر أن هذا العنصر غير معين ولا محدود ، وزعم اناكسيمانس بعدهما أنه الهواء ، وظن هراقليطس أنه النار .

واجمعوا على أنه لا ينشأ شيء من العدم ، ولا ينعدم شيء موجود ، وان كل ما نراه حولنا كان موجوداً منذ الأزل ـ بمادته لا بصورته ـ وسيظل موجوداً إلى الأبد (بمادته أيضاً وان تغيرت صورته) .

بهذا الرأي عدهم متفلسفو الاسلام في « الدهريين » الذين جحدوا الصانع المدبر للكون . كما قال الأيونيون أن العناصر الأولى يستحيل بعضها إلى بعض ، فيصبح الماء تراباً والهواء ناراً الخ (ومن الملاحظ أن ما سموه « عناصر » انما هو مركبات) .

ثم يأتي بعد الأيونيون دور الفلاسفة الطبيعيين المحدثين ، ومن هذه الطبقة أنباذوقلس الصقلي (٤٨٣ ـ ٤٢٤ ق. م) وكان مولده بصقلية ثم انتقل إلى جنوبي اليونان . وقد قال : ان العالم مركب من الاسطقسات (العناصر) الأربعة ، وهي الماء والهواء والتراب والنار ، ولهذه العناصر صفات خاصة ثابتة لا تتبدل ولا تندثر ، ولا يستحيل بعضها إلى بعض . ومن هذه العناصر الأربعة تتكون الأجسام كلها بالتحليل أو بالتركيب . ولمزيد من البحث يراجع كتاب : « تاريخ الفكر العربي » للدكتور عمر فروخ ، ص ٥٩ ، ٧٨ ، ٧٩ . (المترجم) .

الباقر (ع) ألا وهو جعفر الصادق ، بل أن هذا الدارس الشاب ذهب إلى أبعد من هذا عندما أصبح مدرّساً وزعيماً لمدرسة أبيه الامام الباقر (ع) ، ففنّد رأياً آخر لأرسطو بخصوص الهواء ، وقال ان الهواء بدوره ليس عنصراً بسيطاً ، بل هو مركب من أجزاء وعناصر شتى .

والواقع أن أبرز العلماء والفلاسفة منذ أيام أرسطو وإلى القرن الثامن عشر الميلادي الذي يعدّ قرن التقدّم والازدهار في ميادين العلوم ، لم يكتشفوا أن الهواء ليس من العناصر البسيطة ، ولم يقل أحد بهذا الرأي حتى جاء العالم الفرنسي لافوازييه[1] فحلل الهواء ، واستخرج منه الأوكسجين ، وبرهن على أثره الحيوي الفعّال في التنفس وفي حياة الانسان وفي عمليات الاحتراق .

فأقبل جمهور العلماء والباحثين على رأي لافوازييه باهتمام ، وسلّموا بأن الهواء مركب من عناصر مختلفة ، ولم يمض وقت طويل حتى فوجىء المجتمع العلمي في يوم من أيام سنة ١٧٩٤ بنبأ اعدام لافوازييه بالمقصلة في الثورة الفرنسية ، وهكذا انتهت حياة أبي الكيمياء الحديثة ، ولو قد مُدّ في عُمره ، لحقق بلا ريب انجازات أخرى ، ولأجرى تجارب علمية جديدة لها أهميتها أيضاً .

فلا بد اذن من الاعتراف بأن جعفراً الصادق ، بذهابه إلى أن الهواء مركّب من عناصر مختلفة ، قد سبق عصر العلم والاكتشافات الحديثة بألف سنة .

---

(١) انطون لافوازييه Lavoisier ١٧٤٣ ـ ١٧٩٤ م كيميائي فرنسي يعتبر من مؤسسي الكيمياء الحديثة ، وله كشوفات عدة منها تركيب الهواء ، ودور الأوكسجين في الاحتراق ، وقائمة الأجسام الكيميائية ، وقد مات مقتولاً في الثورة الفرنسية الكبرى . (المترجم) .

وعند الشيعة أن جعفراً الصادق (ع) كان يعلم المجهول ويكشف اسراره بقوة الإمامة ، وهو قوة إلهية لدنية لا تتوافر إلا للامام المعصوم وحده ، ولكننا نرى أن جعفراً الصادق (ع) قد توصل إلى هذا الكشف بنقاء تفكيره وذكائه[1] . ولو كان عالماً بالغيب ، لكشف قانون تحويل المادة إلى طاقة ، وهو ما اهتدى إليه آينشتين ، وغيره من القوانين والكشوف العلمية التي تحققت بعد هذه الفترة . ولكن الصادق (ع) لم يُشر إلى أنه بقوى خفيّة ، وإنما هو قد اجتهد في إثبات حقيقة علمية عز على علماء القرن الثامن عشر الميلادي فهمها ، فقد ذهب هؤلاء العلماء ـ بعد اكتشاف لافوازييه ـ إلى أن الأوكسجين هو وحده المادة الحيوية في الهواء، وأن الأجزاء الأخرى في الهواء منعدمة النفع أو ضارة ، في حين أن جعفراً الصادق قال إن الهواء مركب من عناصر ، وان عناصره ضرورية للتنفس ولبقاء الحياة .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ، صحح العلماء رأيهم في الأوكسجين ، بعد ما تبيّنوا أن هذا العنصر الهام اللازم لتنقية الدم واستمرار الحياة عند الإنسان ليس على هذه الدرجة من الفائدة والنفع للكائنات الأخرى ، إذ تبين أن هناك كائنات حيّة لا تقوى على استنشاق الأوكسجين الخالص فترة طويلة ، لأن خلايا أجهزتها التنفسية تتأكسد وتتآكل بتفاعلها مع الأوكسجين ، أي أن هذه الخلايا تحترق بفعل الأوكسجين الخالص .

والأوكسجين في حدّ ذاته لا يحرق ، ولكنه يساعد على الاحتراق ، فإذا تعرّض له جسم أو مادة ، وكان هذا الجسم أو المادة مما يقبل

---

(١) هذا الكلام ـ بالطبع ـ منقول عن مستشرق فرنسي يأخذ في دراسته بالظواهر ولا يدين بالإسلام أو النبوة أو الإمامة . (المترجم).

الاحتـراق ، كانت النتيجـة احتراقـه فعلاً ، وإذا تنفّست الخلايـا الموجـودة داخل رئة الانسان أو الحيوان الأوكسجين الخالص فتـرة طويلة ، احتـرقت هذه الخلايا ، ومات الانسان أو الحيوان ، ولهذا يوجد الأوكسجين في الهواء مختلطاً بغـازات أخرى كفيلة بمنـع أثره السيىء والضـار عن حيـاة الانسـان والحيوان . وبالوصول إلى هـذه الحقيقة العلميـة صحّ مـا ذهب إليه جعفـر الصـادق (ع) من أن الهواء مفيـد للانسـان بمجموع أجـزائه بمـا في ذلـك أجزاؤه من الغازات الأخرى التي يوجد منها مقدار ضئيل فيه .

ومن قبيل المثال ، نذكر أن لغاز « أوزون » L'ozone خواصاً كيميائية مشابهة لخواص الأوكسجين . وقوام جزيء[1] هـذا الغاز ثـلاث من ذرات الأوكسجين .

وإذا كـان الظاهـر أن غاز الأوزون لا يقـوم بدور هـام في التنفس ، فـواقع الأمـر أن له أثـراً فعّالاً في تثبيت الأوكسجـين عنـد دخـولـه الـدورة الدموية ، أي أنه يحافظ على الأوكسجين في الدم ولا يـدعه يـذهب هباء ، وهذا يؤيد ما ذهب إليه جعفر الصادق (ع) من أن الهواء ـ بكل أجزائه ـ ضروري للحياة ، وهي حقيقة أُميط عنها اللثام منذ منتصف القرن التاسع عشر .

ومن خـواص الجسيمات المـوجودة في الهـواء ، انها تمنع الأوكسجـين من أن يؤثـر تأثيـراً سلبياً في الكـائنات ، ومن أن يحـرق الـرئتـين والجهـار

---

(١) الجزيء (Le Mollécule)هو أصغر وحدات العنصر أو المركّب ويتألف عادة من ذرة أو ذرتين ، لكل منها نفس خواص المادة ، ولكن الجزيء يفقد بعضاً من خواص المادة متى قسّم إلى أقسام أصغر . وتتجلّى في الجزيء الحالات الثلاث للمادة ، وهي الحالة الجامدة ، والحالة السائلة والحالة الغازية ، فإذا اقتربت الجزئيات بعضها من بعض ، تكونت الحالة الجامدة ، وإذا ابتعدت بفعل الحرارة ، تكونت الحالة السائلة ، فإن ازداد ابتعادها تكونت الحالة الغازية أو البخار . (المترجم).

التنفسي ، وقد برهنت التجارب العلمية على أن غاز الأوكسجين هو أثقل الغازات والجسيمات الموجودة في الهواء ، ولولا أن الأوكسجين مختلط بالغازات والجسيمات الأخرى في الهواء ، لثقل وزنه ورسب إلى الطبقة السفلى ، وهو أمر لو حدث لجعل الأوكسجين يملأ سطح الأرض إلى ارتفاع معين ، ولأتّخذت الغازات الأخرى مكانها فوق الأوكسجين ، كل غاز منها بحسب وزنه وثقله ، ولأدى هذا الخلل إلى الإضرار بالجهاز التنفسي للانسان والحيوان والنبات أيضاً ، لأن النبات يحتاج بدورة إلى الأوكسجين ومعه الكربون ، ولو حدث هذا الخلل لباتت حياة الانسان والحيوان والنبات مهددة بأشد المخاطر ، غير أن وجود غازات أخرى مختلطة بالأوكسجين في الهواء ، يحول دون انفصال الأوكسجين ورسوبه ، ويمدّ بالتالي في حياة الانسان والحيوان والنبات .

وقد كان جعفر الصادق (ع) أول من فنّد القول بأن هناك عناصر أربعة ، فقوّض هذه النظرية من أساسها بعدما عاشت قرابة ألف سنة ، وكان جعفر آنذاك في مستهل حياته العلمية الحافلة .

وربما تبادر إلى أذهاننا اليوم أن نظرية جعفر الصادق (ع) هي من البديهيات اليسيرة ، وذلك بعد أن تم معرفة ١٠٢ من العناصر والمواد الموجودة حولنا ، غير أننا إذا رجعنا القهقرى إلى القرن السابع الميلادي ، لعرفنا أن نظرية جعفر الصادق (ع) كانت نظرية ثورية بجميع المقاييس ، وإن لم تفطن العقول في وقته إلى حقيقة كون الهواء مركّباً من عناصر متمازجة ومركّبة . ولا بد هنا من أن نكرر أن أوروبا كانت في هذا العصر وإلى القرن الثامن عشر الميلادي عاجزة عن التذرع برحابة الصدر لقبول هذه النظرية أو غيرها من النظريات التي طلع بها جعفر الصادق (ع) ، وسنقوم بإبراز هذه النظريات في فصول أخرى من هذا البحث . صحيح

أن العـواصـم العلمية في الشـرق ، كالمـدينة المنـورة مثلاً ، كـانت تتدارس نظريات جعفر الصادق (ع) وتنشرها دون أن يُـرمَى عالم بـالكفر ، ولكن الصحيـح أيضاً أن أوروبـا المسيحية كـانت في ذلك الـوقت تحكم بـالكفـر والـزندقـة على كـل من يسوق رأيـاً يخالف الـرأي الـديني التقليـدي بشـأن الكون .

الأكسجين وأول من اكتشفه :

اشتهـر العالم الأنجليـزي جـوزيف بـريستـلي (١٧٣٣ ـ ١٨٠٤) في تـاريخ الكيميـاء بأنـه أول من اكتشف الأوكسجين ، وإن كـان لم يهتـد إلى تعـريف خصائصـه وتركيبـه . فلما جاء العـالم الفرنسي لافـوازييه ، هـداه البحث إلى خصائص هذا الغاز وصفاته .

والأوكسجـين لفـظة يـونـانيـة مـركبّـة من مقـطعـين ، يعني أولهـما الحموضة ، ويعني الثاني المولد ، أي أن الأوكسجين « مـولد الحمـوضة » ، وإلى بريستلي يُعزى اختيار هذا الاسم للغاز ، برغم إن المدلـول العلمي له كان مستعملاً فعلاً . ولا نقول هذا للاقـلال من شأن الـراهب الانجليزي بريستلي الذي هجر الدير والـرداء الديني ، واستقـر في المدرسـة والمختبر ، يُجري تجاربه العلمية حول هذا الغاز ، ولا ريب في أنه لو استمر في بحـوثه العلمية لاستطاع الاهتداء إلى نتائج هامة أخرى ، غير أنه أنضم إلى حركة الثـورة الفرنسيـة ، وأيد المنـاضلين الفرنسيـين ، فجلب عـلى نفسـه سخط الانجليـز وبغضهم ، واضطر إلى مغـادرة وطنه بـريطانيـا إلى أمريكـا حيث قضى بقية عمره، وهناك ألّف ثلاثة كتب، ولكنها مبتوتة الصلة بالهواء أوبالمسائل العلمية التي كانت شغله الشاغل قبل ذلك.

والحقيقة التاريخية هي أن جعفراً الصـادق (ع) هو أول من اهتـدى إلى الأوكسجين أو مولد الحموضة ، واغلب الظن أنـه اهتدى إليـه وهو مـا

زال في مدرسة أبيه الباقر (ع) . ولما شرع بعد ذلك في إلقاء دروسه المتصلة في حلقاته ، أعمل فكره ، وانتهى إلى أن الهواء ليس عنصراً بسيطاً بل هو مركب من عناصر مختلفة ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن جعفراً الصادق (ع) لم يطلق على الأوكسجين إسم مولد الحموضة ، ولكنه سبق غيره في الإشارة إلى أن الهواء هو مزيج من عناصر شتى يساعد بعضها على تنفس الكائنات الحيّة كما يساعد على الإحتراق.

ومضى الصادق (ع) في سبيله ، فتوصل إلى أن محتويات الهواء لو جُزِّئت ، لكان من فعلها النفاذ في الأجسام وتذويب الحديد.

إذن ، فقد كان جعفر الصادق (ع) سابقاً بألف سنة على بريستلي ولافوازييه في اكتشاف الأوكسجين ، وإن كان لم يطلق عليه اسم الأوكسجين ولا اسم مولّد الحموضة كما ذكرنا آنفاً . ثم أن لافوازييه الذي عيّن خصائص الأوكسجين ، لم يوفّق إلى تجربة ذوبان الحديد بفعل الأوكسجين ، وهي التجربة التي اضطلع بها جعفر الصادق (ع) قبله بألف عام .

وقد برهن العلم الحديث على أنه متى حُمِّي الحديد بالنار إلى درجة الأحمرار ، ثم وُضع في أوكسجين خالص ، اشتعل وانبعث منه شعلة مضيئة شبيهة بالفتيل الذي كان يُغمس في الزيت في المصابيح القديمة ، وإن تكن الشعلة أقوى وأشد ضوءاً ، وهذه هي النظرية التي يستند إليها في صنع المصابيح الكهربائية الحديثة التي تضيء مناطق شاسعة في الليالي الظلماء ، وتظل مضيئة بصورة مستمرة ما دام سلك الحديد فيها مشتعلاً بفعل الأوكسجين المحبوس داخل المصباح .

وقد جاء في روايةٍ أن الإمام محمداً الباقر (ع) قال : (إن الماء الذي يطفيء النار يستطيع أن يوقدها بفضل العلم) فحسب البعض أن

هـذا القول ملقى عـلى عـواهنـه ، أو أنـه من قبيـل الفكـاهـة أو خيـالات الشعراء ، ولكن الذي تحقق فعلاً منذ القرن الثامن عشر أن الماء يزيد النار اشتعـالاً ، ويـولـد قـوة محـرقـة أشـد بكثـير من نـار الحـطب ، لأن لغــاز الهيدروجين (وهو أحد العنصرين الهامين في تركيب المـاء) قوة إحـراق إذا أضيفت إلى قوة الأوكسجين بلغت درجة حرارتهـا ٦٦٦٤ درجة . ويـطلق عـلى هــذه العمليــة اسم العمـليــة الأوكسيـجينيــة الهيــدروجـينيــة (OXYDROGeNE) ،وهي تستخـدم في لحـام الحـديـد والفــولاذ ، أو في تقطيع الفولاذ وتثقيبه .

وقــد طلع الإمـام البـاقـر (ع) بهــذه النـظريــة قبــل اكتشــاف الهيـدروجـين ، ولا دليـل لـدينـا عـلى أن الصـادق (ع) تمكن من فصـل الهيدروجين أو الأوكسجين من الماء ، ولكن الـذي لا ريب فيه أنـه توصـل بفضـل تجاربـه وأبحاثـه إلى تحديـد خواص الاوكسجـين ، ومن هنا يصـح القول بأنـه استفاد من هـذا العنصر الهـام في تحاليله ، وأنـه استخلصه من الهواء ممتزجا بمواد وعناصر أخرى ، أي دون أن يكون خالصاً نقيا .

ومن النتائج المؤكدة التي انتهى إليها جعفر الصادق (ع) ، وما هي بنظرية مجردة ، الحقيقتان التاليتان :

١ ـ حقيقة أن في الهواء عنصـراً يفوق العنـاصر الأخـرى في أهميته ، وهو العنصر الأساسي في الحياة والتنفس.

٢ ـ ان هـذا العنصر قـادر بمرور الـوقت عـلى تغيـير شكـل الأشيـاء والتأثير فيها بإفسادها وتحللها وتآكلها .

ولا ننسى أن هذا العنصر الهوائي يقوم بدور الوسيط في هذه العمليات ، ومن هنا استطاع جعفر الصادق (ع) معرفة الأوكسجين.

ظن العلماء والبـاحثـون بعــد اكتشـاف الأوكسجــين عــلى يــدي

« بـريستلي » وبعـد تحديـد خواصـه وآثاره وتغيـير شكلها ، فلما جـاء العالم الفرنسي لويس (باستور) واكتشف الجراثيم ، قال أن التغيـير الذي يـطرأ عـلى شكل بعضَ المـواد ، كالأغـذية ويؤدي إلى فسـادها ، أنمـا يُعزى إلى الجراثيم وليس إلى الأوكسجين ، كما قال أن الجراثيم تهاجم المواد الغـذائية وتحللها ، فيدب فيها الفساد . غير أن (باستور) لم يبين نـوع العلاقـة بين الجراثيم والاوكسجين ، ولا توصل إلى أن الفساد الذي تحـدثه الجـراثيم ، إنما يتم في وجود الأوكسجـين ، ولولا هـذا الغاز ، لمـا تمكنت الجراثيم من البقاء على الحياة أو التأثير في المواد . أمـا جعفر الصـادق (ع) ، فقد قـال إن الهواء جزءاً (يعني الأوكسجين) يؤثر أحياناً بـالواسـطة في تغيير شكـل المواد ، ويؤثر أحياناً بغير واسطة متى تعرض لها الحـديد بصـورة مباشـرة ، فيحدث ما يسمى بالتأكسد (Oxydé) أو الصدأ .

ولئن كـانت هـذه النـظريـة الـدقيقـة تستعصي عـلى الكشف إلا في المختبرات وإلا بالتحليل العلمي ، فقد توصل إليهـا جعفر الصـادق (ع) بفرط ذكائـه ونبوغـه ، وإن كان الصـادق لم يتوافـر على إبـراز ما للهـواء أو الأوكسجين من خاصيات أخرى ، فإنه اهتدى إلى أن الأوكسجين ، الـذي يعتبر عنصراً أساسياً في الهواء ، والذي يغير أشكال المواد ، والذي هو مناط الحياة ، هو أثقل جميع العناصر الموجودة في الهواء .

وبعد ألف سنة ، جاء لافوازييه ، فأكـد هذه النـظرية ، وزاد عليهـا بتعيينـه وزن الأوكسجين ومقـداره ٨/٩ المـاء ، أي أن في كـل تسعـة كيلو غـرامات من المـاء ثمانيـة كيلو غرامـات من الأوكسجين . هـذا من حيث الـوزن ، أما من حيث الحجم ، فـالهيدروجـين المـوجـود في المـاء يسـاوي ضعفي الأوكسـجـين ، لأن المـاء مـركّب مـن ذرّتي هيـدروجـين وذرة أوكسجين .

ومع أن لافوازييـه توصـل إلى نتائـج هامـة في تحليله للهواء ومعـرفة

خواص الأوكسجين ، إلاّ أنه لم يستطع تحويل هذا الغاز إلى سائل (أي إسالته) ، وإنْ كانت الفكرة بقيت تراوده ، وكادت تتحقق لولا أن الصناعة في أوروبا وقتئذ كانت ما تزال في بدايتها ، ولم تكن قد قطعت أشواطاً تتيح للافوازييه تحقيق أمنيته حالاً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أصدرت المحاكم الثورية في فرنسا حكمها المفاجيء القاسي بإعدام لافوازييه ، فمات بالمقصلة .

وكان من رأي الكيميائيين بعد لافوازييه ، وإلى وقت متأخر ، أن هناك استحالة لإسالة غاز الأوكسجين ، فلما جاء القرن العشرون بإنجازاته العلمية والتكنولوجية ومفاجآته الكثيرة ، نجح العلماء في إيجاد برودة مفرطة (صناعياً) واستطاعوا بذلك أن يُسيّلوا غاز الأوكسجين بكميات غير محددة ، وسخروا الأوكسجين السائل في أغراض كثيرة من طبية وصناعية وما إليها .

وقد تسنى هذا كله بفضل الوصول صناعيا بدرجة البرودة إلى ما تحت الصفر بـ ١٨٣ درجة ، وهكذا سال الأوكسجين في الجو العادي دون حاجة إلى ضغط قوي ، وأمكن إنتاج كميات كبيرة من غاز الأوكسجين السائل .

والواقع أن هذه الدرجة من البرودة هي درجة مفرطة ، ويقول العلماء إن الفرق بينها وبين البرودة المطلقة التي تشل الحركة الحيوية في المادة هو ٩٠ درجة لا غير (٢٧٣,١٦ - ١٨٣) .

ولئن لم يسمح عصر جعفر الصادق (ع) لهذا العالم بأن يُتابع البحث إلى أن يحدد عناصر الهواء بأسمائها ، ويعين الأوكسجين (أو مولّد الحموضة) ، فواقع الأمر أنه سبق بآرائه العلمية الفذة جميع العلماء والمكتشفين بألف سنة .

جعفر الصادق (ع)
مؤسس العلوم العرفانية في الإسلام

تقول بعض الصوفية العارفين إن الإمام جعفراً الصادق (ع) تعلّم العرفان من أبيه الإمام الباقر (ع) وأخذه عنه ، وهم يعدّونه حلقة هامة في سلسلة الصوفية والعرفان .

ومن هؤلاء الشيخ فريد الدين العطّار النيسابوري[1] صاحب كتاب «تذكرة الأولياء» وتجدر الإشارة هنا إلى أن العرفان بمدلوله الحالي وبالمعنى الذي نعرفه عنه لم يكن له وجود في القرن الأول الهجري . فإن وجد آنذاك شيء من مبادىء هذا العلم ، فإن مدلوله يختلف عما هو عليه اليوم .

وليس ثمة ريب في أن التفكير العرفاني موجوداً لدى بعض علماء المسلمين ، دون أن يشتهر به أحد منهم . ودون أن يُعرف أي مكتب من

(١) فريد الدين محمد العطار النيسابوري الذي اشتهر بالشيخ فريد الدين ولد سنة ٥٤٠ هجرية واستشهد في هجوم المغول على نيسابور سنة ٦١٨ هـ . وهو من أشهر شعراء الصوفية والعرفاء في تاريخ إيران . له من المؤلفات : منطق الطير ، وإلهي نامه ، وأسرار نامه وغيرها من الدواوين . وكتابه « تذكرة الأنبياء » ألّفه في تاريخ العرفاء والصوفية العظام ، وهو من أشهر الكتب وأقدمها في هذا الميدان . (المترجم).

مكاتب العرفان الموجودة في هذا العصر ، ولم نر من القـادة أو المفكرين من تزعم مجموعة من المُريدين أو سمى نفسه قطباً أو غوثاً أو ما إلى ذلك .

ثم إن العرفان في الإسلام كان ينبوعاً فياضاً في الباطن والقلب . ولم تكن بين العرفان والدراسات التقليديـة علاقـة . ولم يكن المريـد أو القطب يدّرس ويعلّم المريدين العرفان ، بل كـان العرفـان أسلوباً للحيـاة وطريقـة للعمل الجادّ في جو من الحب والعشق.

وكـان العارف يقـول : أمح الأوراق إذا كنت تصحبنا في الـدروس والرحيل ، لأن حديث الغرام والعشق غير موجود في الدفاتر(١) .

ومنـذ القرن الثـاني للهجرة بـدأ العرفـاء والـزّهـاد يتـوزعـون حـول الأقطاب والمرشدين ، فأبدعوا وأسسوا مكاتب عرفانية .

ويقول صاحب « تذكرة الأنبياء » وهو من الكتب المشهورة في أحوال العرفاء والصوفية وقد جمع فيه مؤلفه الروايات الموثوق بهـا والضعيفة يقـول إن بايزيد البسطامي العارف الشهير كان من تلامذة جعفر الصادق (ع). أخـذ عنه العـرفان . وسـاق الحديث عنـه على النحـو التالي : إن بـايـزيـد البسطامي ، بعد ما تعلّم العلوم المتداولة ، اتجه إلى العرفان ، وطاف حول العالم بحثاً عن العـرفاء العـظام ، وتحمّل المشـاق والحرمـان ثلاثـين سنة ، وحضر مجلس مائة وثلاثة عشر عارفاً كـان آخرهم الإمـام الصادق (ع) . وكان يحضر درسه كل يوم معداً نفسه للاغتراف من منهله ما أمكن ، فسأله الصادق يوماً : ناولني الكتاب الذي في الرف فوق رأسك .

فسأل بايزيد: وأي رفٍ هذا ؟

---

(١) أصل الحديث بيت شعـر بالفـارسية هـو : بشوي أوراق أكـرهمدرس مـائي . . كه درس عشق در دفتر نباشد .

فقال له الصادق : تسألني عن الرف وأنت تحضر كل يوم هنا من زمن بعيد ؟

فقال بايزيد : إنني لم أشاهد غيرك هنا ، لأنني أتيت للقائك والاستماع إلى حديثك .

فقال له الصادق : يا بايزيد ، إنت كملت الدرس والرحلة ، فَعُدْ إلى بلادك وعلّم الناس ما تعلّمت . فقام وعاد إلى بسطام في يومه .

ولعل صاحب « تذكرة الأنبياء » كان يعتقد بصحة هذا الحديث . ولكنه لم يراع التسلسل الزمني وتتابع الحوادث ، ولولا ذلك لقلنا اختلق هذه الرواية أو أن غيره اختلقها ونقلها هو عنه ، لأن الإمام الصادق (ع) كان مشتغلاً بالتعليم والتدريس في المدينة في النصف الأول من القرن الثاني ، وتوفي سنة ١٤٨ هجرية ، في حين أن بايزيد البسطامي كان يعيش في القرن الثالث وتوفي سنة ٢٦١ هجرية .

إن مبادىء العرفان ومكاتبه في القرن الثامن الهجري لم تكن تزيد على سلوك العارف وقوة تخيله وتأمله ، ومن هنا يمكن القول بأن جعفراً الصادق (ع) كان له خيال وتفكير عرفاني عميق ، وإذا كان من آثار العرفان على العارف تغيير أسلوب حياته والتأثير في خلقه وسلوكه وأدبه ، فلسنا نشك في أن جعفراً الصادق (ع) كان بهذا رائداً وإماماً للغير ، ولكن لا علاقة لهذا السلوك المعنوي بالعلوم التجريبية والمادية في الاسلام . وكان الصادق (ع) أول عالم وخبير في العلوم التجريبية في الاسلام ، وهو أول عالم جمع بين النظرية العلمية والتجربة العملية ، ولم يكن يقبل أو يؤيد نظريةً في الفيزياء أو الكيمياء إلا بعد التحقق منها بنفسه في التجربة العملية والاختبار ، وعالم كهذا ، لا يهتم بعلوم نظرية بحتة اهتمامه بالعلوم التجريبية .

وفي التاريخ الاسلامي أن الإمام الصادق (ع) كان أول عالم تحدث عن الفيزياء والكيمياء ، وهو في نفس الوقت يعدّ في طليعة العرفاء والزهاد . حتى إن الإمام الزمخشري[1] بعد ما اثنى عليه في كتابه « ربيع الأبرار » ثناءً كريماً ، عده من طلائع العرفاء وزعمائهم .

وكان العطار النيسابوري صاحب « تذكرة الأولياء » يرى بدوره أن الصادق (ع) رائد للعرفاء ، ولكن شتّان بين ما سجله الزمخشري وهو عالم مدقق ، وبين ما أورده العطار ، وهو صوفي جماعة ، يجمع بدافع من المحبة كل ما سمع وقرأ ، ومؤلَّفه يثبت أنه كان مغرما ومتيما بحب العرفاء والصوفية العظام ، فهو يكتب عنهم بعين الرضا والقبول ، وبالمغالاة أحياناً ، ولولا حبّه هنا لما وقع في هفوات .

ويمكن القول إن القلم في يد الزمخشري يتحكم فيه العقل والدقة ، أما القلم في يد العطار فيتحكم فيه الحب والعشق ، وأيا كان الأمر ، فالصادق (ع) يعد في تاريخ العلوم الاسلامية من مؤسسي علم العرفان .

ولا شك في أن دروسه في العرفان كان يحضرها عدد من غير المسلمين ، فقد قيل إن نفراً من الصابئة[2] قرأوا عليه ، والصابئة بآرائهم الدينية هم وسط بين المسيحية واليهود ، وكانوا يعدون من الموحدين في

---

(١) هو الامام جار الله محمود بن عمر أبو القاسم الزمخشري ، ولد في زمخشر عام ٤٦٧ وتوفي ٥٣٨ هـ (١١٤٤ م) ، وهو إمام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير ، سموه جار الله لأنه جاور بمكة . كان معتزلي الاعتقاد ، ومن مؤلفاته : المفصَّل في النحو ، والكشاف عن حقائق التنزيل في التفسير وقد عرف به فهو صاحب الكشاف وكفى ، والفائق في غريب الحديث ، وأساس البلاغة في اللغة ، وأطواق الذهب ، ونوابغ الكلم ، وربيع الأبرار في التراجم .

(٢) الصابئة ملة تؤله الكواكب ، ومنهم من يرى نفسه موصوفاً في القرآن بالصابئة .

الاسلام ، وكان بعضهم يتظاهر بالاسلام دفاعاً عن النفس أو حرصاً على المال ، وكان مركزهم « حرّان » غرب بلاد ما بين النهرين « العراق » ، وكان هذا المركز يسمى قديماً عند الأوربيين بـ « كارة » ، ومن عادات الصابئة تعميد الطفل بعد ولادته وتسميته . جاء في دائرة المعارف الاسلامية[1] إن كلمة صابئي مأخوذة من صب الماء وغسله ، لأن الصابئة تغسل الطفل بعد الولادة بتعميده في الماء ، وكانت الصابئة تقول بنبوّة يحيى المعمدان (يوحنا) بن زكريا .

ويقول العطار النيسابوري إن أناساً من جميع القرى كانت تحضر درس الإمام الصادق (ع) وتنهل من معينه ، ويقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني[2] ان المسلم والكافر استفاد كلاهما من فضل الصادق (ع) وعلمه .

ولا ندري هل كان تسامح الصادق (ع) مع غير المسلم راجعاً إلى عرفانه وزهده ، أو أنه كان ينظر إلى الأمور بمنظار شامل ، وكان يريد الخير والعلم للجميع ولهذا فهو يسمح لمن حضر درسه بأن يستمع إليه ولو كان غير مسلم ، وفي دائرة المعارف الاسلامية أن هناك من يقول أن جابراً بن حيان ـ وهو من أشهر أصحاب الصادق (ع) ـ كان من الصابئة أيضاً .

وكان الصابئة في درس الامام مولعين بتحصيل العلم ، وكانوا يبذلون قُصارى جهدهم لاستيعاب الدروس وفهمها ، وبهذا استطاعوا وضع أسس علمية ثقافية للصابئة ، وبمقارنة ثقافة الصابئة قبل عهد

---

(١) الأصل الفرنسي Encyclopaedia Islamica .

(٢) الشيخ أبو الحسن الخرقاني من ائمة العرفاء والصوفية ، ولد سنة ٣٥٢ للهجرة في قرية خرقان من توابع بسطام ، وأخذ العلم والتصوف والسلسلة من الشيخ ابن العباس أحمد بن محمد القصاب الآملي . توفي بخرقان ودفن بها سنة ٤٢٥ للهجرة .

الصادق (ع) وبعده نرى فرقاً شاسعاً كالفرق بين النور والظلمة .

وكان الصابئة قبل الصادق (ع) فئة منطوية على نفسها ، لا يُعرف عنها شيء كثير كما أنهم هم أنفسهم لم يكونوا يعرفون الكثير ولم يكن علمهم يتجاوز علم البدوي من العرب، ولكن اشتهر بعد الصادق (ع) كثير منهم في ميادين الكيمياء والطب والنجوم ، وأصبحوا أمة ذات ثقافة وشهرة . ويقع الباحث في دوريّات المعارف والمعاجم على أسماء كثير منهم .

وإلى الصادق (ع) يُعزى الفضل في أن الصابئة الغارقة في الجهل والحرمان قد أصبحت طائفة متقدمة متمدنة اشتهر كثير من أبنائها في ميادين العلوم المتباينة ، كما انتفع العالم بثقافتهم وعلمهم ، وبفضل اشعاع مدرسة الصادق (ع) بقيت لهؤلاء القوم شخصيتهم الخاصة وكيانهم المستقل واشتهر بعضهم وذاع صيته ، وما زال البعض منهم يعيش في المنطقة نفسها « حرّان » ، وان كان عددهم قد تواضع عمّا كان عليه قبلا .

وكما أسلفنا بيانه ، هناك إجماع بين الشيخ أبي الحسن الخرقاني والزمخشري والعطّار النيسابوري على أن جعفراً الصادق (ع) هو قدوة العرفاء في التاريخ الاسلامي ، ولا غرو أن يذكروه بعظيم الاجلال والاحترام والود .

والخرقاني عالم معدود مشهور من علماء التصوف والعرفان ، وقد تناول في مباحثه أصول العرفان في الهند والشرق قبل الاسلام ، ولكن غابت عنه معالم التصوف والعرفان في فارس قبل الاسلام إمّا لعدم المامه بمباديء الزردشتية ، أو لعدم توافر المراجع والمؤلفات الزردشتية لديه .

وفي هذه الفترة ، أي في النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجريين ، كانت اللغة البهلوية شائعة في كل مكان ، وكان الخرقاني مطلعا على مباديء اليهودية والمسيحية .

وبفضل البحوث التي أجرتها نخبة من المستشرقين الفرنسيين من القرن السابع عشر الميلادي وإلى يومنا هذا ، وبفضل النصوص الهندية القديمة التي تُرجمت إلى اللغات الحية ، وأهمها كتاب « فيداس » المقدس ، هان علينا أن نعرف عمق الصلة بين ثقافة الهند القديمة وثقافة فارس القديمة ، كما عرفنا أن هذين البلدين كانا ينهلان من معين مشترك وأن التفكير الزردشتي قد تأثر بالفكر الهندي ، ولا ريب في ان الزردشتيين قد استفادوا في آراءهم العرفانية والصوفية من عرفان الهنود وتصوفهم وتأثروا بهما اكثر مما تأثروا او استفادوا من أي مصدر آخر .

إن مذهب زردشت القائل بمبدأين[1] هما مبدأ الخير ومبدأ الشر ، يختلف اختلافاً جذريا عن الهندوكية القائلة بالتثليث ، فإن مذهب زردشت قد بنى تعاليمه على الثنائية ، وكان يدين بأن العالم مبني على الأضداد وأن لكل شيء قطبين هما القطب المُثبت والقطب المنفي .

ولو ان الشيخ الخرقاني حالفه النجاح في التفرقة بين العرفان والتصرف في فارس والعرفان في مدرسة الاسكندرية ، لأدرك ان العرفان عند زردشت نابع من ثنائية التفكير ، في حين أن العرفان الذي أرسى الصادق (ع) معالمه وأوضح سبله في مدرسته هو عرفان توحيدي لا أثر للثنائية ولا للتثليث فيه ، فعرفان الصادق (ع) هو أسمى ما وصل إليه الفكر البشري لبلوغ الصفاء والتكامل النفسي والروحي . وكان مذهبه من السمو والرفعة بحيث تقاصر عن فهمه وتحليله وتبنّيه كثير من الناس سواء

---

(١) في رأي البعض ان الزردشتية وثنيون لقولهم بمبدأ الخير والشر . والشيطان في عرفهم (واسمه أهريمن) يمثل مبدأ الشر ، وينبغي على الناس اجتناب وساوسه واندفاعاته ، فالخوف من الشيطان (أهريمن) أو اتقاء شره ليس دليلاً على أن الزردشت جعلوا منه الهاً ثانياً أو نسبوا إليه القدرة في التصرف في هذا الكون وفي تاريخ الفتوحات الاسلامية ان المسلمين عدّوا الزردشتية من أهل الكتاب وفرضوا عليهم الجزية وتركوهم على حريتهم الدينية .

في عصره أو في العصور التي تلته عندما تشعّب العرفان وأصبحت له مكاتب وفرق متعددة .

تميز عرفان الصادق (ع) عند ظهوره بالتوحيد ، وسيظل هذا ديدنه نابذاً الثنائية والتثليث ، تاركاً العلو والسرف في تعريف صفات الخالق أو المخلوق كما حدث للعرفان الاسلامي أحيانا في أدوار متأخرة .

وسنرى في ما بعد أن الغلو قد دفع ببعض المشايخ والعرفاء إلى الانحراف ، ففاه بعضهم بعبارات وأقوال انبعثت منها الشرك والكفر ، حتى انفض عنهم كثير من انصارهم وأتباعهم ، أو هم قد وقعوا في شطحات وطامات كبرى[1] انتهت ببعضهم إلى القول : « سبحاني سبحاني ما أعظم شأني ، ليس في جبتي سوى الله »[2] ، ولهذا رأينا أن العلامة الزمخشري ينفر منهم وينتقدهم ـ أي الطبقة المغالية ـ ولكن عرفان الصادق (ع) كان بعيداً عن المبالغات والترهات ، وكان مبنياً على أساس توحيدي في تنزيه الخالق عن صفات المخلوق ، والمخلوق عن الخالق ، ولهذا تبعته الشيعة بأسرها وكثير من اهل السنة أيضاً .

يرتكز العرفان عند الصادق (ع) على التوكل على الله تعالى وتنفيذ احكامه وأوامره ، والامتثال لنواهيه دون إهمال شؤون الدنيا أو تركها لئلا تضطرب الحياة اليومية وتفقد صفاءها وسعادتها ، فهو لا يوصي بترك الدنيا للوصول إلى السعادة بل يرى ان السعادة هي في التوكل على الله والتقوى ، وتقبل حظوظ الدنيا المشروعة[3] .

---

(١) جمعت هذه الكلمات والمصطلحات في كتاب بـ « شطحات الصوفية » .

(٢) ينسب هذا الكلام وغيره من هذا القبيل إلى بايزيد البسطامي .

(٣) وكان هذا منهج الأئمة قبله ، فقد ذكر الإمام محمد عبده في شرحه على نهج البلاغة : ان علاء بن زياد الحارثي ـ وهو من اغنياء البصرة ـ جاء إلى علي بن أبي طالب عليه السلام يشكو أخاه عاصياً ابن زياد :

وليس في عرفان الصادق (ع) كلام عن وصول العارف إلى الله وهو التفكير الاساسي الذي دان به كثير من الصوفية والعرفاء في القرون التي تعاقبت بعد عصر الصادق (ع) فالوصول إلى الله عند الصادق (ع) يطابق تماماً ما صوره القرآن الكريم أي أن الانسان هو صنيع الله ومخلوقه وهو منه وإليه يرجع . وليس معنى هذا ان الانسان يلتحق بالذات الالهية ويصبح جزءاً منها ، ولكن معناه ان الانسان مخلوق ومصنوع ويظل هذا وضعه دائماً ويستحيل عليه أن يكون خالقاً ، ومتى مات رجع إلى الله وبرجوعه إليه تعالى يكون شديد القرب من الخالق .

على ان التفكير العرفاني انجرف عن هذا الاتجاه بعد الصادق (ع) ، وفسر العرفاء الآية القرآنية « إنا لله وإنا إليه راجعون » بمعنى أن الانسان سيلحق بربه بعد موته ، وقالوا لا يلحق الانسان به سبحانه وتعالى في حياته ؟ وانطلقوا من هذه العقيدة يقولون ان الانسان في مذهبهم يلتحق بعد موته بالقدرة الأزلية الأبدية ، فيبقى حياً ، ويشاهد الأمور الجارية في الدنيا ، ويرى أهله وأصحابه ، وتكون له قدرة على مساعدتهم في حل مشكلاتهم(*) .

= فقال علي (ع) : وما له ؟

قال : لبس العباءة وتخلى عن الدنيا .

قال علي (ع) : عليَّ به، عليَّ به ، فلما جاء به قال له : يا عُدَيِّ نفسه . (عدي تصغير عدو) لقد استهام بك الخبيث ، أما رحمت أهلك وولدك ، أترى الله أحل لك الطيبات ، وهو يكره أن تأخذها ، أنت أهون على الله من ذلك .

قال : يا أمير المؤمنين ، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ؟

قال : ويحك إني لست كأنت ، إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقيره (يقدروا : أي يقيسوا ولا يتبيغ أي لا يهيج) .

راجع « نهج البلاغة » شرح الامام محمد عبده ، ج ٣ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ ، طبع دار الأندلس بيروت لبنان .

(*) كان من المفروض أن يورد مصدر هذا الكلام ، فهو ليس عقيدة لكل صوفي أو عارف .

ولا يقتصر الاعتقاد بحياة الانسان بعد الموت على المسلمين وحدهم، وانما ذهبت الى هذا الاعتقاد الأديان السابقة على الاسلام. وإذا استثنينا المانوية والباطنية، لم نجد في الأديان القديمة كلها ما يقول بعدم وجود حياة بعد الموت، فحتى الأديان الهندية والبوذية التي تحرق جسد الميت، تؤمن بأن هناك عالماً آخر بعد الموت سيبقى فيه الانسان حياً. اما المانوية والباطنية فلا تؤمنان بيوم المعاد على هذه الصورة، وإن كان دعاة الباطنية تبينوا بعد وفاة حسن الصباح أن الايمان بالمعاد وفكرة العقاب يلعبان دورا كبيرا في نهي الانسان عن ارتكاب المعصية واتيان السيء من الأعمال، وعلى هذا شرعوا ينادون بصورة ما من صور يوم المعاد.

وفي بعض الأديان الأخرى كالأديان التي كانت سائدة في مصر القديمة، ارتبطت فكرة الثواب والعقاب بحياة الانسان في هذا العالم، أي ان الانسان بمجرد موته يكون قد نال ثوابه أو عقابه.

ولكن من عقائد بعض الأديان الأخرى أن الثواب والعقاب يجيئان بعد الموت بفترة، فيجوز إذن القول بأن فكرة المعاد واردة على نحو أو آخر في معظم الأديان باعتبارها عنصرا اساسيا فعالا في نهي الانسان عن الخطأ أو اقتراف المعاصي وفي القيام بدور الوازع الداخلي الأمين الذي يكبح جماع الانسان.

وللدكتور «لاي وينك أستون»، الذي كان أول من اكتشف منابع النيل في افريقيا السوداء في القرن التاسع عشر، مذكرات نفسية عن رحلاته في أواسط افريقيا، وقد أهداها الى الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، وقد ذكر إستون في هذه المذكرات أنه لاحظ طوال مدة اقامته بين مختلف القبائل الافريقية أن هذه القبائل تؤمن بحياة اجدادها، وفي رأي بعضها أن الآباء المتوفين يتمتعون بمقدرة خاصة في التأثير في حياة

الاحياء من الابناء وسواهم ، كما لاحظ أن السحرة في افريقيا كانوا يصورون لأهل الميت صورة واضحة لتفكيره وارادته.

وذهب البعض الى القول بأن عقيدة المعاد أو الحياة بعد الموت هي من العقائد الفطرية لدى البشر، وأنها وجدت مع الانسان من أقدم العصور وفي جميع الأديان السماوية. صحيح أن هذه العقيدة ليست من أصول البيولوجيا أو وظائف الأعضاء كالجوع أو العطش، فيحس بها الانسان بحكم طبيعته المادية، ولكنها قد لازمت المجتمع الانساني عامة في ادواره المختلفة حتى ليمكن القول بأن الفكرة لم تنفصل عن الانسان الاجتماعي، فإن فقدها انسان كان كمن فقد الحياة في المجتمع البشري بغض النظر عن مستواه.

وتستند فكرة المعاد عند جميع المذاهب الى الاعتقاد بأن هناك حياة ثانية بعد الموت، وقد لعبت هذه العقيدة الفطرية دورا هاما في نفس الانسان فكانت وازعا داخلياً أو شرطياً سرياً ينهاه عن اقتراف السيئات.

كان السارق في مصر القديمة يعاقب حسب القوانين السارية، اما في العالم الغربي[1]، أي العالم الثاني، فكان يبقى في الظلام دون أن يستضيء بنور الشمس أو بالمصابيح.

وعند زردشت أن الانسان في عالم الآخرة يمر على جسر «جنوند» (Chanvand)، فإن كان مرتكبا للمعاصي في هذه الدنيا، تعذّر عليه اجتياز الجسر وسقط[+].

(١) في مصر القديمة ، كانت المدن مبنية على ضفاف النيل ، والمقابر في الضفة الغربية من النيل ، فإن أرادوا الحديث عن الآخرة ، أشاروا إلى الجانب الغربي للنيل .

(+) عند المسلمين الصراط الممدود بين الجنة وبين النار .

ثم ان المكاتب العرفانية في الشرق استفادت من عقيدة المعاد عند المسلمين فأوجدت هذه العقيدة أرضية صالحة للتربية النفسية عند العرفاء، لأن الحياة الافضل بعد الموت تتوقف على سيرة الانسان في هذه الدنيا(*). بل ان العرفاء من نهاية القرن الثاني الهجري تجاوزوا هذا الحد، وذهبوا الى القول بأن في وسع الانسان بسلوكه وعرفانه أن يصل الى اعلى المراتب والدرجات في هذه الدنيا، ووكانت الفكرة قائمة على فكرة المعاد، إذ أن من رأيهم أن الموت هو مجرد تغيير للمجلس، وأن الحياة مستمرة بعد الموت، فإذا كانت الحياة مستمرة، فلم لا يرتقي الانسان إلى أعلى مراتب الكمال والوجود في هذه الدنيا، مترقبا بلوغ هذه المراتب بعد الموت؟ فأصبح الهدف الاساسي عند كثير من العرفاء هو الوصول الى الملكوت الأعلى أو إلى المراتب الالهية، أو إن شئت فقل المكانة الالهية.

ولكن الصادق (ع) لم يقل ان الانسان سيصل الى مرتبة الاله في هذه الدنيا أو في غيرها، وكان في تفكيرها هذا مستندا الى أصلين:

أولهما، الاعتقاد بحياة الانسان بعد الموت.
ثانيهما، اشتراك الوجود لا وحدة الوجود.

ونظرية وحدة الوجود التي تعتبر أهم عنصر وأقوى اساس يستند إليه التفكير العرفاني والصوفي لها جذورها في الشرق، وتنبع من عرفان الهند وفارس، ومنهما انتقلت الى أوربا بعدئذ، ولكن جعفراً الصادق (ع) لم يقل بوحدة الوجود أبداً، وكان يرى ان الانسان المخلوق، هو شيء، والخالق (الله سبحانه) شيء آخر. أما القائلون بوحدة الوجود فلم يعينوا حدّاً فاصلا بين وجود الانسان وغيره من الموجودات وبين وجود الله، وفي

(*) باعتبار أن الدنيا مزرعة الأخرة، وأنه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).

زعمهم أن الـوجود يشبـه الشمس التي اطلقت ضوءهـا من خـلال زجـاج ملون فـانعكس بألـوان شتى، فلئن اختلفت ألوان ضـوء الشمس، فكلهـا صـادرة من منبع واحـد، وفي زعمهم أيضـا ان المـوت لا يعـدو أن يكـون رجعة إلى الأصل، كماء المطر أو قطر الندى إذ يلتحق بالبحر، وهو منه.

خطط الإمام الصادق "ع" لإنقاذ (الشيعة)

١ ـ النهي عن المغالاة وتأليه العباد

اتخذ الإمام الصادق (ع) خطوات هامة ليحول دون انحراف الشيعة وسقوطها ، وتمثلت الخطوة الأولى في منع تلامذته وأتباعه من المغالاة في حق الأئمة .

وفكرة التأليه أو المغالاة في حق الإمام تسرّبت إلى الشيعة من وقت سابق على عهد الصادق (ع)، وكان البعض يرى بأن في الرسول (ص) وعلي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر (عليهم السلام) وأئمة الشيعة عنصراً ملكوتياً يميّزهم عن سائر البشر تمييزاً جوهرياً ، وبعبارة أخرى ، كانوا يرون في الأئمة عنصرين أو وجودين ، الوجود البشري والوجود الإلهي ، وقالوا بأن النبي والأئمة تختلف عن سائر البشر .

وكان جعفر الصادق (ع) يدحض هذه الفكرة ويعارضها منذ ما بدأ بالإفادة والتدريس ، وكفّر القائلين بها مؤكداً « إن جدي وآبائي خلقوا

كغيرهم من الناس ، وأن القرآن يقول عن رسوله « قُل إنما أنا بشر مثلكم »[1].

وكان الصادق (ع) يرى بأن هذه العقيدة خطيرة ، وأنها تعارض فكرة التوحيد في الإسلام ، وأنها ستقضي في آخر الأمر إلى انقسام الشيعة على نفسها وضعفها وزوالها[2].

---

(١) آية ١١٠ سورة الكهف .

(٢) ظهرت فرقة دينية في الكوفة أيام خالد القسري ، أنشقت على زيد بن علي ابن الحسين (ع)، وأخذت تدعو إلى الإمام محمد الباقر (ع) وبعده إلى ابنه جعفر الصادق (ع) على أنهما الإمامان . وكانت دعوتها هذه يعتريها شيء من الغموض وتثير الشبهة .
فقد جاء في تاريخ الطبري ما يلي :
« خرج مغيرة بن سعيد الرجل العجوز ، وكان يقال إنه ساحر ، ومعه سبعة من الموالي ، ينادون ويصيحون : لبيك جعفر . وذلك في أيام خالد القسري ، فأمر لهم ، فلما أتى بهم موثقين إليه أمر بإحراقهم بطريقة هي الغاية في القسوة (الطبري : ج ٢ ص ١٦٢٠) وجاء في الأغاني : -
إن بعض مجانين الشيعة ثاروا في ولاية خالد القسري ، وكانوا يصيحون : « لبيك جعفر » (الأغاني ج ١٥ ص ١٢١ ج ١٩ ص ٥٨) . ومهما تكن أسباب هذه الصيحة أو دواعيها ، فهي تتضمن تأليه الامام ، وهو كفر وشرك . وكان موقف الإمام صارماً وصريحاً في هذا الأمر . عن زيد النرسي قال : لما ظهر أبو الخطاب بالكوفة وادعى في أبي عبد الله (ع) ما ادّعاه ، دخلت على أبي عبد الله (ع) ومعي عبيدة بن زرارة ، فقلت له : جُعلت فداك ، لقد ادّعى أبو الخطاب وأصحابه فيك أمراً عظيما ، انه لبى « بلبيك جعفر »، لبيك معراج . وزعم أصحابه أن أبا الخطاب أسرى به إليك ، فلما هبط إلى الأرض دعا إليك ، ولذا لبى بك .
قال : فرأيت أبا عبد الله (ع) قد أرسل دمعته من حماليق عينيه وهو يقول : يا رب برئت إليك مما ادعى فيّ الأجدع عبد بني أسد ، خشع لك شعري وبشري ، عبد لك ابن عبدك ، خاضع ذليل ، ثم أطرق ساعة في الأرض كأنه يناجي شيئا ، ثم رفع رأسه وهو يقول : أجل أجل عبد خاضع خاشع ذليل لربه ، صاغر راغم من ربه ، خائف وجل ، لي والله رب أعبده لا أشرك به شيئا ، ما له أخزاه الله وأرغبه ولا آمن روعته يوم القيامة ، ما كانت تلبية الأنبياء هكذا ، ولا تلبيتي ولا تلبية الرسل ، إنما لبيك بلبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، ثم قمنا من عنده فقال : يا زيد ، إنما قلت لك هذا لأستقر في قبري يا زيد . (البحار ج ٤٧ ص ٣٧٨). =

ولعله كان يعرف ما أصاب المسيحية من شقاق وفتن بسبب فكرة تأليه المسيح ، وأنها انقسمت على نفسها وأصبحت عشرين مذهباً أو كنيسة ، وكانت الارثوذكسية أول مذهب مسيحي أسس لنفسه كنيسة في أنطاكية ، وانقسمت الارثوذكسية فيما بعد على نفسها إلى مذاهب وكنائس أخرى ، فتأسست كنيسة في أورشليم (القدس) وأخرى في الاسكندرية ، وتزعمت كل منهما مذاهب وكنائس أخرى .

كانت أنطاكية في القرن الثاني الميلادي عاصمة المسيحية تتبعها إحدى عشرة مملكة من مصر إلى إيران، وكان مائة وخمسون أسقفاً ينتمون إلى أنطاكية يبشرون بالمسيحية في المنطقة ، وكانت ظاهرة الخلاف قد دبت بين الأساقفة بسبب اختلاف القول والرأي في مدى مرتبة الألوهية عند السيد المسيح (ع).

واليوم وقد مر ثمانية عشر قرنا من هذه الحقبة الزمنية ، ونحن في نهاية القرن العشرين ، وعدد الكنائس في المذهب الارثوذكسي، وهو أول المذاهب المسيحية ، يتجاوز العشرين وأهمها :

كنيسة انطاكية ، وكنيسة اورشليم ، وكنيسة الاسكندرية أو الأقباط ، وكنيسة روسية ، وكنيسة اكرانيا (في روسية)، وكنيسة اسطنبول ، والكنيسة اليونانية ، وكنيسة مونتيجرو (في يوغسلافيا)، وكنيسة البوسنة والهرسك (في يوغسلافيا)، وكنيسة بلاد الصرب (في يوغسلافيا) وكنيسة دالماسيا (في يوغسلافيا)، وكنيسة بلغاريا ، وكنيسة

= وحسب « الكافي »: أرسل الامام بمنشور إلى شيعته في العراق هذا نصه : عن اسحاق بن يعقوب قال : ورد التوقيع على يد.محمد بن عثمان العمري : « وأما أبو الخطاب محمد بن أبي زينبة الأجدع ملعون وأصحابه ملعونون ، فلا تجالس أهل مقالتهم ، فإني منهم بريء ، وآبائي منهم براء ». (الكافي ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

رومانيا ، وكنيسة بساربي (في رومانيا)، وكنيسة البانيا ، وكنيسة أستونيا ، وكنيسة فنلندا ، وكنيسة بولونيا ، وكنيسة تشكوسلوفاكيا ، والكنيسة الأرمنية .

لم نورد في هذه القائمة الكنائس الارثوذكسية في أمريكا لأنها تفرعت وتشعبت من الكنائس الارثوذكسية الروسية أو اليونانية أو البولونية وغيرها .

والخلاف كبير والفرق شاسع بين كل هذه الكنائس مع أنها ارثوذكسية ، والخلاف نابع حول الاعتقاد بالمسيح ، وأي جزء منه هو عنصر الهي وأي جزء منه هو عنصر بشري ، وهل العنصر الالهي مركب مع عنصره البشري أو أنهما مختلطان ، وهل يمكن فصل العنصر الالهي عن العنصر البشري أو أنهما اختلطا كاختلاط الماء والخل ، ولا سبيل إلى تجزئتهما وتفكيكهما . وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف رفع المسيح إلى السماء والتحق بربه ، وعن المعراج كان مع جزئه وعنصره البشري ؟ وكيف للعنصر الأرضي (البشري) أن يرقى ويرتفع إلى العلّيّين ويلتحق بالرب ؟

نعم ، كانت فكرة التأليه منذ القرن الأول الميلادي ، وبقيت إلى يومنا هذا ، سبب الخلاف والنقاش بين المسيحيين ، فأدّت إلى قيام مذاهب جديدة ضمن المذاهب الرئيسية الثلاثة وهي الارثوذكسية ، والكاثوليكية ، والبروتستانية .

كان الصادق (ع) علّامة عصره وخبير دهره ، وكان على إلمام تام بالاضافة إلى العلوم التي تدوولت في مدرسته ، بتاريخ المسيحية ومبادئها ومواطن الخلاف بين اتباعها ، واليوم ، وفي عصرنا هذا ، لا يسع أحداً بمفرده الوقوف على تاريخ جميع المذاهب المسيحية ، فهي كعلم الطب الذي توسع وتشعب حتى لم يعد في وسع طبيب واحد أن يلم في عصره بجميع شعب الطب ويتخصص فيها .

ومن العلماء الذين تخصصوا في تاريخ الأديان « دانيس روبز » الفرنسي المتوفي سنة ١٩٦٧ ، وقد كتب عن المسيحية أدق الكتب وأجمعها ، ووقف حياته بأسرها على الموضوع فأخرج : « المسيح وعصره »، و « المسيحيون الأولون »، وكان متخصصا في الجانب التاريخي من الموضوع دون سواه من الجوانب .

ولكن يبدو في عصر الصادق (ع) أن الاضطلاع بمعرفة تاريخ المسيحية كان أيسر ، لأنها لم تكن قد تفرقت وتشعبت بصورتها الحالية ، وليس ثمة ريب في أن الصادق (ع) كان من القلائل ، إن لم يكن وحيد عصره ، الذي ألمّ الماماً تاماً بالمسيحية ، تاريخها ومذاهبها ، ومن هنا اجتهد في منع الشيعة من التورّط في ما تورطت فيه المسيحية من حيث مغالاتها في خصوص المسيح حتى لا تقع فريسة لانقسامات خطيرة تنتهي بالقضاء عليها في آخر الأمر[1] .

---

(١) يبدو أن قصة المغالاة في تعظيم الأئمة بين بعض الشيعة من العرب والموالي اتخذت أبعادا أوسع وأخطر ، ودفعت بالامام الصادق (ع) إلى أن يتخذ موقفا حازما من هؤلاء المتطرفين والمغالين ، وأن يوضح بكل صراحة ما للامام وما عليه . جاء في « المناقب »: عن المفضل بن عمر قال : كنت أنا وخالد الجوان ونجم الحطيم وسليمان بن خالد على باب الصادق (ع) فتكلمنا في ما يتكلم فيه أهل الغلو ، فخرج علينا الصادق (ع) بلا حذاء ولا رداء وهو ينتفض ويقول : يا خالد يا مفضل يا سليمان يا نجم ، لا « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » (سورة الأنبياء الآية ٢٧ كتاب المناقب ج ٣ ص ٣٤٧).
وعن صالح بن سهل قال : كنت أقول في الصادق (ع) ما تقول الغلاة ، فنظر إليّ فقال : ويحك يا صالح ، أنا والله عبيد مخلوقون ، لنا رب نعبده ، وإن لم نعبده ، عذبنا (المصدر السابق).
والحديث الآتي يوضح مدى الغلو عند هؤلاء المتطرفين : عن أحمد بن محمد الأهوازي عن الحسين بن بردة عن جعفر بن بشير الخراز عن اسماعيل بن عبد العزيز قال : قال ابو عبد الله (ع): يا اسماعيل ضع لي في المتوضأ ماء . قال فقمت فوضعت له . فقال : =

فوقف بجد وحزم ، وتصدى لمن كان يغالي في حق الإمام أو الرسول ، ونفى نفياً باتاً أن يكون في الرسول (ص) أو الإمام عنصر إلهي ، وكان يقول أن الرسول والأئمة من ولده بشر مثل غيرهم ، وإنما الرسول (ص) يتميز عن الخلق بأن الله اختاره ليكون حاملاً للوحي ومبلغاً الرسالة ، والأئمة أوصياؤه ، وهم عباد لله مخلصون ، ومن قال بوجود عنصر إلهي في الرسول (ص) أو الأئمة واعتقد بذلك ، فكأنه قد أشرك مع الله إلها آخر ، فهو مشرك ونجس ، فإن كان كلامه هذا دون اعتقاد وإيمان بذلك ، وجب نهيه وردعه حتى لا ينحرف أحد أو يقع خلاف بين المسلمين .

- فدخل ، قال : فقلت في نفسي أنا أقول فيه كذا وكذا ويدخل المتوضأ يتوضأ ، قال : فلم يلبث أن خرج فقال : يا اسماعيل لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم، اجعلونا مخلوقين، وقولوا فينا ما شئتم، فلن تبلغوا. قال اسماعيل: وكنت أقول انه وأقول وأقول. . («بصائر الدرجات» ج ٥ الباب العاشر ص ٦٣ و«بحار الأنوار» ج ٤٧ ص ٦٨). واضاف المجلسي (إنه) أي انه الرب تعالى الله عن ذلك، و(أقول وأقول معناه) (اني لم ارجع بعد عن هذا القول أو المعنى، وإني كنت مصراً على هذا القول).

والحديث الآتي يبين ايضا بكل وضوح مدى المغالاة، وكيف نهى الامام الصادق (ع) عنها. روي عن الحسن بن سعيد عن عبدالعزيز قال: كنت أقول بالربوبية فيهم. فدخلت على أبي عبدالله (ع) فقال: يا عبدالعزيز ضع ماءً أتوضأ، ففعلت، فلما دخل يتوضأ قلت عند نفسي هذا الذي قلت فيه ما قلت يتوضأ؟ فلماذخرج قال: يا عبدالعزيز، لا تحمل على البناء فوق ما يطيق فيهدم، فوالله أنا عبيد مخلوقون (الخرائج والجرائح ص ٢٣٤).

وعن سليمان بن خالد قال: كنت عند ابي عبدالله عليه السلام وهو يكتب كتبا الى بغداد وأنا أريد أن أودعه، فقال: تجيء الى بغداد؟ قلت: بلى. قال: تعين مولاي هذا بدفع كتبه. ففكرت وأنا في صحن الدار أمشي، فقلت: هذا حجة الله على خلقه يكتب إلى أبي أيوب الجزري وفلان وفلان يسألهم حوائجه؟ فلما صرناالى باب الدار صاح بي، يا سليمان، ارجع انت وحدك، فرجعت فقال: كتبت اليهم لأخبرهم اني عبد ولي اليهم حاجة («بحار الأنوار» ج ٤٧ ص ١٠٧).

٢ ـ النهي عن المجابهة والخلاف والعزلة عن الناس

الظاهرة الثانية من التفرقة والخلاف في المذاهب المسيحية ، التي نتجت عن الناسوت واللاهوت[١] هي وضعية الصوامع في جبل آتوس الواقع في اليونان .

ففي ولاية سلانيك اليونانية في الجانب الشرقي منها تقع ثلاث جزر : أولها شبه جزيرة أو جبل آتوس ، وقد بنيت عليه عشرون صومعة من الدرجة الأولى واثنتا عشرة صومعة من الدرجة الثانية ، ومائتان واربع من الدرجة الثالثة ، وأربع مائة وخمس وستون من الدرجة الرابعة[٢] .

---

(١) الناسوت: الفطرة أو الطبيعة البشرية. واللاهوت: العنصر الغيبي أو الإلهي.

(٢) الصومعة وجمعها صوامع: الدير في الجبل أو المكان المرتفع يلجأ اليه الراهب للعبادة والانفراد. وقد انقسمت الصومعة عند الفرنسيين وفي فرنسا الى درجات أو طبقات وهي الأولى: مانوستر (Monastere) الثانية: كوان (Couvent) الثالثة: اسكيت (Squite) الرابعة: هرميتاج (Hermitage) والصومعة يسكنها الراهب وهو الذي حرّم على نفسه الزواج، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿ثم قفّينا على آثارهم برسلنا وقفّينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد الآية ٢٧).

وفي دائرة المعارف لمحمد فريد وجدي: الرهبنة ليست أصلاً من أصول المسيحية الأولى، ولم تنشأ إلا بعد القرن الثالث، لما ظهر الامبراطور الروماني ديسيوس، واضطهد المسيحيين، واضطر بعضهم للهرب الى الجبال والمكث بالصوامع. وفي دائرة المعارف الفرنسية «لاروس» عن القس تيرتوليان (١٦٠ ـ ٢٤٠م): إننا لسنا من البراهمة، ولا من معتزلة الهنود، فلا نعتزل الناس إلى الغابات، بل نساكنكم هذه الدنيا.

وفي الوقت نفسه نشأ ميل في المسيحيين الى حياة الاعتزال، ثم طرأت صنوف الاحشيشان والتقشف التي اختارها المسيحيون طلبا للزلفى من ربهم. واعتبروا الرهبانية حالة من الكمال الانساني، فرفضوا الزواج والحياة البيتية حباً لله. ثم دارت الدائرة، ولم يرع الرهبان حق الرهبنة وفي القرن الحادي عشر كان الرهبان الشرقيون الذين آلوا على أنفسهم أن يعيشوا بلا زواج لا يجسرون على أن يدخلوا إلى بيوتهم الإناث من الحيوانات خشية أن يكون في ذلك خطر على أرواحهم، ومع هذا، لا يخفى اليوم أنهم لم يفوا بما =

وكان جبل آتوس من أقدم الأزمنة في تاريخ المسيحية مأمناً للرهبان الارثوذكس ، ولمن طاوعته نفسه على الاعتكاف وترك الحياة الاجتماعية .

وصوامع جبل آتوس كلها ارثوذكسية ، وقد عُني بها كثير من ملوك المسيحيين وأثريائهم ، ووقفوا عليها الأملاك والأموال ، ولكنها خسرت خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية كثيراً من موقوفاتها لأن معظم هذه الموقوفات كان في دول أوروبا الشرقية ، وسكانها في غالبيتهم من المسيحيين الارثوذكس .

وفي روسيا صادرت الحكومة موقوفات صوامع « آتوس » بعد الحرب العالمية الأولى وإقامة النظام الشيوعي فيها ، فلم تبق لهذه الصوامع إلّا الموقوفات الواقعة في اليونان وتركيا وقسم من أوروبا .

- تعهدوا به من العفاف بين رجال الدين من الجنسين في القرون الوسطى. فقد قال «دوبوتر» بعد ان زار الاديرة في النمسا وفي الممالك الأخرى التابعة للملك فرديناند الأول سنة ١٥٦٣م، إنه رأى مائة وعشرين ديراً تحتوي على ٤٣٦ راهباً و١٦٠ راهبة و١٩٩ سرّية و١٥٥ امرأة متزوجة و٤٤٣ طفلا. وقال إنه يخشى أن يتكلم عن راهبات زمانه لئلا يُظن أنه يتكلم بإسهاب عن مجون محلات الفسق والعهر لبنات الهوى بدل أن يتكلم عن ديار الطهر التي تعيش فيها العذارى الناذرات أنفسهن لعبادة الله. لأن الاديرة الدينية لم تعد معابد مخصصة لعبادة الله بل صارت بيوت دعارة للشبان الذين لا هم لهم إلا قضاء شهواتهم البهيمية. وقال: ليست هذه الأمور من الحالات الفردية ولا الخاصة بزمن دون زمن، ففي الأزمنة القديمة لام القديس «سيريابن» والقديس «بازيل» عذارى زمانهما اللاتي وقفن حياتهن لله على ما ظهر من عدم عفتهن. ورأى «جان كريزوستوم» انه لا يكفي قتل الراهبة التي تفرط في عفتها بل ينبغي أن تشطر شطرين أو تدفن حية مع شريكها في الإثم.

وقالت دائرة المعارف: أما الاديرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر فلا يخفى ما هي عليه من قصور من الوجهة الادبية.

وتاريخ دير «دورياك» الذي تكلم عنه المسيو «دولور» في تاريخ باريز سنة ١٨٢٢م يعطي فكرة عن الأديرة الفرنسية في القرن السادس عشر. وفي الآية الكريمة اشارة الى هذه كلها: «فما رعوها حق رعايتها».

ومع كل ما فقدته صوامع آتوس من موقوفاتها في روسيا ، فقد كانت تتمتع بوضع مالي مستقر متين ، إذ ظل خمسة عشر ألف راهب معتكفين فيها ، وكان يخدمهم ألف وسبعمائة شخص من غير الرهبان ، يخيطون لهم الملابس ويصنعون الأحذية ويطبخون ويعدّون الموائد . واليوم قل عدد الرهبان في صوامع آتوس ، ولم يبق فيها إلا القليل .

وكان من خصائص صوامع آتوس أنها بقيت محصورة على الناس وخاصة المرأة سواء أكانت شابة أم عجوزاً مهما تذرعت بالذرائع .

وإذا حضرت الوفاة أحد آلرهبان ، لم يسمح لوالدته بأن تودّعه الوداع الأخير داخل الصومعة ، ولكن كان يُسمح لها بحضور الجنازة ومراسم الدفن خارج الصومعة .

وإلى قبيل الحرب العالمية الثانية ، كانت الحياة في صوامع آتوس شبيهة إلى حد ما بحياة القرون المسيحية الأولى ، ولكن تبدل الحال بعد دخول الكهرباء إلى الصوامع وإن بقي الرهبان في صوامع آتوس بعد انقضاء عشرين قرنا من ميلاد المسيح لا يهتمون بمجريات الأحداث خارج هذه الصوامع ، ولا يقتنون أجهزة الراديو أو التليفزيون .

قلنا أن صوامع الدرجة الأولى في هذا الجبل عددها عشرون صومعة ، سبع عشرة منها تابعة للروم الأرثوذكس ، أي لمذهب ديني واحد . ومع ذلك فلم تستطع تحقيق اتحاد أو اندماج في ما بينها بسبب الخلاف الناشب حول الناسوت واللاهوت ، بل أن من المستحيل أن تجد صومعتين يونايتين تتفقان في الرأي حول ناسوت المسيح ولاهوته ، أي عنصره البشري وعنصره الإلهي .

ويلاحظ هذا الخلاف نفسه في صوامع الدرجة الثانية وعددها إثنتا

عشرة صومعة ، ولأن هذه الصوامع ظلت منطوية على نفسها ومنقطعة عن العالم الخارجي طول اربعة عشر قرنا ، فقد أجرت التلفزة الفرنسية أخيرا مسابقة حول المعلومات العامة شارك فيها عدد من العلماء ، فلم يستطع أحد منهم أن يسمي خمسا من صوامع آتوس ، فكيف بأسماء جميع صوامع الدرجة الأولى والثانية .

وقد بنيت أول صومعة أرثوذكسية في القرن السادس الميلادي في جبل آثوس ، وكانت تابعة للروم الارثوذكس ، وكان اختيار جبل آتوس لأسباب منها أنه بعيد عن العمران ، وأنه جبل صخري شديد الانحدار يشرف على البحر فاختير لأنه أليق مكان لمن يريد الانقطاع عن الناس والمجتمع . ثم بنيت صوامع أخرى بعضها حول بعض للمسيحيين الارثوذكس وكانت الصومعة العشرون من الطبقة الأولى للارثوذكس الروس وبنيت في القرن الثامن عشر الميلادي .

واليوم ، وبعد انقضاء اربعة عشر قرنا على تأسيس أول الصوامع في آتوس ، لم تنته الخلافات حول الناسوت واللاهوت ، بل لعلها قد زادت .

وقد روى أن السلطان محمداً الملقب بالفاتح عندما حاصر القسطنطينية ، لم يستنجد به أحد من الرهبان لانقاذ الكنيسة ، بل أن الرهبان لم يجتمعوا حتى ولا مرة واحدة للدفاع عن عاصمة البيزنطيين (رومية الصغرى) فيما انصبت اجتمعاتهم على مناقشة اللاهوت والناسوت .

وكل الخلافات التي دارت بين المسيحيين في صوامع آتوس ، كان محورها الخلاف حول الناسوت واللاهوت .

وهناك أمرا آخر أيضا دفع بالإمام الصادق (ع) إلى اتخاذ موقف

واضح حازم للحيلولة دون سقوط الشيعة وزوالها ، إلا وهو موضوع العزلة عن المجتمع أو حياة الرهبانية ، وقد ظهر لدى المسلمين منذ القرن الثاني الهجري ميل إلى الاعتكاف عن الدنيا والزهد في ملذاتها ، وظهرت فرق كثيرة عند المسلمين يدعو بعضها إلى الرهبانية ، وترك الدنيا ، وكانوا يختلفون حول ما الذي يتعين على العارف أو الزاهد أن يفعله ، فمنهم من قال أن الصلاة هي أفضل عبادة للمعتكف ، ومنهم من قال بالصوم لما فيه من حرمان النفس عما تشتهيه ، ومنهم من رأى للمعتكف أو المتعبد أن يفكر في الله ، ومنهم من قال « الذكر » أي أن يذكر الله .

ولم تهتم الفرق الصوفية التي حبذت الاعتكاف والزهد بأمور المعيشة الخاصة بأتباعها .

والشيعة بدورها اندفعت في هذا الاتجاه ، أي الزهد أو الاعتكاف ، وكان من أهم الأسباب في هذا عداء الحكام للأئمة واتباعهم وشيعتهم وملاحقتهم لهم .

وكان موقف الصادق (ع) من هذه الظاهرة واضحا وحازما ، إذ نهى عن العزلة وترك الحياة الاجتماعية نهياً باتاً ، كما نهى كذلك عن تأليه الرسول (ص) أو الأئمة (ع) أو الشطط في تقديرهم . وكان بنو أمية وبعدهم العباسيون يتطيرون من حركات الشيعة وتطلعاتهم ، فجنحت الدولة إلى تحبيذ انزوائهم واعتكافهم اعتقاداً منها بأن انطواءهم على ذواتهم يمنع الناس من الاتصال بهم ، فيخفت صوتهم وتنسى دعوتهم .

وكان الصادق (ع) يرى هذه المخاطر جميعا ، بل لقد رأى بنفسه كيف عاداه الأمويون هم والعباسيون من بعدهم الذين ساروا على نفس النهج بل أشده وكان يردد : لا رهبانية في الاسلام . وهو نفسه كان يعمل

في مزرعة له بالمدينة[1] وكان جاهدا في منع هذه التيار تفاديا لانهيار الشيعة وزوالها .

وقد تعلم تلامذة الصادق (ع) في مدرسته عن تاريخ المسيحية مسألة عامة أخرى ، فقد قال لهم الصادق (ع) إن القس « نسطوريوس » الذي عاش قبل نبينا محمد (ص) بمائة وثلاث وتسعين سنة (أي في سنة ٤٢٩ م) في القسطنطينية ساق رأياً عن وجود المسيح (ع) يختلف عن الآراء السابقة ، فأحدث شقاقا وخلافاً بين المسيحيين . فقد ذهب نسطوريوس إلى أن للمسيح (ع) الماهية والفطرة البشرية ككل إنسان ، وليس في وجوده أي عنصر إلهي ، ولكن الله ينزل ويقيم فيه كما ينزل المسافر ويقيم في محط سفره ، أو كما يزور المؤمن الكنيسة ثم يذهب عنها .

---

(١) في « الكافي » في باب « مكارم سيره ومحاسن اخلاقه » (ع) ثلاثة أحاديث تبين سيرة الإمام ومنهاجه في الحياة .

١ ـ عن سهل عن الدهقان عن درست عن عبد الأعلى مولى آل سالم قال : استقبلت أبا عبد الله (ع) في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر . فقلت : جعلت فداك . حالك عند الله عز وجل وقرابتك من رسول الله (ص) ، وانت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم ؟ فقال : يا عبد الأعلى ، خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك (الكافي ج ٥ ص ٧٤) .

٢ ـ عن أبي عمر الشيباني قال : رأيت أبا عبد الله (ع) وبيده مسحاة وعليه ازار غليظ يعمل في حائط له ، والعرق يتصابّ عن ظهره فقلت : جُعلت فداك ، اعطني اكفك . فقال : إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة (الكافي ج ٥ ص ٧٧) .

٣ ـ عن حماد بن عثمان قال : حضرت أبا عبد الله (ع) وقال له رجل : اصلحك الله ، ذكرت أن علياً بن أبي طالب (ع) كان يلبس الخشن ، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك ، ونرى عليك التباس الجديد ؟ فقال له : إن علياً ابن أبي طالب (ع) كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر ، ولو لبس اليوم مثل ذلك شُهِّر به . فخير لباس كل زمان لباس أهله . . . (الكافي ج ٦ ص ٤٤٤ وبحار الأنوار ج٤٧ ص ٥٥) .

وبعد ما شاعت هذه النظرية في القسطنطينية والمنطقة ، ثارت عليها المذاهب المسيحية القائلة بأن لله حلولاً في جسد المسيح (ع) ، وإن فيه عنصراً إلهياً ، ونقموا على « نسطوريوس » واتهموه بالزندقة والكفر وحكموا عليه بالقتل .

ومع ذلك شاعت نظرية نسطوريوس حول المسيح (ع)، وانتشرت في كل مكان ، وهي النظرية القائلة إن للمسيح ماهية البشر ، وإن الله أشرق في جسده بوجوده وأنواره .

وحمل هذا المذهب اسم نسطوريوس ، فصار يعرف بمذهب النساطرة ، وكانت المذاهب الأخرى ، ما اعتقد منها بحلول الله في جسد المسيح ، وما اعتقد بأن قوام المسيح عنصران أحدهما بشري والآخر إلهي ، ترى في النسطورية هرطقة وكفراً .

وكان الصادق (ع) يقول لتلاميذه إن المسيحيين في الحبشة يعتقدون بأن المسيح والله متحدان ، وأن العنصر البشري في المسيح قد ذاب وفني في الله . وهم يشبّهون ذلك بقطرة الماء إذ تذوب في البحر ، أو بذّرة الشمع إذ تنصهر في النار الحامية الموقدة .

ومن العادات المسيحية الأخرى التي انتقلت إلى المسلمين الرهبانية والنسك ، أي اعتزال الدنيا بعيداً عن الجماعة والأسرة ، وذهب بعض المسلمين إلى حدّ الامتناع عن الزواج وعن الملذات المشروعة اقتداءاً بالرهبان ، قائلين إن هذا ادعى إلى التزكية وطاعة الله .

وكان أول اتصال تم بين المسلمين والمسيحيين هو اتصالهم بأتباع المذهب الأرثوذكسي ، لا الكاثوليكي ولا سواه . فلما اتصلوا بالمذاهب الأخرى ، ولا سيما الكثلكة ، وجدوا أن القساوسة من كاثوليك ولاتين

يأبون الزواج ، سواء عملوا في الكنيسة أو اختاروا الرهبنة والإقامة في الأديرة والصوامع ، في حين أن قساوسة الأرثوذكس في أنطاكية كانوا يجيزون الزواج .

وظهرت هذه العادة عند بعض الزهّاد والمنشقين من المسلمين ، فنهاهم الصادق (ع) عنها ، وأمر أتباعه وتلامذته باتّباع السنة الاسلامية في الزواج ، قائلاً إن الامتناع عن الزواج ينافي سُنّة الله التي خلق الناس عليها ، كما أنه يضّر بالمسلم معنوياً وجسدياً ، ثم إن العزلة والزهد في حياة الجماعة تنتهي بإقلال عدد المسلمين ، في حين أن الكفّار يتزايد عددهم يوماً بعد يوم بسبب تزاوجهم ، فعلى المسلم أن يتزوج ، وأن يستزيد من الأولاد ليكثّر عدد المسلمين .

نهى الصادق (ع) عن العزلة والزهد ، فكان مصير هذه العادة الزوال بعدما شاع أمرها بين المسلمين ، وإن كانت قد عاودت الظهور في القرنين الثالث والرابع الهجريين عند بعض العرفاء والصوفية ، واسماء المرموقين منهم معروفة مشهورة .

وإلى القرن التاسع عشر الميلادي لم يكن أحد يعرف الحكمة الصحية الكامنة وراء نهي الإمام الصادق (ع) عن العُزلة والزهد ، إذ كان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت أن النهي مقصود لدفع الأضرار المعنوية للعزلة ، أو لأنها تخالف الشريعة الإسلامية ، أما الجانب الصحي لنهي الإمام فقد كان خافياً ، حتى أثبت الطب الحديث في القرن التاسع عشر أنّ الامتناع عن الزواج يؤدي إلى خلل شديد في الجهاز العصبي للإنسان رجلاً كان أو امرأة كما يسبب مضاعفات أخرى في الغدد الداخلية وفي وظائف الجوارح والأعضاء .

جعفر الصادق (ع)
وانبعاث عصر التجديد في تاريخ العلوم

رأينا في ما تقدم أن جعفراً الصادق (ع) انبرى وهو بعد تلميذ في مدرسة أبيه إلى انتقاد نظرية بطليموس الخاصة بدوران الشمس ، وقال باستحالة دورانها في منطقة البروج وحول الأرض في وقت واحد ، كما ذهب إلى ذلك بطليموس .

كان هذا وهو لم يزل تلميذاً في مدرسة الإمام الباقر (ع) ، وسنرى في ما يلي كيف أن جعفراً الصادق تزعم مدرسة أبيه بعد وفاته ، وأتى بآراء ونظريات جريئة جديدة ، حتى ليصحّ لنا القول بأن الصادق (ع) ، إنْ لم يكن هو الرائد المجدد في جميع العلوم فهو دون أدنى ريب في طليعة أولئك المجددين ولا سيما في علمي الهيئة والنجوم ، وهما منطلق الإشعاع العلمي في أوروبا منذ سقوط القسطنطينية على يدي السلطان محمد الفاتح.

ومن المسلم به أن العالم الاسلامي كان سابقا على أوروبا بكثير من التأهب لاستقبال النهضة العلمية والفكرية وأن الاسلام قد تقبل الحقائق العلمية برحابة صدر ، وحث على طلب العلم من جميع مصادره ، أما أوروبا فكانت منذ القرون الوسطى وإلى القرن السابع عشر الميلادي غير متأهبة لتقبل الحقائق العلمية وهضمها .

ومن الحقائق التي تعذر على أوروبا هضمها حقيقة حركة الشمس ودوران الأرض حولها ، ولم تعارض أوروبا حقيقة علمية معارضتها لهذه الحقيقة ، ولمسائل النجوم بصورة عامة .

ولو أن أحداً تحدث في أوروبا عن الماء أو التراب أو النار بما يتعارض مع المعتقدات الدينية السائدة ، لتعرض لأشد المخاطر ، شأنه في ذلك شأن مَنْ يتحدث عن النجوم دون مراعاة للمعتقدات القائمة . وكان جزاء الواحد منهم الحكم بهرطقته ثم سجنه وقتله لاجترائه على الحقائق الدينية المسلّم بها .

وهذا الموقف المتشدّد أمام الأبحاث الفلكية في أوروبا شبيه إلى حد كبير بمواقف اليونان والروم قديماً تجاه هذه المباحث .

فمع ما عُرف عن اليونان من أنها عاصمة العلم قديما ، نرى « بلينوس »[1] المؤرخ يسجل ملاحظة هامة تدل على الاتجاه السائد في الوسط العلمي في اليونان قديما ، إذ قال : كان انكساغوراس[2] اليوناني ماضيا في تدريس علم الفلك الفارسي ، فإتُّهم بالخيانة لليونان ونُفي منها .

ويبدو أن أقواماً كالأغريق وغيرهم كانوا يقفون مثل هذه المواقف المتشددة أمام الحقائق العلمية ، لأن الناس كانوا يشاهدون حركات النجوم وتنقلاتها بأنفسهم فلا يخامر أحداً شك في أن ما يشاهده هو حقيقة واقعة .

---

(١) كانيوس بلي نيوس زكوندوس عالم ومؤرخ يوناني ولد في بلاد الروم عام ٢٣ بعد الميلاد وتوفي بها عام ٧٩ م . خلف كتبا ومؤلفات منها : التاريخ العام ، وتاريخ العلوم الطبيعية في سبع مجلدات وهو يعد من الكتب الهامة في تاريخ العلومْ الطبيعية .

(٢) انكساغوراس العالم والفيلسوف اليوناني ولد قبل المسيح بحوالي ٥٠٠ سنة وتوفي سنة ٤٢٣ قبل الميلاد . كان يقول بأن الأشياء كلها خلقت من أصل « نوس » أي العقل ، وأن النوس أوجد الحركة وأوجد الذرات ووضعها في الأجسام .

وكان الشرق أو الغرب آنذاك يـطلع بآراء في المسـائل العلميـة تناقض سنن الطبيعة ومن ذلك مثلا موضوع « الحركة » و« الوجود » ، وهو موضوع أثار خلافات وتناقضات كثيرة . فقالت جماعة بـأن الحركـة وُجدت أولا ووجـد العـالم بعدهـا ، بينما رأت جمـاعة أخـرى أن العامـل خلق أولاً ثم جـاءت الحركة في أثره .

وكـذلك الشـأن في مـوضـوع الجسم والـروح وأيهـما سبق الآخـر في الوجود ، فقد اختلفت الآراء حول هذا الموضوع ، وتناقضت أحيانا .

ولكن لم يتعرض أحد من أصحاب هذه النظريات المتعارضة لـلإتهام أو للرمي بالزندقة والكفر ، لأن هذه الموضوعات لم تكن محسوسـة ملموسـة أو مرئيةً للناس .

فإن خالفت نظريةٌ ما سنُن الكون ، لم يُرم صاحبها بالكفـر ، أما إذا خالفت مباديء الدين كالتـوحيد أو النبـوة ، فالـرمي بالـزندقـة هو المصـير الحتمي .

وقد ذهب العالم والفيلسوف اليونـاني « انكسيمانس » (الـذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد) إلى أن الكرة الشمسيـة عنصر مـذاب ، وإنها أكبر من الكرة الأرضية ، ولكننا نراها صغيرة لبعدها عنا ، ولـولا ذلك لما أنارت الأرض كلها ، ولما شعرنا بحرارتها .

وهذا الرأي ، الذي طلع به هـذا الفيلسوف في القـرن السابع قبل الميلاد ، شبيه إلى حدٍ بعيد بـرأي العلماء في الشمس في القرن العشـرين ، إذ نعلم في يومنا هذا أن الشمس قرص محترق كالغاز .

وقد انتقلت هذه النظرية من اليونان إلى بابل ، ولكن أحداً لم يجرؤ على ابرازها خشية التفكـير ، لأن من عقيدة بـابل أن الشمس هي مصبـاح

الآله الأكبر لبابل ، وهو يضيئها صباحاً ويطفئها ليلاً .

فالرأي الذي ذهب اليه (انكسيمانس) كان معارضا للعقيدة البابلية ، وإن قال به أحد أو صدقه عد كافرا ، ومنع من دخول معبد إله بابل الكبير ، وحرمت عليه وظائف الدواوين الحكومية .

ومما ذهب إليه (السيمانس) أيضاً أن نشأة الكون بدأت بالهواء ، والهواء هو أصل جميع الموجودات والخلائق.

وقد روى المؤرخ أومستيد[1] في كتابه (المسيح من الوجهة التاريخية) أن اثنين من علماء بابل قبلا نظرية (انكسيمانس) فطردا من العمل الحكومي ، وضاقت بهما الحال حتى اضطرا إلى النزوح من بابل .

وهناك فيلسوف يوناني آخر، هو (انكسيماندس)[2] «كانت له نظرية في نشأة الكون تختلف بدورها عن عقيدة البابليين ، ومؤداها أن العالم كان في البدء لا متناهيا في المكان ولا متناهيا في الزمان ، بحيث لا يستطاع وصفه على وجه التحديد ، ثم أخذت اشياء واجزاء من هذا اللامتناهي تتجمع وتتراكم ، فنشأ الجرم ثم الأجسام .

وأضاف (انكسيماندس) أن تراكم الأجزاء لم يتم بنسبة واحدة ، فمنها ما تراكم بكثافة فتكونت المواد الصلبة كالحجارة ، ومنها ما تراكم بليونة فتكون الشجر والنبات والحيوان والانسان .

ولئن عاش هذا الفيلسوف في القرن السادس قبل الميلاد ، فإن آراءه

---

(١) أومستيد عالم ومؤرخ امريكي ، وكان أستاذا لتاريخ ايران في معهد الدراسات الشرقية في جامعة شيكاغو ، وله مؤلف نفيس بعنوان (تاريخ الامبراطورية الايرانية) توفي عام ١٩٤٥ م .

(٢) انكسيماندس فيلسوف يوناني ولد سنة ٦١١ قبل الميلاد وتوفي سنة ٥٤٧ ق.م .

تتفق مع آراء العلماء في القرن العشرين هذا الذي نعيش فيه .

فنظريات علماء الفيزياء في عصرنا الحاضر شبيهة إلى حدٍّ بعيد بنظرية انكسيماندس ، ولو سئل علماؤنا عن نشأة الكون لقالوا أنه بدأ بالهيدروجين ، وإن سئلوا : مم وجد الهيدروجين ، لجاء جوابهم مشابها لنظرية (انكسيماندس) ولكن لا يسع أحدا منهم أن يوضح لنا ما هو هذا الشيء اللامحدود واللامتناهي الذي خلق منه الهيدروجين لأن هذا الشيء وإن تعذر وصفه أو تحديده فهو موجود وهو يولد الهيدروجين ويوجده ، ولئن وجد هذا الشيء في منظومتنا الشمسية وتوابعها ، فهو موجود أيضاً في منظومات فلكية أخرى.

ومن هنا يصح القول إنه بعد انقضاء ٢٦ قرناً على النظرية الفيزيائية التي طلع بها فيلسوف القرن السادس قبل الميلاد (انكسيماندس) ومع التقدم المدهش الذي أحرزه الانسان في عصرنا الحالي ، ولا سيما في ميادين الفيزياء والفيزياء الفلكية ، فإن معارفنا عن نشأة الكون من خلال علم الفيزياء لم تتقدم خطوة واحدة على معارف القرن السادس قبل الميلاد .

وبفضل الفيزياء ، عرفنا أن ذرة الهيدروجين هي أخف ذرات العناصر في هذا الكون ، وإن لها (الكترونا) واحدا و(بروتونا) واحدا ، وأن هذا الالكترون يدور في فلك حول البروتون .

وحتى هذا اليوم ليست هناك مسلمةٌ فيزيائية أو علمية توضح لنا كيف جاء إلى الوجود هذا الشيء الذي لا يوصف ، والذي وصف باللانهاية، وما الذي بدّله إلى الكترون وبروتون عند نشأة الكون ؟ وبعبارة أخرى ، إن القانون العلمي لهذا التغير والتبديل لم يكتشف حتى الآن ولا نعرف أيهما وجد أولا : البروتون أو الالكترون ، وهل أولهما هو الذي يحتوي على قوة الجذب الكهربائي وثانيهما : هو المحتوي على قوة الطرد الكهربائي ، وهو ما يسمى في المصطلح العلمي بالقوة (+) والقوة

(-) ؟ أو أن هذين العنصرين وجِدا معاً ؟ وكيف وجـدا من الشيء الذي لا يوصف ؟ .

ووصلت نـظرية « انكسيمـاندس » إلى بـابل ، كـما وصلت من قبل نظرية سلفه اليوناني « انكسيمانس » فلقيت قبـولاً وتأييـداً من البعض دون أن توجّه إلى أي منهم تُهمة الفكر ، ودون أن يُطرد أحد من عمله الحكومي نتيجةً لقبوله هذه النظرية . وعلّة ذلك أن أحداً في بابل لم يـر بأمّ عينيـه ما يُثبت أو يـدحض نـظريـة « انكسيمـانـدس » ولا عـرف أحـد كيف نشأ الكون ، ولكن هؤلاء القوم كـانوا يـرون بأم العينـين شروق الشمس كـل صبـاح وغيـابهـا كـل مسـاء ، فكـان عسيـراً عليهم قبـول نـظريـة « انكسيماندس » القـائلة إن الشمس كرة أكبـر من الكرة الأرضيـة ، وأنها كتلة ذائبـة من الأشعة التي لا ينـطفىء لهيبها ، وإنمـا كانـوا يرون الشمس تشرق في الصباح وتغيب أو تنطفىء - في رأيهم - في المساء فكانوا يعتقـدون أن إله بابل يضيء هذا المصباح في النهار ويطفئه في الليل .

وأما « انكساغوراس » ، الذي طرد من اليونان ، فكان ذنبه أنه بـدأ بتدريس التقويم الفارسي وترويجه في اليونان ، وهو التقويم الشمسي الذي يعتبر السنة ٣٦٥ يـوماً وبضـع ساعـات ، وقد سجّـل أسامي أشهـر السنة الفارسية في كتيبة على سفح جبل بيستـون في غرب ايـران ، ولا توجـد من عهد الأكمينيين كتيبة بهذا التفصيل في كلّ أرض فـارس ، فقد كتبت هـذه الكتيبة بثلاث لغات هي البهلوية الأكمينيّة ، والبابلية ، والعيلاميّة .

وقد سجل التاريخ أن المصـريين القـدماء وضعـوا بدورهم تقـويماً ، وكـانوا يعتبـرون السنة ٣٦٥ يـوماً قبـل ميلاد المسيـح (ع) بألفي سنـة ، ولكننا لا نعرف هل سبق البابليون المصريين في وضع التقـويم ومعرفـة أيام السنة أم لا ؟ .

ولا يستبعـد أن يكون علم الفلك قـد انتقل من قـوم إلى قوم كغيـره من العلوم ، وان هنـاك أقـوامـاً أبيـدوا بفعـل كـارثـة طبيعيـة ، كـما قـال افلاطون .

وعلى كل حال ، فعندما بدأ الامام الصادق (ع) يلقي دروسـه على تلامذته في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، لم تكن معـارف البشر عن الشمس تتجاوز ما أسلفنـا ايراده ، وكـان كل صـاحب رأي أو نظريـة جديدة في العالم الغربي في ذلك الحين معرضاً لخطر التكفير والـزندقـة ، ولا سيـما اذا تعارضت نـظريته مـع العقيدة السـائدة ، أمـا الـوضـع في العـالم الاسـلامي فكان مختلفـاً عن ذلك ، إذ أن البحث حـول الشمس والأرض وحركاتها كان يدور بحريـة كاملة دون خـوف من توجيـه تهمة الارتـداد أو التفكـير الى أي باحث . فلما قـال الصـادق (ع) ان الأرض تـدور ، وان توالي الليل والنهار يحدث بفعل دورانها ، لم يرمه أحد بتهمة ما . وقـد رأينا في ما سبق أن اقليدس اليوناني هو أول من تعرض لنظرية حـركة الأرض ، ولكنه لم ينتبه إلى أن الأرض تدور حول نفسها ، وانما قال ان الأرض تدور حول الشمس ، وايا كان الأمر ، فـإن النظريـة التي ابتدعهـا اقليدس تقيم البرهان على نبوغه وعلى قدرته على التفكير العلمي الجاد .

أما كروية الأرض ، فقد اهتم الانسان بموضوعها قبـل ميلاد المسيـح بألف سنة ، وكان قدماء المصريين يقولون بكروية الأرض ، وقد انتقل هذا الرأي منهم إلى العرب ، وقام الجغرافي العربي الشريف الادريسي[1] برسم

---

(١) الأدريسي أبـو عبـدالله المعـروف بـالشـريف وهـو من احفـاد ادريس الحسيني (٤٦١ - ٥٦١ هـ - ١١٠٠ - ١١٦٥ م) رحالة ولد في سبته ودرس في قرطبة ، وبرع في علم الهيئة والجغرافيا والطب والحكمة والشعر ، وطاف ببلاد الروم واليونان ومصـر والمغرب وفـرنسا وجزيرة بريطانيا ، ودعاه روجيـه الثاني ملك النـورمانـديين الى زيـارة صقلية ، فـرسم له الادريسي هناك ما عاينه من البلدان على كرة من الفضة . من مؤلفاته (نزهة المشتاق في =

خرائط جغرافية تثبت رأيه في كروية الأرض .

ولكن العلماء الذين سبقوا الصادق (ع) لم يقل منهم أحد بأن الكرة الأرضية تدور حول الشمس ، فكان الصادق (ع) اسبق العلماء إلى ايراد هذه النظرية العلمية الهامة ، وقد اهتدى اليها بفضل ما وهبه الله من قدرة عقلية فائقة ونبوغ خارق قليل النظير ، واستطاع جعفر الصادق (ع) بتفكيره العقلي المجرد ، ودون استعانة بأي أجهزة علمية ، ان يثبت ما كان الناس يرون خلافه في الواقع آنذاك .

نظرية الصادق بشأن الأرض

مر بنا أن الانسان اهتدى إلى أن الأرض كروية منذ القديم ، وأن جميع البحارة البرتغاليين والأسبان الذين بدأو رحلاتهم البحرية من منتصف القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن السادس عشر لكشف العالم انطلقوا من هذا المبدأ (أي كروية الأرض) ، ولا بد من الاقرار في هذه المناسبة بأن القرن السادس عشر كان زاخراً بالمفاجآت واكتشاف المجهول ، ومتى قرأنا أخبار رحلة البعثة البرتغالية بقيادة (فاسكودوجاما) الذي اكتشف الطريق البحري إلى الهند ، صغرت في أعيننا رحلة أبولو إلى القمر في القرن العشرين .

وإذا ما قرأنا عن رحلة « ماجلان »[1] ورفاقه (٢٦٨ شخصاً) حول

= احتراق الآفاق) و (الجامع لصفات اشتات النبات) .

(١) ماجلان (Magellan) ١٤٨٠ ـ ١٥٢١ م رائد برتغالي اكتشف المضيق الذي اطلق عليه اسمه في جنوب امريكا اللاتينية عندما عبره في طوافة حول العالم عبر المحيط الهادي من الشرق الى الغرب في مائة وعشرة أيام ، دون أن يواجه متاعب في البحر أو أمواجاً عاتية . فسمي هذا البحر بالمحيط الهادي ، ثم وصل الى جزر سمّاها باسم ملك اسبانيا الذي كان في خدمته « فليبين » ، وقتل ماجلان في مصادمة مع سكان الجزر ، فخلفه=

الأرض والتي استغرقت ثلاث سنين ، وما عانوا من المتاعب وأسباب الحرمان والمخاطر بحيث لم يبق على قيد الحياة من أعضاء هذه البعثة الضخمة الا ١٨ شخصاً فقط ، لم يعد لقصة رحلات ابولو الفضائية ورحلات الأقمار الصناعية الضخمة لون فتّان .

فالبحار فاسكودوجاما الذي اكتشف الطريق البحري الى الهند ، وكريستوف كولمبس الذي اكتشف أمريكا ، وماجلان هو أول من طاف حول الأرض عن طريق البحر ، كانوا يعلمون أن الأرض كروية ، ولم يخرج أحد منهم في رحلته بقصد اكتشاف كروية الأرض ، بل كانت رحلاتهم لأهداف مادية .

فقد بدأ فاسكودوجاما وكريستوف كولمبس وماجلان رحلاتهم للحصول على الأعشاب الطبية التي كانت تباع بأسعار خيالية في أوربا . فإذا كان كريستوف كولمبس وماجلان اتخذا وجهة الغرب في رحلتهما تلك ، لأن السفن الاسبانية لم يكن مسموحاً لها بأن تتجه نحو الشرق بسبب أن البابا قسّم العالم إلى جزءين شرقي وغربي ، واهدى النصف الشرقي إلى ملك البرتغال والجزء الغربي إلى ملك اسبانيا ، فكان من نبوغ كريستوف كولمبس وماجلان وذكائهما أن خططا للوصول إلى القسم الشرقي وجزر الملوك (وهي منبت الأعشاب الطبية) بعد اجتياز الجزء الغربي من العالم آنذاك ، فكانت أهداف جميع هؤلاء الرّحالة العظام تجارية ومادية بحتة . ولم يحفل أحد منهم لا بأن الأرض كروية ولا بأن لها حركة أو أنها تدور حول نفسها .

= البحّار « سباستيانو ـ انكانو » الذي قاد السفينة ومَنْ عليها (١٨ شخصاً) الى اسبانيا وتسلّم نيشان الكانو الذهبي من ملك اسبانيا ، وبقيت اسرته تحظى بالاحترام طوال قرون ، ولكن ماجلان لم يخلّف أحداً من بعده . ومضيق ماجلان هو ذراع بحرية بين طرفي امريكا الجنوبي وأرض النار .

وليس لدينا ما يثبت أن جاليلو ، وهو العالم الايطالي الذي كان أول من اكتشف أن الأرض تدور حول الشمس ، قد اهتدى أيضاً إلى أن الأرض تدور حول نفسها . ويلوح أن هذا الباحث الفيزيائي والمنجّم ، الذي يدين له التقدم العلمي في العالم بفضل القوانين العلمية التي وضعها لأول مرة ، والذي مات بعد اكتشاف أمريكا بقرن ونصف قرن ، كان يقول بدوران الأرض حول الشمس فقط ، وأن محكمة التفتيش العقائدية « انكيزيسيون » حاكمت جاليلو ، لمجرد أنه قال ان الأرض تدور حول الشمس ، وأكرهته على التوبة والاستغفار .

وبدأ البحار البريطاني (فرانسيس دريك) رحلة حول الأرض في سنة ١٥٧٧ ، أي بعد ماجلان بخمس وسبعين سنة ، واستمرت رحلته إلى عام ١٥٨٠ ، وكان ذلك بعد ما اشتهرت نظرية كروية الأرض وشاعت في مختلف الأوساط . ولكنه لم يكن يعلم بدوره ما إذا كانت الأرض تدور حول نفسها أو لا ؟

ولكي نفطن إلى أن نظرية دوران الأرض حول نفسها كانت من النظريات البعيدة عن الادراك والفهم ، تتعيّن الإشارة إلى أن عالم الرياضيات الفرنسي هنري بوانكاره (Henry Poincarré الذي توفي عام ١٩١٢ م عن عمر ناهز السابعة والخمسين وكان يُعد ألمع عالم في الرياضيات في هذا العصر ، كان يمزح ويقول : إنني غير متأكد من أن الأرض تدور حول نفسها . فإن صح بأن عالماً فذاً كهنري بوانكاره تشكك ، ولو على سبيل الفكاهة في مطلع القرن العشرين بأن الأرض تدور حول نفسها ، فمن اليسير علينا أن ندرك ماذا كان الناس يتصورون أو يقولون بشأن هذه النظرية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي (النصف الأول من القرن الثاني الهجري) إذ كان قبول هذه النظرية شبه مستحيل .

ودوران الأرض حول نفسها لم يثبت عملياً إلا بعد ما وضع الانسان قدميه على سطح القمر ، وشاهد الكرة الأرضية من هناك وسجّل حركتها . أما قائدو المكوكات الفضائية فلم يتمكنوا من تسجيل حركة الأرض حول نفسها قبل وصول البشر إلى القمر ، لأن مراكب الفضاء كانت تنطلق بسرعة فائقة وتدور حول الأرض مرة في كل ٩٠ دقيقة ، ولم تثبت أقدام رواد الفضاء في نقطة ما ليشاهدوا منها حركة الأرض ، ولكن هذا تحقق من سطح القمر ومع اجهزة التصوير الدقيقة فشاهدوا عندئذ حركة الأرض وصوّروها أيضاً .

وبفضل التقدم العلمي والصناعي الذي تحقق للانسان في القرن العشرين ، عرفنا أن كل نجم في منظومتنا الشمسية يدور حول نفسه ، وأن حركة النجوم في المنظومة الشمسية تخضع لقوانين ميكانيكية دقيقة ، وأن كرة الشمس التي تدور حولها الكرات الأخرى ، والتي تمثّل القطب أو المركز ، تدور بدورها حول نفسها وتتصل حركتها حول نفسها في منطقة خط الاستواء فتمتد إلى مرّة في كل ٢٥ يوماً .

وعندما اخترع جاليلو المنظار الفلكي ، استطاع بمساعدته رصد المنظومة الشمسية والاجرام ، وايقن أن هذه الاجرام تدور كذلك حول نفسها .

صحيح أن جاليليو رأى الكرة الأرضية تدور حول الشمس كغيرها من الكواكب ، ولا يستبعد أبداً أن يكون قد انتهى إلى أن الأرض تدور بدورها حول نفسها ، ولكننا لا نقع في مؤلفاته على أثر لهذا الكشف ، ولعله وهو الذي اضطر - في ما بعد - إلى انكار نظريته في شأن دوران الأرض حول الشمس ، خوفاً من محكمة التفتيش العقائدية قد آثر أن يحجب رأيه المتعلق بدوران الأرض حول نفسها لئلا توقع عليه العقوبة

الصارمة المؤكدة وهي الاحراق بالنار ، إن عرف عنه ـ بعد تراجعه وتوبته ـ انه يدعو إلى رأي جديد هو أن الأرض تدور حول نفسها . وليس في مذكرات جاليليو التي تركها بعد وفاته ما يدل على أنه عرف أن الأرض تدور حول نفسها .

وفي القرن السادس عشر الميلادي ظهر في الدانمرك عالم فلكي آخر هو « تيخو براهة » أو « تيكو براهة » وكان ينتمي إلى طبقة الاشراف المترفة في بلاده على النقيض من كوبر نيكوس البولوني الذي كان رقيق الحال لا يجد ما يسد به جوعه .

وقد مهدت ابحاث تيخو في علم الفلك طريق الكشف أمام العالم الالماني كبلر ، فوضع هذا الأخير قوانينه الفلكية الثلاثة المشهورة الخاصة بحركة السيارات ـ ومنها الكرة الأرضية ـ حول الشمس .

ولكن تيخو براهة لم يهتد بدوره إلى أن الأرض تدور حول نفسها ، وقد كان يعيش في الدانمرك بعيداً عن سلطة محاكم التفتيش ونفوذها ، فلو اهتدى إلى هذه النتيجة ، لبادر إلى إعلانها غير متظير من احتمال العقاب شأنه في هذا شأن كوبر نيكوس البولوني وكبلر الألماني اللذين كانا يعيشان خارج نفوذ محاكم التفتيش .

والغريب أنه في الوقت الذي كانت فيه محاكم التفتيش مشغولة بتعقب القائلين بنظرية دوران الأرض حول الشمس وإنزال أشد العقوبات صرامة بالداعين إلى هذه النظرية ، كانت الكتب والملاهي الخليعة واسعة الانتشار ولا تتعرض لها محاكم التفتيش على أي نحو كان .

وقد توفي تيخو براهة في سنة ١٦٠١ م وتوفي كبلر في سنة ١٦٣٠ م ، وظلت القوانين الثلاثة التي وضعها كبلر عن حركة السيارات

تظفر بإعجاب الأوساط العلمية في ذلك الوقت إلى يومنا هذا ، وكان مما ذهب إليه في حركة النجوم أن السيارات ومنها الكرة الأرضية تدور حول الشمس في مسار بيضاوي الشكل وليس دائرياً كما ذهب كوبر نيكوس(١) . ولسنا هنا في مقام التحديد بالتفصيل عن قوانين كبلر الفلسفية وحسبنا إننا أشرنا إليها بالايجاز الذي يقتضيه السياق .

وصحيح أن كبلر باكتشافه القوانين الثلاثة وبأن الكرة الأرضية تدور حول نفسها قد أثبت للعالم نبوغه العامي ، ولكنّ الإمام جعفراً الصادق (ع) اكتشف هذه الحقيقة العلمية قبله باثني عشر قرناً ، وقال أن الأرض تدور حول نفسها ، وان تعاقب الليل والنهار ليس سببه حركة الشمس حول الأرض . ثم قال ان مثل هذه الحركة مستحيلة مع دوران الشمس في منطقة البروج ، وأن الليل والنهار ناشئان عن حركة الأرض حول نفسها . فيصبح نصف الكرة الارضية في نهار مشرق ، ونصفها الآخر في ليل مظلم (٢) .

---

(١) للدائرة مركز واحد يسمى القطب ، أما الشكل البيضاوي فله قاعدتان .

(٢) ظهرت نظرية الإمام الصادق (ع) هذه من خلال ما كان يُلقيه على تلاميذه ومن خلال أحاديثه مع أصحابه ومواليه في مناسبات شتى . ومن ذلك ما رواه « الكافي » عن أحمد بن محمد وعلي بن محمد جيعًا عن علي ابن الحسن التيمي عن محمد بن الخطاب الواسطي عن يونس بن عبد الرحمن عن أحمد بن عمر الحلبي عن حماد والأزدي عن هشام الخفاف ، قال : قال لي أبو عبد الله (جعفر الصادق) (ع) : كيف بصرت بالنجوم ؟ قال ، قلت : ما خلفت بالعراق ابصر بالنجوم منّي . فقال : كيف دوران الفلك عندكم ؟ قال : فأخذت قلنسوتي عن رأسي فأدرتها . فقال : فإن كان الأمر على ما تقول ، فما بال بنات نعش والجدي والفرقدين لا يرون يدورون يوما من الدهر في القبلة ؟ (وفي « المناقب » : لا تدور يوما من الدهر في القبلة ؟) قال ، قلت : والله هذا شيء لا أعرفه ، ولاسمعت أحدا من أهل الحساب يذكره . فقال لي : كم السكينة من الزهرة جزءاً في ضوئها ؟ قال ، قلت : هذا والله نجم ما سمعت به ،ولا سمعت أحداً من الناس يذكره . فقال : سبحان الله ، اسقطتم نجما بأسره ، فعلى ما تحسبون ؟ . . =

فـما الذي جعـل الإمـام جعفـراً الصـادق (ع) يكتشف أن الأرض تـدور حول نفسهـا فيتعـاقب الليـل والنهـار بسبب ذلـك . سـابقـاً العلماء جميعاً ، ومنذ اثني عشر قرنا ؟ .

في حـين أن علماء القرنـين الخامس عشـر والسادس عشـر الميلاديـين الذين أشرنا إلى أسماء بعضهم ، قد اهتدوا إلى القوانين الميكانيكية للنجـوم دون أن يتوصلوا إلى حقيقة دوران الأرض حول نفسها، وفي حين أن الإمام الصادق (ع) يعيش في منطقة بعيدة كل البُعد عن عواصم العلوم في روما واليونان ، فكيف اكتشف هذه الحقيقة ؟ .

لقد كانت هنـاك عواصم علميـة في عصر الإمـام الصادق (ع) هي أنطاكية والقسطنطينية وجنديسابور وبغداد ، ولكنها لم تكن قد برزت بعد ، ولا وُجد فيها من اكتشف هذه النظرية .

هنا يثور السؤال : هل كان الإمـام الصادق (ع) الـذي اهتدى إلى هذه الحقيقة العلمية ، على علمٍ بقـوانين ميكـانيكية النجـوم ، وهل كـان يعـرف أن هذه الأجـرام تدور حـول نفسها وحـول الشمس وفقـاً لقـانـون الجاذبية بجانبيه الموجب والسالب ، الجاذب والطارد ، الصادر من القاعـدة أو المركز والعائد إليها ؟ .

ولا يُستبعد أبداً أن يكـون الإمام العـالم جعفر الصـادق (ع) الذي اكتشف نظرية دوران الأرض حول نفسها ، قد توصّل قبل ذلك إلى قانـون

- إلى آخره. («من الكـافي» ج٨ ص٣٥١. المنـاقب «ج٤ ص٢٦٥») وهنـا يسقط الإمـام نـظريـة دوران الشمس حـول الأرض لأنها ان صحت ، فكيف نهـتدي بـالجـدي ونـراه (والجـدي نجم في القـطب يهتـدى بـه إلى القبلة) . وبنـات نعش والفرقدان لا تترك مـواقعهـا ، وإنمـا الأرض التي تتحـرك حـول نفسهـا ثم تتحـرّك في دائـرة أوسـع حـول الشمس . (المترجم) .

الجاذبية . فهذا القانون هو أساس تلك النظريـة ، ومن المنطقي أن يكـون اهتداؤه إلى قانون الجاذبية قد هوّن عليه الاهتداء إلى نظرية دوران الأرض حول نفسها .

الإمام جعفر الصادق (ع) ونظرية نشأة الكون

أتينا في ما سبق على نظرية الإمام الصادق (ع) بشأن حركة الأرض ودورانها حـول نفسهـا . وربمـا تـراءى للمـرء أن يقـول ان الإمـام جعفـراً الصادق (ع) قد اهتدى إلى هذه النظرية بقوة حدسه أو بمحض الصدفة ، إذ كثيراً ما يحدس الإنسان بأمرٍ أو يرجم به ، فيصادف حدسه الواقع في ما بعد . ولكن يبقى دائماً سؤال هام هو : لِمَ لَمْ يهتدِ أحد إلى أن الأرض تدور حول نفسها طوال هذه القرون ، وكان الصـادق (ع) وحده صـاحب هذا الكشف ؟ .

وأرجـح الآراء أن الإمام جعفـراً الصادق (ع) تـوصّـل إلى معـرفـة القـوانين الميكـانيكيـة لحـركـة النجـوم من خـلال معـرفتـه لحـركـة الأرض ودورانها ، فلولا معـرفتـه بتلك القـوانـين لمـا استـطاع التـوصّـل إلى هـذه النتيجة ، فمثل هذه المعرفة لا تتحصّل مصادفة ولا يحدس بها المـرء ، وإنّما تتحصّـل بمعرفـة العلة والمعلول ، حتى وإنْ لم تـذكـر العلة التي أفضت إلى المعلول ، أي النتيجة .

وللإمام آراء علميّة جريئـة في الفيزيـاء وغيرهـا من العلوم لا تختلف أبداً عن النظريات العلمية في عصرنا الحديث . ولو قرأ عالم فيزيائي اليوم نـظرية الإمـام جعفر الصـادق (ع) في موضـوع نشـأة الكـون ، في إطـار القوانين الكونية بعد ، وكل ما قيل في هذا الصدد هو نظريات وآراء تحتمل الصواب والخطأ .

على أن نظرية الإمام جعفر الصادق (ع) قد تميّزت بكـونها انطلقت قبل اثني عشر قـرناً ، وأنها مـع ذلك تـطابق النظريـات الفيزيـائية الحـديثة بشأن نشأة الكون .

أما نظرية الإمام الصـادق (ع) الخاصـة بنشأة الكـون ، فلا تختلف عن النظرية العصرية الخاصة بالذرة وأصل الكون . وقد أشار الإمام (ع) إلى وجود قطبينْ متضادّين ، وهو ما يماثل القوّتين الإيجـابية والسلبيـة داخل الذّرة ، ومنهما تتألف الذّرة نفسها ، وتتولد المادة من الذرة . .

وقد مر بنا أن بعض فلاسفة اليونـان في القرنـين السادس والخـامس قبـل الميـلاد قـد طلعـوا بـآراء حـول نشـأة الكـون وأصـل العـالم ، منهم ديمقريطس الذي قال بنظرية شبيهـة إلى حدًّ بعيـد بنظريـة الذّرة في العصـر الحـديث . ولا يستبعـد أن يكـون الإمـام الصـادق (ع) قـد وقف عـلى نظريات هؤلاء الفلاسفة ، وأن نظريته المتعلقة بنشأة الكون قائمة على هذا الاساس .

وليس ثمـة ريب في أن الإمـام جعفـراً الصـادق (ع) قـد ألمّ بـآراء فلاسفة اليونان ونـظرياتهم ، وأن هـذه الآراء والنظريـات كانت تنتقـل إلى المدينة عن طريق أقباط مصـر ، تمامـاً كما انتقـل نموذج الكـرة الارضية من مصر إلى المدينة(١) .

---

(١) القول بأن الإمام جعفراً الصـادق (ع) أخذ نـظرياتـه العلمية من مصـادر إغريقيـة ، لا يستند إلى دليل تاريخي مقنع ، فضلاً عن أن تاريخ الإمام وسيرته يثبتـان خلاف ذلـك . وعلى سبيل المثال ، نورد مناظرة لـلإمام جعفـر الصادق (ع) في مجلس الخليفـة العباسي أبي جعفر المنصور ، مع طبيب هندي كان يقرأ على المنصور كتب الـطب ، فأخـذ الإمام الصادق (ع) ينصت لقراءته ، فلما فرغ ، قال : يا أبا عبد الله ، أتريد ممّا معي شيئاً ؟ قـال : لا ، لأن ما معي خـير ممّا معـك . قال : مـا هو ؟ قـال : اداوي الحارّ بـالبارد ، والبـارد بالحـارّ ، والـرطب بـاليـابس ، واليـابس بـالـرطب ، وأردّ الأمـر كله إلى الله ، =

ولا يُستبعد ابداً أن يكون الإمام الصادق (ع) قد وقف أيضاً على نظريات فلاسفة الإغريق الذين عاشوا قبله بثلاثة عشر قرناً . وهي النظريات المتعلقة بأصل الكون ، إلاّ أن الامام أضاف إليها ما هدته إليه بديهته الذكية ، فأخرج نظرية علمية دقيقة تتفق مع نظرية علماء الفيزياء في هذا القرن ، بل إن العلماء المعاصرين لم يضيفوا إليها إضافة جديدةً ذات بال .

والنقطة المحورية في نظرية الإمام الصادق (ع) هي موضوع القطبين المتضادين . أما فلاسفة الاغريق من قبله ، فلم يتحرَّوا هذه النقطة بمثل ما وضحها الإمام ، واقتصروا على القول بأن في الوجود أضداداً ، وقال بعضهم بأن الشيء يتميز بضده ويعرف به .

وتتجلى بوضوح في نظرية نشأة الكون عند الإمام نظريته الخاصة بالأضداد ، بما لا يتضح في نظريات فلاسفة الاغريق القدامى أو فلاسفة الاسكندرية ، ناهيك عن أن هؤلاء الفلاسفة قد ساقوا نظرية الاضداد في غير اطمئنان إلى صحتها ، وأفسحوا المجال أمام الباحثين في إثباتها أو دحضها ، وطبيعي أن النظرية كانت غير مكتملة الدقة ، وكانت تحتمل الطعن في سلامتها .

فإذا انتقلنا إلى نظرية الإمام الصادق (ع) ، ألفيناها واضحة العرض والتعليل . فقد جزم بها واستغنى بذلك عن استخدام أي عبارة

= واستعمل ما قاله رسول الله (ص) ، وأعلم أن المعدة بيت الأدواء ، وأن الحمية هي الدواء ، وأعوّد البدن ما اعتاد. قال : وهل الطب إلا هذا ؟ قال الصادق (ع) : أفتراني عن كتب الطب أخذت ؟ قال : نعم . قال : لا والله ما أخذت إلاّ عن الله سبحانه وتعالى ، واستمر الحديث والمناظرة بأسئلة ألقاها الإمام على الطبيب الهندي عجز عن إجابتها . المناقب ج ٤ ص ٢٦٠ .

توحي بمعنى التحفظ أو الاحتياط ، فهو قد كان واثقاً من سلامة رأيه ولا يعتوره أدنى شك في صحة نظريته .

وكما سبق القول ، فإن الشيعة ترى أن اهتداء الإمام إلى أسرار الكون والنجوم وعلوم الفيزياء والرياضيات وما إليها إنما هو من خصائص الإمامة ، أي من مقتضيات العلم اللدني الباطني الذي يهبه الله لأئمته ، ولا يكتسبه المرء بالتجربة والاختبار .

أما المؤرخ الباحث عن الحقيقة المجردة ، فلا بد له من متابعة مجريات الأحداث وتعليلها واستقصاء الأسباب والوصول إلى النتائج ، وليس من ديدنه القول باللدنية أو العلم الباطني . وقد عرف المؤرخ وغير المؤرخ أن الإمام جعفراً الصادق (ع) كان يحصّل العلم بحضوره درس أبيه الباقر ، وكان يشتغل بالتدريس والتعليم ، فلا سبيل إذن إلى القول بأن علمه لدّني ، ناله دون دراسة أو اجتهاد أو إمعان فكر[*] .

والعلماء الذين سطروا تاريخ الإمام الصادق (ع) قد رأوا فيه عالماً فذّاً يأخذ بمناهج العلماء الأفذاذ ، وكانت قدرته الفكرية الألمعية تفوق قدرة جميع معاصريه من العلماء والباحثين ، وقد استطاع باستثمار هذه القدرة الإتيان بما تحقق له من نظريات علمية وكشوف لم يسبقه إليها أحد[1] .

(*) إن حضور الإمام الصادق (ع) درس أبيه الإمام الباقر (ع) دون سواه ، واختصاص الإمام الباقر (ع) لوحده بإفاضته العلم إلى الإمام الصادق (ع) خير دليل على أن علم الصادق (ع) ليس علماً اكتسابياً لأن الباقر (ع) نفسه لم يأخذ العلم قبل ذلك من الآخرين .

(١) للمجمع العلمي للدراسات الاسلامية بجامعة استراسبورغ دراسات تاريخية حول الشخصيات الاسلامية تتناول الوجهة التاريخية وحدها بتجرد وموضوعية ، بالإضافة إلى أن معظم الباحثين فيه هم من غير المسلمين أو الشيعة ، فلا ينتظر منهم أن يعترفوا بالأئمة أو الرسول الاعظم (ص) شأن المسلم . وعندنا أن الامام فضله الله وكرمه بمنبته =

وإن نظرية القطبين المتضادين التي طلع بها الإمام الصادق (ع) قد ظهرت أهميتها في القرن السابع عشر الميلادي ، عندما أثبت علم الفيزياء وجود هذين القطبين . والذين عاصروا الإمام ظنوه قائلاً بما قالت به الفلاسفة من قبله من أن الشيء يعرف بضده ، ولهذا لم يعوا كلامه ، ولا احتفوا به الحفاوة الخليقة به ، ولكن ما نعرفه اليوم من علوم الذرّة والكهرباء والإلكترونيات قد قطع بسلامة هذه النظرية ، وأكد أن هناك قطبين متضادين في المغناطيس وفي الكهرباء وفي نواة الذرّة وفي غير ذلك من ميادين العلوم .

وقد استوفينا القول في علم الإمام الصادق (ع) بالجغرافيا وعلم الهيئة والنجوم ، وها نحن نفيض الآن في الحديث عن إسهامه في موضوع نشأة الكون وأصل العالم ، وننتقل بعد ذلك إلى دوره في علوم الفيزياء وغيرها من العلوم . وسنرى أن الإمام جعفراً (ع) قد تعرّض في مباحث الفيزياء لمسائل لم يتعرض لها أحد ، لا قبله ولا بعده إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي . ومن ذلك مثلاً قانون الأجسام الصلبة ، فقد صنّف تلك الأجسام إلى أجسام كدرة وأخرى مصقولة شفافة ، إذ قال : كل جسم صلب جامد يكون كدراً، وكل جسم جامد دافع يكون لماعاً وشفافاً. وقال في الرد على سؤال : ما الذي يجذب ؟ إن الحرارة هي التي تجذب.

وقد أصبحت هذه النظرية في يومنا الحاضر قانوناً علميّاً في الكهرباء والفيزياء . أفليس مما يدهش أن يكون القائل بهذه النظرية منتمياً إلى منتصف القرن السابع الميلادي ؟ ولعلّنا في يومنا هذا ، لو سألنا مائة شخص كيف أن من الأجسام الصلبة ما هو لّماع وما هو كدر ، لما استطاع

= الطيّب الطاهر ، وأخذ العلم عن أبيه وعن جده الرسول (ص) وهو المعلم الأول لهم ، وهم أعلم الناس بأقوال الرسول (ص) وسنته ، والعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء ، فهم مواطن العلم وأهله (المترجم) .

أحد منهم أن يجيء بالجواب الصحيح ، أي أن يقول لنا سبب كون الحديد كدراً والبلّور أو الألماس لمّاعاً وشفافاً ؟ .

ونعرف في قوانين الفيزياء الحديثة أن كلّ جسم كدر تصدر عنه أمواج وأشعة حرارية ، فيكون موصّلاً جيّداً للحرارة وللأمواج الالكترونية . وأن الأجسام التي لا تنتقل الحرارة منها بسهولة ، أي غير الموصلة للحرارة الجاذبة لها أو الناقلة الأمواج الالكترونية ، تعتبر أجساماً عائقة ، وتكون شفافة لماعة[1] .

والإمام الصادق (ع) لم يتحدث عن أمواج كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) ، ولكنه تحدّث عن الحرارة ، وجاءت أقواله مطابقةً لقوانين الفيزياء في يومنا هذا . وبعبارة أخرى ، أن الأجسام الكدرة كالحديد تنقل الأمواج الكهرطيسية وتنقل الحرارة وتجذب ، في حين أن الأجسام التي لا توصل الحرارة أو توصلها ببطء وتحول دون انتقال الأمواج الكهرطيسية تعتبر أجساماً عائقة ، وتكون لمّاعة شفافة .

وتقوم نظرية الإمام الصادق (ع) في كدر الأجسام أو صفائها على أساس الجاذبيّة والقدرة على الشدّ والقبض . ولمّا سُئل عن سبب كدر الأجسام أو صفائها قال : إن الجسم القابض للحرارة كدر ، والأجسام التي لا تمتص الحرارة شفّافة على اختلاف مراتبها .

ولا تقل نظرية الجاذبية عند الإمام الصادق (ع) في أهميتها عن نظريته القائلة بوجود قطبين متضادين ، وهي تطابق قوانين الفيزياء الحديثة

---

(١) الأمواج الكهرطيسية هي الأمواج التي بواسطتها نسمع أصوات الاذاعة (الراديو) ونرى صور التليفيزيون . وتقول المجلات العلمية الأوروبية والأمريكية أنه إن قدر للبشر ذات يوم أن يتراسلوا ويتحادثوا مع سكان الكواكب الأخرى ، فأكبر الاحتمالات أن ذلك سيتم عن طريق الموجات الكهرطيسية (الكهربية المغنطيسية) .

من حيث تعليل أسباب كدر الأجسام الصلبة أو صفائها .

ولا ريب في أن العقلية التي اكتشفت الأسباب الكامنة وراء صفاء الأجسام الصلبة أو كدرها منذ أثني عشر قرناً هي عقليّة سبقت جميع معاصيرها ، وليس من الغلو في شيء القول بأنها عقلية عبقرية فريدة في ميادين العلوم . ولم ينته علم الإمام الصادق (ع) عند هذه النظرية وما سبق له كشفه من نظريات ، بل إنّ له في العلوم نظريات أخرى لا تقلّ أهمية عمّا أوردناه .

ولابد من الإشارة هنا إلى ناحية هامة ، وهي أن الصادق (ع) يشرح نظرياته شرحاً مُبيناً واضحاً ، ويعرضها عرضاً علمياً سهل الفهم والإدراك ، بحيث تستطيع الأذهان تقبله واستيعابه . فالقوانين العلمية التي أتى بها قد ساقها بأسلوب واضح ، وصاغها بعبارات لا تحتمل اللبس ، ادراكاً منه لحقيقتين ، هما أن انتشار العلم رهن بالقدرة على فهمه ، وأن قوانين العلوم تبقى الدهر ، ولا تنتهي بوفاة واضعيها .

وهذا القول يصدق أيضاً على الحكم والأمثال السائرة ، ولابد لسهولة تقبلها من الناس وسريانها على الألسنة من أن تكون سلسلة العبارة سهلة المأتى بليغة التعبير . وهكذا تدخل الأمثال إلى المعاجم ، وتبقى جزءاً من الثقافة العامة للناس جميعاً ، يستشهدون بها ويتناقلونها .

وللامام الصادق (ع) حِكَمٌ وكلمات قصار شاعت بين الناس ، وتقبلتها أقوال كثيرة قبولاً حسناً بل منهم من رواها دون أن يفطن إلى واضعها ومنشئها .

ومن الحِكَم التي ساقها الإمام الصادق (ع) قوله مثلاً : (الإنسان اذا مرض أو وجع عرف نفسه) . ولئن قال الصادق (ع) هذه الحكمة في

المدينة ، فقد شاعت عند أمم كثيرة في آسيا وإفريقيا وأوروبا ثم أمريكا ، ومن سمعها عرف أن قائلها أصاب كبد الحقيقة . وها نحن في عصرنا هذا نرى العالم النفسي الكندي (مارشال ماك لوهان) يعد هذه الحكمة من قوانين علم النفس ، فيقول أن الإنسان لا ينسى نفسه فقط عندما يحل به ألم ، إذ أنه كثيراً ما ينسى نفسه ووجوده في غياب الألم وتوافر الصحة

ومما ساعد على انتشار هذه الحكمة الجعفرية في العالم وحمل الأقوام على تقبلها ، أنها حكمة صحيحة وسهلة الفهم في آن واحد . وفي وسع كلٍّ منّا أن يتحقق من صدقها ، فيعرف أن الإنسان لا ينسى نفسه أو ينسى أنه حيّ إذا ما أصابه ألم أو مرض .

فمهما تكن قدرة الإنسان على الصبر والتحمل ، فلا يسعه في حالة المرض أن ينسى نفسه ، لأن الألم يشعره طول الوقت بأنه حي ، ويصدق هذا أيضاً في حالة إصابة الانسان بألم روحي يزيد من شعوره بأنه حي يتألم.

الإمام جعفر الصادق "ع"
والمعارف الجعفرية (الشيعية)

أسدى الإمام جعفر الصادق (ع) خدمةً للشيعة من ناحيتين ، أولاهما أنه أهتم بتعليم أتباعه اهتماماً كبيراً ، ولم يقتصر على العلوم القرآنية ، بل أضاف إليها علوماً زمنية مثل الرياضيات والفيزياء والجغرافيا والنجوم والهيئة والتاريخ والحكمة . وتخرّج على يديه ومن مدرسته عدد غير قليل من أفذاذ العلماء . ومن هنا يصح القول بأن الإمام جعفراً الصادق (ع) بنى الثقافة الشيعية واوضح معالمها .

وبفضل المعارف الشيعية أو الجعفرية ساد المذهب الشيعي وعاش ، وهذه بديهية ، لأن الثقافة هي أساس المجتمعات البشرية وسر بقائها واستمرارها ، والمجتمع اليوناني بقي إلى يومنا هذا لأنه كان ذا ثقافةٍ رصينة منذ القديم ، في حين أن أقواماً كثيرة اختفت ولم تترك أثراً يُذكر لافتقارها إلى ثقافةٍ متينة أصيلة .

ولم تُتح للأئمة قبل الإمام الصادق (ع) أن يؤسسوا مدرسةً علمية كمدرسته ، وذلك لأسباب شتى ، أهمها الضغوط السياسية من جانب الخلفاء والسلطة الحاكمة واسترابة السلطة في تحركاتهم وأنشطتهم .

أما الصادق (ع) فقد كان يعرف أن الشيعة تحتاج إلى مدرسة علمية قوية تكفل لها الصمود أمام التيارات المنحرفة ، وتجعلها بمنأى عن التأثر بوفاة هذا أو مجيء ذاك . ومنذ اليوم الأول لقيام الصادق (ع) بالتدريس ، وضع لنفسه أهدافاً معينة يتوخاها، أهمها تأسيس مدرسة علمية وإقامة ثقافة شيعية رصينة تتمثل في « المعارف الجعفرية » ، لثقته من أن بقاء الشيعة رهن بما يتوافر لها من علم وثقافة .

وهذا يدل على أن الإمام جعفراً الصادق (ع) لم يكن عبقرياً في العلم وحده ، بل كان أيضاً عبقرياً في السياسة ، وكان يدرك أن إيجاد مدرسة علمية شيعية من شأنه الحفاظ على الكيان الشيعي أكثر من أي قوة عسكرية . فالقوة العسكرية وإن عَزَّت عُرضة لأن تدمرها قوة أكبر منها ، أما المدرسة العلمية التي تنشر الثقافة المتعمقة فتبقى ما بقي الدهر وكان يرى أن من تمام الصواب الإسراع بإنشاء هذه المدرسة لمواجهة الانحرافات المذهبية والتيارات الفكرية غير الإسلامية التي بدأت منذ عصر الإمام تهدد العالم الاسلامي وتهزه هزاً . ولئن كانت الشيعة فقدت المنهل الرئيسي لاغتراف المعارف بعد الإمام الثاني عشر ، فقد بقيت تواصل حياتها الثقافية دون أن تكون لها مراكز دينية يُشرف عليها عالم ديني ، كما هو الشأن في كنائس الغرب . وإنما الفضل في هذا راجع إلى مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) العلمية ، والإشعاع الفكري الذي تركته لدى الشيعة .

واليوم ، وقد انقضى نحو ثلاثة عشر قرناً على عصر الإمام الصادق (ع) ، لم تعد للشيعة أجهزة نظامية دينية تُشرف على التعليم والأنشطة الدينية ، شأن الكنيسة الكاثوليكية مثلاً(*) ، ولكنها مع ذلك استطاعت

(*) وذلك صحيح بالرغم من وجود دولة شيعية تعتمد الاسلام والتشيع نظام إدارة ومنهج تنظيم .

بفضل مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) أن تطاول الدهر وتنهض بنشاطٍ علمي ملموس ، ولها من الآثار العلمية ما يكفل لها البقاء دهراً طويلاً .

صحيح أن العلماء الذين جاءوا بعد الإمام الصادق (ع) اضطلعوا بدورٍ كبير في توسيع المعارف الجعفرية ونشرها ، بما صنفوه من أبحاثٍ ودراسات ومؤلفات نفيسة ، ولكن الفضل في تأسيس هذه المدرسة وإرساء قواعدها ومعالمها يرجع دائماً إلى الإمام الصادق (ع) الذي حثّ الشيعة على الاغتراف من المعارف والثقافة الشيعية ، وأمرهم بنشر هذه الثقافة وإذاعتها قائلاً لهم : إنْ لم تكونوا حملةَ العلم وناشريه بين الناس ، فكونوا حفظةً له .

وفي الوسع القول بأن الإهتمام بالمذهب الديني أمر مألوف عند جميع رجال الدين من مختلف الديانات والمذاهب ، ولا يقتصر على الشيعة وحدهم ، ولكن هناك فارقاً جوهرياً بين هؤلاء وأولئك ، فرجال الدين الآخرون ينصبُ اهتمامهم على حفظ الأصول والسنن المذهبية وصونها ، في حين أن الشيعة يهتمون بتوسيع ثقافة المذهب .

وبعد ألف وخمسمائة سنة من إنشاء أول دير أرثوذكسي في جبل آثوس اليوناني ، ما زال الرهبان يرددون نفس الأناشيد والتراتيل الدينية ويقومون بنفس الطقوس عند العبادة ، دون أن يطرأ عليها أدنى تغيير طوال هذه السنوات الألف والخمسمائة .

يقابل هذا أن الثقافة والمعارف الجعفرية ما انفكت في نشاط متصل وتوسع مستمر ، حتى وإن مرت بالتاريخ الشيعي فترات كساد عارضة كانت لا تلبث أن تزول ، وتعود هذه المعارف إلى النشاط بسرعة أكبر ، وتاريخ هذا المذهب يشهد لعلماء الشيعة العظام بأنهم اجتهدوا بمؤلفاتهم

وأبحاثهم النفيسة في أن يثروا المعارف والثقافة الشيعية(*) .

وقد عرفت الكنيسة الأرثوذكسية في أنطاكية عصوراً ذهبية في القرن الثاني الميلادي ، إلاّ أنها أُصيبت بعد ذلك وإلى يومنا الحاضر ، أي قرابة ألف وثمانمائة عام ، بجمود في ثقافتها وافتقار إلى إمارت التجديد فيها ، مع أن هذا المذهب من أقدم المذاهب المسيحية ومن أكثرها أصالة .

فلِمَ اختلفت الكنيسة الأرثوذكسية اليوم عمّا كانت عليه قبل ألف وثمانمائة عام في أنطاكية ؟

لقد عقد أساقفة الأرثوذكس المرة بعد المرة مؤتمرات عالمية لتبادل الرأي في أمور الكنيسة شهدها أساقفة من جميع انحاء العالم ، ومع ذلك لم يخرج أيّ مؤتمر منها بقوانين جديدة أو أنظمةٍ حديثة تُثري هذا المذهب .

أما عن الكاثوليك ، فقد قال الباحث الفرنسي الشهير دانيل روبز(1) صاحب كتابي (يسوع في عصره) و(تاريخ كنيسة المسيح) ، إن الثقافة الكاثوليكية ظلت طوال ألف سنة في ركود شامل ، ولم يُضف إليها أي جديد ، واقتصر قساوستها على حفظ الشعائر والإبقاء على التقاليد المتواترة .

وقد تحقق هذا الباحث من أن الثقافة الدينية للكاثوليك في القرن السادس عشر كانت هي نفس ثقافتهم الدينية في القرن السادس الميلادي ، وهي فترة طويلة ظهر فيها رهبان وراهبات وقسيسون عظام سجل التاريخ لنا أسماءهم وسيرهم ، ولكن أحداً منهم لم يضف إلى الثقافة

(*) والثقافة عامة .

(1) دانييل روبز (Daniel Rops) ١٩٠١ ـ ١٩٦٥ م أديب فرنسي ، اسمه الحقيقي هنري بينو . كتب في القصة ، ثم انصرف إلى تأليف الكتب التاريخية والدينية ومن أشهرها : « يسوع في عصره » الذي صدر عام ١٩٤٥ و« تاريخ كنيسة المسيح » .

الكاثوليكية شيئاً يُذكر . في حين أن عصر النهضة (الرينسانس) كان عصراً لنهضة العلوم والثقافة والفنون في أوروبا ، كما كان عصر نهضة للكنيسة الكاثوليكية التي ظهر فيها رجال عظام صنّفوا الكتب ووضعوا البحوث فاغتنت الثقافة الكاثوليكية ، وحرصت على نشرها وإذاعتها على نطاق واسع .

ولم يقتصر دور التأليف على رجال الدين وحدهم ، بل اضطلع بالتأليف الديني اساتذة وباحثون آخرون تناولوا المذهب الكاثوليكي بالدراسة والشرح ، ومنهم دانيل روبز الذي أشرنا إليه آنفاً ، وهو باحث ومؤرخ فرنسي من غير رجال الدين أو القساوسة ، وقد ألّف طائفةً من الكتب حول تاريخ المسيح والمسيحية وعمل جاهداً على نشر الثقافة الكاثوليكية .

وقلَّ أن تجد بيتاً في أوروبا اللاتينية (فرنسا وإيطاليا وإسبانيا) دون أن تجد فيه ولو كتاباً واحداً لروبز مترجماً إلى لغة هذه الدولة الأوربية أو تلك .

ومن أولئك الباحثين أيضاً الفيلسوف الفرنسي المعروف(ارسنت رينان)[1] الذي عاش في القرن التاسع عشر الميلادي ، وألّف كتابه الشهير عن حياة المسيح الذي يعد من أهم الكتب الدينية في العالم الكاثوليكي ، وهو بدوره لم يكن من رجال الدين أو القساوسة ، كما أن تفكيره الفلسفي أفقده عطف قساوسة الكاثوليك ، ومع ذلك ، يعتبر كتابه هذ مساهمة جليلة في نشر المذهب الكاثوليكي .

---

(١) ارنست رينان (Renan) ١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ فيلسوف وعالم آثار فرنسي عمل في التنقيب عن الآثار في لبنان وفلسطين . أهم كتبه « حياة يسوع » . وله نظريات هامة في الانثروبولوجيا والتاريخ الطبيعي وفلسفة التاريخ .

وجدير بالذكر أن الكنائس التي كانت تابعة للمذهبين الأرثوذكسي والكاثوليكي كانت تتمتع بثروة طائلة منذ القديم . وبمضي الوقت ، تناقصت ثروة الكنيسة الأرثوذكسية ، بينما تعاظمت ثروة الكنيسة الكاثوليكية حتى أصبحت اليوم من أغنى الأنظمة الدينية العالمية . ويقال إن ثروة الكنيسة الكاثوليكية ، وعاصمتها « الفاتيكان » في روما تقدّر اليوم بمائة ألف مليون دولار ، وهو رقم تتواضع أمامه رؤوس أموال كثير من المؤسسات الاقتصادية والبنوك العالمية .

ومع أنّ هذه الثروة المتعاظمة كانت رهن الكنيسة الكاثوليكيّة منذ عصور خلت ، إلّا أنها لم تستخدمها هي والإمكانيات الماديّة الضخمة المتوافرة لديها في النهوض بنشر المعارف الكاثوليكية طوال ألف سنة .

أما الشيعة ، فلئنْ لم يكن لديهم مركزٌ ديني رئيسي أو تنظيم سياسي اجتماعي يساعد على نشر المعارف الشيعيّة ، فقد اضطلع علماؤهم وباحثوهم مع جزء يسير أو حتى دون إمكانيات ماديّة بدور كبير في نشر هذه المعارف ، باستثناء فترات الاضطراب السياسي ، ولا بد من التوضيح هنا بأن رجال الدين في المذاهب المختلفة لم يكونوا في ما مضى ناشطين واحداً واحداً في نشر الثقافة الدينية وإذاعتها ، وإنما نشط البعض وقعد البعض الآخر .

أما في القرن العشرين الحالي ، فنحن تلقاء نشاط ملموس لدى مختلف الأديان والمذاهب للدعاية والنشر ، وإن كان المذهبان المسيحيان الرئيسيان ، وهما الأرثوذكسي والكاثوليكي قد قعدا في الماضي عن دعم الثقافة المسيحية ونشرها ، إن تشجيع النشاط الفكري الديني قد يفتح الباب أمام دخول البدعة إلى المذهب .

ثم ان التزام زعماء المذهب الكاثوليكي بسياسة التحفّظ في نشر

الثقافة الدينية أو الامتناع الباتّ عن نشرها على مدى ألف عام ، أصبح أساساً مذهبياً عندهم يستحيل التخلّص منه .

وإذا كان عصر النهضة الكاثوليكي قد بدأ منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، فإن نهضة الشيعة قد بدأت بعصر الإمام جعفر الصادق (ع) في القرن السابع الميلادي (الثاني الهجري) ، إذ أن الإمام (ع) أيقظ في مفكري الشيعة روح الاهتمام بنشر المعارف بعامة والجعفرية بخاصة ، كل حسب طاقته الفكرية وقدراته العلمية ، ثقةً منه بأنّ الضمان الوحيد لبقاء الشيعة هو انتشار معارفها .

ومعروف أن الشيعة في عصر الإمام جعفر الصادق (ع) لم تكن تستند إلى قوة مادية أو نفوذ سياسي يكفلان لها البقاء .

فلم يكن المجتمع الشيعي في شبه الجزيرة العربية يخرج في اهتمامه عن الأسرة أو المجتمعات الصغيرة التي ينتمي إليها ، وهي مجتمعات ليس لها من التنظيم السياسي أو النفوذ الأدبي ما يستطيع بها مواجهة الحكم الأموي .

وكان من رأي الإمام أنه ما لم تتوافر للشيعة قوّة سياسية وسلطةٌ مقيمة كافية ، فلن تستطيع أن تحقق لنفسها موقعاً سياسياً ممتازاً ، وارتأى أن أفضل طريق تسلكه هو نشر الثقافة وعلوم أهل البيت النبوي (ع) ، وتمكين الناس من الاغتراف من هذا المنبع والارتواء منه ، فسبق الصادق (ع) بذلك علماء الديانات الاخرى الذين قعدوا عن انشاء مراكز ثقافية أو فكرية لها ولم يحفلوا بنشر ثقافتهم الدينية أو دعمها .

صحيح أن الإمام جعفر الصادق (ع) لم يؤسس للشيعة بابويةً دينية كالكنيسة ، فمثل هذا التنظيم كان بعيداً عن تفكير العرب في تلك

الفتـرة ، ولكنّه أرسى أسسـاً أكاديميـة(*) علميـة عجـزت المسيحيـة طـوال القرون وعبر أجهزتها وتنظيماتها العظيمة عن أن تصنع مثلها .

فضلاً عن أن المسيحية بمذهبيها الارثـوذكسي والكاثـوليكي قد نقلت التنظيم الكنسي عن الأنظمة الرومانية القديمة .

أما التنظيم الثقافي الذي أبدعه الإمام الصادق (ع) ، فقد كان بحقّ أكاديمية للبحث العلمي الحر ، ولا سيما في الأمور الفكرية ، كما ولا بد من التأكيد هنا بأن حرية البحث والفكر في مدرسة الإمام الصادق (ع) لم تتوافر في أي مدرسة دينية سواها .

(*) الاكاديمية لفظة تعني منهجاً تعليمياً منتظماً ـ كما هو الحال في الدراسة الجامعية وقد أخـذت اللفظة من أصل يوناني نسبة إلى الأكاديمية Académic مدرسة فلسفية أسسها افلاطون في بساتين اكاديمس بالقرب من أثينا ، وكـان تلامـذته يـواصلون البحث والتدريس في هـذه المـدرسة التي ظلت من سنـة ٣٨٧ق.م إلى سنة ٥٩٢ ميـلادية ـ أي طـوال ٩٧٩ سنـة ـ مدرسة علميـة نشطة . فلما جـاء جستينيان امبـراطور بيـزنطة (روميـة الصغرى) احتـل اليونان وعطل هذه المدرسة ، « والامبراطور جستنيان هو الـذي اسس كنيسة أيـا صوفيـا وهو الذي جمع القوانين المدنية ودونها فاشتهرت باسمه ، وقد نقل الفقيه المصري الدكتور عبد العزيز فهمي باشا « مدونـة جستينيان » إلى اللغـة العربيـة بتكليـف من الدكتـور طه حسـين » ومنذ ذلـك الحين ، صـار إسم الأكاديميـة يطلق عـلى بعض المجـامـع العلميـة والمعاهد الأدبية ، ومنه الأكـاديمية الفـرنسية التي أسسهـا ريشيليو في عـام ١٦٣٥م وعهد اليها في وضع قاموس للغة الفرنسية ، ومنها الأكاديمية البريطانية في لندن المعنيـة بتشجيع دراسة التاريخ والفلسفة . (المترجم) .

مكانة حرية الرأي
في مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع)

تميّزت مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) على المذاهب الأخرى في عصره بحرية الرأي والبحث فكان ذلك من أهم أسباب انتشار المعارف الجعفرية وذيوعها .

وقد رأينا في ما تقدم أن المذهب الكاثوليكي بقي طوال ألف سنة في حالة من الركود والافتقار إلى النشاط الفكري ، وأن المذهب الأرثوذكسي لا يختلف اليوم عما كان عليه في القرن الثاني الميلادي في أنطاكية .

ولكن الإمام جعفر الصادق (ع) أرسى للثقافة والمعارف الشيعية(*) أساساً هيأ لها أسباب الذيوع والانتشار قبل نهاية القرن الثاني الهجري ، بل لقد أصبحت هذه الثقافة نموذجاً لحرية الرأي والبحث ، فاقتدت الفرق الإسلامية الأخرى بالشيعة في المباحث الكلامية والعلمية .

ويتوهم البعض بأن حرية البحث عند الشيعة مقتبسة من مدرسة الاسكندرية ، في حين أن الواقع يختلف عن ذلك ، ففي مدرسة الاسكندرية التي أمتد نشاطها إلى القرن السابع الميلادي ، وانهارت عند

(*) وبالتالي المعارف العامة .

غزو العرب لهذه المدينة ، كانت حرية البحث تقتصر على المباحث الفلسفية دون سواها ، ولا تتعرض للمسائل الدينيـة ، وأحيانـاً لمسائـل علوم الفلك والفيزياء والطب والصيدلة .

وكانت أمور الدنيا محظورة فيها حظراً باتـاً ، صحيح أن بعض علماء مـدرسة الاسكنـدرية كـانوا من اليهـود أو من المسيحيـين ، ولكنهم كـانـوا مُعرِضين عن تناول المسائـل الدينيـة في مباحثهم الفلسفيـة والعلمية ، ومن هنا صارت مدرسة الاسكندرية مدرسة علمانية مجردة .

ولسنا في حاجة إلى سرد تاريخ مدرسة الاسكنـدرية ، فـالمعروف أن النشاط العلمي في الاسكندرية بدأ مع تأسيس مكتبتهـا الشهيرة عـلى يدي بـطليموس الأول ملك مصـر الذي تـوفي سنة ٢٥٨ قبـل الميلاد وهـو رأس أسرة ملوك البطالسة الذين حكموا مصر قرابة قرنين ونصف قرن ، وهؤلاء على الرغم من أنهم من أصل يوناني ، وكانوا يعبدون آلهـة اليونـان فانهم لم يحـاولوا حمـل مدرسـة الاسكندريـة على قبـول عقيدتهم الـدينية وهم ملوك مصر .

وكان بيرون[1] من أوائل علماء مدرسة الاسكندرية وفلاسفتها الذين اشتهروا باسم « الشكاكين » . ولئن لم يُقم في الاسكندرية طـوال الوقت ، إلا أنه يُعدُّ من فلاسفة هذه المدرسة . ومن الآراء التي ذهب اليها قوله إنـه ليست في العالم حقيقة مجردة ، لأنه ما من نظريـة علمية إلا جـاءت نظريـة غيرها تفندها وتدحضها .

ويقـال إن حالـة الشـك والتـردد التي اعتـرت بيـرون لم تكن وليـدة مدرسة الاسكندرية ، وإنما كان سببها أن لديه استعداداً نفسياً لذلـك ، ثم

---

(١) بيرون (Pyrhon) (٣٦٠ ـ ٢٧٠ق.م) هو رأس الشكـاكين من فـلاسفة اليـونان ، وقـد أنكر على الإنسان قدرته على معرفة الحقيقة لكثرة اختلاف البشر حولها .

إن حرية البحث والرأي في مدرسة الاسكندرية شجعته على انتهاج هذا السبيل والمجاهرة برأيه في إنكار الحقيقة . ولو ان البطالسة أثّروا في مدرسة الاسكندرية تأثيراً دينياً ، أو كان لهم فيها نفوذ ديني ، لما جرؤ بيرون وأنصاره على المجاهرة بمثل هذه النظرية ، لا سيما والبطالسة كانوا يؤمنون بأن آلهة اليونان حقيقة لا تقبل الشك . وأياً كان الأمر ، فهذا بحث لا نريد التوسع فيه ، وحسبنا أننا أثبتنا أن مدرسة الاسكندرية كانت مدرسة علمانية .

أما حرية البحث في أمور الدين ، فقد بدأت في الإسلام بعصر الإمام جعفر الصادق (ع) وبعد انتشار المذهب الجعفري .

وكانت المدرسة الجعفرية تتناول المسائل الدينية جنباً إلى جنب مع المسائل العلمية (الدنيوية) ، ومع الوقت ، أصبح علماء الجعفرية يناقشون المسائل الدينية والفكرية ويثبتونها بقوانين العلم ومبادئه .

وانتقلت هذه الطريقة في ما بعد من المذهب الجعفري إلى المذاهب الاخرى التي اجتهدت في إثبات قضاياها بالدلائل العلمية .

ومعروف أن الأديان السماوية كالإسلام والمسيحية واليهودية لم تكن في باديء الأمر تعلن مبادئها وتحاولٌ إثباتها بالدلائل العلمية والنواميس الثابتة . وحتى اليوم وبعد انقضاء أربعة عشر قرناً على الإسلام وعشرين قرناً على المسيحية وثلاثين قرناً على اليهودية فإن كثيرين من أتباع هذه الأديان يعتقدون بأن الدين لا يحتاج إلى براهين علمية لإثباته ، لأن الدين يرتبط بالإنسان عن طريق القلب والعواطف ، لا عن طريق الاستدلال العلمي .

وتتفق هذه النظرة مع نظرة الآباء الأرثوذكس ، كما أن كثيراً من الآباء الكاثوليك يؤيدون الرأي القائل بفصل الدين عن العلم ، وليس

معنى هذا عندهم أن الدين ليس نظرية يمكن إقامة الحجج عليها بالعلم ، ولكن معناه أن الأحكام والمباديء الدينية تظل محتفظة بصحتها وقدسيتها حتى ولو برهنت عليها الأدلة العلمية ، فجوهر المسيحية هو المحبة والنقاء ، ولا حاجة إلى العقل أو المنطق للبرهنة على هذين الأمرين.

وهذا يعلل لنا سبب عزوف المدارس الدينية المسيحية التي تسمى « بالسيمنار » عن تدريس العلوم على مدى قرون طويلة ، تسليماً منها بأن الدين شيء والعلم شيء آخر .

ودرجت المدارس الدينية في العصور الوسطى على تدريس الشريعة المسيحية ـ أو القانون (كانون)[1] ـ إلى جانب المواد الدينية التقليدية ، وهو عُرف ما زال مُتّبعاً في المدارس الكاثوليكية . أما علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات والهندسة والميكانيكا والطب والصيدلة ، فكانت غريبة عن المدارس الدينية المسيحية ، وظلت مجهولة منها طوال العصور الوسطى .

وكانت الفلسفة محظورةً لشدة خطورتها ـ في رأي هذه المدارس ـ على العقيدة الدينية . وقد سبق الإمام جعفر الصادق (ع) جميع المدارس الدينية عندما قرر ، ولأول مرة في تاريخ الأديان والأمم تدريس هذه العلوم جميعاً ، إضافة إلى الفلسفة ، جنباً إلى جنب مع العلوم القرآنية والفقه الاسلامي .

وقد تولى الإمام الصادق (ع) بنفسه تدريس هذه العلوم ، ولم يستبعد منها الفلسفة أو الحكمة أو العرفان ، لأن هذه العلوم كانت تمثل المبادىء والمجادلات التي يستعان بها في إثبات حقيقة الله والكون ، وهي

---

(١) « كانون » لفظة يونانية معناها الناموس أو الدستور . و« القانون الكنسي » هو مجموعة الشرائع الكنسية .

علوم كانت قد وصلت فعلاً إلى المدينة .

ولكن هذا كله حدث قبل ابتداء حركة الترجمة والنقل ، وقبل أن تنقل كتب اليونان من السريانية إلى العربية ، ولا يستبعد أن تكون فلسفة اليونان قد انتقلت إلى المدينة عن طريق أقباط مصر من تلامذة مدرسة الاسكندرية أو من المعجبين بها وبالبحث الحر ، وقد خصصنا هنا المعجبين بمدرسة الاسكندرية ، لأن رجال الدين الأقباط عموماً لم يولوا الفلسفة اهتماماً كبيراً لأنتمائهم إلى الكنيسة الأرثوذكسية التي تعدّ الفلسفة شديدة الضرر .

وأياً كان الأمر ، فقد نهض هؤلاء الأقباط بدورٍ هام في نقل الفلسفة وبعض العلوم الأخرى إلى المدينة. ولا نعرف في تاريخ العلوم في الإسلام من تناول الفلسفة قبل الإمام جعفر الصادق (ع) ، وإن كانت الشيعة اهتمت في ما بعد بالفلسفة والمنطق ، وأدخلتهما ضمن دروس المدرسة الشيعية ، ومنها انتقلت هذه العلوم إلى المذاهب الأخرى.

وقد ابتدأ الإمام جعفر الصادق (ع) بتدريس مبادىء الفلسفة أو أسلوب الاستدلال والجدل المنطقي ، وكانت مباحث الفلسفة في مدرسته تتناول في بادىء الأمر آراء سقراط وأفلاطون وأرسطو ونظريتهم .

ومنذ أن أرسى الإمام الصادق (ع) مبادىء الفلسفة في مدرسته وقام بنفسه بتعليمها ، فإن هذه المبادىء تُعدّ من الدروس التقليدية في المدرسة الشيعية ، وهكذا أصبحت الفلسفة باباً متميزاً من تراث الشيعة وثقافتهم ، وهي تنفرد به عن سائر الفرق والمذاهب الاسلامية ، وتضيف إليه (العرفان) الذي تحدّثنا عنه في ما مرّ من كلام .

وقد عرفنا أن (العرفان) انحدر في بادىء الأمر من الشرق ومن الاسكندرية أيضاً ، ولكنّ الإمام الصادق (ع) استطاع أن يخرج من

هاتين المدرستين بنظريةٍ عرفانية تتفق مع أصول الاسلام ومبادىء الفكر الشيعي ، وكما سبق القول ، فالعرفان الجعفري له شخصيته المستقلة عن عرفان المتصوفة في الشرق أو في الاسكندرية ، فهو يقول بأن أمور الحياة الدنيا ينبغي أن ينصرف إليها من الاهتمام ما لا يقل عن الاهتمام المنصرف إلى أمور الأخلاق وتزكية النفس(×) . وصفوة رأيه في هذا الصدد أن الدنيا مزرعة الآخرة ، ومن حق من زرعها أن يجني ثمارها ، ولن يجني المرء إلا ما زرعت يداه . فمن التزم بدينه وزكى نفسه وخلقه ، فلا خوف عليه في العالم الثاني .

ولا محل أيضاً في عرفان الإمام الصادق (ع) للمغالاة التي تجد مثلها عند العرفاء أو المتصوفة الآخرين ، ولا محل أيضاً للقول بوحدة الخالق والمخلوق .

والحق أن مجلس الإمام الصادق (ع) ومدرسته كانا يمثلان منبراً حراً لتلامذته ومريديه ، لهم أن يسألوا ، ولهم أن يعترضوا ، ولهم أن يعبروا عن آرائهم واحساساتهم بحرية تامة ، كما أن من حقهم أن ينتقدوا آراء أساتذتهم ، ولم يكن الإمام يفرض على تلامذته رأياً معيناً ، ولا كان يطلب منهم الأذعان لرأيه ، ومع ذلك ، فقد كان الأمر ينتهي دائماً بإذعانهم ، بالنظر إلى الأسلوب العلمي الذي كان الإمام يتوسل به للتدليل على رأيه بالحجة الناصعة والمنطق السليم والبيان الرائق .

وكان المترددون على دروس الإمام الصادق (ع) يعرفون أن الإمام لن ينفعهم مادياً ، بل لعل غشيان مجلسه يعرضهم لتهديدات السلطة الأموية خارج المدينة في أيام الأمويين . فإن عُرف عن أحدٍ ولاؤه للإمام

(×) وفي ذلك الآية الكريمة : ﴿ وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ .

الصادق (ع) ، لم يأمن على حياته من أعوان الخليفة ، ذلك بأن الخليفة كان يعتبر الإمام وأنصاره من خصوم الخلافة، ومع إنه كان يعلم جيد العلم بأن الشيعة وأنصار الإمام لا يملكون من القوة ما يستطيعون به مقارعة حكمه ، فقد كان يعدّهم خصوماً ألدّاء له(١).

وهكذا كانت المخاطر تحيط بمدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) والمترددين عليها ، وكان طلاب المدرسة يعلمون علم اليقين بأن الإمام لا يملك مالاً أو مناصب فيوزعها عليهم ، فلم يجتذبهم إلى مدرسته ، برغم هذه المخاطر وبرغم انعدام المنفعة المادية إلا إخلاصٌ مستقرٌ في النفس ، وإيمان عميق في القلوب، وانجذاب لشخصية الإمام (ع)، وإعجاب بدروسه التي يلقيها ببيانه العذب ويستهدف بها الحقائق وجوهر المعرفة .

وكان الإمام الصادق (ع) يؤمن بما يقول ، ويأخذ بالواقع لا

---

(١) مما يؤيد رأي المؤلف ما رواه ابن شهرآشوب في « المناقب » عن « الترغيب والترهيب » عن أبي القاسم الأصفهاني أنه دخل عليه (أي على الإمام جعفر الصادق (ع)) سفيان الثوري فقال (ع) : أنت رجل مطلوب ، وللسلطان علينا عيون ، فاخرج عنا غير مطرود . (ج ٤ ص ٢٤٨ المناقب) ومع ذلك كله توافد الناس من كل جانب بحيث يقول : ينقل عنه من العلوم ما لا ينقل عن أحد ، وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات ، وكانوا أربعة آلاف رجل (ج٤ ص ٢٤٧ المناقب) وهذا عدد من اجتمع عليه لأخذ العلم في مدينة صغيرة من حواضر العالم الاسلامي في ذلك العصر .

واورد أبو نعيم في « الحلية » أسماء أعلام الأئمة الذين أخذوا عن الصادق (ع) فقال : حدث عنه من الأئمة والأعلام : مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، وسفيان الثوري ، وابن جريج ، وعبدالله بن عمرو ، وروح بن المختار ، ، ووهب بن خالد ، وإبراهيم بن الطحان ، ونقل عنه مسلم في صحيحه محتجا بحديثه ، وروى عنه مالك والشافعي والحسن بن صالح وأبو أيوب السجستاني وعمرو بن دينار وأحمد بن حنبل .

وقال مالك بن أنس : ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادة وورعا . ج ٤ ص ٢٤٨ المناقب.

بالمثاليات ، ولهذا لم يتوسل أبداً في دروسه بأسلوب « البوتوبيا »[1] الذي سيطر على تفكير المجتمع الأوروبي منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي ، ومن هنا انتفت من دروس الإمام الصادق (ع) أي دعوة إلى قيام حكومة مثالية لا تتفق مع واقع الحياة في المجتمع البشري .

وإذا كان بعض من الطلاب الذين اخذوا العلم عن الإمام محمد الباقر (ع) طمعوا في الظفر ببعض الوظائف كمناصب القضاء في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي كان يسمح بتعيينهم ، فإنَّ المترددين على مدرسة الإمام الصادق (ع) لم يداعبهم الأمل في الحصول على مثل هذه الوظائف ، ولا على أي نفوذ سياسي ، وإنما كانوا يغشون مجلسه للإغتراف من علمه فحسب

وقد قلنا قبلاً إن مدرسة الإمام الصادق (ع) كانت متمتعة بحرية البحث أسوة بمدرسة الاسكندرية ، ولكن هناك بوناً شاسعاً بين المدرستين

---

(١) « البوتوبيا » لفظة يونانية مركبة من مقطعين هما « يو » بمعنى « لا » و« توبوس » بمعنى « مكان » ، أي « اللامكان » . وقد أطلق هذا الاسم على بلد خيالي نظام الحكم فيه مثالي . وقد جاء الفيلسوف الانجليزي توماس مور ، الوزير الأول لهنري الثامن ملك بريطانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، وأخرج كتاباً عنوانه « اليوتوبيا » صوّر فيه مجتمعاً مثالياً يعيش جميع أفراده على مستوى واحد من حيث الامكانيات المادية والحياة المرفّهة .

ومن المفارقات العجيبة أن توماس مور هذا حُكم عليه بالاعدام في بريطانيا العظمى وهو في الخامسة والتسعين من عمره ، وفصل رأسه عن جسمه في سنة ١٥٣٥ م(*) .

(*) ويوتوبيا كذلك ترجمة لكلمة (طوبى) الواردة كراراً في القرآن الكريم ، وقد انتشر اليوم مصطلح (الطوباوية) بمعنى (المثالية) أو (الخيالية) أو (غير الواقعية) أما لفظة (لا مكان) فهي مستعملة في العرفان والأدب الفارسيين بمعنى (المكان المجرد أو (حيث لا حدود) وكثيراً ما تعني أن التجرّد من كل العلائق في طريق السير إلى الله يلزمه تجرّد الانسان من فكرة المكان ، فالله لا يحدّه مكان ولا يحيط به مكان وليس في مكان دون مكان . .

في هـذا الأمر . ففي حـين أن مدرسـة الاسكندريـة أوصـدت البـاب دون مناقشة المسـائل الـدينية كـما ذكرنـا آنفاً ، أبـاح الإمـام الصـادق (ع) في مدرسته حرّية البحث في جميع الموضـوعات ، ومنهـا الدينيـة ، ولم يكن ثمة حرج في أن ينتقد الطالب آراء أستاذه ، أو أن يطرح عليه الأسئلة في ما يعنّ له .

وقد اغتذت الثقافة الشيعية من هذه الحـرية التي هيـأت لهذه الثقـافة أسبـاب الذيـوع والانتشار الـواسعين ، وأقبـل عليها الـراغبـون في حـريـة البحث والاستدلال ، كما أقبل عليها المـوالون للشيعـة مدفـوعين إلى ذلـك برغبة باطنية .

ومن يتصفـح التـاريـخ قبـل قيـام الـدولـة الصفـويـة ، يـلاحظ أن الحكومات الشيعية التي قامت في البلاد الشرقية كانت معـدودةً ، وأشهرهـا حكومة البوهيين ، كـما يلاحظ أن هـذه الدول لم تتـوسّل بـالقوة أو النفـوذ السيـاسي لنشر المـذهب الشيعيّ ، وإنما اقتصـرت على التمسّـك بالتقـاليد والأعـراف والمبادىء الشيعيـة ، وفي مقدّمتهـا الاحتفالات الـدينية في أيـام التعزية ، وبصورة خاصة يوم عاشوراء عام ٦١ للهجرة الذي استشهد فيـه الإمام الحسين بن علي (ع) في كربلاء ، ولم يُكتب لدولةٍ شيعيةٍ أن تستقـر طويلاً في بلاد الشرق بعـد البوهيـين ، باستثنـاء دولة الفـاطميين في غـرب العالم الإسلامي ، إلى أن قامت الدولة الصفوية في القرن العـاشر الهجـري (١٥٠٢ ـ ١٧٣٦ م) .

ومـع ذلك ، أخـذ التشييع ينتشـر في ربوع الشـرق بثقافتـه العلميّـة المنطقيّة المبسطة ، باصـرار وثبات في مقـاومة التيـار الحكومي المُعـادي له ، وإن لم ينجح في انشاء مركز سياسيّ أو نظام حكـومي يستند إليـه ، أي أنه نجح بالفكر لا بالسلطان ، وبالروح لا بالقدرة المادية .

وفي التاريخ أقوام وطوائف أخرى عاشت دون أن تكـون لها دولٌ أو حكومات ، ولكنّها استندت إلى مكانةٍ مستمدة من القدرة المادية ، كـاليهود مثلاً الذين عاشوا في أوروبا منذ العصور الوسطى . وبسبب غناهم ، كان الناس يقترضون المال منهم ويردّونه بأبهظ الفوائد الربوية . بـل لقد وصـل الأمر إلى حدّ أن بعض الملوك والأمراء استقرضوا منهم المال ، وحظروا على النـاس التعـرض لهم بسـوء نـظراً لحـاجتهم إليهم . فعـاش اليهــود مـع المسيحيين في أوروبا في العصور الوسطى متمتعين بحرية تامة ، وإن كـانت مجموعات منهم آثرت الانطواء على نفسها ، واستقلت بأحياء خاصة باليهود انزوت فيها مع أبناء العقيدة في بعض مدن أوروبا .

وبعـد ما تخلصت القـارة الأوروبيـة من متـاعب العصـور الـوسـطى وظلمـات الجهل ، عـاشت ألف سنة بعـد الإمـام الصـادق (ع) وهي لا تملك حرية الاعتـراض في مسائـل الدين ، أو حتى التسـاؤ ل حولهـا ، فإن حـدث في دولـة من دول أوروبـا الـلاتينيـة (فـرنسـا وإيـطاليـا وإسبـانيـا والبرتغال) أن سولت لأحد نفسه أن ينتقد موضوعاً من موضوعات المذهب الكاثوليكي ، لنزلت به العقوبات الصارمة ، فكيف به إذا جرؤ على انتقاد أصل من أصول الدين المسيحي ؟ لقد قُضي على القس الايطالي « بـرونو » بـالموت حـرقاً ، ولم يكن ذنبـه إلا قولـه إن الانسان متى بلغ سن الـرشد ، تكوّنت لديه آراء تتفق مع عقله واستنبـاطه في شـأن الحياة والـدنيا ، وعـلى بساطة هذه النظرية وواقعيتها ، انقض عليه المتزمتون والتقليديّون ، فرمـوه بالهرطقة والكُفر ، ثم قتلوه بإلقائه في النّار حيّاً .

ومما يُذكـر أن القس برونـو هنا ـ واسمـه الكامـل جيوردانـو برونـو ـ عـاش في أواخر القـرن السابـع عشر ، وكـان عمره عنـد احراقـه في عـام ١٦٠٠ ميلادية ٥٢ سنة . وقد أنفق حياته كلّها في إغاثة الملهوفين ومساعدة

الفقراء والمعوذين ومعالجة المرضى المعدمين ، وكانت لذته الوحيدة إرهاق نفسه إسعاداً للآخرين وتخفيفاً لآلام المحتاجين ، شأنه في ذلك شأن النحلة « الشغلة » التي تكد وتتعب في جمع الطعام لأترابها من النحل .

ويقال إنه كان يدع بابه مفتوحاً حيثما حل ، ليطرقه من يشاء من السائلين ليلاً ونهاراً ، وإنه كان يلبي كل حاجة معقولة للآخرين ، ولم يكن يرفض لأحد طلبا أو سؤالا ، ولكن كل هذا لم يشفع لهذا القسيس المنتمي إلى الكنيسة الدومينيكية ، فقتل شر قتلة .

وقد رسم الشاعر الفرنسي الاشهر « فيكتور هيجو »(١) في كتابه المعروف « البؤساء » صورة قسيس من خيار رجال الدين ، أطلق عليه اسم « بين ونو » رامزا بذلك إلى « برونو » .

وفي اليوم المحدد لتنفيذ حكم الاحراق في برونو في الساحة الكبيرة لمدينة البندقية ، جندت السلطة قوة عسكرية ضخمة لتحول بين المشاهدين وبين مكان تنفيذ الحكم .

وعندما عُلِّق « برونو » مصلوباً على خشبة الإعدام ، وتحته كميات كبيرة من الحطب والمواد المحرقة ، تعالى نحيب الواقفين وعويلهم ، وانبعث صراخهم تلقاء هذا المنظر ، فعجل الجلّاد بإشعال النار للإنتهاء من تنفيذ الحكم قبل أن تنفجر ثورة الفقراء والمعوزين احتجاجاً على هذا الحكم الفظيع ، ووسط اللهب المتصاعد اختنق صوت برونو وانطفأت شعلة حياته ، ولم ينقذه من هذا المصير المروّع رصيده الباذخ في خدمة الإنسان والإنسانية .

(١) فيكتور هيجو (Victor Hugo) ١٨٠٢ ـ ١٨٨٥ م شاعر وكاتب فرنسي من أعلام الحركة الرومنطيقية ، امتازت مؤلفاته بقوة الخيال وتنوّع الألفاظ وغنى الوصف ومن مؤلفاته الشعرية : الشرقيات وأوراق الخريف وأغاني الغسق وملحمة الأجيال ، وله في النثر : سيدة باريس والبؤساء وهرناني.

كان هذا الحكم صادراً من محاكم التفتيش العاقائدية[1] القاسية التي اعتبرت برونو خارجاً على الدين لقوله إن الإنسان متى بلغ سن الرشد، كوّن لنفسه عقيدةً حول الدنيا والحياة تتفق مع عقله واستنباطه. وفي رأي هذه المحاكم أن المسيحي متى بلغ سن الرشد، تقبل دون نقاش ما تصوّره له الكتب المقدسة بعهديها القديم والجديد، ورفض كل ما يخالف ذلك من نوازع عقله وتفكيره.

وقيل في حكم المحكمة إن برونو خارج على الدين لأن الشيطان حلّ فيه، ولا بد من إحراقه لإخراج الشيطان منه.

أمّا في الإسلام، فقد بلغت حرية الرأي والبحث في جميع أمور الدين والعلوم حدّاً أتاح لرجل مثل (ابن الراوندي) أن يظهر وأن يُطالع الناس بآرائه الجريئة التي نتناولها في الفصل التالي.

---

(١) سبق الحديث عن محكمة التفتيش Iuquisition وهي محكمة دينية أنشئت في القرن الثالث عشر لملاحقة الخارجين على الدين وتعاليم الكنيسة ومعاقبتهم.

ابن الراوندي وآراؤه الجريئة

من هو ابن الراوندي ؟

هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي ، نسبة إلى قرية راوند الواقعة بين إصفهان وكاشان في فارس . وكانت في قريته هذه مدرسة إسلامية ، فالتحق بها ودرس مقدّمات العلوم حتى اعتزم النزوح عنها إلى مدينة « الري » .

وذهاب ابن الراوندي إلى مدينة الري بدلاً من إصفهان ـ المدينة العظيمة التي هي أقرب منها إلى موطنه ـ طالباً للعلم فيها إنما يدل على أن الري كانت من العواصم العلمية في الشرق .

ولا نعرف من أيام دراسته هناك إلّا أنه كان طالباً مجدّاً ، أظفره اجتهاده بإعجاب أساتذته والمحيطين به في مدرسة الري . كما إننا لا نعرف شيئا عن أساتذته والدروس التي تلقّاها في الري والمدة التي قضاها في هذه المدينة على وجه التحديد ، وإن كنّا نعرف عنه أنه كان في تلك الفترة طيّب السيرة ، نقيّ السريرة ، محافظاً على الفرائض الدينية ، لا يقصرّ في شيء منها ، مقيماً على السنن المرعيّة والآداب العامة . وفي هذه المدينة ألّف كتابه « الإبتداء والإعادة » .

ويعتبر هذا الكتاب وكتابه الثاني الموسوم « الأسماء والأحكام » دليلاً على صدق انتمائه إلى الإسلام وعمق إيمانه . ولكنه لم يلبث أن وضع كتباً أخرى حفلت بالانتقادات الموجّهة إلى الشريعة الإسلامية والفرائض الدينية ، ولم تسلم من مطاعنه حتى عقيدة التوحيد .

وهكذا انتهى الأمر بابن الراوندي المسلم المتشيّع الذي يكنّ للإمام الصادق (ع) كل مودة واحترام ، إلى الإلحاد ، وتوالت مؤلفاته في التشكيك في عقيدة التوحيد وفي يوم المعاد وفي العدل .

وتطرق في انتقاده للتوحيد إلى التشكيك في صفات الله مرة ، وفي نفيها مرة أخرى ، مع أن المسلمين وجميع الموحّدين من أتباع الديانات السماوية الأخرى ، لا يجردون الله سبحانه وتعالى من صفاته ، لأن هذه الصفات جزء لا يتجزأ من ذاته الوسطى ، وكانت هذه الآراء كفيلةً بإنفاذ حكم الإعدام فيه فوراً ، إما على أعواد المشانق أو في المحرقات .

ولكن ابن الراوندي لم يتعرض لشيء من هذا من معاصريه في القرن الثالث للهجرة ، ولا حُرقت كتبه ومصنفاته ، وقُصارى ما حدث يومذاك هو نهوض أهل العلم والاختصاص بالرد عليه في كتب ورسائل كثيرة .

والفضل الأول في إيجاد هذا الجوّ العلمي إنما يُعزى إلى مدرسة الصادق (ع) التي كانت حفيظة على حرية الرأي والبحث ، ومن هنا اعتبرت آراء ابن الراوندي من قبيل المباحث الفلسفية فلم تُلصق به تهمة الإلحاد والارتداد .

وذهب ابن الراوندي في تشكيكه إلى أبعد من هذا ، فأنكر وجود الله وأزلية العالم ، فلم يبق شكّ في كفره وإلحاده .

ومع أن الشريعة الإسلامية تقضي على المرتدّ بالقتل ، فإن أحداً لم يتعرض لابن الراوندي بسوء ، واكتفى العلماء بالرد على آرائه المعلنة .

ويُنسب إلى ابن الراوندي كتاب طعن فيه في نبوءة الأنبياء وأنكرها ، مّما غلّظ في موقفه الإلحادي ، وإن كان إنكار وجود الله كافياً وحده لإثبات إلحاده ، وكان ينبغي تلقاء تماديه في الإلحاد ، أن تُنفّذ فيه أحكام الشريعة الإسلامية بالقتل ، ولكن المجتمع المعاصر له اكتفى بالردّ عليه وتسفيه آرائه .

وكانت بغداد في ذلك الوقت ، أي في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة ، العاصمة الجديدة ودار الخلافة ، وكانت تتهيأ لأن تصبح المركز العلمي والثقافي للعالم الإسلامي بأسره .

ولم يكن يمر يوم على بغداد دون أن يصدر فيها كتابٌ جديد أو رسالةٌ علميّة ، إذ كان العلماء من جميع الأقطار يتوافدون عليها ويعرضون آثارهم وكتبهم على الوسط العلمي . وكان الناس من ناحيتهم متلهفين على قراءة كل جديد ، وعلى اقتناء الكتب الجديدة التي يقوم الورّاقون باستنساخها ، حتى أصبح في بغداد أكثر من ألف ورّاق ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا ملاحقة الطلب المشتد على استنساخ الكتب . فكان الورّاق منهم يستعين بغيره للنهوض بهذه المهمة وكثيرا ما كان الوراقون يقتسمون الكتاب الواحد ، فيقوم كل منهم بنسخ جزء منه للإسراع في اخراجه .

فإن كان الكتاب لمؤلف ذي شهرة علمية ، أو كان موضوعه مُثيراً للجدل والنقاش ، اشتد الطلب على استنساخ الكتاب ، حتى أن النسّاخ كان يكتب في اليوم الواحد بين خمسين إلى مائة صفحة ، وتتمّ بعد ذلك عملية تجميع أجزاء كل كتاب على حدة .

وهكذا ازدهرت مهنة الوراقة في بغداد ، وازدهرت بالتالي حركة

الثقافة والعلم . وإذا كان الناس ينظرون في يومنا هذا إلى الناسخين نظرة استخفاف ، لأنّ هذه المهنة قليلة الجزاء المادي ، حتى لقد أطلقوا في الافرنسية اسم « جرات بابييه » على القائمين بهذا العمل من قبيل الإستهزاء بهم لأنهم « يحكّون الورق » ، وأطلقوا بالانجليزية اسماً مماثلاً هو « سكراتش » ، فإن مهنة الوراقة كانت محترمةً في بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين ، وكانت تدر على أصحابها آنذاك مالاً وفيراً .

واعتباراً من النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي ، ظهرت في أوروبا جماعةٌ أخرى، إلى جانب جماعة الوراقين التقليديّين، صناعتها تحرير النوتة الموسيقية . ومن الذين اشتغلوا بهذا العمل الكاتب الفرنسي الأشهر « جان جاك روسو » الذي كان في فترة من حياته يعيش على كسبه من كتابة النوتة الموسيقية ، فلمّا ظهرت المطابع الحديثة ، وشرعت تطبع الكتب والمذكرات والنوتة الموسيقية بسرعة أكبر وإتقان أفضل ، بارت صناعة الكتابة اليدوية للنوتة الموسيقية ، وانصرف عنها المشتغلون بها ، ومنهم روسو.

ولكن ظهر نوع آخر من الوراقين أو المحررين العصريين ، وهؤلاء يختلفون اختلافاً كبيراً عن الوراقين القُدامى الذين كان كلّ همّهم نسخ الكتب دون تعديل في مادتها . أما الوراقون الجدد ، فيطلقون عليهم بالانجليزية اسم « غوست رايتر » أي الكاتب الشبح . فإن أراد ذو ثراءٍ أن « يؤلف » كتاباً دون أن يكون ذا موهبة في التأليف ، عهد إلى هؤلاء الأشباح في تأليف الكتب ، وأجزل لهم العطاء في مقابل انزوائهم ، وظهر الكتاب وعليه اسم المُثري باعتباره مؤلفه ومنشئه ومصنفه ، وإن لم يقم بشيء من هذا قط(*) .

(*) يقابل هؤلاء اليوم، المستكتبون في الصحف الذين يكتبون بالنيابة عن رئيس التحرير أو صاحب الصحيفة .

ويطلق الفرنسيون على المشتغلين بهذا العمل اسم « نيجرو » أي الزنجي أو الملون ، اعتقاداً منهم بأن من يُسَخِّر قلبه لآخر لا يختلف في شيء عن العبد أو الخادم الذي يبيع جهده لسيده .

وقبل المطبعة ، كانت مهنة الوراقة مهنةً شريفةً محترمةً تدر على أصحابها بدر المال ، وكان هذا الاحترام ـ ولا سيما عند العرب ـ نابعاً من احترامهم للكلام المكتوب والكتاب المحرر ، إذ أنّ عرب البادية كانوا ينظرون نظرة اجلال إلى كل كلام مكتوب باعتباره جامعاً لكل شيء وأن له تأثيراً في كل شيء حتى في الأصنام والآلهة التي يعبدونها ، وكان من تقاليدهم المرعية تعليق المحررات على الكعبة ، كما عُلِّقت الصحيفة التي كتبها العرب ودعوا فيها إلى مقاطعة رسول الإسلام هو وأهله وأسرته من بني هاشم وقد علّقوها على الكعبة.

ولا نكون مغالين إذا قُلنا إن عصر الخلفاء العباسيين في بغداد كان العصر الذهبّي للوراقين الذين ظفروا بالاحترام العام والتقدير الكامل من الخلفاء والعلماء وطلاّب العلم على حدّ سواء .

وفي هذا العصر الذهبي للوراقة ، وصل ابن الراوندي إلى بغداد ، وغايته من ذلك أمران :

أولهما : أن بغداد كانت المركز العلمي الأول في العالم الإسلامي ، فإن طبيعياً أن يتوجه ابن الراوندي إلى هذا المركز طلباً للمزيد من الفائدة ، ولعرض بضاعته من الثقافة والفكرة .

وثانيهما : أن الخليفة العباسي كان مهتماً بالعلم مشجِّعاً للمؤلفين والمترجمين ، وكان ينفحهم بعطايا وجوائز سخية ، كما كان يستقدم العلماء ويجزل لهم العطاء لكي يعملوا على نشر العلوم . فتوجه ابن الراوندي إلى مقر الخلافة أملاً في أن يكون له نصيب من هذه العطايا .

وكانت شهرة ابن الراوندي قد سبقته إلى الأوساط العلمية في بغداد بفضل كتابيه الأولين « الابتداء والاعادة » و« الأسماء والأحكام » اللذين وصلت مخطوطات منهما إلى بغداد قبل وصوله هو ، وكما سبق قوله فإن هذين الكتابين كان قد ألفهما ابن الروندي بروح المسلم الملتزم الطيب السيرة والسريرة ، قبل أن ينحرف به التفكير إلى شطط الزندقة والكفر .

ولكن شهرته في بغداد لم تكن تقاس بشهرته في الري وبلاد فارس حيث أقام مدة طويلة ، وشغل الدوائر العلمية بآرائه وشطحاته ، فسعى إلى الذين لهم صلات بالأوساط العلمية في بغداد لكي يزكوه لدى من يعرفون في عاصمة الخلافة ، فحمله واحد منهم رسالة إلى ورّاق يدعى عباس الصرم . ولمّا استقر في أحد الفيروانات العديدة المخصصة للمسافرين في بغداد في ذلك الوقت(*) ، أخذ يبحث عن الورّاق ومعه نسخة من كتابه الموسوم « الفرند » ، فلمّا اهتدى إليه ، رجاه أن يستنسخ له عدداً من النسخ من هذا الكتاب .

فشرع الوراق يتصفح الكتاب ، ودقق النظر في عناوين فصوله ، وكانت حيرته تزداد كلما ازداد وقوفاً على محتويات الكتاب وجرأة صاحبه .

فقال له : يا أبا الحسن (ابن الراواندي) ، هل طالع أحدٌ هذا الكتاب ؟

فأجاب : نعم ، هناك نسخ منه في متناول المهتمين بموضوعه في الرأي .

فقال الوراق : يدهشني أنت ما زلت على قيد الحياة ناعماً بحريتك في الذهاب والاياب ، على الرغم من هذا الكفر الذي تبثه في ثنايا الكتاب .

(*) وهي بمثابة الفنادق أو النزل اليوم .

فقال ابن الراوندي : ما سجلته في هذا الكتاب حقائق وليس بكفر .

فعاد الوراق عباس الصرم يقول له : لقد أنكرت الأصول الثلاثة للاسلام ، وهي التوحيد والنبوة والمعاد .

فقال ابن الراوندي : ليس الأمر كما تتصور ، فلو دققت النظر لعرفت أنني لم أنكر التوحيد ، وإنما رغبت في تنزيه الخالق عن الخرافات التي تنسب إليه .

ثم طلب من الوراق أن يكلف أحد كتابه من المعروفين بجمال الخط استنساخ الكتاب ليقدمه إلى الخليفة العباسي .

فقال الوراق : انصحك بألا تقدم على هذا الأمر لتجنب نفسك غضب السلطان وعقابه .

فقال ابن الراوندي : لكن الذي سمعته عن الخليفة أنه رجل رحب الصدر ، محب للعلم والعلماء ، يهتم بالكتب والمؤلفات العلمية ويكافيء مؤلفيها بما ينفحهم من العطايا الجزيلة السخاء ، وقد مَنَّيت نفسي الحصول على عطية جزيلة من الخليفة مكافأة لي على تأليف هذا الكتاب .

انتهى الحوار بينهما إلى لا شيء ، ومع ذلك فقد وافق الوراق عباس الصرم على أن يقدمه إلى وراق آخر هو المطّلب البصري عساه يوافق على أداء هذه المهمة له . ولكن ابن الراوندي كان صفر اليدين عند وصوله إلى بغداد ، وكان يطمع في حلّ مشكلاته المالية متى وجد من يقدمه إلى الخليفة أو يقدم إليه بعض مؤلفاته ، فلما التقى بالمطلب البصري ، كانت طلبته الأولى منه مساعدته على الاهتداء إلى أي عمل يكفل له العيش في بغداد .

واطلع الوراق على نموذج من خط ابن الراوندي ، فألفاه رديئاً ولا

يؤهله للعمل في استنساخ الكتب . ومع ذلك ، وافق على أن يدفع إليه ببعض الكتب لاستنساخها وتحريرها ، على أن يكافئه على عمله شيئاً فشيئاً كلما فرغ من استنساخ فصل من الكتاب.

وكان المطّلب البصري كغيره من الوراقين يشتري نسخة المؤلف ، ثم يقوم باستنساخها في عشرات من النسخ ، أي أن الوراقين كانوا في القرن الثالث الهجري يقومون بالدور الذي تقوم به في يومنا الحاضر مؤسسات نشر الكتب وطبعها وتوزيعها(*) .

ولم يكن أمام ابن الراوندي إلا أن يقبل هذه الوظيفة الجديدة . فقدم إليه الوراق نسخة من الكتاب المطلوب نسخه وكمية من الورق للكتابة عليها ، إذ كان من عادة الوراقين أن يزودوا المحررين بالورق ليضمنوا جودة النسخ وخروجها بالحجم المطلوب .

ويعود الفضل في نشر الكتب والمعارف إلى من أبدع هذا الأسلوب ، متوافقا في ذلك مع تاريخ ظهور الورق ، حتى كثرت المخطوطات وازدادت نسخها المتداولة ، فحفظت لنا تراثاً علمياً هاما كان عرضة للضياع والفقدان ، ولا ريب في أن مبتدعي هذا الاسلوب قد سبقوا بقرون عدة غوتنبرج الذي اخترع المطبعة الحديثة حتى لا يبقى في مدينة استراسبورغ أمي واحد بعد انتشار الكتب[1] .

عكف ابن الراوندي على أستنساخ الكتاب ، ولكنه تبين أن فيه ما

(*) (متعهدوا النشر والتوزيع) .

(١) مدينة استراسبورغ Strasbourg مدينة أوروبية تحتضن جامعتها مركز الدراسات الدينية المتعمقة، ومنها الدراسات الاسلامية التي يضم هذا الكتاب بعضا منها . وقد ولد غوتنبرغ (١٤٠٠ - ١٤٦٨ م) في هذه المدينة حيث اخترع المطبعة الحديثة التي تطبع بحروف منفصلة ، فاحدث ثورة في حركة نشر الكتب . واستراسبورغ هي اليوم عاصمة أوروبا الغربية . (المترجم) .

يستحق الرد والنقض ، فوضع للكتاب حواشي تتضمن آراءه وتعليقاته على ما ورد في الكتاب ، وصاغها بأسلوب فني . ولما احتاج إلى مال ، حمل ما أنجزه من الكتاب إلى الوراق لكي يؤدي له ثمن ما أنجزه ، فقام الوراق بمراجعة الجزء المتسنسخ بعناية ودقة للتثبت من أمانة النقل وصحة الكتابة ونظافة الورق وسلامته ، ففوجيء بالتعليقات والحواشي التي انتشرت في الكتاب دون أن يكون لها وجود في النص الأصلي .

.لما استفسر الوراق من ابن الراوندي عن موضوع هذه الحواشي والتعليقات التي لم ترد في الأصل ، اعترف بأنه هو الذي أضافها .

فسأله الوراق عن سبب هذا التصرف ، فأجاب : لقد وجدت المؤلف على خطأ وصوبت له ما وقع فيه من أغاليط .

الفى الوراق نفسه ولأول مرة تلقاء كاتب ومعلق يضع الحواشي والتعليقات على الكتب على خلاف غيره من الكتاب والنساخين ، ولكنه طلب منه اعادة كتابة نفس الصفحات بعد استبعاد هذه التعليقات والحواشي التي كان قد اضافها ، قائلا له أنه إذا أراد أن يستمر في عمله هذا ، فلا بد له من الالتزام بالنص دون زيادة أو نقصان ، ودون تغيير في عباراته أو إردافه بتعليقات وحواش .

وإزاء هذا الموقف من جانب المتوكّل ، عمد الشيعة إلى الالتزام بالتقية (التقاة) وعدم المجاهرة بولائهم لآل علي ، وزاد هذا الموقف من مخاوف عباس الصرم من ردّ الفعل لدى الخليفة في ما لو عرف أن ابن الراوندي من فارس وله مؤلّف في الإمامة ويغلب عليه التشيّع ، ثم إنه كان في نفس الوقت واثقاً من أن ابن الراوندي لا بدّ أن يلتمس سبيلاً آخر لرفع كتابه إلى الخليفة ، فقرّر الصرم أن يقوم بنفسه بتقديم ابن الراوندي الى الخليفة ، زاعماً أن هذا الرجل مُصاب بداء الصرع وأنه برغم ذلك

ألّف كتاب « الفرند » ، وكان في اعتقاده أنَّ من شأن هذه الظروف أن تردَّ عن ابن الراوندي عادية الخليفة وتحول دون تكفيره ثم إعدامه ، كما أنَّ من شأنها في الوقت نفسه أن تدفع عنه تُهمة إيواء هذا الرجل المتّهم بالزندقة وتقديم العون له .

والحقيقة أن ابن الراوندي ، برغم شطحاته الفكريّة ، كان من العبقريات العلمية في القرن الثالث الهجري ، وقد خلّف هذا الاصبهاني وراءه في عُمْرٍ لم يجاوز الأربعين عاماً آثاراً فكرية لم يترك مثلها أفذاذُ العلماء الذين عمّروا في عصره سبعين عاماً أو ثمانين .

فقد كان ـ كأعلام عصره ـ متضلعاً من جميع علوم يومه ، ومنها الطب والرياضيات والفلك ، وكان أول من نبّه إلى أن جسم الإنسان محاط طوال أيام حياته بأعداء تَهِمُّ بالفتك به ، ولكن الجسم نفسه يولّد ما يقيه شرها ، ويحافظ على سلامته وحياته .ومع أهمية هذه النظرية العلمية ، فلم يفطن إليها أحد في القديم ولا في العصر الحديث وإلى مطالع القرن العشرين ، عندما تبين الأطباء الباحثون أن الكريّات البيضاء في الدم تقوم بدور الشرطي أو حرس الحدود فتحمي الجسم من هجوم الأجسام الغريبة، وبعبارة أخرى تقاوم الميكروبات والجراثيم التي تنتقل بالعدوى ، وقد تحقّق هذا الكشف الهام في سنة ١٩٤٠ م .

فالإتيان بهذه النظرية كان كافياً في حدّ ذاته لتكذيب ما يُقال من أن ابن الراوندي مصاب بالصرع ، لأن قائل هذه النظرية لا بدّ أن يكون صحيح العقل والتفكير .

وفي منتصف القرن الثالث ، كانت أصول الطب السائدة سواء في الشرق أو في الغرب مستمدة من مدرسة أبقراط القائمة على أساس وجود طبائع أربع ، فإنْ تعادلت وتوازنت في جسم الانسان سلم وتعافى ، وإنْ

اختل التوازن في ما بينها مرض ، وإنْ بلغ الخلل درجةً حادّة ، مات .

وبالبناء على هذه النظرية ، تكون أسباب الموت أسباباً داخلية ، ولا يتسبب فيه عدوٌّ خارجي . ولم يسبق لأحدٍ أن قال بأن جسم الإنسان مُعرَّض طوال حياته لهجوم الجراثيم والميكروبات إلى أن جاء العالم الفرنسي باستور في القرن التاسع عشر واكتشف الميكروب الذي ينقل العدوى ، وأقام البرهان عملياً ونظرياً على صحة هذه النظرية .

أما الكريّات البيضاء فلم تكتشف إلا في عام ١٩٤٠ م ، فعرف الطب الدور الهام الذي تقوم به هذه الكريات الحيوية في مقاومة الميكروبات المهاجمة .

وفي عام ١٩٥٠ م ، تحقق علماء الطب من أن هناك عاملاً آخر يطرد الأجسام الغريبة من الجسم ويسمّونه « الجسم المضاد »(١) ، ومهمته الأساسية هي مقاومة الخلايا الغريبة وطردها من الجسم .

ولكي نعرف مدى أهمية هذه الأجسام المضادة التي اكتشفت في عام ١٩٥٠ م يحسن بنا أن نُشير إلى تقرير للدكتور روبرت آلن جود المشهور بتخصصه في أمراض السرطان والأستاذ بجامعة كاليفورنيا في الولايات المتحدة ، فقد أثبت الدكتور جود في تقريره هذا أن جسم الانسان يولّد ما يتراوح بين عشر خلايا وعشرة آلاف خلية من خلايا السرطان منذ المهد وإلى آخر أيام العمر ، ولولا الأجسام المضادة التي تطرد الخلايا الأجنبية من الجسم وتحول دون انقسام خلية(٢) السرطان وانتشارها لنمت خلايا هذا

---

(١) الجسم المضاد يعرف في الانجليزية باسم Antibodies, وفي الفرنسية باسم Anticorps .

(٢) الخلية Cellule هي الوحدة الحيوية الصغرى ، فإذا انقسمت ، تولّدت خليتان سرعان ما تكتمل كل منهما نموها ، وتعاودان الانقسام وهكذا دواليك إلى أن يزداد عدد الخلايا الناشئة عن سلسلة الانقسامات هذه ملايين في فترة قصيرة . (المترجم) .

الداء اللعين وغـزت الجسم البشري كله . ومن رأيـه أن السبب في إصابـة الشيوخ بالسرطان بنسبة تفوق نسبة إصابة الشباب بـه هو أن جسم الشيـخ يولّد من الأجسام المضادة كميةً أقل مما يولده جسم الشاب ، وبالتالي يتعذّر على الشيوخ مقاومة هذا الداء العضال.

ومما قالـه الـدكتـور روبـرت آلن جـود إن وجـود الأجسـام المضـادة بكميات غير كافية في جسم الإنسان يساعد على الإصابة بالسرطـان ، وإنه إذا أريد علاج هـذا المرض فـلا بد للطبيب من أن يفكـر في وسيلة لتقويـة جسم المصاب وتمكينه من توليد قدر أكبر من الأجسام المضادة .

أو ليس ممّـا يُثير الـدهشة أن يكـون عالمٌ من العلماء مضى عليـه أحد عشر قرناً ونصف قرن قد استطاع أن يكشف سـراً من أهم أسرار الصحـة البـدنية ، دون أن ينتبـه أحدٌ إلى هـذا الكشف ، ودون أن يهتم بـه العلماء الباحثون في النصف الأول من القرن الحاضر ؟

وقد لقيت نظرية ابن الراوندي التي طلع بها قبل ألف ومائـة وخمسين سنة إعجاباً عاماً وقبولا من الأوساط العلمية والـطبية في جميـع أنحاء العـالم بعد ما تبيّنـوا صوابهـا ، لأن الثابت عنـد جميع الأطبـاء أن الإنسان هـدف مستمرٌ لأعداء خـطرين يسعون إلى القضـاء عليه ، ويتمثـل هؤلاء الأعداء في الميكروبات والفيروسات والخلايا الدخيلة .

ولابن الـراوندي نـظرية أخـرى لا تقل شـأناً عن النـظرية السـابقـة مؤداها أن الإنسان إذا ابتُلي بمرض مستعص عزّ علاجـه وفقد الـدواء فعله تلقـاءه ، وجب أن يُحقن بمرض آخـر ينقل إليـه ، وهكذا ينجـو من خـطر المـوت ، ومتى تم علاجـه بهذه الكيفيـة من المـرض الأول ، قـام الـطبيب بعلاجه من المرض الثاني .

فإذا كانت هذه النظرية التي قال بها ابن الراونـدي في القرن الثـالث

للهجرة من البينات التي أقيمت على مرضه بالصرع ، فقد أصبحت في القرون اللاحقة موضوع اهتمام الأطباء ، إذ ثبت لديهم من التجربة أن المصاب بمرضٍ مستعص يمكن الاستعانة على علاجه تدريجياً بتعريضه للإصابة بمرض آخر ، وقد تحققت نتائج هذه التجارب بمحض المصادفة والاتفاق ، ولكن الأمر الذي عجز الأطباء قديماً عن الاهتداء اليه هو نوع المرض الثاني الذي يستعان به في العلاج ، ثم القدرة على التحكم فيه بعد نقله إلى المريض .

ومنذ القرن التاسع عشر بدأ تطبيق هذا النوع من العلاج الذي دخل طوراً جديداً بعد كشف الميكروب وسموم التوكسين[1] .

فمنذ القرن التاسع عشر والأطباء يحاولون علاج الأمراض بإدخال الميكروب أو التوكسين إلى أجسام المصابين بها .

ومن ذلك مثلاً أن الدكتور وليم كالي قام في القرن التاسع عشر بتجربة نظرية ابن الراوندي ، وبصورةٍ خاصة في علاج السرطان ، عن طريق إدخال التوكسين إلي جسم المريض . وقد تبين له أنه كلما أخذ المرض الجديد في الظهور ، بدأت انسجة خلايا السرطان تتحلل وتزول ، وبهذه الكيفية نجح في إنقاذ حياة أكثر من مائتي مريض كان شفاؤهم ميئوساً منه ، فعاشوا بعد العلاج حياةً طبيعية . وأقلّ نتيجة حققها هذا الأسلوب في العلاج هي إطالة أعمار المصابين بالسرطان في مراحله المتأخرة خمس سنين أخرى .

والمهم هنا أن طريقة الدكتور كالي برهنت على صحّة نظرية ابن الراوندي ، وإن كانت تجارب تطبيقها قد توقّفت لأسباب منها أن المرض

---

(١) التوكسين سموم تولدها الأجسام كما تولدها المواد الغذائية الدسمة التي تولد كمية كبيرة من الطاقة دون استهلاك الجسم لها . (المترجم) .

الثاني (المجلوب) ، إن كان مرضاً ضعيفاً ، عزّ عليه التأثير في وقف انتشار الخلايا السرطانية ، وإن كان قوياً كان بمثابة علاج الأفسد بالفاسد فيضعف الجسم ، وربّما تعذر بعدئذٍ علاج المرض الثاني أو طال أمد علاجه .

إلا أن الدكتور روبرت آلن جود استمر في ما بعد يعالج السرطان بطريقته المستمدة من نظرية ابن الراوندي . ويؤخذ من التقارير العلمية أن النجاح حالفه في كثيرٍ من الحالات .

ابن الراوندي في نظر معاصريه(١)

يقول عبد الرحيم العباسي مؤلف كتاب « معاهي التنصيص » (طبع بولاق عام ١٢٧٤ هـ ص ١٧٦ ـ ١٧٧) : « كان (ابن الراوندي) أحد المتكلمين المعتزلة ، عاش في بغداد ، ثم ألحد وارتد وانفصل عن المعتزلة » . ونقل عن أبي القاسم البلخي (وهو تلميذ لأبي القاسم الخياط وأحد المعتزلة الذين تصدّوا لآراء ابن الراوندي ووضعوا ردّاً على كتبه) قوله في كتابه « محاسن خراسان » : « كان ابن الراوندي من المعتزلة العظام . لم يواكبه أحدٌ في سبر غور علم الكلام . ولم يكن أحد أعرف منه بمذاهب أهل الملة واختلاف آرائهم . وكان في بداية أمره على صحّة المذهب وحُسن السيرة ، ثم حاد عن الطريق ، وترك المنهج والسبيل الحق . وقيل إن ذلك كان لغضبه على رفاقه الذين طردوه من حلقتهم وناديهم ، فأخذ يؤلف كتباً لأبي عيسى الأهوازي (اليهودي) » .

وقد توفي ابن الراوندي في داره في أهواز . وأحصى البلخي خمسةً فقط من كتبه ، هي : (كتاب التاج) وقد دافع فيه عن أبديّة العالم ،

(١) هذا الفصل بحث قام به مترجم هذا الكتاب .

و(كتاب الزمرد) وقد اطلق عليه هذا الاسم اعتقاداً منه بأن كتابه سيعمي أعداءه ومعارضيه كما يعمي الزمرد عيون الأفاعي ، و(كتاب الفرند) ، و(كتاب اللؤلؤ) و(كتاب الدامق) ، وقد أودعه كلاماً عن الخالق يسوء ذكره ، فاعتبر ما في الدنيا من ظُلمٍ وشرٍّ وسوء من صنع الخالق . وفي كتاب (الفهرست) لابن النديم استشهاد بما ذكره ابن البلخي .

وعدّه ابن المرتضى في كتابه (طبقات المعتزلة) من الطبقة الثامنة ، وأضاف أنه انحرف وأصبح زنديقاً ملحداً ، ووضع كتاب (التاج) وكتاب (عبث الحكمة) الذي طعن فيه على مذهب التوحيد وتحدث عن الثنوية ، وكتاب (الدامق) الذي عارض فيه القرآن الكريم ، وكتاب (الفرند) الذي انتقد فيه بعث الرسل ورسالة الأنبياء ، وكتاب (الطبايع) وكتاب (الزمرد) وكتاب (الإمامة) وقد رد عليه وعلى آرائه ومؤلفاته جماعةٌ منهم الشيخ أبو علي (الجبّائي) والخيّاط والزبيري وأبو هاشم الذي ردّ على كتابه (الفرند) .

ومن خلال عرضنا السريع لأقوال أصحاب السير والتواريخ ، يتبيّن أن ابن الراوندي كان من الشخصيات العلمية البارزة ، ومن أعلام المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، ويُربي عدد مؤلّفاته على مائة وثلاثين كتاباً . أيد المعتزلة ، ووضع لهم الكتاب تلو الكتاب للدفاع عن آرائهم الكلاميّة والفلسفية ، إلى أن انفصل عنهم ، فأخذ ينتقد آرائهم ومناهجهم ويردّ عليهم ، فرموه بالزندقة مرة ، وبالالحاد أخرى ، وبالميل إلى الرافضة ، وأخيراً بالميل إلى اليهودية .

والجميعُ متّفقون على أن ابن الراوندي كان في مستهلّ حياته صائب الرأي ، سليم العقيدة ، وذلك عندما كان يلتقي مع المعتزلة في رأيهم حول الإمامة ومسائل عقائدية أخرى ، وما لبث أن وضع كتابه (الإمامة) .

وهذا الكتاب هو بداية انحراف ابن الراوندي إلى الزندقة والكفر ، يقول الخيّاط في سياق نقده لهذا الكتاب : « كتاب (الإمامة) ، يطعن فيه على المهاجرين والأنصار (باختيارهم الخليفة بعد الرسول (ص)) ويزعم أن النبي (ص) استخلف عليهم رجلاً بعينه واسمه ونسبه ، وأمرهم أن يقدموه ، ولا يتقدموا عليه ، وأن يطيعوه ولا يعصوه ، فأجمعوا جميعاً إلا نفراً يسيراً ، خمسة أو ستة ، على أن يزيلوا ذلك الرجل عن الموضع الذي وضعه في رسول الله (ص) استخفافاً منهم بأمر رسول الله (ص) ، وتعمّداً منهم لمعصيته » .

يبدو من هذا أن السبب الرئيسي في انحراف ابن الراوندي ـ في نظر الخياط ـ هو ميله إلى الإمام علي ابن أبي طالب (ع) وتفضيله إياه على غيره ، وتأكيده بأن الخلافة أو الولاية قد خصّه النبي (ص) بها ، فهاجم الخياط لذلك ابن الراوندي وعدّه فاسقاً ومنحرفاً . وبعدما انشق عن جماعة المعتزلة لهذا السبب ، وضع كتابه الثاني رداً على كتاب (فضيلة المعتزلة) لعمرو بن بحر الجاحظ ، وسمّاه (فضيحة المعتزلة) . وأثار هذا الكتاب غضب المعتزلة جميعا ، فتصدوا له بطرق ووسائل شتى ، فهذا أبو الحسين بن عثمان الخياط المعتزلي يضع كتاباً عنوانه (الإنتصار) في الردّ على ابن الراواندي وكتابه (فضيحة المعتزلة) ، وبفضل كتاب الخيّاط هذا الذي ردّ فيه فقرةً فقرة على آراء ابن الراوندي ومؤلفاته ، عرفنا شخصية ابن الراوندي وقيمته العلمية والمؤلفات الكثيرة التي وضعها ، وإنْ كان لم يصلنا منها إلّا كتابان هما (الابتداء والاعادة) و(الفرند) ، وفقرات من كتاب (فضيحة المعتزلة) كما وردت في كتاب الخيّاط .

ولم يقف المعتزلة عند هذا الحدّ في مهاجمتهم لابن الراوندي وطعنهم عليه ، بل سعوا عند الخليفة لإيغار صدره عليه ، فأمر بالقبض عليه ، لولا أنه فر من بغداد ومات متخفّياً في الكوفة .

وقد قال القاضي أبو علي التنوخي إنّ أبا الحسين (ابن الراوندي) كان يعاشر الملاحدة . وعندما سُئل عن ذلك ، قال إنّه يريد أن يعرف معتقداتهم وأفكارهم . وقيل إن أباه كان يهودياً فأسلم ، فقال اليهود للمسلمين إنه سيخرب عليكم دينكم كما فعل أبوه بديننا .

ويقول أبو العباس الطبري : (لم يستقم يوماً ابن الراوندي ، ولم يستقر في مذهب ولا مسلك . وكتب كتابه (البصيرة) لليهود مقابل اربعمائة درهم استلمه من يهود سامراء ، ثم عكف على ردّ الكتاب بنفسه ، فدفع له اليهود مائة درهم آخر ليمتنع عن الردّ) (راجع « معاهد التنصيص ») .

والتقى ابن الراوندي بأبي على الجبّائي على جسر بغداد ، وسأله : (هل سمعت معارضتي للقرآن ؟) فأجاب أبو علي : (إنني أعرف قدرك وعلمك ورفاقك الملحدين ، ولكن إذا اشهدت قلبك وضميرك ، هل تجد ما يريحك ويرضيك عن فعلك هذا ؟ وهل تجد أنسق نظماً وأجمل عرضاً وأوقع في النفس من القرآن ؟) . فأجاب ابن الراوندي : (لا والله) . فقال أبو علي : (إذن ، إذهب إلى حيثما شئت) . (راجع « معاهد التنصيص ») .

وكلما زادت شقة الخلاف بين ابن الراوندي والمعتزلة كلما زادت الاتهامات الموجهة إليه ، حتى قيل إنه يناصر اليهودية على الإسلام ، بل قيل إنه يهودي ، وإنه يلجأ إلى اليهود ويموت في أحضانهم .

ولم يذكر المؤرخون الذين تعرّضوا لحياة ابن الراوندي الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى إلحاده وزندقته ، فمنهم من قال إن الفقر هو الذي ورّطه في هذا ، ومنهم من قال إنّه كان خاضعاً لليهود ، ومنهم من قال إنه كتب في الإلحاد لأن هناك من أغراه بالمال على ذلك ، حتى لقد قيل إنه

تقاضى ثلاثين ديناراً عن تأليف كتاب (الإمامة) .

وقد جاء في الفقرة ٦٦ من كتاب (الانتصار) ما يناقض الحقيقة من ناحية ، ويوضّح مدى غضب المعتزلة وكرههم لابن الراوندي . يقول الخيّاط : لقد هجره أكثرهم (أي المعتزلة) ، فبقي طريداً وحيداً ، فحمله الغيظ الذي دخله على أن مال إلى الرافضة . . فوضع لهم كتابه (الإمامة) (الانتصار ص ٧٧) .

والحقيقة أن ابن الراوندي وضع كتاب « الإمامة » قبل ظهور الخلاف بينه وبين المعتزلة ، وأنه أغضب المعتزلة عندما وضع كتابه (فضيحة المعتزلة) ، وأثار غيظهم وسخطهم فنسبوه إلى الإلحاد مرّةً وإلى الزندقة أو الثنوية واليهودية مرة أخرى .

ومات ابن الراوندي في أخريات القرن الثالث الهجري ، وأغلب الظنّ أنه عاش ما يقارب ثمانين سنة . وذكر صاحب (كشف الظنون) أنه مات في ٣٠١ للهجرة (ج ٤ ص ٤٤٦ و٥ : ٦٠) . فإذا كانت ولادته كما قال أكثر المؤرخين قد حدثت في سنة ٢٠٥ أو ٢١٥ للهجرة ، فوفاته حسب (معاهد التنصيص) وقعت في سنة ٢٩٨ ، كما أشار إلى ذلك ابن النجّار .

وقال المسعودي في « مروج الذهب » (ج ٧ : ٢٣٧) بعد ذكر وفاة أبي عيسى الورّاق في سنة ٢٤٧ للهجرة : (وتوفي أبو الحسين أحمد بن يحيى إسحاق الراوندي في رحبة مالك بن طوق) وقال البعض في بغداد سنة ٢٤٥ للهجرة عن عمر يناهز ٤٠ سنة وقد ألف ١١٤ كتاباً وبهذا يكون ابن الراوندي من معاصري عيسى الوراق .

وهذه قائمة ببعض مؤلفات ابن الراوندي ، كما ذكرها الخيّاط في ثنايا ردّه على ابن الراوندي في كتابه (الانتصار) وسائر المؤرخين ، ونبدأ

بالكتب التي وضعها وهو مع المعتزلة ، ثم الكتب التي وضعها بعد أن هجرهم واختلف معهم ، أو كما يقول ابن البلخي الكتب التي وضعها وهو ملحد وزنديق :

١ ـ كتاب الابتداء والإعادة (ذكره ابن البلخي)
٢ ـ كتاب الأسماء والأحكام (ذكره ابن البلخي)
٣ ـ كتاب خلق القرآن (ذكره ابن البلخي وابن النديم)
٤ ـ كتاب البقاء والفناء (ذكره ابن البلخي)
٥ ـ كتاب لا شيء إلاّ موجود (ذكره ابن البلخي)
٦ ـ كتاب الطبائع في الكيمياء (ذكره الانتصار وابن المرتضى)
٧ ـ كتاب اللؤلؤ (ذكره ابن البلخي)

وبعد انفصاله عن المعتزلة واختلافه معهم ألّف الكتب الآتية :

٨ ـ كتاب الإمامة (ذكره الانتصار وابن المرتضى)
٩ ـ كتاب فضيحة المعتزلة : وقد وضع الخيّاط كتاب (الانتصار) رداً عليه .

١٠ ـ كتاب القضيب : سماه ابن البلخي : كتاب القضيب الذهبي (ذكره ابن البلخي وابن المرتضى وابن خلكان) .

١١ ـ كتاب التاج : (ذكره الخيّاط وابن البلخي وابن المرتضى وابن خلكان) وذكره ابن النديم أن أبا سهل النوبختي ردّ عليه في كتابه « السبك » (الفهرست ص ١١٧) .

١٢ ـ كتاب التعديل والتجوير : زعم فيه أنه من أمرض عبيده ، فليس بحكيم في ما فعل بهم ولا ناظر لهم ولا رحيم بهم ، كذلك من أفقرهم وابتلاهم (الانتصار ص ١) .

١٣ ـ كتاب الزمرد : ذكر فيها آيات الأنبياء فطعن فيها وزعم أنها مخاريق ـ حسب كلام الخيّاط ـ (ذكره ابن البلخي وابن المرتضى وابن خلكان والخيّاط) .

١٤ ـ كتاب الفرند : انتقد فيه الأنبياء ، وقد ردّ عليه أبو هاشم (أشار إلى ذلك ابن المرتضى ، ويقول ابن البلخي إن الخيّاط ردّ عليه) (وجاء ذكر هذا الكتاب عند ابن البلخي وابن المرتضى وابن خلكان) .

١٥ ـ كتاب البصيرة : (ذكره أبو العباس الطبري ، وقال إنه ألّف هذا الكتاب نزولاً عند رغبة اليهود وطعناً في الإسلام .

١٦ ـ كتاب الدامق : ذكره ابن البلخي وابن المرتضى) ، وذكر ابن البلخي بأن الخيّاط ردّ على هذا الكتاب ، وقال أبو علي الجبائي إن ابن الراوندي كتب هذا الكتاب بطلب من اليهود ، وأثار غضب السلطان ، وقد أمر بإحضاره لكنه هرب والتجأ إلى يهودي مات عنده .

١٧ ـ كتاب التوحيد (ذكره الخياط في الانتصار « الفقرة ٥ ») .

١٨ ـ كتاب الزينة (ذكره صاحب « كشف الظنون » ٥ : ٩).

١٩ ـ كتاب اجتهاد الرأي (ذكره ابن النديم في « الفهرست » ص ١٧٧) وأضاف أن أبا سهل النوبختي ردّ على هذا الكتاب .

ويقول المستشرق الفرنسي نيبرغ (Nyberg) في تقديمه لكتاب « الانتصار » في بحث ممتع : « يجب ألا ننسى الدور الهام الذي اضطلعت به المعتزلة في هذه الفترة في ميادين العلوم والدين والسياسة . وقد توافقت بداية ظهورهم مع قيام الدولة العباسية ، وازداد نشاطهم واتسع نفوذهم ولا سيّما في أيام المأمون والمعتصم والواثق الذين استعانوا بالمعتزلة وأسندوا إليهم مناصب حكومية هامة فأصبح رجالهم من أصحاب الرأي والمشورة .

فهذا أحمد بن أبي دؤاد ، وهو من زعماء المعتزلة ، أصبح قاضي القضاة ووزيراً للخليفة العباسي بالإضافة إلى المنزلة التي كان يحتلها عند المعتزلة . وهكذا أصبح المعتزلة الحزب الذي يظفر بالتأييد الرسمي ، كما كان أقوى المذاهب والطوائف آنذاك ، حتى أن أصحاب الحديث والسنّة من معارضيهم واجهوا مشكلات كثيرة انتهت بمحنة ، كما حدث للإمام أحمد بن حنبل إمام الحنابلة الذي سجنه المعتصم وأفرج المتوكّل عنه . واستمّر نفوذهم إلى ما بعد وفاة الواثق الذي أعطاهم من الأهمية أكثر مما أعطاهم الخلفاء الذين سبقوه ، فلمّا جاء المتوكل ، واتخذ سبيلاً مختلفاً من أسلافه من حيث احترام أهل المذاهب والنحل ، احتضن أهل السنّة وأصحاب الحديث الذين طالما ترصّدوا لهم ، فهاجموهم شرّ هجوم ، وانتقموا منهم أقسى انتقام . فأخذت المعتزلة تدافع عن نفسها وآرائها ، وكتب الجاحظ كتابه : (فضيلة المعتزلة) في هذه الفترة .

وقد مر بنا أن ابن الراوندي وضع كتابه (فضيحة المعتزلة) في الردّ على هذا الكتاب ، ثم جاء الخيّاط ووضع كتابه (الانتصار) الذي بين أيدينا ردّاً على ابن الراوندي .

وللاستزادة من البحث نُحيل القارىء إلى ما كتبه نيبرغ :

H.S. Nyberg, (Preface de Kitab Al Intisanr Abu Al Husayn B. Othman Al-Khayyat).

Edition les lettres Orientales, Beyrouth, 1957.

ابن الراوندي والكيمياء

كان ابن الراوندي ، كما أشرنا من قبل ، من الأفذاذ القلائل الذين تبّحروا في العلوم المتداولة في عصرهم ، ومنهم الكيمياء . ولا ننسى أنه

كان من الطبقة الثانيـة من تلامـذة الصادق (ع ، إذ أخـذ العلم من أمثال جابر بن حيان .

وإذا قلنا إنه كان كيميائياً ، فإنما نقصد به أنه كان خبيراً في خـواص المـواد والعناصـر منفردةً ومـركّبة ، شـأنه في ذلـك شأن علماء الكيميـاء في عصرنا الحاضر ، ولا نقصد أنه كان يستخرج الذهب من المعادن الخسيسـة كما قد يتبادر إلى الذهن كلما جرى الحديث عن الكيمياء في القديم .

والـواقع أن الكيميـائيـين في القـديم قـد فشلوا أيضـاً في استخـراج الـذهب من العناصـر الأخرى ، وأنفقـوا من المال والجهـد في سبيل الـظفر بهذا المعدن الأصفر ما يفوق بكثير قيمة الذهب نفسـه . ولم يختلف الوضـع في العصور المتأخـرة بالنسبـة للكيميائيـين الذين اجتهـدوا في تحويل المعـادن الخسيسة إلى ذهب .

ومن هؤلاء الكيميائيين في العصور الوسطى (نيقولا فلامل) الـذي وضع كتاباً في الكيمياء ، وعـاش في النصف الثاني من القـرن الرابـع عشر الميـلادي ، أي بعد وفـاة ابن الراونـدي بستة قـرون . وممّا قـاله في كتـابـه (قانون استخراج الذهب أو تحويل العناصر الأخرى إلى الذهب) ما يلي :

(في اليـوم السابـع عشر من ينـاير سنـة ١٣٨٢ ، أخذت كميـةً من الجـير الأبيض مع روح الخمـر (الأكل) وتـركتهما في قـارورةٍ من البلّور ، ووضعتهما فوق نار هادئة حتى أخذت تفور وتغيّر لونها إلى سوادٍ ، ومنـه إلى بياض ناصع ، ثم أخذ يشتدّ ويتحوّل إلى إصفـرار ، ثم وضعته في قـارورة فيهـا زئبق ، فبعد مـا سخنت الزئبق واختلط بـالمـادة التي أضفتهـا إليـه ، تكوّنت مادةٌ غليظة بلون الذهب . فرفعت القارورة من النـار ، واندهشت إذ تبينت أن هذه المادّة بعدما مالت إلى البرودة كانت ذهباً ، ولكنّها أقل منه صلابة . فكنت أتصرف فيها وأطويها كما أشاء ، وهذه حقيقة) .

وليس ثمة ريب في أن (نيقولا فلامل) قام بمحاولات عدّة لتحويل العناصر المختلفة الى ذهب ، ولكنّ المؤكد أن الذي توصل إليه ليس بذهب . ولم يعد أحدٌ يحفل بالقيام بمثل هذه التجربة لأن فشلها معروف سلفاً . وإن رغب أحد في إجراء هذه التجربة ، فليدرك أن الزئبق يتحوّل بالحرارة إلى غاز سامّ .

وقد قيل إن ابن الراوندي كان كيميائياً ، أي كان على علم بطريقة تحويل المعدن الخسيس إلى ذهب .

ولو صحّ هذا القول ، لما احتاج ابن الراوندي إلى القيام بعمل الورّاقين في استنساخ الكتب مقابل أجر زهيد .

وحياة ابن الراوندي الأصفهاني في منتصف القرن الثالث الهجري شبيهة إلى حد بعيد بحياة (إرازموس) المسيحي الهولندي الذي عاش في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، واشتهر بكتابيه (ثناء الجنون) و(الأمثال) . وقد غلبت على (إرازموس) صفة التديّن والنسك على خلاف ما اشتهر به ابن الراوندي ، ولا سيّما من خلال كتابه (الفرند) . ومع ذلك ، فقد جاءت نهاية إرازموس شبيهة بنهاية ابن الراوندي ، من حيث اتهام كليهما بالكفر والزندقة .

وقد ترجم (إرازموس) الكتب المسيحية المقدّسة من اللغة اليونانية ، وأتاح لأتباع المسيح الملتزمين الحصول على نصٍّ دقيق للعهدين القديم والجديد اللذين يتألف منهما « الكتاب المقدس » .

ولما شاعت ترجمة إرازموس للعهد الجديد الذي يضم الأناجيل الأربعة ، دهش المسيحيون إذ وجدوا أن هذا الكتاب المقدّس خلا من التناقضات ، وأن شخصيات أصحاب الأناجيل الأربعة ظهرت من خلال هذه الترجمة واضحة مستقلة . وبهذا قدّم إرازموس خدمة جليلة إلى

المسيحية والمسيحيين بعمله هذا ، وكافأه عليه كثير من الملوك المسيحيين بما أرسلوه إليه من الهدايا التقديرية . وأنشأت جامعة (لوون) في بلجيكا كرسي أستاذية يحمل اسم (إرازموس) تقديراً واحتراماً ، كما أن له تمثالاً ينتصب في حديقة محكمة العدل الدولية في لاهاي بهولندا .

ولكن ، كيف تُتّهم شخصية علمية دينية من طراز إرازموس بالكفر والإلحاد ؟ إن الجواب على هذا السؤال كامنٌ في الأسلوب الذي انتهجه إرازموس ، فلولا جهده في كشف المتناقضات وإيضاح المبهمات في الكتب المقدسة وصياغتها في قالب يسهل على الجميع فهمه ، لما ظهر المذهب البروتستانتي الإصلاحي .

صحيح أن إرازموس لم يكن من مؤسسي هذا المذهب ، ولكنّ ترجمته مهّدت الطريق لظهوره . لذلك أن القس الألماني مارتن لوثر ، لم يكد يقرأ ترجمة إرازموس للعهد الجديد ، حتى هبّ إلى نقل هذا السفر المقدس إلى اللغة الألمانية إعجاباً به وتسهيلاً لفهم المسيحية على حقيقتها من جانب الشعب الألماني . ولعلّ لوثر لم يفكّر آنئذٍ في الدعوة إلى مذهب جديد في المسيحية ، ولكن ترجمته الجديدة كانت حافزاً على النهضة الدينية التي أطلق عليها إسم (البروتستانتية) ، بمعنى الإعتراض على التقاليد الدينية السائدة وإصلاحها .

ولّما انتشرت ترجمة مارتن لوثر للأناجيل الأربعة نقلاً عن ترجمة إرازموس ، وشاعت بين الناس ، انبرى بعضُ المتزمتين والمتعصبين من المسيحيين إلى اتهام (إرازموس) بأنه أدخل البدعة ، ورموه بمحاولة إشاعة الفُرقة بين المسيحيين من خلال ترجمته للعهدين القديم والجديد ، وحكموا عليه بالهرطقة والكفر .

ولكنّ جماعةً أخرى من الآباء المسيحيين المتنورين نفت عنه هذه

التهمة وأيدته ، وأرسل البابا (آدرين السادس) رسالةً إلى (إرازموس) قال فيها إنه لا يشك في حُسن نيته في ترجمة الكتاب المقدس ، ولكنّ عليه إظهاراً لسلامة موقفه ودفعاً للشبهات أن يوضح رأيه في الحركة البروتستانتية .

ولم يكن إرازموس يفكّر في مناصبة لوثر أو الحركة البروتستانتية الجديدة العداء ، إلا أن رسالة البابا دفعته إلى نشر كتاب مفتوح نفى فيه تأييده للوثر وللحركة البروتستانتية . ومع ذلك ، ما زال كثيرون من المهتمين بالدراسات المسيحية في هذا القرن (العشرين) يعتبرون إرازموس من مؤسسي الحركة الإصلاحية البروتستانتية .

أوردنا ما تقدم لكي نوضّح أن أوجه الشبه بين (أرازموس) و(ابن الراوندي) في العقيدة الدينية قليلة إن لم تكن معدومة لأن الأول كان من رجال الدين الأتقياء ، ولم يتوَخَّ بترجمته للعهدين القديم والجديد إشاعة الفرقة بين المسيحيين ، حتى وإن ظُنَّ أن هذا كان مقصده ، في حين أن ابن الراوندي كان على النقيض منه تماماً من حيث الإيمان والسلوك .

والواقع أن ظهور ابن الراوندي في القرن الثالث الهجري كان من آثار حريّة الرأي والبحث التي أرست مدرسة الإمام الصادق (ع) دعائمها ، وجادت بيانع الثمار في النهضة العلمية الفريدة التي ظهرت في عصر الدولة العباسيّة . وقد حرص الشيعة على هذه الحرية ، فكانت من أسباب استقرارهم وتوسّعهم وتقدّمهم ، ولم نقرأ في تاريخ الشيعة أن حُكم الإعدام قد نُفِّذ في أحد لمجاهرته برأي يخالف العقيدة السائدة ، ولا أن تُهَمَ الزندقة والإلحاد قد وُجِّهت إلى أحد بسبب رأي فلسفي ذهب إليه أو خلاف في أمور العقائد ، وغاية ما في الأمر أن الشيعة كانت تُسمِّي معارضيها بالمخالفين أو المعاندين وحسب .

وقد وُفِّق ابن الراوندي إلى تقديم كتابه (الفرند) إلى الخليفة العباسي المتوكِّل ، الذي ألقى عليه نظرة متفحصة سريعة ولم يطالعه بتدقيق وإنعام نظر ، ولكن هذه النظرة السريعة كانت كافية لإثارة غضبه وانتباهه ، لأن ابن الراوندي ضمّن كتابه فصلاً عن تاريخ شجرة السرو في كاشمر ، وكان المجوس ينظرون إليها نظرة تبجيل اعتقاداً منهم بأن الزردشت هم الذين غرسوها(١) .

ومما رواه ابن الراوندي أيضاً أن المسلمين كانوا بدورهم يقدسون هذه الشجرة ويجلّونها ، وهو قد كان يهدف من عرض القضايا التاريخية والاجتماعية إلى تعزيز رأيه الفلسفي ، كما كان يقصد من عرضه لتاريخ شجرة السرو الكاشمرية أن يقول إن هذه الشجرة اكتسبت قداسة وألوهية عند الناس .

فلما قرأ المتوكل هذا الكلام ، غضب غضباً شديداً ، وقال : ما كنت أعلم أن في خلافتي وفي دار الإسلام شجرة خضراء يعبدها الناس ، وفي سورة غضبه ، طلب قطع هذه الشجرة واقتلاعها من جذورها خشية أن تنبت من جديد . وبعث بأوامره إلى طاهر بن عبد الله بن طاهر واليه على خراسان ، طالباً منه أن يتحقق من هذا الأمر ويوافيه بتقرير عاجل .

فأوفد طاهر بن عبد الله جماعة لكي تتحرى صحة هذا الأمر ، ثم كتب إلى الخليفة قائلاً : نعم ، الشجرة قائمة ، والناس يكنّون لها احتراماً

---

(١) أورد القزويني في كتابه « آثار البلاد » وصفاً لهذه الشجرة وما تحظى به من تبجيل من الناس ، ولكن يؤخذ من هذا الوصف أنها ليست شجرة سرو بل شجرة (وهي الأثل) المعروفة بضخامة جذوعها وقدرتها على التعمير قروناً طويلة ، ولا سيما في منطقة خراسان ، وما زال الناس يشاهدون هذه الشجرة في جنوبي خراسان ويولونها من التبجيل ما استأثرت به في أزمنه التاريخ المختلفة . (المترجم) .

دون أن يعبدوها . وأضاف أنه لم يجد في خراسان أحداً يقول بألوهية هذه الشجرة .

ومما رواه القزويني أن الخليفة أمر بقطع الأشجار ونقل أغصانها وفروعها إلى بغداد ، ومن غرائب المصادفات أن الأشجار المقطوعة وصلت إلى بغداد في نفس اليوم الذي قتل فيه المتوكل بيد ابنه المنتصر (٢٣٦هـ) ، وقيل وقتها إن المنجّمين حذروا المتوكل من قطع هذه الشجرة لئلا يتعرض لحادث مؤلم .

ويقال إن مؤبد المؤبذان « الحرّاق » بخراسان دعا بالموت[1] على الخليفة عندما سمع أنه أمر بقطع هذه الشجرة.

أما النقطة الثانية التي أثارت نقمة المتوكل وحيرته في كتاب (ابن الراوندي) فهي كلامه عن آراء الناس في الله وفي التوحيد ، فسأل الخليفة ابن الراوندي : هل قرأ كتابك هذا غيري ؟ فأجابه : نعم ، فزاد هذا في دهشته ونقمته ، وقال : كيف يُترك مثلك حُرّاً بعد هذا الكفر ؟.

ثم قال لابن الراوندي : أنت أنكرت وجود الله ، وتقول إن ما تعتقده الناس في الله أسطورة من الأساطير انتقلت من جيل إلى جيل ؟ كيف تقول هذا ؟ ومن خلق الخلق وأوجد العالم إذا كانت هذه الحقيقة في رأيك أسطورة ؟

فلزم ابن الراوندي الصمت خوفاً من غضب السلطان وتحاشياً لنقمته وعقابه . فقال له الخليفة : إنَّ من ينكر وجود الله ، عليه إقامة

---

(١) يقول الاستاذ نوبخت ، وهو من الأدباء المعاصرين ، ان شجرة السرو التي أمر المتوكل بقطعها كانت في (كشم) ، وهي قرية في ناحية (بست) من توابع نيسابور ، وهناك كشم اخرى في سيستان ، والثالثة جزيرة في الخليج الفارسي . (جريدة خاك وخون/٢٤ بهمن ١٣٤٧) (المترجم) .

الحجة على ذلك ، ولولا هذا لأمرت بقتلك ، فأجاب ابن الراوندي : يجب تصحيح قولي بأن أعظم الأساطير في حياة الانسان هو تصوّره عن الخالق .

فسأله المتوكل : ما قصدك من هذا الكلام ؟

قال : إن تصوّرات الإنسان عن الخالق والمبدأ محاطة بالأوهام والأساطير ، لأن فكر الانسان يعجز عن إدراك الخالق أو معرفة أوصافه .

فقال المتوكل : إنني أقبل منك هذا الرأي والتوضيح ، لكن عليك أن تضيفه إلى كتابك وتسجلّه بنفسك .

واستطرد ابن الراوندي يقول : من أعظم الأساطير في حياة الإنسان تلك الصورة التي يرسمها الإنسان بوهمه عن الخالق .

قال المتوكل : فإذن أنت تعترف بوجود الله ، وتراه خالق كل شيء ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين . أعترف بذلك .

فأخذ المتوكل يسأله عن النقطة الثالثة في كتابه (الفرند) ، التي تدور حول النبُّوة وإرسال الرسل ، وكان بعض الشيعة قد تصدى للردّ على ابن الراوندي حول هذا الموضوع ، ولكن المتوكل كان خالي الذهن عن ذلك .

وكان ابن الراوندي قد طعن في حجة المتكلمين حين أقاموا البرهان على وجوب إيفاد الرسل لإرشاد الخلق وهدايته ، قائلاً : ليس بواجب على الله أن يرسل الرسل أو يبعث أحداً من خلقه ليكون نبيّه ويرشد الناس إلى الصواب والرشد ، لأنَّ في قدرة الله وعلمه أن يجعل الإنسان يرقى ويمضي إلى رُشده وصلاحه بطبعه ، كما خلق الشجر والنبات وهي تنمو وتثمر دون أن يجعل لها نبيّاً .

فقال المتوكل : أنت أنكرت ضرورة إرسال ومهمة الأنبياء ، وأنت بهذا تنكر أصلاً من أصول الإسلام ؟

وعلى الفور انتقل ابن الراوندي إلى ما كتبه بعض الشيعة في الردّ عليه ، وبدأ يوضّح للخليفة أنه يقصد من هذا الكلام الردّ على المعتزلة ، وأنه لا يشك في أن الإنسان يختلف عن الحيوان والنبات ، وأنه بحاجة إلى رعاية وتربية منذ الولادة إلى آخر يوم من أيام حياته ، وأن الإنسان خُلق ليعيش مع غيره ويستأنس بمثله ، يقتدي به ويقلّده ويأخذ عنه ، ومن مُقتضى العقل أن يكون الأخذ والتقليد من الإنسان الكامل ، فكيف لو كان نبياً مرسلاً ؟ وهكذا ينتظم المجتمع الإنساني ، ويرقى الإنسان ويسير نحو الكمال .

فقال الخليفة : فإذن أنت مقر برسالة الأنبياء والكتب المرسلة ؟

قال ابن الراوندي : نعم .

فطلب منه الخليفة أن يسجّل هذا بخطّ يده ، ففعل .

الموت في رأي ابن الراوندي

من المسائل الهامة التي تعرض لها ابن الراوندي في كتابه (الفرند) مسألة الموت ، وقد استثار هذا الرأي انتباه المتوكل ، فسأله : ما معنى هذا الكلام الذي تنسبه إلى الحكيم فيثاغورث حيث يقول : « ما دمت موجوداً ، فلا موت ، وإن جاء الموت ، فلا وجود لي ، فلا داعي إذن للتفكير في أمر ليس لي به شأن وأنا حيّ ؟ » أو ليس هذا هو كلام المشركين الذين ينكرون حقيقة الموت والبعث ؟ أو ليس هذا كلام حكماء اليونان الملحدين ؟

فأجاب ابن الراوندي قائلاً : يا أمير المؤمنين ، لم أحاول أن أطرح

هذه المسألة من الناحية الدينية ، وإنما أوردت آراء الحكماء السابقين في الموت ، وكيف أن سرّ الموت لا سبيل إلى معرفته ، فالإنسان منذ ما خُلق وهو يبحث عن سرّ الموت لكي يحول دون وقوعه ، فأخفق حتى الآن في هذا السعي ، وقد لا يوفّق في الإهتداء إلى سرّه إلى الأبد .

فقال المتوكّل : إذا عرف المرء كيف يحافظ على توازن جسمه ، وكيف ينهار هذا التوازن ، فلعله يعرف سرّ الموت ويحول دون وقوعه .

فدهش ابن الراوندي لذكاء المتوكّل ودقّة تعبيره ، وعقّب عليه قائلاً : يا أمير المؤمنين ، هذه وظيفة الأطباء الحكماء والمتكلّمين .

فقال المتوكل : إن التحقق من سر الموت ومعرفة مصير الإنسان لا ينحصر في الاطباء وحدهم ، لأن لعلماء الدين والتفسير دوراً أهمّ في معرفة سر الموت من خلال تفسير الآيات القرآنية ، وتدبّر معانيها وما ترمز إليه .

ويُفهم من كلام المتوكّل هذا أن المسلمين كانوا في هذه الحقبة التاريخية يعتقدون بأن للآيات القرآنية معاني ظاهرة ودلالات خفيّة أو معاني باطنية ، وأن استكناه المعاني غير الظاهرة ليس في مقدور أي مسلم أو أي إنسان .

ومنذ ما ظهر الاعتقاد بالوجه الظاهري والوجه الباطني للآيات القرآنية في مطلع القرن الثاني الهجري ، وهذا الاعتقاد آخذٌ في الاتساع ولا سيّما في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، حتى لقد ظهرت فرقة إسلامية عرفت بـ « الباطنية » ، لأنها كانت تفسر الآيات القرآنية وتؤولها بمعانيها غير الظاهرة .

ويتصور البعض أن الشيعة وحدهم هم الذين يعتقدون بوجود معانٍ باطنية أو غير ظاهرة للقرآن الكريم ، في حين أن هذا الاعتقاد كان شائعاً

لدى المسلمين منذ القرن الثاني للهجرة ، وكانوا يستشهدون على وجود المعاني الظاهرة والباطنة بآية قرآنية تشير الى هذا[1] .

وكانوا يعتقدون كذلك بأن لكل من يعرف المعاني الباطنية والخفيّة في القرآن الكريم مرتبة تدنو من مرتبة النبي (ص) ، لأن النبي (ص) كان يعلم حقائق القرآن بالوحي ، فإن عرفها غيره كانت له مرتبة رفيعة في العلم . ومن رأي الشيعة أن الأئمة كانوا يعرفون حقائق القرآن بفضل اقترابهم من الرسول (ص) وتوارثهم لعلمه وفضله .

وكان لابن الراوندي آراء في الموت تسترعي الاهتمام وتثير الدهشة ، منها قوله في نظرية له بأن (الناس جميعاً لا يعلمون كيف يموتون ،ولو جرّب الإنسان الموت ما أدركه أو عرفه حقّ المعرفة ، وان معاينة موت الآخرين لا تعلّم الإنسان شيئاً عن أسرار الموت) .

وله نظرية ثانية تقول : (لا يسع أحداً أن يعدّ نفسه ميّتاً ، لأن هذه الحالة تستحيل مع الحياة ، لأن المرء إن تخيّل أو ظن بأنه ميّت ، كان هذا التخيل أو الظن في حدّ ذاته دليلاً على أنه حيّ وليس بميت ، لأن التفكير والتخيّل والظن هي من خصائص الأحياء) .

ومؤدى نظريته الثالثة أنه (لا يسع أحداً أن يشعر بعد موته بأنه جسد ميت ، لأن هذا الشعور يتنافى مع الموت الحقيقي الذي يموت معه كل شعور أو احساس) .

ويضيف ابن الراوندي إلى ذلك قائلاً (إن الميت ينسلخ من شعوره الباطني أو ضميره ، لأن الضمير من خصائص الحياة . ولو ان ميتاً عرف

---

(١) الآية المقصودة هي السابعة في سورة آل عمران وقد جاء فيها : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ .

نفسه ، وشعر بأنه في حالةٍ معينـة ، لكان معنى ذلـك أنه ليس بميّت ، لأن الميّت لا يشعر بشيء ولا يفطن الى مَنْ حوله ، ولا يعـرف أهله والمجتمعين من حوله ، ولا يشعر ببكاء الغير على فقـدانه ، ولـو حدث شيء من هـذا القبيل ، لكان غير ميت) .

وتقول النظرية الرابعة لابن الراوندي إنه (لا يسـع الميت أن يتصور نفســه في العالم قبـل الموت ، ولـو مات أبـو الحسن (كنيـة ابن الـراونـدي نفسه) ووُضع في قبره ، لم يتأتَّ لهذه الجثة الهامدة أن تتصور نفسها في عالم ما قبل الموت ، أو أن تشعر بأنها أبو الحسن) .

وأمـا النظريـة الخامسـة لابن الراونـدي ، فمؤدّاها (أن النـظريات الأربع التي سبق ايرادها مستمدة من كون الانسان عـاجزاً عن إقنـاع نفسه بأنه سيموت ، وبأنه سينعدم من هذا الوجود ، فلدى الإنسان شعـورٌ بأنـه لن يمـوت أبداً ، وأنـه حين يثـوى في قبره سيعيش ويبقى حيّـاً ، وإن يكن ذلك بطريقة أخرى وبنشأة تختلف عمّا كان عليه في هذه الدنيا) .

ومما يعزز هذا الاعتقاد أن الإنسان يرقد نائـماً في كل يـوم ثم يصحو من نـومه ، ممّـا يجعله يعتقد بـأن الموت شبيـه بالنـوم ، وبأنـه سينهض منه كـما ينهض كـل صباح من نـومه ، ثم إن الأحـلام التي يراهـا النائم تعـزز هذه الفكـرة بـدورهـا وتـطرد من مخيلتـه فكـرة المـوت أي العـدم) ويقـول ابن الراوندي في كتابه (الفرند) : (إن الإنسان قد يرى نفسه ميتاً في الحلم ، في حين هو حي ، فيزيده ذلك اعتقاداً بأن حالة النوم لا تختلف عن المـوت في شيء ، وبأن الموت شبيه بالنوم الطويل العميق ، وبأن الإنســان الراقـد في سُبات الموت يعرف نفسه ويرى ما حوله ويدرك ما يجول في خاطره .

ولكن الواقع خـلاف ذلك ، لأن الجسم البشـري متى فارقتـه الروح وأدركه الموت ، يفقد كل شعور وإحساس ، ثم تدبُّ فيه عناصر البلى شيئاً

فشيئاً ، ويتحول إلى عناصر وأجسام أخرى ، كما أن الشعور والأحلام والخواطر إن هي إلا من فعل الجسم البشري الحي) .

وفي هذا المقام يستشهد ابن الراوندي بما درج عليه المصريون القدماء من تحنيط أجساد الموتى اعتقاداً منهم بأنهم عائدون إلى الحياة من جديد ، ولهذا فإنهم كانوا يحاولون الاحتفاظ بالجسم سليماً ليتسنى للروح العودة إليه بعد ذلك متى أرادت . ولكنه يأخذ على المصريين تجريدهم أجسام الموتى المحنطة من الامعاء والقلب ، قائلاً : كيف لجسم كهذا أن تدّب فيه الروح متى عادت إليه مرّة أخرى ؟

هذه طائفة من الآراء الجريئة التي نادى بها ابن الراوندي وأحدثت ضجّة كبيرةً في بغداد كادت تنتهي بقتله بتهمة الإلحاد والكفر ، لولا توبته في محضر الخليفة المتوكل .

الأدب عند الإمام الصادق "ع"

تطرّقنا في ما سبق إلى تاريخ ابن الراوندي في عاصمة الخلافة العباسية ، متوخّين من ذلك تجلية معالم المدرسة التي أنشأها الإمام جعفر الصادق (ع) وأعلى فيها مكانة الحرية في التعبير عن الرأي وإجراء البحوث ، حتى أن الذين عارضوا آراء هذه المدرسة لم يتعرضوا لأدنى أذى أو تهديد بسبب إتيانهم بآراء معارضة .

وها هوذا ابن الراوندي ، كتب وألّف ونشر آراءه الشاذّة في مناطق الشيعة فلم يلحقه أي أذى ، وكان قُصاراه أن العلماء انبروا لنقد آرائه والردّ عليها بالأسلوب العلميّ ، مع أن هذه الآراء هي عينها التي جلبت عليه المخاطر في عقر دار الخلافة العباسية مرتين ، مرةّ من جانب الخليفة العباسي ، ومرة من جانب الفرق الدينية المتزمتة ، ولولا تدّخل صاحبه عباس الصرم الورّاق ، لحكم عليه بالموت .

وكان من أسباب استمرار الثقافة والمعارف الجعفرية وقدرتها على تخطي المراحل الصعبة أن هذه المعارف قامت على أصول أربعة ، أولّها هو الدين أو المذهب فهو ركنها الركين ، أما الأركان الأخرى فهي الأدب ، والعلم ، والعرفان .

ولا نعرف في تاريخ الأديان في العالم مذهباً أو ديناً اهتم إلى جانب أمور العقيدة بأمور الأدب والعلم اهتمام المذهب الجعفري بهما . بل بلغ الاهتمام بالأدب في مدرسة جعفر الصادق (ع) مبلغاً جعل الباحثين يتساءلون عن أيهما كان الأهم عند الإمام : الأدب أم المذهب ، والعلم أم الأدب ؟

وكان من رأي الإمام الصادق (ع) أن العلم والأدب يعمّقان إيمان المؤمن ، وأن قيمة كل امريء ما يُحسنه . وكان يقول إن إيمان العالم أعمق من إيمان العاميّ ، وإن العاميّ لن يعرف حدود إيمانه ، ومبدأه ومنتهاه ، ولن يسلم من التغيير والتبديل إلاّ إذا تعلّم وأصبح إيمانه إيمان علمٍ ووعي وفهم وإدراك .

وضرب الإمام للناس أمثلةً استقاها من التاريخ ، فقال إن الإسلام انتشر في ربوع الأرض انتشاراً سريعاً ودخله الناس افواجاً ، ولكن أهل العلم والأدب في الأمم الأخرى تريثوا حتى استيقنوا من حقيقة الإسلام ، وعرفوا نُظمه ، واتضحت لهم مزاياه الاجتماعية والمعنوية ، ثم أقبلوا عليه وسخروا ملكاتهم العلمية في استيعاب الدين وعلوم القرآن وفهمها ونشرها(*) .

وتعريف الأدب عند الإمام الصادق (ع) تعريف فريد ليس له مثيل . فهو يقول إن الأدب هو لباس العلم والفكر الذي يقرّ بهما من فهم السامع والقاريء ، وبهذا التعريف وضع الأدب في موضعه الحقيقي ، دون أن ينتقص من منزلة العلم والفكر . فللعلم قيمته ، وللأدب زينته ، وهو الوسيلة التي تقرّب العلم إلى الأذهان .

(*) وهذا ما نشاهده فعلاً حتى في عصرنا الحاضر فهذا روجيه غارودي مثلاً . .

وهذا أشمل تعريف للأدب منذ اثني عشر قرناً ونصف قرن ، أي منذ وفاة الإمام الصادق (ع) ، فلم يأت أحدٌ بتعريفٍ أجمع منه أو أوجز .

وللإمام تعريف آخر للأدب مؤدّاه أن الأدب قد لا يكون علماً ، ولكن لا علم يخلو من أدب ، وهذا بدوره تعريف جامع موجز أيضاً لعلاقة الأدب بالعلم .

وليس في وسعنا أن نجزم بأي الموضوعين كان أعزّ على الإمام وأقرب إلى قلبه : العلم أو الأدب ، ولا يسعنا أن نعرف هل كان الإمام مثلاً يفضل الشعر على الفيزياء ، أو نقيض ذلك .

والذي نراه في مجتمعنا الحاضر أن قلّة من الناس هي التي يتساوى عندها حبُّ العلم وحب الأدب ، أما الأكثرية فينصرف اهتمامها إما إلى العلم وإما إلى الأدب . والذي ينهج نهجاً أدبياً ، يرى في غيره قوماً ماديين لا يستهدفون إلّا غايات مادية(*) ، ولكنه يرى في الأدباء قوماً رقّ ذوقهم ولطف تفكيرهم وتميزوا على غيرهم بقوة الخيال وشفافية الذوق ودقة الفهم .

أما الذي ينهج نهجاً علمياً ، فهو يرى في الأدب ملهاةً ومسلاة ، ويعتقد أن الانصراف إلى الأدب ليس من دواعي العقل السليم ، لأن الأدب لا يُشبع من جوع .

وليس يهمنا رأي شاذ تقول به فئةٌ من الناس انحازت إلى العلم ، حتى قبل عصر المخترعات والصناعة ، فلما تمخض العلم عن الصنعة ، وجلبت الصنعة ثروات طائلةً لهؤلاء القوم ، استهانوا بالأدب ، وفضّلوا عليه العلم .

(*) بمعنى أنهم لا يهتمون بالقيم الجمالية التي تبثها الآداب في النفوس . . .

أما الإمام الصادق (ع) فقد كان من القلائل الذين أولوا العلم والأدب اهتماماً كبيراً ، واستوى عندهم طالب العلم وطالب الأدب . وكان يقول :

ليس اليتيم الذي قد مات والده * إنّ اليتيم يتيم العلم والأدب

وكان العرب قبل عصر الإمام الصادق (ع) يعنون بالأدب الشعر ، وهناك آثار من الأدب المنثور نلمحها في العصر الجاهلي(١) ، ولكن الآثار الأدبية المنثورة كانت قليلة في القرن الأول من تاريخ الإسلام ، باستثناء ما أبدعه المسلمون في هذه الفترة ، وفي طليعتهم الإمام علي (ع) ، الذي كان من امراء النثر ، وكانت خطبه في المناسبات المختلفة ذروةً في البلاغة النثرية . وقد قام واحد من أحفاده بجمع خطبه في كتاب أسماه « نهج البلاغة »(*) .

وبفضل الإمام الصادق (ع) وتشجيعه للأدب عند العرب ، ظهرت كتابات منثورة اعتباراً من هذا العصر .

وقد قيل إن الإمام الصادق (ع) هو أوّل من رصد جائزةً أدبية في تاريخ العرب ، ولكن إذا كان المقصود بالجائزة الأدبية هو إعطاء الأديب أو المؤلف مبلغاً من المال ، فإن جائزة الإمام (ع) تختلف عن ذلك ، لأن العرب اعتادت منح جوائز إلى الشعراء وتقريبهم من الحاكم ، وهي عادة استمرّت بعد الإسلام ، فكان الشعراء يمدحون الولاة تقرّباً منهم .

---

(١) في العصر الجاهلي خطباء اشتهروا بالفصاحة والبلاغة ، واحتفظ التاريخ الأدبي بمقتطفات من خطبهم وأحاديثهم ، ومنهم قس بن ساعدة وقد عاصر الرسول (ص) .
ولعل المؤلف يقصد أنهم لم يتركوا مؤلفات وآثاراً أدبية منثورة بالقدر الذي خلفه الشعراء . (المترجم) .

(*) هو السيد الشريف الرضيّ الشاعر الأديب محمد بن الحسين بن موسى من أحفاد الإمام الكاظم عليه السلام توفي سنة ٤٠٦هـ .

ولكن العرب لم تألف تقريب أصحاب الأدب المنثور أو مؤلفي الدراسات الأدبية أو التاريخية إلى الولاة . وهنا جاء صنيع الإمام الصادق (ع) صنيعاً مقدّراً .

والذي لا ريب فيه أن الإمام الصادق (ع) شجّع الأدب بنوعيه المنثور والمنظوم ، وعيّن جائزة له ، ولكننا لا نعلم على وجه اليقين هل كان هو البادىء بهذا أو أبوه الإمام الباقر (ع) .

وكانت هيئة التحكيم تتألف في بادىء الأمر من الإمام نفسه واثنين من تلاميذه ، ثم أصبحت تتألف من خمسة أعضاء ، وتُعطى الجائزة باتّفاق ثلاثة منهم .

وكان من عوامل انتشار الأدب وذيوعه في أيام الإمام الصادق (ع) أن الإمام لم يكن يفرض على الناس رأياً بعينه أو اتجاهاً منصوصاً عليه في الكتابة . فكان الأديب يختار الموضوع الذي يتفق مع رغبته وذوقه ، كما كان الإمام من ناحيته يرحّب بالأثر الأدبي ، منثوراً أو منظوماً ، ويتقبله برحابة صدر وإنعام نظر .

وفي رأيه أن الأديب هو الذي يُبدع أثراً في النظم أو النثر يتفق مع تعريف الإمام (ع) للأدب ، وليس كل ما أوتي قدرةً على ارتجال القصائد أو الخطب أو المواعظ ، كما كان يرى أن الأدب ضرورة للثقافة الدينية ، بل هو ضرورة لتعزيز مكارم الأخلاق في نفوس الناس وإعلاء شأنها والسموّ بها(*) .

وكان من رأي الإمام جعفر الصادق (ع) أن نشر المعارف الشيعية

(*) أي أن للأدب ـ في رأي الإمام الصادق عليه السلام ـ مهمة أو دوراً في المجتمع فهو الأدب الملتزم بقضايا هذا المجتمع والساعي إلى تطبيق القيم ومكارم الأخلاق فيه لضمان سعادته .

التي أقيمت أركـانها عـلى أربـع دعـائم ، هي المـذهب والأدب والعلم والعرفان ، أهم من بناء مراكز وإقامة مؤسسات ضخمـة للشيعة ، كـما هو الشأن عند الكـاثوليـك مثلاً . وكـان يرى أن المجتمـع الذي يتحـلّى افراده بالعلم والأدب ، والذي يبرأ من الظلم والعـدوان على حقـوق الغير ، هـو المجتمع الذي تنتظم فيه العلاقات بـين أفراده ، وتـطّرد أمورهم في سهـولة ويسر .

ولهذا لم يشيّد الإمام الصادق (ع) لأتباعه مـركزاً ضخـماً أو صرحـاً باذخاً ككنيسة القديس بطرس[1] في الفاتيكان ، ولكنّ الرصيد الذي خلّفه من التراث الثقافي كان أدعى إلى الاستمرار والحيوية من الصـروح البابـوية الباذخة ، فقد كان يدرك أن المشيدات من الأبنية قد تنهدم ، كما كان مصير المبنى الأول لكنيسة القديس بـطرس ، ولكن المعارف والعلوم الشيعيـة التي أرسى الإمام قواعدها قويت رغم جميع المناوئين والمعارضين .

وقد شيدت كنيسة القديس بطرس للمرة الأولى بأمر من الامبـراطور قسطنطين الروماني ، وكان أول امبراطور مسيحي ، واستغرق بناؤ ها عـدة سنوات منذ شرع فيه عام ٣٢٦ م ، ولم تلبث هذه الكنيسة أن هُدمت بـأمر

---

(١) كنيسة القديس بطرس الشهيرة في الفاتيكان بروما وتُعـرف في الفرنسيـة بسان بيـير ، وفي الايطالية بسنت بطر وباللاتينية بسانكته بطروس هي أعظم كنائس العالم وأجملهـا ، ويقع المقر البابوي بالقرب منها ، ويزورها كـل عام مـا لا يقل عن ١٥ مليـون زائر من جميـع أنحاء العالم ، ومنذ أربعمائـة عام وهنـاك هيئة فنيـة قوامهـا أكثر من ٥٠ شخصـاً تعمل بمعـاونة نحـو مائـة عامـل في صيانـة هذا الأثـر الفني العظيم وتـرميمه وتجـديـده بصـورة مستمـرة ، وتسمى هذه الهيئـة بالايـطالية « سـام بيـه تـرى » ، وهي تضم مجمـوعـة من المهندسين المعماريين الايطاليين ، وهذه الكنيسة التي استغرق تشييدها ١٢٠ عاما ، تمثل الـطراز المعماري لعصـر النهضة في أوروبـا عامـة وإيطاليـا خاصـة ، وحرصـا من الدول المحاربة على هذا الأثر الباذخ ، امتنعت أمريكا وبـريطانيا عن ضرب رومـا بالقنـابل في الحرب العالمية الثانية .

من البابا يوليوس الثاني ، وشَيدت في مكانها الكنيسة الحالية ، وهي بدورها تحمل اسم القديس بطرس .

ولو انصرف اهتمام الإمام الصادق (ع) إلى بناء العمائر أو المدارس العظيمة المشيدة ، لكان من الميسور هدمها بفعل الأحداث أو المناوئين ، ولاندثرت آثارها في يومنا الحاضر . ولكنه آثر أن يرسي أساس ثقافة دينية لا تزعزعها الأعاصير ، فطاولت الزمن ولم يقو المناوئون على القضاء عليها . وحرص الإمام على توطيد أركان الدعائم الأربع التي سبق ذكرها ، بحيث أن القرن الثاني الهجري لم يكد ينقضي حتى انتشر العلم والأدب في ربوع العالم الإسلامي ، وانطلقا به إلى عصر النهضة .

فلولا مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) ولولا تشجيعه الشخصي لجميع جوانب العلم والأدب ، لما ازدهرت العلوم في العالم الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، وأن الذين ينسبون إلى الخلفاء العباسيين فضلاً في الازدهار الذي عرفته العلوم في العالم الإسلامي آنذاك ، يخطئون في تقديرهم وحكمهم ، لأن الخلفاء العباسيين الأوائل كان همهم الشاغل توطيد أركان حكمهم والقضاء على الأمويين وخصومهم ، أما الخلفاء الذين أتوا من بعدهم ، فلم يُعرف عنهم إلا الإنغماس في الملذات والفسق والشراب ومجالس اللهو واللعب ، مما استفاضت أخباره في كتب السير والتاريخ ، ولئن نُسب إلى المأمون والمتوكل اهتمامهما بالعلم ، فأن هذا لم يشغل من وقتهما إلا جانباً صغيراً ، وإن قلّة قليلة من مجموع الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين الذين تداولوا الحكم في معظم العالم الإسلامي طوال خمسمائة عام هي التي عزفت عن الملذات وانصرفت إلى العلم والأدب . وقد اضطلعت هذه القلّة القليلة بدور كبير في تطوير العلوم والحضارة الاسلامية ، بفضل ما توافر لها من الإمكانيات المادية الضخمة

التي مكنتها من تقديم الهبات والعطايا السخيّة إلى العلماء والشعراء والأدباء ، واجتذابهم من أقطار الأرض وتشجيعهم على التأليف والاستنساخ ، فضلاً عن قيامهم بتأسيس دار الحكمة في بغداد .

ومّا يذكر أن العرب في الجاهلية(١) كانت لهم عناية فطرية وتقليدية بالشعر ، أي الأدب المنظوم .

يقول الفيلسوف الألماني شوبنهاور(٢) إن البدويّ العربي كان يستمع إلى إنشاد المقطوعات الشعرية فراراً من الكسل وتزجيةً للوقت .

وهذا الرأي لا ينسحب على العرب وحدهم ، وإنما ينسحب على الناس جميعاً ، لأن شوبنهاور كان يقول بأننا إذا استثنينا الوقت الذي يصرفه المرء في تحصيل الكسب ، فإن كل الجهد الإنساني إنما ينصرف إلى الاهتمامات الشخصية وإزجاء الوقت .

وقد علّق هذا الفيلسوف فوق مكتبه لوحةً كُتبت عليها عبارة « عدّوك من دعاك إلى غداء أو عشاء ، فمنعك بذلك عن العمل » . ولا

---

(١) يقول أحمد أمين في كتابه « ضُحي الاسلام » عند عرضه لخصائص الأمم الإسلامية ومميزاتها : « اشتهر العرب مثلاً بالقدرة على الشعر ، حتى قال أحمد بن أبي دؤاد : ليس أحد من العرب إلا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً رُكبٌ فيهم ، قلّ أو كثر » . (الأغاني جزء ٢٠ ص ٥١ ، ضحى الإسلام ج ١ ص ٥/دار الكتاب العربي بيروت) .

(٢) آرثر شوبنهاور Schopenhauer (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠ م) فيلسوف الماني ولد في مدينة دانتزيغ ، واشتهر بمذهبه الفلسفي المتشائم ، إذ أنه قال إن الالم رفيق دائم للإنسان في كل حياته ، ما دام الإنسان عاجزاً عن تحقيق جميع رغباته ، ولا خلاص للمرء من الآلام إلى آخر لحظة من عمره . وأشهر مؤلفاته كتاب عنوانه (دنيا الرغبة والتأمل) أو (عالم باعتباره إرادة وفكرة) . وفي عُرفه أن قيمة الإنسان الحقيقية كامنة في الأخلاق ، وما الأخلاق إلا إحساس بآلام الغير . وهو لا يرى للأدب أو للعلم قيمة ، إذ يقول أن الانسان إذا تألم في بطالته وفراغه توسّل بالأدب والعلم ليملأ هذا الفراغ ، وتوسل بهما أيضاً من قبيل التفاخر بذلك على عُقدة النقص والدونيّة فيه .

يسعنا إلا أن نقول بمنطق شوبنهاور نفسه إنه اشتغل بالفلسفة فراراً من البطالة ، ذلك لأنه كان يدّرس الفلسفة ويرتزق منها .

كان ديدن الشعراء العرب في الجاهلية وما بعدها التقرّب من رؤساء القبائل والأمراء ونظم قصائد المدح فيهم ، ولكن شعراء الجاهلية كانوا يتوّخون الاعتدال في المديح ولا يذهبون في المغالاة مذهب الشعراء الذين جاءوا بعدهم في العصر الإسلامي والعصور المتأخرة .

ويعتقد البعض بأن أسواق العرب كعكاظ وسواها كانت مقصد الشعراء طمعاً في الأموال والهبات ، ولكن الواقع أن هذه الأسواق كانت منصوبةً لخدمة الأدب ، وكان لها دور ثقافي واجتماعي هام في حياة العرب . وكان الشعراء يتسابقون في نظم قصائد التفاخر أو المديح أو الهجاء تحقيقاً لمآرب لا طلباً للعطايا والهبات .

ولكن هذه الأسواق لم تعرف إلا قصائد الشعراء وكلامهم المنظوم . أما الخطباء الذين ينثرون الكلام نثراً أو يجوّدون العبارة تجويداً ، فلم تكن أسواق عكاظ وسواها تعرفهم ، لأن النثر كان أدنى منزلةً من الشعر .

فلمّا جاء القرآن الكريم في لسانه المبين ، أقام البرهان للعرب على أن الأدب المنثور قد ارتقى إلى قمة فاقت الأدب المنظوم ، وحاول العرب تحدي لغة القرآن ، فكتبوا (مقامات) تنكّبت طريق الجدّ ، ولكنهم أخفقوا في مساعيهم ، وأصبحت اللغة القرآنية إعجازاً في البلاغة ، ونموذجاً رفيعاً في الفصاحة ، يُستشهد بآياته وتُستخرج منه الحكمة والأمثال في السياق الأدبي وفي السياق الديني في آن واحد .

ويُعد القرآن الكريم أصلاً من أصول اللغة ، بأسلوبه النثري الرائع ، ولا غنى لأديب أو كاتب عنه لأنه أروع آيات البيان ، وقد عجزت العرب عن الإتيان بمثله أو محاكاته . فلمّا جاء الإمام علي بن أبي طالب

(ع) وحفيده علي بن الحسين (ع) اجتهدا في اصطناع أسلوب قرآني بلاغيّ فريد ، فترك الأول مجموعة خطبه مسجلة في كتاب « نهج البلاغة » ، وهي فصول في الموعظة والحكمة والسياسة والأدب ، وترك الثاني كتاب « الصحيفة السجادية » وهو يضم أروع النماذج في الدعاء والابتهال إلى الله ومناجاة الحبيب ، مما يردده كل عارف بالله وزاهد وصوفيٍّ (حقيقي) .

ثم جاء الإمام الصادق ، حفيد علي بن أبي طالب (ع) فشجع الناس على الكتابة ، ودفع تلاميذه وأصحابه إلى التأليف والتصنيف ، فاستهل بذلك عهداً جديداً من عهود الأدب المنثور ، ولا غرو ، فقد مرّ بنا قوله :

ليس اليتيم الذي قد مات والده   إنّ اليتيم يتيم العلم والأدب

نقد التاريخ عند الإمام جعفر الصادق (ع)

النصوص الأدبية هي تراث منسوب إلى ذويه يتقبله الناس جيلاً بعد جيل دون أن يحاولوا التصرّف فيه أو تغييره ، لأنه أدب باقٍ له خصائصه الذاتية ، ومن هذه الشاكلة شعر الشاعر الإنجليزي شكسبير الذي طاول الدهر ، وهو محتفظ بجميع خصائصه .

أما التاريخ ، فهو وإن كان بدوره علماً منقولاً ، إلاّ أنه لا يكتسب حصانة التراث الأدبي ، ولا بد للمؤرخ الناقد من إخضاعه للعقل والمنطق لمعرفة وجه الحق ووجه الزيف فيه ، ومن ذلك مثلاً تاريخ موقعة واترلو(*) وما كُتب عنها من وجهات النظر المختلفة .

(*) واترلو Waterloo في بلجيكا ، هزم عندها نابليون الأول في حربه مع الانجليز وحلفائهم سنة ١٨١٥ م .

وقبل أكثر من اثني عشر قرناً أمر الإمام جعفر الصادق (ع) بتحكيم العقل في تناول القضايا التاريخية ومعرفة حظها من الصحة أو الزيف ، وهو في هذا يطبق المناهج التي يطبقها المؤرخ الناقد في عصرنا الحالي .

ومما قاله المؤرخ اليوناني هيرودوت في مقدمة كتاب له (إن كل ما لا يقبله العقل لا يلقى منه قبولاً) ومع ذلك أورد هيرودوت في تاريخه أساطير لا يقبلها العقل .

وفي التاريخ الإسلامي يُعتبر الإمام الصادق (ع) أول من نظر في الروايات والتاريخ بعين النقد والتمحيص ، فكان بذلك قدوة وإماماً ومرشداً لإمام المؤرخين ابن جرير الطبري الذي آلى على نفسه ألّا يسجل إلّا الرواية الثابتة وإلا ما يقبله العقل ، وأنْ يهمل الأساطير والأسمار وما إليها .

وقبل الإمام جعفر الصادق (ع) كان علم التاريخ في المشرق خليطاً من الأحداث التاريخية الصحيحة والأساطير ، وبهذا الوضع تناقلته الألسنة جيلاً بعد جيل ، ومعروف أن الفترة السابقة على الإسلام انعدمت فيها الكتب المدوّنة في ما خلا ما سُجِّل من نقوش حجرية في حضرموت وبلاد الشام وبابل وأرض فارس ، وتناولت بالسرد وقائع وأحداثاً تاريخية ، وإن كانت هذه النقوش دُونت بلغات مهجورة .

وكان تاريخ الإمام الصادق (ع) خليطاً من أخبار الأمم وأساطيرها ، وكان النصف الأول من القرن الثاني الهجري أشبه بفصل الربيع للتأليف والكتابة ، فظهرت طائفةٌ كبيرةٌ من الكتب والمؤلّفات التي تتناول جوانب العلم والأدب المختلفة ، وإن لم يصلنا من كتب هذا العصر إلا القليل ، وقد عرفنا أخبار هذه الكتب من كتاب نفيس عنوانه

« الفهرست » وضعه الورّاق ابن النديم ، فدلّنا عليهـا وعلى أسـماء مؤلّفيها وموضوعاتها ، ومنها كتب السير والتاريخ .

وكان ديدن الإمـام الصادق (ع) في الحكم عـلى كتب التاريـخ وفي التشجيع على كتابتها ، اجتنـاب الأكاذيب والأسـاطير التي يـرفضها العقـل السليم .

ويقول شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد إن الإمـام جعفراً الصـادق (ع) كـان أول ناقـد للتاريـخ ، وأول من وضع هـذا الإسم لهذا العلم ، فلم تكن للعـرب كُتب منشـورة تحمـل إسم التـاريـخ ، وكـانت الأحـداث التـاريخية تسجَّـل في قصائـد الشعراء المنظومة لأغـراض شتى ، وليس من أهدافها المتوخاة تسجيل أحداث التاريخ ، إذ أن وقـائع التاريخ كانت ترد في القصائد عَرَضاً . وبعد مجيء الإسلام ، بـدأ تسجيل أحـداث التاريـخ ووقائعه ، وكان يُطلق عليها اسم كتب السير أو السيرة أو الرواية .

وكـان من رأي الإمام الصـادق (ع) أن اختلاط التـاريخ بـالخرافـة والأسـطورة يُفقـده أثـره من حيث استمـداد العبـر واستخـلاص المـوعـظة والدرس بغية اجتناب أخطاء السلف .

وهكذا أكسب التاريخ فائدةً اجتماعيةً أخلاقية تنأى به عن مقاصد التسلية وإزجاء الوقت.

وها نحن في يومنا المعاصـر نقرأ التـاريخ لـلاستفادة بـدروسه وعبـره واجتناب الأخطاء التي تورّط فيها السابقون .

وكان العالم النفسي النمسوي (فرويد)(×) يؤمن بأن للتاريخ فـائدةً

(×) فرويد : سيجموند Freud طبيب نمساوي أسس مدرسة (التحليل النفساني) ويعطي في =

في استقاء العبرة ، ولكنه كان يضيف إلى ذلك أن الغرائز البشرية تحول دون اتعاظ الإنسان بدروس التاريخ واعتباره بأحداث الماضي ، لأنّ حب الذات والاستبداد بالرأي يورثان المرء اعتقاداً بأنه أسمى من أن يتورط في الأخطاء التي تورط فيها غيره ، ومن أن يتعرض لأسباب الفشل والإخفاق التي تعرض لها سابقوه ، بل إن المرء إذا استطاع التحلل من آثار هذه الغريزة ، لم يتعظ بدروس التاريخ .

ولا ريب في أن الفضل يُعزى إلى الإمام الصادق (ع) في وضع أساس المنهج النقدي في التاريخ الإسلامي ، بدعوته العلمية إلى نقد التاريخ وتخليصه من الأساطير والأباطيل .

وقد أوضحنا في ما سبق أن الإمام الصادق (ع) تلقى العلم في مدرسة أبيه الإمام الباقر (ع) ، وأحاط بكثير من ميادين العلوم ، فلما انتقل من صفوف الطلاب إلى مقام المدرس ، لم يكتف بما تلقاه من علوم ، وانبرى يستكشف كثيراً من الحقائق العلمية بنفسه ، أي أنه لم يحصر نفسه في دائرة العلوم التي أخذها عن مدرسة أبيه .

ومن هذه المعارف فرضية علمية هي أن الأرض ليست عنصراً بسيطاً ، ونظرية أخرى سبق أن أشرنا إليها وهي أن الهواء بدوره ليس عنصراً بسيطاً وأن فيه جزءاً يساعد على الاحتراق ويُحدث الصدأ في المعادن الصلبة . وهذه حقائق علمية توصّل إليها الإمام الصادق (ع) بعقله الوقّاد وذهنه الفيّاض ، فكان أوّل من أذاع هذه الحقائق العلميّة قبل أن تثبت بالتمحيص العلميّ (أي بعد اثني عشر قرناً من عصر الصادق (ع)) .

= بحوثه دوراً هاماً بل أهم الأدوار للعامل الجنسي في النفس الانسانية ـ ولد ١٨٥٦ م وتوفي ١٩٣٩ م .

وقد رأينا في الفصول السابقة أن الإمام جعفراً الصادق (ع) كان يذهب إلى أن للإنسان علمين ، علمٌ يكتسب بالعقل ، وعلم لا يُستطاع اكتسابه بالعقل ، وكان يقول إن لله خلائق أخرى تعيش في الكواكب والسماوات الشاهقة ، وهي تسبّح الله بلغةٍ لا نعرفها(*) ، ولعلها تكلّمنا دون أن نعرف لسانها .

فكان الإمام يعتقد اعتقاداً جازماً بوجود كائنات أخرى في الكواكب السماوية ، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الوجود الغيبي بكيفية أخرى ، إذ وضع في مقابل الإنسان ، وهو موجود حيّ يرى ويشاهد ، كائناً آخر أسماه الجنّ وهو لا يُرى ولا يشاهد . وقد وردت آية في القرآن تدل على أن الله سيجمع الإنس والجنّ معاً(1) .

ولكن لم يحدث قبل الإمام الصادق (ع) أن قال أحدٌ بأن الكائنات الموجودة في العوالم الأخرى التي لا تُرى ، تحاول الاتّصال بالبشر ولكن البشر لا يدركون كلامها ، ولم يتعرّض أحدٌ لهذا الموضوع بعد عصر الإمام وإلى القرن التاسع عشر الميلادي عندما درس العالم الفرنسي (كاميل فلاماريون) هذه القضية وساق نظريات هامّة بشأن اتصال الإنسان بالكائنات في الكواكب الأخرى ، دون أن يحقّق ذلك بالتجريب العلمي .

(*) هذا صريح نص القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ ـ الإسراء .

(1) في المعجم أن الجن هو ستر الشيء عن الحاسة ، وكل شيء سُتر عنك فقد جَنَّ عليك وجَنَّ عليه ، وأجنّه ستره . أما الآيات التي تشير إلى الجن والإنس فكثيرة منها ما جاء في سورة الأنعام ، الآية ١٢٨ : « ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس » ، ومنها ما جاء في سورة الأعراف ، الآية ٣٨ : « قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس » . (المترجم) .

وفي عـام ١٩٢٠ حاول العـالم الايطالي (ماركوني)(*) إخضـاع هذه النظرية للتجـريب العلمي ، فأعلن في لقـاءٍ له بضبـاط البحريـة الايطاليـة عقـد بإشـراف الميجر البحـري (كنت ميلو) أنه يتلقى من عـلى بـاخـرتـه إشارات رموزاً أثيرية ، ولا يشك في أنها مرسلة من كائنات ذكية فنانة تريد الاتصال بالكائنات على الكرة الارضية .

ولكن مـاركوني لم يستـطع التوسـع في تجربتـه المحدودة لأن المـراقب الحديثة لم تكن قد اخترعت بعـد ، كالمـرقب الأثيري ومـرصد (بـالومـر) الامـريكي الضخم الذي سعـة قطره خمسـة أمتـار ويستـطاع بفضله رصـد الشهب التي تبعـد عن الأرض بألفي مليـون سنة ضـوئية ، كـما أن المنـظار الفلكي الضـوئي لم يكن قادراً في ذلـك الوقت (عـام ١٩٢٠) على رصـد الكواكب خارج المجموعة الشمسية .

وقد تبين بعـد ذلك أن مـرصد (بـالومـر) نفسه ، بـرغم ضخامتـه وحسـاسيته ، عـاجز عن رصـد تحركـات الكائنـات الموجـودة في الكواكب الأخرى وأصواتها ، على الرغم من أن هذا المرصد الضخم قد رصد شُهُبـاً تبعد عن الأرض بألفي مليون سنة ضوئية ، وصوّرها كنقطةٍ بيضاء دون أن يوفق إلى تحديد حجمها وأهميتها(١) .

(*) ماركوني Marconui (١٨٧٤ ـ ١٩٣٧ م) فيزيائي ايـطالي وله في اختـراع اللاسلكي دور هام .

(١) بُـدىء العمل في صنـع عدسـة منظار مـرصد بـالومـر في سنة ١٩٣٦ ولم يتم إلا في سنة ١٩٤١ . وقـد احتاج الأمـر إلى انتقاء ـــور من نوع خـاص تم صهـرهـا تحت درجـة حرارة وصلت إلى ١٢٠٠ درجة . واقتضت أصـول الصناعـة تبريـد هذه المـادة المنصهرة بصورة تدريجية للتأكد من صفائها التام ، فلا تظهر فيها أي علامات أو نقط أو خطوط ، واستعين بجهاز تكثيف خاص للمحافظة على انتـظام درجة الحـرارة بحيث يتم إنقاصهـا درجةً واحدة في كل يوم . وقد استغرقت عملية التبريـد هذه ثـلاث سنين ومـائة وخمسـة =

. . . .

أيام . وبعدها شُرع في صقل العدسة وتشذيبها باستخدام مقياس دقيق إلى درجة مائة ألف ملليمتر . وانتهى العمل في المرصد في وقت كانت الولايات المتحدة قد دخلت فيه الحرب العالمية الثانية ، فانتفع به انتفاعاً كبيراً في الأغراض الحربية ، وكان هو المرصد الوحيد من نوعه في العالم .

ومع أن كثيراً من الدول الصناعية صنع أنواعاً شتى من الأجهزة الحساسة للكشف والرصد والبحث ، فإنّ مرصد بالومر الأمريكي بنظارته الضوئية الفريدة ما زال المرصد الوحيد من نوعه في العالم

الإنسان وخلقه في رأي الامام الصادق "ع"

كـان من رأي الإمام جعفـر الصـادق (ع) كغيـره من المسلمـين أن الانسان خُلق من تراب ، ولكن التوضيح الذي أتى به لم يقـل به غيـره من المسلمين لا قبله ولا بعده في العصور المتعاقبـة ، ولم يقم أحدٌ بشـرح أفكار الإمام الصادق (ع) بشأن الكيان البشري ومصدر كل حاسة وخواصهـا . فإنْ وجدنا شرحاً في العصور التالية للإمام، فهو من صُنع تلاميذه أو روّاد مدرسته .

يقـول الإمـام الصـــادق (ع) إن جسم الإنســان يتـــألف من نفس العناصر الموجودة في الارض ، ولكن بنسب متفاوتة ، فهناك عناصر توجـد في جسم الانسان بنسبة أكبر من نسبة وجودها في الارض ، وهناك عناصـر أخرى توجد بنسبة أقل منها . كما كان يقول إن هناك أربعة أشياء تـوجد في جسم الانسان بصورة أكبر من سواها ، كما أن هنـاك ثمانيـة اشياء تـأتي في مرحلة ثانية ، وثمانية أشياء هي أقل مما في القسمين الأولين .

ولا ريب في أن هـذه النظريـة غـريبـة وبعيـدة عن فهم الانســان في عصرنا الحاضر ، وإن المرء ليتساءل تلقاءها : هل كان للإمام الصادق علم

باطني (غيبيّ)(*) كما تقول الشيعة ؟ وهل استنبط هذه النظرية بعلم الإمامة دون العلم البشري ؟ .

وفي رأينا أن من العسير التوصل إلى مثل هذه الحقائق العلمية دون مختبرات علمية عصرية ، ولكن هذا هو ما تناهي إليه علم الصادق قبل اثني عشر قرناً . ولا غرو ، فالعباقرة أقدر من سواهم على استنباط ما تعجز عنه العقول ، لأن عيونهم تخترق الظلمات وترى ما لا يراه غيرهم من المبصرين .

وثمة نظرية مؤداها أن المعارف والمعلومات كامنة في الشعور الباطني للناس جميعاً ، ولكن هناك حجاباً يحول دون إدراك الشعور الظاهري لما هو كامن في الشعور الباطني غير المحدود ، فإن استعصى على الانسان العادي أن ينتفع بهذه الذخيرة المدّخرة في باطنه فإن العباقرة قادرون على النفاذ إلى الباطن واستنباط ما هو مدّخر فيه من معلومات ومعارف كامنة .

وقد ذهب الفيلسوف هنري برجسون[1] إلى القول بأنه كما أن الذرّة

(*) علم لدنّي نسبة إلى .

(1) هنري برجسون Henry Bergson (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) م فيلسوف فرنسي دافع عن نظريتين في الفلسفة ، أولاهما نظرية élan Vital أي اندفاعة الحياة ، وثانيتها أن الزمان يمكن معرفته واستنباطه من خلال توالي الاحداث ، ومن مؤدي النظرية الأولى أن الانسان يكتشف كل مجهول بفهمه الخاص إذا كانت لديه اندفاعة حياة ، وأن حظ العباقرة من هذه الاندفاعة أكبر من حظوظ سواهم . ومن مؤدي النظرية الثانية أن الزمان لا يدرك أو يقاس أو يُحصر إلا بتسلسل الوقائع والاحداث ، ولولا هذا التسلسل لما أدركنا الزمان .

وعندما تنتهي الحياة بالموت ، يفقد الانسان قدرته على متابعة توالي الاحداث ، وتتساوى عنده الثانية والملايين من السنين (هذا طبعاً إن كان ذا شعور) .

والقول بعدم إدراك حقيقة الزمان لولا توالي الأحداث وتسلسلها قد انتهى إليه آخرون غير برجسون . فأينشتين ومينفوسكي يقولان بأنه ليست هناك حقيقة للزمان وللمكان أو حقيقة لكل منها على حدة ، ولا حقيقة/ بالتالي / للوجود في الزمان والمكان كما كان =

وجدت منذ بدء الخليقة واجتمعت فيها جميع المعلومات المختلفة ، فإن خلايا الجسم الموجودة في الكائن الحيّ ، أحرى بها أن تنطوي على جميع المعلومات الخاصة بهذا العالم منذ بداية الخليقة وإلى يومنا هذا .

وإذا كان العلماء قد أطلقوا على الإحساس الداخلي اسم (الشعور الباطني أو الغيبي) ، فإن الفيلسوف برجسون قد سمّاه (اندفاعة الحياة) ، وكان يقول إن النوابغ يتميّزون عن غيرهم بأن لهم حظّاً من اندفاعة الحياة تزيد على حظوظ غيرهم وأنهم أقدر من سواهم على الاستفادة من ذاكرة خلايا أجسامهم.

ففي رأي الشيعة إذن أن الإمام الصادق (ع) كان يرى بعلم الإمامة ، أما القائلون بالشعور الباطني غير المحدود فيقولون إنه انتفع بهذا الشعور ، في حين أن برجسون يرى أن الصادق (ع) كان يتمتع باندفاعة قويّة للحياة .

ولا ريب في أن ما قاله الإمام الصادق (ع) عن تشريح جسم الإنسان ، يكتب له بين المعاصرين له من المشتغلين بعلم الأحياء منزلة النبوغ ، لا سيما وقد برهن التمحيص العلمي الدقيق لنظرية الإمام الصادق (ع) بعد اثني عشر قرناً ونصف قرن على أنها نظرية صحيحة ، حتى وإن كان الإمام لم يعطِ أسماء معينة لأجزاء الجسم والموادّ التي يحتوي عليها .

- يفهمه فلاسفة القرن الماضي ، ومن رأي الفلاسفة أن الوجود الخارجي هو الباقي والاستمرار في الزمان والمكان ، وأن كل وجود خارجي هو وجود في الزمان والمكان .
ودافع برجسون عن الروحانية ضد المذاهب الوضعية المادية ، فكان بآرائه بعيد الأثر .
ومن مؤلفاته : (محاولة دراسة أوضاع الوجدان) و(المادة والذاكرة) و(التطور الخلاق) .

(راجع دائرة المعارف العالمية)

وقد قال الصادق (ع) إن العناصر الموجودة في الأرض ، وعددها مائة واثنان ، موجودة في جسم الإنسان بدرجاتٍ متفاوتة ، وإن بعضها يذهب من القلّة مذهباً يحول دون تعيين مقداره وحجمه بالدقّة المطلوبة .

ربما قيل إن الصادق (ع) لم يأتِ بإعجازٍ فكري ، لأن الإسلام يقول إن الإنسان قد خُلق من تراب[1] ، وقد ثبتت عقيدة المسلم على هذا منذ ما جاء القرآن ، فأين هو الجديد الذي أتى به الصادق (ع) حين قال إن المواد الموجودة في التراب موجودة أيضاً في جسم الإنسان ؟ .

نعم ، ولكن نبوغ الصادق (ع) يتجلّى في أنه قسّم هذه المواد والعناصر إلى ثلاثة أقسام ، يتضمن القسم الأول منها العناصر الأربعة التي توجد بوفرة ، ويتضمن الثاني ثمانية عناصر توجد في جسم الإنسان بدرجة أقل ، ويتضمن الثالث ثمانية عناصر أخرى هي أقلها توافراً .

والعلم الحديث في عصرنا اليوم يثبت ما قاله الإمام الصادق (ع)، إذ أن العناصر الثمانية التي تُوجد في جسم الإنسان بمقدار ضئيل هي : (الموليبدنوم والسلنيوم والفلور والكوبلت والمنغنيز واليود والنحاس والرصاص الخالصين) .

وأما العناصر الثمانية التي توجد في جسم الإنسان بكميةٍ أكبر قليلا ، فهي (المغنيسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والكلسيوم والفوسفور والكلور والكبريت والحديد) .

أما العناصر الأربعة التي توجد في جسم الإنسان بوفرة فهي [الأوكسجين والكربون والهيدروجين والأزوت (النتروجين)].

---

(١) من هذه الآيات ما جاء في سورة طه ، الآية ٥٥ : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » ، وما جاء في سورة نوح ، الآيتين ١٧ ، ١٨ ﴿ والله أنبتكم في الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ .

صحيح أن الإمام الصادق لم يُسِّم هذه العناصر بأسمائها العلمية المعروفة اليوم ، ولكنّه استطاع تمييزها بعقله المستنير . في حين أن العلماء المحدثين لم يتسنَّ لهم الاهتداء إليها إلا بعد بحث وتحقيق علميين وتجارب واسعة وعمليات تشريح دقيقة استمرت منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي ، وكان لفرنسا والنمسا دور ريادي في أوروبا في علم التشريح .

وبسبب الحظر التامّ الذي فرضته الكنيستان الكاثوليكية والأرثوذكسية على تشريح الجثث ، وقد سايرتهما في هذا التحريم البلدان الشرقية ، اقتصر هذا الكشف العلمي على فرنسا والنمسا دون الدول الأخرى .

وحتّى في هاتين الدولتين ، كانت عمليات التشريح تجري خفية خوفاً من معارضة الكنيسة ، حتى جاء الطبيب الفرنسي « مارا »[1] وطالب بضرورة التشريح خدمة للإنسانية ولعلم الطب ، واشترك مع العلاّمة الشهير الكيميائي لافوازييه[2] (الذي أعدم في عام ١٩٨٤) في تحليل الأنسجة والخلايا في جسم الإنسان للوقوف على أسرارها ومكوّناتها .

وبعد وفاة مارا ، استمرت التجارب والتحاليل على جسم الإنسان يُجريها تلامذته والمتأثرون به ، وظلت هذه التجارب تجري طوال القرن التاسع عشر وإلى مطالع القرن العشرين .

واليوم ، أصبح التشريح أمراً مألوفاً في جميع دول أوروبا وسواها من دول العالم ، وأصبحت التجارب والتحاليل أمراً عادياً في إطار التدريس في

---

(١) مارا Marrat طبيب فرنسي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي في وقت معاصر للثورة الفرنسية ، وكان يصدر مجلة عنوانها (صديق الأمة) طالب فيها بالسماح بتشريح جسم الإنسان خدمة للطب والإنسانية ، وقد قتلته إمرأة اسمها (شارلوت كورديه) بخنجر في حمام بيته .

(٢) سبق التعريف به .

كليات الطب في العالم بأسره وفي مراكز العلوم ، رغبةً في اكتشاف مزيد من البيانات عن العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان وكمياتها وكيفياتها ، ولئن تشابهت نتائج هذه الأبحاث فإن الأرقام قد تنطوي على تفاوت جزئي ، أما العناصر الهامة في جسم الإنسان فلا خلاف عليها .

والمؤكد أن تقسيم العناصر الموجودة في جسم الإنسان والنسب الخاصة بكلٍّ منها تتفق فيها آرء الإمام الصادق (ع) مع التجارب التي أجريت في المراكز العلمية في دول العالم كلّه .

وعلى سبيل التوضيح ، نذكر أن الإنسان الذي يزن ٤٥ كيلو غراماً ، يحتوي جسمه على كيلو غرام من الكربون ، وهو عنصر من العناصر الأربعة التي توجد في الجسم بوفرة .

كذلك يوجد في جسم الإنسان ٤,٥ كيلو غرام من الهيدروجين ، متى كان سليماً ، فإن اعتلّ ، نقصت كمية الهيدروجين . وتتساوى مقادير العناصر الأربعة ، وهي الأوكسجين والكربون والهيدروجين والأزوت ، في أجسام الناس جميعاً ، سواء أكانوا من البيض أم السود أم من الذين اختلطت أنواعهم وجذورهم .

تلي هذه العناصر الأربعة ثمانية عناصر أخرى متوسطة المقدار ، تليها العناصر الثمانية الضئيلة القدر ، وتتساوى نسب هذه العناصر في جسم الإنسان ، سواء أكان يعيش في القطب الشمالي أم في المنطقة الإستوائية ولا فرق بين أي اثنين في هذا إذا ما تساويا في الوزن والعمر .

وهكذا جاءت التجارب العلمية التي أجريت في فترة تربو على مائة وخمسين عاماً مؤكدة النظرية التي أتى بها الإمام الصادق (ع) .

نظريّة الضوء عند الإمام الصادق (ع)

من مبتدعات الإمام جعفر الصادق (ع) نظريته الخاصّة بالضوء . فمن رأيه أن الضوء ينعكس من الأجسام على صفحة العين البشريّة ، أمّا الأجسام البعيدة فلا ينعكس منها إلاّ جزء صغير من الضوء ، ولهذا تتعذّر رؤ يتها بالوضوح الكافي . أمّا إذا استعنّا بجهازٍ أو آلةٍ لتقريب الضوء إلى العين ، كالجهاز الكهربي الضوئي مثلاً فعندئذٍ يمكننا مشاهدة الجسم البعيد بنفس حجمه الحقيقيّ وبوضوح تامّ ، بمعنى أن الجسم الذي يبعد عنّا بثلاثة آلاف ذراع ، نراه وكأنه يبعد عنا بستين ذراعاً ، فنكون بذلك قد قرّبناه أكثر من خمسين مرة .

ونتيجة للإتّصال الذي تحقق بين أوروبا والشرق في أثناء الحروب الصليبية ، انتقلت هذه النظرية من الشرق إلى أوروبا ، ودُرست في المعاهد العلميّة والجامعات الأوروبية . وكان من جُملة المهتّمين بها روجر بيكون[1] الأستاذ بجامعة أكسفورد .

---

(١) روجر بيكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م) عالم فرنسيسكاني بريطاني وضع دائرة معارف علمية هامة لُقب بالدكتور المدهش إعجاباً بعلمه . (المترجم).

وجاءت نظرية بيكون في الضوء مطابقةً لنظرية الإمام الصادق (ع) . فلو استعنّا بما يقرّب ضوء الأجسام البعيدة إلى عيوننا ، لامكننا مشاهدتها وقد قُرِّبت إلينا خمسين مرّة عن بُعدها الحقيقي .

وبفضل هذه النظرية اخترع ليبرشي الفلامَندي المجهر في عام ١٦٠٨ م ، واستعان غاليليو بهذا المجهر في اختراع المرقب الفلكي في عام ١٦١٠ م . وفي ليلة السابع من يناير سنة ١٦١٠ م ، بدأ غاليليو يرصد النجوم مستعيناً بمرقبه ، ولا يستبعد بسبب قُرب الفاصل الزمني بين الإختراعين ـ وهو سنتان لا غير ـ أن تكون الفكرة تبلورت عند هذيْن العالميْن في وقت واحد ، وإنْ كان غاليليو استفاد من مجهر العالم الفلامندي وحاول قدر المستطاع علاج ما فيه من قصور ، مع ما كان متاحاً في ذلك الوقت من إمكانيات تقنيّة محدودة .

وكان غاليليو من خريجي جامعة (بادوا) الشهيرة في مملكة (باتاويوم) التي سميت في ما بعد (بوني تي) والتي تُسمَّى عاصمتها اليوم فينيسيا أو البندقية . وبعد تخرّجه أصبح أستاذاً في نفس الجامعة . وعندما شرع يرصد النجوم في أوّل ليلةٍ ، حيره منها أن يرى القمر شبيهاً بالأرض من حيث أن سطحه تغطّيه سلاسل من الجبال والوديان ، فتحقّق من أن الكون لا ينحصر في الكرة الأرضية ، وأن القمر بدوره عالم من عوالم دنيانا الكثيرة .

ولولا فرضية الضوء التي أتى بها الإمام جعفر الصادق (ع) ، لما تمكن ليبرشي الفلامندي وغاليليو من صنع المجهر الفلكي لرصد انعكاس ضوء الشمس على الكواكب الأخرى ، وبالتالي تأكيد نظرية كوبر نيكوس وكبلر القائلة إن الكرة الأرضية تدور حول الشمس وكواكب أخرى .

وكان للمجهر الفلكي الذي صنعه غاليليو صدى بعيد في الأوساط

العلمية المختلفة في البندقية ، حتى إن رئيس الجمهورية (دوج) وعدداً من نوّاب مجلس الأعياس استبدّ بهم الشوق لرؤ ية الأجرام السماوية من خلال هـذا المرقب . فـاضطر إلى نقله من مـدينة بـادوا الجـامعيّـة إلى العـاصمـة (البندقية) ، وأقامه على برج من أبراج الكنيسة لكي يتسنى لأعضاء مجلس الأعيان التطلّع إلى السماء في الليل ورؤ ية النجوم والكواكب .

ولما سُئل غاليليو عن سرّ رؤ ية سطح القمر وما عليه بـوضوح ، ردّد نـظرية الإمـام الصادق (ع) ، وهي أن هـذا نتيجـة لانعكـاس الضـوء من سطح القمر ووصوله إلى العين . وقال إن هذا المرقب يجمـع أشعّة الضـوء المنعكسة من سطح القمر ويقرّبها إلى العين، فتراه قريباً منها .

وبمشـاهدة غـاليليو لكـواكب عُطارد والـزُهرة والمشتـري في أحـوالهـا المختلفة من الهلال إلى المحاق ، تثبت نظرية كوبر نيكوس وكبلر(١) .

ومن الحقـائق العلميّـة المؤسفـة أن الشخصيّة الفـذّة للفيلسـوف الإغـريقي أرسـطو(٢) القـائـل إن الأرض ثابـتة ولا تتحـرّك وإن الشمس

---

(١) لاحظ غاليليو وهو يرصد عُطارد والـزهرة إنهما شبيهـان بالقمرِ من حيث أنهما يظهـران في باديء الأمر كـالهلال ، ثم يستتمـان استدارتهـا فيصبحان كـالبدر التمـام . كما تبـينّ أن هذين الكوكبين يدوران بدورهما حول الشمس ويستضيئان بنورها .

(٢) ارسـطو أو أرسطاليس (نحـو ٣٦٧ ـ ٣٢٢ ق . م) اشتهر بـأنه حكيم اليـونان . تلقى العلم عن أفلاطون ، وقضى في ذلك عشرين سنة ، وأصبح مؤدب الاسكنـدر المقدوني الأكبر . إليه يرجع الفضـل في تنظيم الفلسفـة اليونـانية وتفـريع العلوم منهـا وتدوين فنّ المنـطق ، وتقوم فلسفتـه في جملتها عـلى « اتفاق العلل المـادية في العـالم الـطبيعي » ، من مؤلفاته : « سمع الكيان » ويتناول المبادىء في الوجود ، وهـو تمهيد لـدراسة الفلسفـة و « السـماء والعالم » و« الكـون والفساد » والآثـار العلويّـة » و« كتـاب الحيـوان » و« كتـاب النبـات » و« كتاب النفس » و« الحس والمحسـوس » و« ما بعـد الطبيعـة » و« السياسـة » و« الأخلاق » و« الأورغانون » في صناعة المنطق . وأرسـطو هو منشيء علم المنـطق حتى سمّوه المعلم الأول وصاحب المنطق . (راجع « تاريخ الفكر العربي » لعمـر فروخ ـ ص ١٠٧ ـ ١٠٨) .

والنجوم تدور من حولها ، والشخصيـة العلمية الـرصينة للعـالم بطليمـوس الذي جاء بعد أرسطو بخمسـة قرون وأكّـد نظريتـه هذه ، قـد حالتـا دون تقـدّم علم الفلك قرابـة ألف وثمانمـائة عـام ، أي من القرن الثـالث قبـل الميلاد إلى القرن الخامس عشر الميلادي .

ولا يسع أحداً أن ينكر فضل أرسطو على العلم ، ولأهمية مؤلفاته في المنـطق كلاورغـانون وفي العلوم كـالحسّ والمحسوس التي تُعـدُّ من التـراث الإنساني الخالد ، ولكن نظريّته الفلكية عطّلت تطوّر العلوم الفلكيـة طوال ثمـانية عشـر قرنـاً ، ولولا ذلـك ، لما كـان من المستبعـد أن يتقـدّم بعصـر النهضة فينطلق من القرن السابع الميلادي أو قبل ذلك .

وبدأ عصر النهضة بالنظرية التي طلع بها العالم البولوني كوبر نيكوس القـائلة بأن الأرض تـدور حول الشمس ، وجـاء بعده العـالم الألمـاني كبلر ليـدعم هـذه النـظريـة ويميط اللثـام عن قـوانـين حـركـة السيـارات حـول الشمس ، ومنها الأرض . ثم جاء غاليليو من بعدهما ، فبثّ روحاً جديـدة في هذه الحركة العلميّة وأعطاها دفعـةً قويّـة بإثبـاته حـركة السيـارات حول الشمس بالرؤ ية والعيان .

ولـولا هؤلاء الثـلاثــة ، ومـا تمخضت عنــه جهـودهم وبحــوثهم العلميّة ، لما ظهر فيلسوف مثل ديكارت[1] بمنهاجه الخاصّ في التحقيق فهو الـذي أرسى للبحوث العلميـة أساسـاً منهجيـاً سـديـداً في عصـر النهضـة والتجديد ، ولعلّه لولا هؤلاء الفلاسفـة الثلاثـة العظام ، لعـاش ديكارت

(١) رينيه ديكارت René Decartes (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) فيلسوف ورياضي فرنسي اشتهر بكتابه (مقال في المنهج) الذي كان بعيد الأثر في الفكر الغربي ، وقد ضمّن هذا الكتاب نظريته المعروفة « أنا أفكر ، فأنا إذن موجود » ، وقد توصّل إليها بالحدس والاستقراء . له طائفة من الاكتشافات الهندسية والفيزيائية (دائرة المعارف) .

بدوره في نفس الظلمات التي عاش فيها قومٌ كثيرون قبل ظهور هؤلاء في متطاول القرون .

وعندما صوّب غاليليو منظاره الفلكيّ إلى قُبّة السماء في عام ١٦١٠ م ، كان ديكارت ما زال في الرابعة عشرة من عمره ، ولولا العلم الذي أتى به كوبر نيكوس وكبلر وغاليليو ، لما استطاع ديكارت التخلّص من مخلّفات التفكير السائد في المجتمع ، وإرساء قواعد البحث والتحقيق المنهجيّ في عصر النهضة . ومعروفٌ أن العلوم سلسلةٌ متصلة الحلقات ، وان كلّ علمٍ إنّما يُعين في كشف علمٍ آخر ، وهلمّ جرّاً .

ولا ريب في أن جهل الإنسان بحقيقة كون الأرض والسيّارات الأخرى تدور حول الشمس ، قد قعد به عن متابعة البحث والتحقيق ، وقصّ جناحيه حتى لا يحلّق في آفاق العالم الرحيب ، وكان المسؤول الأوّل عن هذا القعود هو الرأي العلمي الخاطيء الذي قال به المعلّم الأول (أرسطو) والذي ساعد على تعزيزه ما كان يتمتع به من نفوذٍ علميّ ، كما سبق القول ، فلم يجرؤ أحدٌ على معارضة رأي استاذٍ يُعدُّ في عصره أستاذ الأساتذة .

وجاء العالم الجغرافي المصري بطليموس بعد أرسطو بخمسة قرون ، فأكد نظريته الخاصّة بدوران الشمس والكواكب حول الأرض ، وبأن الأرض نفسها ثابتة لا تتحرّك .

ومن العوامل الهامّة أيضاً في ترسيخ نظرية أرسطو واستمرارها موقف الكنائس المسيحية التي اعتقدت تأكيداً لهذه النظرية أن الأرض هي قاعدة العالم ومركزها الثابت ، وأنه لولا ذلك لما ظهر فيها ابن الله (المسيح) ، ومن هنا اعتبرت هذه النظرية عقيدةً ضروريةً لكل مسيحي .

وحتى ندرك أهمية الصنيع الذي قام به العلماء العظماء كوبر نيكوس

وكبلر وغاليليو ، نستشهد في هذا المقام بما قاله العالم الفيزيائي البريطاني (إدنجتون) المتوفي عام ١٩٤٤ م من أن نظرية أرسطو بشأن ثبات الأرض ودوران الشمس والسيارات من حولها ، وهي النظرية التي أيدها بطليموس من بعده ، كانت كالكابوس الجاثم على الحركة العلميّة ليخنقها ، ولو لم يرفع هذا الكابوس عن الحركة العلمية ، لما حدث التقدّم العلميّ الذي شهدته البشرية في عصرها الأخير .

فإذا انتقلنا إلى الشرق ، وجدنا العالم الهندي تشاندرا تشاترشي(١) Chaterchi يقول : لولا اهتداء الإنسان إلى أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ، ولولا كشفه لهذه الحركة ، لبقي سادراً في جهله ، ولما استطاع التوصّل إلى ما اهتدى إليه في العصر الحديث .

وقد أقام هؤلاء العلماء العظماء الثلاثة البراهين أمام العالم على أن آراء أرسطو وغيره من الفلاسفة ليست كلّها آراء سليمة تتأبّى على الطعن أو المعارضة ، وأن الكنائس المسيحية التي استندت إلى نظريّة أرسطو لتعزيز رأيها بشأن ثبات الأرض كانت مُخطئةً بدورها .

وظلت الكنائس المسيحية طوال هذه الفترة تستند إلى نظرية أرسطو الفلكية في دعم رأيها بشأن ثبات الأرض ، دون أن تحاول تمحيصها أو نقدها ، حتى جاء الكردينال نيقولا دوكوزا في عام ١٤٦٠ م فتصدى لهذا الرأي بالمعارضة الجريئة . فقد كان العرف المتّبع في ذلك الوقت هو منع صغار رجال الدين من دخول مكتبة الفاتيكان الغنية بالكتب والمراجع ، في

---

(١) تشاندرا تشاترشي كاتب ومفكر هندي له طائفة من المؤلفات باللغة البنغالية ، وله دور هام في حركة تحرير الهند واستقلالها . وعاش قبل غاندي ، وقبل تأسيس حزب المؤتمر الهندي ، ومات سنة ١٨٩٤ م عن ٥٦ عاماً . من آثاره الأدبية آنان دات) كما أن النشيد الوطني الهندي مقتبس من مقطوعة أدبية له عنوانها (باندباترا) .

حين أن القساوسة من ذوي الرتب الدينية الرفيعة كان حقهم التردد على المكتبة والانتفاع بما فيها من ذخائر . ويُعزى الفضل إلى مكتبة الفاتيكان في نقل القسم الأعظم من معارف الأمم الإغريقية والرومانية وثقافاتها إلى الأمم الأوروبية والأمريكية .

صحيحٌ أنه كانت في أوروبا مراكز ومكتبات علميّة أخرى ، ولكنّ هذه المراكز لم يكن لها أثر إيجابي في حفظ تراث الاغريق والرومان ونقله إلى الأوروبيين ، لأنها لم تحظ بما حظيت به مكتبة الفاتيكان من أسباب الرعاية والوقاية من آثار الحروب والدمار التي حلّت بأوروبا ، ولا عجب والجيوش والأمم المتطاحنة هي جيوش وأمم مسيحية ممن تحاذر إلحاق أي أذى بالفاتيكان الذي يضمّ المقر البابوي ، أو بمكتبة الفاتيكان ، تقديساً منها لبابا روما ، وهكذا نجت مكتبة الفاتيكان من آثار الحروب . يُضاف إلى ذلك أن هذه المكتبة كانت على الدوام مسندةً إلى عدد من القساوسة والعلماء المسيحيين ، يشرفون عليها ويحرصون على ذخائرها ويصونونها من أيدي العبث والتلف.

بل إن الجامعات الأوروبية القديمة ، كجامعات بادوا في إيطاليا وأكسفورد في إنجلترا والسوربون في فرنسا لم يكن لها ما لمكتبة الفاتيكان من دور في حفظ التراث العلمي والأدبي لليونان والرومان ونقله ، لأنها جميعاً أسست في الألف الثانية بعد الميلاد ، واستفادت بعد تأسيسها من مكتبات الفاتيكان وغيرها من المراكز الدينية التي حرصت على صيانة الكتب.

أمّا ملوك أوروبا وأمراؤ ها وأشرافها فكانوا في غالبيتهم من الأميين الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ، فكيف بعامة الناس.

ولم تعن بحفظ الكتب وصيانتها في أوروبا إلاّ المراكز الدينية الهامة ، ولولا سعيها إلى صيانة المؤلفات المدونة باللغات اليونانية واللاتينية

والسريانية ، لما انتهى تراث اليونان والرومان إلى الأمم الأوروبية اليوم .

كانت مكتبة الفاتيكان ، كما سلف القول ، أغنى المكتبات بمقتنياتها من كتب اليونان واللاتين القديمة ، ولكن الانتفاع بذخائرها كان مقتصراً على ذوي الرتب المطرانية أو الكردينالية من رجال الدين تتألف منهم المجموعة المشرفة على الكنائس ، فكان من حقّ هؤلاء فقط دخول مكتبة الفاتيكان وتناول ما فيها من كتب قديمة أمّا اليوم ، فقد تغير الوضع ، وصار مسموحاً لجميع رجال الدين بالتردد على المكتبة والانتفاع بكتبها بغض النظر عن رتبهم .

وهكذا نرى أن المساواة في البحث العلمي كانت مُنعدمة حتى في الكنائس الكاثوليكية ، وأن النظام الطبقي الديني كان يحول دون الانتفاع بالمكتبة بالنسبة لصغار رجال الدين ، إذ كان قادة الكنيسة وأساقفتها يرفضون أن يجلسوا جنباً إلى جنب مع صغار القساوسة في قاعات المكتبة للإطلاع على نفس الكتب والمراجع .

أمّا الإعارة الخارجية للكتب من مكتبة الفاتيكان ، فكانت محظورة ، ممّا ساعد على حفظ هذه الكتب من الضياع ، وما زال هذا التقليد مستمراً إلى يومنا هذا . فالكتب لا تُعار وإنما يجوز تصويرها .

وكما سبق القول ، فقد أُتيحت للكردينال نيقولا دوكوزا فرصة دخول مكتبة الفاتيكان وتناول ما فيها من كتب ، يُضاف إلى ذلك أنه كان يُجيد اللغة اليونانية ، فاستطاع بذلك الوقوف على كتب فلاسفة الإغريق ، ومنهم أرسطارخوس الذي كانت له نظرية بشأن حركة الأرض ودورانها .

ولما عاد من الفاتيكان إلى مسقط رأسه في المانيا ، كتب رسالة علمية حول الحركة الوضعية والإنتقالية للأرض ، ولكن هذه الرسالة ظلت مخطوطة لانعدام وسائل الطباعة وقتذاك ، ولكن استنسخت منها نسخ

لفائدة المهمتين بهذا الموضوع . كان ذلك في عام ١٤٦٠ أي قبل ميلاد كوبر نيكوس بثلاثة عشر عاماً ، ولكن نظرية دوران الأرض حول الشمس اشتهرت باسم العالم الرياضي والمنجّم البولوني كوبر نيكوس وليس باسم نيقولا دوكوزا ، لأن الثاني كان من رجال الدين المجهولين في الأوساط العلمية ، ولأنه نقل نظريته عن فلاسفة اليونان . أمّا كوبر نيكوس فكان من رجال العلم ، كما أنه أثبت نظريته بشأن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس بالمناهج العلمية ، مما أثار اهتمام الأوساط العلمية بكشوفه .

وقد ظلت رسالة نيقولا دوكوزا غير معروفة أولاً لأنها كُتبت خارج دائرة الفاتيكان ، وثانياً لأنه ردد آراء فلاسفة اليونان دون تجريب عملي أو تحليل علمي ، فلم يأخذها الناس مأخذ الجدّ ، لا سيما وهي تتعارض مع رأي الفاتيكان بشأن ثبات الأرض ، وهو الرأي الذي أصبح قضية بديهية مسلّمة لدى الكنائس والمسيحيين .

وها هو ذا أبو الرياضيات الحكيم اليوناني فيثاغورث يقول في مقدمة علم الهندسة إن « القضايا البديهية لا يحتاج إثباتها إلى دليل » ، وقد اشتهر هذا المبدأ في ما بعد . ودلّل على ذلك بقوله إن العشرة أكثر من خمسة ، وهي قضية بديهية لا تحتاج إلى البرهان أو دليل ، وإن الخمسين رطلاً أثقل من الأربعين ، وهذه بدورها من البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان ، وحركة الشمس والأجرام السماوية لا تحتاج إلى دليل لأن الإنسان منذ خلق وهو يرى بعينيه أنّ الشمس والنجوم تتحرك وتدور . فموضع الشمس عصراً يختلف عن موضعها صباحاً . كذلك كان ثبات الأرض وانعدام الحركة فيها من القضايا البديهية الأخرى ، لأن الإنسان لم ير حركة الأرض بأمّ العينين ، وأن العمائر والمباني التي يشيّدها بالغاً ما بلغ ارتفاعها أو حجمها ، باقية في مكانها إلى أن تزول بسبب عوامل التعرية من مطر

وشمس ورياح ، وأن الجبال والتلال راسخة في مكانها على مدى العمر والدهر.

فلو قيل إذن إن الأرض تدور ، وإن لها حركتين إحداهما حول نفسها والأخرى حول الشمس ، لاعتبر هذا القول من قبيل الخرافات والأساطير ، ولاتُّهِمَ قائله بأنه يهزل أو بأن به مساً من جنون .

وقد قلنا إن نظرية الضوء للإمام جعفر الصادق (ع) قد فتحت الطريق أمام الباحثين حتى انتهت بهم إلى صُنع المنظار الفلكي ورصد الأجرام السماوية ، وقادتهم إلى انطلاقة عصر النهضة والتجديد .

ولولا أن الصنعة لم تكن في عصر الإمام الصادق (ع) قد بلغت مرحلة تمكن الإمام من صنع منظار أو مرقب فلكي لرصد الأجرام السماوية وتسجيل حركة السيارات ، لكان قد نجح بفكره النافذ في تحقيق ما انتهى إليه العظماء الثلاثة ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية نظرية الضوء التي طلع بها الإمام قبل إثني عشر قرناً من هذا التاريخ.

وإذا كان نيوتن قد اكتشف قانون الجاذبية عندما سقطت تُفاحة من شجرة على رأسه ، فهل يُعاب عليه أنّه لم يقذف تفاحة لتدور حول الأرض كما هو شأن الأقمار الصناعية في عصرنا هذا ؟ بالطبع لا .

وقد بات معروفاً للناس جميعاً أن الأقمار الصناعية التي تطوف حول الأرض ، أو التي أُطلقت صوب القمر والمرّيخ تخضع جميعاً لقانون الجاذبية الذي كشفه نيوتن ، فإن كان نيوتن نفسه لم يُوفَّق إلى الإستفادة من كشفه العلمي بالكيفية التي تأتت في عصرنا هذا ، فذلك لا يُقلل من أهمية قانون الجاذبية ، ولا من فضل نيوتن في تحقيق هذا الكشف العلمي . ولن يجترىء أحد فيقول إن عجز نيوتن عن إطلاق قمر صناعي إلى الفضاء دليل على أن كشفه العلمي كان بلا قيمة ، فمثل هذا القول يرتد إلى صدر

صاحبه ويؤكد فساد تفكيره وقلة فهمه .

وهنـاك نقطة بـالغة الأهميّـة في نظريـة الإمـام الصـادق (ع) بشأن الضوء ، هي تأكيده ، بأن الضوء ينعكس من الأجسام إلى العين[1] ، وهو قول يناقض التفكير الذي كان سائداً في ذلك العصر وكان مؤدّاه أن الضوء ينعكس من العين على الأجسـام المرئيّـة . والإمام الصـادق (ع) وهو أوّل عالم في تاريخ الإسلام كلّه يناقض هذا الرأي السائد . فقد قـال إنّ الضوء لا ينعكس من العين على الأجسام بل الذي يحدث فعلاً هو نقيض ذلـك ، أي أنّ الضوء ينعكس من الأجسام ويصـل إلى العين . دليـل ذلك أننـا لا نـرى في الظلمـة شيئاً ، ولـو أن العين كـانت تعكس الضوء عـلى الأجسام لشاهدنا الأجسام نهاراً وليلاً .

وللإمام الصادق (ع) نظريةٌ أخرى عن الضوء وحركتـه وسرعتـه لا تقل أهمية عن نظريّته الخاصّة بالضوء وانعكاساته .

فممّا قاله أن الضوء ينعكس من الأجسام على العـين بسرعـة « كلمح البصـر » أي أن الإمام الصـادق (ع) عـرف أن للضـوء حـركـة « كلمـح البصـر » ، ولو اسعفتـه الوسـائل التقنيّـة الحديثـة لاستطاع أن يقيس هـذه السرعة بدقّة شديدة .

فهو إذن قد اكتشف نظرية الضوء ، وقال إن للضوء حركـةً وإن هذه

---

(١) جاء في « خبر الربيع » : قـرأ هنديّ عنـد المنصور كتب الـطبّ ، وعنده الصـادق (ع) فجعل ينصت لقراءته فلما فرغ قال : يا أبا عبد الله ، أتريد ممّـا معي شيئاً ؟ قـال : لا ، لأن ما معي خير ممّا هو معك ، ثم ينتهي الحوار بـإلقاء أسئلة علميـةٍ وطبيّةٍ من الصـادق (ع) على الطبيب الهنديّ الذي يعجز عن الردّ عليهـا ، منها قـول الصادق (ع) حـول العيون وانعكاس النور إليه : وجُعِلَ الحاجبان من فوق العينين ليردا عليهما من النور قدر الكفاية . ألا ترى يا هنديّ أن من غلبه النور جعل يده على عينيه ليردّ عليها قدر كفايتهما منه ؟ (المناقب ج ٤ ص ٢٦٠) .

الحركة سريعةٌ جدّاً ، أفلا يـدّل هذا كلّه عـلى أنه كـان سابقـاً على عصـور علميّة كثيرة ؟ .

وقد رُوي عن الإمام الصادق (ع) قوله في بعض دروسه إن الضـوء القويّ الساطـع يستطيـع تحريـك الأجسام الثقيلة ، وإن النـور الذي ظهـر لموسى على جبل الطور لو كانت مشيئة الله ، لحرّك الجبل .

ومن مؤّدى هذه الرواية أن الإمام الصادق (ع) تنبّأ بأساس نـظرية (أشعـة الليزر) ، وفي رأينـا أن آراء الإمام في الضـوء وحركتـه وانعكـاس أشعته من الأجسام إلى العـين أهمّ من نظريـة (أشعة الليـزر) ، لأن هذه النظريّة قد عُرفت مقدّماتهـا قبل الصـادق (ع) وفي الأزمنة القـديمة وعنـد مختلف الأقوام والشعوب .

ففي مصر القديمة مثلاً ، كـان النّاس يعتقـدون بأن الضـوء ينفذ من الأجسام ويحرّكها ولا تحول دونه حتّى الجبال ، وأن الضوء الضعيف لا ينفذ في كـل شيء ولا يجاوز الأجسـام الصلبـة أو الجبـال ، في حـين أن الضـوء القوي يفعل هذا إن شاء ! !

ويبدو أن أمثال هذه النظرية كان شائعاً عند أقوامٍ كثيـرة قبل ظهـور الأديـان السماويّة، وكانت هـذه الأقوام تعتقـد أنَّ القـدرة التي يتمتّـع بهـا الضوء من فعل السحرة .

وليست لدينا معلومات دقيقة عن مبدأ هذه الفكرة وتاريخهـا ، ولكنّنا لو تركنا جانباً موضوع الطاقة الكامنـة في الضوء ، فـإن الذي قـاله الإمـام الصادق (ع) عن الضوء وحـركته يتّفق تمـاماً مـع ما أثبتـه البحث العلمي المعاصر . وغـايةُ مـا في الأمر أنّ العلم الحـديث قاس سـرعة الضـوء وهي ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة ، ولكنّ هذا المقياس لا يُجدي في قياس المسافات الفلكية الشاسعة في الدراسات الفضائية .

قلنا في ما تقدّم إن العلوم والمعارف في مدرسة جعفر الصادق (ع) قد أرسيت قواعدها على أربع دعائم أوردنا ذكرها ، ولكنّ أهم خصائص هذه المدرسة والتي ساعدت على انتشارها وذيوع علومها تأكيدها على الابتعاد عن كلّ تزمت وتعصّب وضيق صدر وأفق ، ذلك أن الإمام الصادق (ع) لم يُعطِ أتباعه ذريعةً واحدةً لتكفير من يخالفونهم في الرأي ، أو اعتبارهم منشقّين أو مارقين ، ولو حدث هذا لقُضيَ دون ريب على كيان الشيعة الفكري والثقافي .

وكان الصادق (ع) عند حديثه عن جدّه رسول الإسلام (ص) أو آبائه ، يتحدّث عنهم باعتبارهم بشراً سويّاً ، فلا وضع أحداً منهم في مقام الله ، ولا عدّهم فوق البشر أو وسطاء يشفعون للناس عند الله(*) ، ولو فاه بشيء من هذا ، لأحدث انشقاقاً واسعاً بين الشيعة ، كما هو الحال عند المسيحيين .

ومع أن الصادق (ع) لم يفه مرةً واحدةً بما يجعل لجده الرسول (ص) ولآبائه الأئمة (ع) طبيعةً تختلف عن طبيعة البشر أو تسمو بأجسامهم على الطبيعة البشرية ، ومع أنه لم يُغال في إيراد صفاتهم المعنوية، كل ذلك لم يحل دون ظهور فرقٍ دينية وصوفية بين الشيعة منذ القرن الثالث الهجري ، وكل واحدة منها تتعصّب لرأيها وتناويء غيرها من الفرق وكأنها تنتمي إلى مذهب مستقلّ .

ولئن كان العرفان دعامةً من الدعائم الأربع التي تقوم عليها المعارف الجعفرية ، فإنَّ عرفان الصادق (ع) كان يلتزم حدود الاعتدال ، يتوخّى معرفة الدين على الوجه الصحيح والمذهب النقيّ كذلك وتبصير الناس

(*) الشفاعة كمبدأ موجودة في القرآن الكريم ولكنها لا تعني - كما لا تستلزم ضرورة - كون الشفعاء من جنس آخر فوق البشر . . .

بحدودهم ومهامهم . ولكنّ الصادق (ع) لم يكن يريد للعرفان أن يصبح مذهباً شائعاً مستقلاً عن الدين .

ومع ذلك ، أخذت المذاهب والفرق الشيعيّة تتكاثر وتتشعب منذ القرن الثالث للهجرة ، وغالى بعضها غلوّاً شديداً حتى قال بوحدة الوجود ، أي وحدة الخالق والمخلوق ، وهو ما يُعتبر شِرْكاً وكُفراً في عقيدة الشيعة .

والذي يعنينا من هٰذه الظاهرة ، أنَّ حُريَّة البحث والكتابة كانت منهاجاً مرعيّاً من أتباع الإمام الصادق (ع) ، ولم يتعرّض أحد لإيذاء أو عقوبة لأنه أبدى رأياً خالف به أيّاً من الآراء والنظريات التي كانت سائدةً في هذه المدرسة ، سواء أكانت دينية أم علمية أو فلسفية .

لقد كان تلامذة الصادق (ع) يطرحون عليه الأسئلة ، وينتقدون هذا الرأي أو ذاك ، ويعارضون ما يُساق في المدرسة من حجج ، وكان يتقبل ذلك منهم برحابة صدر وبشاشة وجه ، وفي كتب الحديث والسيرة سِجلٌ واف لما جرى بين الإمام الصادق (ع) وناقديه ومعارضيه من محاجّات ومناقشات ومحاضرات .

وقد توسّعت الفرق الكلامية والصوفية في الحديث عن الخالق ووحدة الوجود ، وكان من رأي بعض هذه الفرق أن المخلوق لا يختلف عن خالقه في القدرات المقدرة ـ طبعا بالقدرة لا بالفعل ـ بينما رأى بعضها الآخر بأن للرسول (ص) والأئمة مراتب تعلوا على مراتب المخلوق وإن كانت دون مرتبة الخالق طبعاً.

بل إنَّ فرقاً أخرى من الصوفية وضعت المرشد والقطب في مرتبة عالية ، تتحدّ أحياناً مع وجود الخالق أو تكون مماثلة لهذا الوجود وللقدرة الإلهية . وكانت تعظّم هؤلاء الأقطاب وترفع من مقدارهم فوق مراتب

الأئمة والأنبياء . وتراعي ذلك في سلوكها وعقائدها دون أن تصرّح به ، إما استحياءً من القول بأن مقام قطبهم أعلى من مقام النبي (ص) ، وإما خوفاً من أن يُرموا بتهمة التكفير .

وعقيدة هذه الفرق الصوفية شبيهة بعقائد المصريين القدامى في أوزيريس وإيزيس ، ومعروف أن قدامى المصريين كانوا يؤمنون بتعدّد الآلهة مع تفضيل الإله آمون باعتباره سيد الآلهة ، ولئن كان إيزيس ـ وهي إلهة الموت ـ في مرتبة دون مرتبة آمون فإن المصريين القدامى كانوا يَرون أنَّ سُلطانها أكبر من سلطان آمون ، لأن إيزيس كانت قادرة على إنزال الموت حتى بآمون وهو سيد الآلهة .

نسبية الزمن عند الإمام جعفر الصادق (ع)

من القضايا الهامة التي نُوقشت في مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) قضية الزمن التي تناولها الإمام ضمن ما تناول من مسائل فلسفية مختلفة ، وأبدى فيها ما ارتآه من آراء ، وقد عُني فلاسفة اليونان من أقدم العصور بهذه القضية الفلسفية الهامة ، وما زالت تستأثر بالبحث والتحقيق إلى يومنا هذا .

وكان من رأي بعض فلاسفة اليونان أن الزمن ليست له حقيقة أو وجود خارجي ، في حين رأى البعض الآخر أن الزمن حقيقة ثابتة تُقام الدلائل والبراهين على تأكيدها .

والفلاسفة الذين أنكروا حقيقة الزمن قالوا إنه غير موجود ، سواء بصورة ذاتية أو بصورة تبعية . وفي رأيهم أن « الزمن فاصل بين حركتين » ، وأن الإنسان أو أي كائن حي ذي شعور لا يحسّ بهذه الفاصلة حتى وإن تابع سير الحركة ، واستناداً إلى هذا ، قطعوا بأن الزمن منعدم

الوجود ، سواء في صورته الذاتية أو في صورته التبعية .

وتساءل فلاسفة اليونان عمّا إذا كان الحيوان يدرك الزمن ويعرف مقاطعه . فقال بعضهم إن هناك قسماً من الحيوان يحس بالزمن ويدرك مقاطعه وفواصله ، وما هذه المقاطع والفواصل إلاّ جوع الحيوان أو عطشه أو حلول الظلام بغروب الشمس ، أو غير ذلك من الظواهر الطبيعية الأخرى .

أمّا الذين ينكرون أن للزمن وجوداً ذاتياً ، فيقيمون براهين كثيرة على ذلك ، منها قولهم إن الإنسان إن فقد وعيه ، لم يعد يحسّ بالزمن أو يشعر بمروره مهما طال ، ومتى عاد إلى وعيه ، لم يعرف كم انقضى عليه من ساعات أو أيام . ولو كان للزمن وجود ذاتي ، لأدرك الإنسان مقدار الفاصل الزمني الذي مرّ عليه . وهذا نفسه يُقال عن النائم مهما طال رقاده ، إذْ يجهل مقدار الوقت الذي مرّ عليه إلاّ من الظواهر الشمسية أو آثار الليل .

أما الفريق الآخر الذي يقول أن للزمن وجوداً ذاتياً ، فقد صنّف الزمن إلى نوعين ، أولّهما الزمن المتحرّك أو السائر ، وهو يتألف من ذرّات متحركة تنتقل من جانب إلى جانب .

وإذا كنّا لا نشعر بمرور هذه الذرات في حد ذاتها ، إلاّ أننا نشعر بمرورها متراثية في الإنسان نفسه ، كالتغييرات المتلاحقة التي تطرأ عليه من الطفولة إلى الصبا فالشيخوخة ، كما نشعر بانقضاء الزمن من خلال التغيّرات الطارئة على النباتات والأشجار من حولنا .

أما النوع الثاني ، فهو الزمن الثابت الذي لا تتحرك ذرّاته وأجزاؤه لأنها كذرّات المادة من رمل وتراب ، تترسب وتمكث . ومثل هذا الزمن لا ينتقل من مكان إلى مكان ، ولا يفصل بين حركة وحركة ، ولهذا سُميٌ

بالزمن الثابت غير المتحرك .

وفي رأي فلاسفة الإغريق القدامى أن الأبدية زمن الآلهة ، وهو زمن ثابت ، في حين أن الزمن المتحرك السائر هو زمن الكائنات الحية ، ومنها الإنسان .

ولأنَّ زمن الآلهة ثابت غير متحرّك ، فلا تغيير يطرأ في وجودها أو وضعها . أما الإنسان والحيوان والنبات ، فلأنها تعيش في الزمن المتحرّك السائر ، فهي عُرضة لتغيّرات تطرأ عليها ، ولا سبيل إلى وقفها أو الحيلولة دونها ما دام الزمن متحركاً سائراً يتعذّر وقفه .

ولو استطعنا وقف حركة الزمن ووقف تغيّر في شكل الكائنات الحية ، لرفعناها إلى مرتبة الآلهة ، لأنها تتمتع إذ ذاك بالزمن الثابت ، وهو أبديّ .

أفيمكن إجراء مثل هذا التغيير ، أي إدخال أنواع الحيوان والنبات في حيّز الزمن الثابت ، فتغدو أبدية الوجود كالآلهة ؟ .

أجاب فلاسفة اليونان على هذا التساؤل بنعم ، فمن مُؤَدى هذا العرفان اليوناني الارتقاء بالانسان إلى مرتبة الآلهة ، وهو ما حاوله كثير من عرفاء الإغريق وفلاسفتهم ، كلّ بأسلوبه الخاص .

فالفيلسوف اليوناني زينون[1] ، الذي أسس المذهب الرواقي نسبة إلى هيكل أثينا الذي كان يعلّم فيه الفلسفة ، يرى أن الخير هو السعادة ، وأن الإنسان يبلغ السعادة عن طريق الفضيلة ، وأما الفضيلة نفسها فهي

(١) زينون القبرسي من أعلام العصر الهليني في تاريخ الفلسفة الإغريقية ، وهو زعيم مذهب الرواقيين الذي كانوا يرون بماديتهم أن جميع المعارف حسيّة . توفي سنة ٢٦٣ ق . م (راجع « تاريخ الفكر العربي » لعمر فرّوخ ص ١٢٢) .

ثمـرة الإرادة المعتمدة عـلى العقل ، ومن الفضيلة تحمّـل المشـاق في سبيـل الوصول إلى الخير وتحقيقه .

ومما قالـه زينون إنـه لا يسع الانسـان أن يظفـر بالحـرية الكـاملة في الدول الديمقراطية كـأثينا بـالقانـون وحده ، وأنمـا الحريـة تكتسب بالجهـاد الأكبر ، وهو جهاد النفس ، فإذا قُتِلتْ النفس الشريرة ارتـاح الناس ، ولم يعتـدِ أحدٌ من ذوي النفـوس المهذبـة عـلى حقـوق الغـير ، والكـل يتمتـع بالحرية .

وكـان الفيلسـوف أبيقـور (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق . م .) يـرى أن الـزمن الأبدي والسعادة المطلقة يتمّ التوصل إليهما عندمـا يتمتّع الإنسـان بكلّ مـا وُهب في حـدود الاعتدال . وكـان من رأيـه أن دراسـة الفلسفـة إنّمـا تُـراد للحصول على اللذّة المصاحبة لمعرفة هذا العلم .

وفي مـذهب أبيقـور أن النفس إذا عملت خيـراً ورد عليهـا ســرورٌ وفرح ، وإذا عملت شرّاً ورد عليهـا حزن وتـرح ، وإنّما يكـثر سرور كـل نفس بالاجتماع بالأنفس الأخرى .

وهناك فيلسوف يوناني آخر عاصر أبيقور وكـان له رأي مخـالف لرأي معاصره ، وهو ديوجين الفيلسوف ومن مذهبه أن التكامل البشري ووصول الإنسان إلى الزمن الثابت الأبدي ، وبالتالي إلى الآلهة ، يتطلبان ترك الدنيا وملذّاتها والإكتفاء بالقدر والضروري القليل من وسائل العيش . وقد رُوي أنه شاهـد طفلاً يشـرب الماء بكـفيه مُستغنياً عن الكـأس الوحيـدة المتاحـة للشرب ، فقال إنّ زخارف الدنيا تحول دون الالتحاق بالآلهة .

ونـلاحظ أنّ هناك وجهـاً مشتركـاً في العرفـان بـين فلسفـة اليـونـان والعـرفان الشـرقي ، يتمثّل في أن الـطريق إلى الله يمرّ بكبـح جمـاع النفس والنـأي عن الملذات . ولا فرق من هـذه الناحيـة بين فكـر اليونـان القديم

وفكر الشرق القديم ، اللّهم إلاّ في حدود هذا الامتناع ومداه .

وكان من رأي بعض فلاسفة اليونان ، ومنهم ديوجين ، أن احتفاظ الطالب العارف بأكثر من قميصٍ واحدٍ يستر العورة أمرٌ لا يجوز ، وهو يقف حائلاً بينه وبين الوصول إلى الآلهة . ومثل هذه الفكرة نجدها في الشرق ، ينادي بها العرفاء والصوفية . فمن أين جاء هذا التشابه أو اللقاء بين الفكرين ؟ .

معروفٌ أن الشرق لم يلتقِ باليونان قبل قيام دارا ملك الفرس الأخميني (الهخامنشي) في عام ٤٦٠ ق . م . بالهجوم على اليونان . فهل حدث اللقاء بين الفكرين اليوناني والشرقي منذ هذا التاريخ ؟ وهل انتقلت فكرة الجهاد مع النفس للوصول إلى الآلهة من الشرق إلى اليونان ، أو عكس ذلك ؟ .

الواقع أننا لا نجد أثراً لهذه الفكرة لا في التعاليم الأصلية لكونفشيوس في الصين ، ولا في تعاليم بوذا في الهند ، ولا في تعاليم زردشت في فارس . فلم يدع أحدٌ منهم إلى قتل النفس للوصول إلى مرتبة الآلهة . ولكن هذه الفكرة انتشرت في الشرق وفي اليونان دون أن تكون بينهما علاقات ثقافية أو روابط أخرى . فهل لنا أن نستخلص من هذا أن فكرة الجهاد مع النفس وترك الملذّات للوصول إلى الله أو السعادة الأبدية قد وُجدت وتبلورت عند الشعوب الفقيرة الكادحة التي لا تجد ما يكفيها لسدّ احتياجاتها ؟ ولو أن العرفاء والمتفلسفين في مناطق العالم المختلفة كانوا من طبقة الأغنياء أو السراة ، فهل كانوا يشترون بطريق آخر للوصول إلى الله أو الآلهة ؟ .

هذا التساؤل لا يعني طبعاً أن التاريخ قد خلا من أغنياء أو أصحاب جاه تركوا ملذّات الدنيا ونبذوا أهواء النفس لكي يصلوا إلى هذه

الغـاية ، ولا هـو يعني أن فكرة مجاهـدة النفس كـانت خـاصّـة بـالفقـراء والمعدمين وحدهم .

ونعود إلى فكرة الزمن ، فنقول إن الدور قد جاء على حكـماء أوروبا وفلاسفتها في القرون المتأخـرة ليدلـوا بآرائهم في هـذه القضية ، فمنهم من أنكر وجود الزمن إنكاراً باتّاً حتى في القرن التاسع عشر الميـلادي قائلين إن الموجود هو المكان . ومنهم من أنكر المكان قائلا إنـه يوجـد تابعـاً للمادة ، ولا وجود له في حدّ ذاته ، وحيثما وُجدت المادة وُجد المكان ، وإلا فلا .

وكـان الناس في سـوادهم يرون في هـذا القول إنكـاراً للمشاهـدات المحسوسة ، فهم يشاهدون في حياتهم اليوميّة الغرفـة التي يعيشون فيهـا أو ينـامون ، وهي ذات عـرض وطـول وارتفـاع . فكيف يسـوغ إنكـار هـذه الحقيقة الماديّة الملموسة المتجلّية بأوضح صورها في المأوى اليومي ؟ .

كما كانت في القرن الماضي مجموعةٌ من العلماء تنكـر وجود المكـان ، ومن مؤدى نظريتهم أن المكان بـلا وجود أو حقيقـة ، وأن ما تحسبـه العين مكاناً ذا أبعـادٍ أربعة إنْ هـو إلاّ المادة ، والمـادة هي التي تخلق المكان ، أي بعبـارة أخرى ، أن المـادة هي المكان ، وحيثـما وُجدت وُجـد المكان ، وإلاّ انعدم .

ولو سئل واحدٌ من هؤلاء العلماء : وماذا تقول في الطائـرة التي تُقلع من مكانٍ وتنتقل بسرعةٍ فائقة إلى حيث تحطّ في مكان آخر ؟ ومـا القول في سفينة الفضاء ، وأين هي تطير ؟ لجاء الجواب : إنها تطير في المادة(!) .

ويشك البعض في صحّة هذه النظرية ، لأنّ المعروف أن الهواء ينتشر في الفضاء بأجزائه وذرّاته على امتداد مسافة معينة قد لا تتجاوز ثلاثة آلاف كيلو متر ، يليها الفضاء الطلق الفسيح الذي لا تُوجد فيه إلاّ أمواج الأثـير كأشعة الضوء أو الأمواج الكهربائية أو الجاذبية المغنطيسية ، ولا أثر للمـادّة

في هذا الفضاء الفسيح حتى تسبح فيه سفن الفضاء .

ولكنّ المنكرين لهذه النظريّة يقولون إن الفضاء الذي تسبح فيه سفن الفضاء هو في حقيقته الحدّ الفاصل بين نواة الذرة وإلكتروناتها ، وأن الحدّ الفاصل بين نواة الذرة وأجزائها من الإلكترونات هو في حقيقته كالحدّ الفاصل بين قُرص الشمس والسّيارات . وهذه الفاصلة (سواء أكانت في الوحدة الذرّية أم وجدت بين الشمس وبين الأرض أو الزُّهرة وغيرها من الأجرام) هي جزءٌ من المادة ، والدليل على ذلك أنّ الجاذبية تمرّ فيها ، وقوة الجاذبية لا تنفصل عن المادّة ، ولا تنفصل المادّة عنها .

ولسنا نرى في هذه النظريّة فرقاً بين الطاقة والمادة ، وكلتاهما تعتبران أمراً واحداً ، ولكنهم كانوا يقولون إن للمادة خواصّ تختلف عن خواصّ الطاقة ، والواقع المؤكد هو أن العلماء منذ القرن الثامن عشر انتهوا في أبحاثهم إلى أن المادة والطاقة وجهان لشيء واحد ، في حين أن تعريف المادّة والطاقة في علم الفيزياء الحديث يتّخذ أبعاداً أخرى . وإلى بداية القرن العشرين ، كان من الجائز تعريف المادّة بأنها طاقة متراكمة أو مكثّفة ، وأن الطاقة مادّة مَوْجِيَّة ، ولكن هذا التعريف لكلٍّ من المادّة والطاقة لا يفي بمطالب العلم الحديث وما انتهى إليه من نتائج .

ولو قلنا إنّ قوة الجاذبية هي المادّة ، لأصبحت المادّة التي عرفّناها بأنها طاقة متراكمة ، مادةً موّاجة غير متناهية ، ولاضطررنا إلى الإعتراف بأن الوجود ليس فيه سوى المادّة ، ولسلمنا بالرأي القائل أنّ الطائرات وسفن الفضاء تطير في المادة .

وممّا لا ريب فيه أن سرعة أشعّة قوة الجاذبية تجعل الجرم لا متناهياً ، وتصبح المادة بناءً على هذه النظريّة لا متناهيةً بدورها .

ومنذ مطلع القرن الحالي ، وبعد رحلات الفضاء التي قام بها

الإنسان ، تجمّعت لدى علماء الفيزياء معلوماتٌ هامّة أخرى عن المادّة ، منها أن جميع العناصر الموجودة في الكرة الأرضية تنبعث منها الأشعة فوق البنفسجية بصورةٍ مستمرّة ، وفي حين أن العلماء قبل هذه الرحلات كانوا يعتقدون أنّ الأشعة لا تنبعث إلاّ من الأجسام الدافئة وحدها . فإن سفن الفضاء والأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض بصورةٍ مستمّرة أثبتت أن الأشعّة فوق البنفسجية لا تنبعث من الجسم الدافي وحده ، بل تنبعث حتّى من الثلوج في القطبين الشمالي والجنوبي[1] .

وقد أجريت تجارب دقيقة في مختبراتٍ علميّةٍ على أجسام بُردت إلى درجة متناهية في البرودة ، فتبيّن أن الاشعة لا تنقطع بسبب البرد الشديد ، وأدّت هذه التجارب إلى ظهور قانون فيزيائي هو أن الأجسام والعناصر الموجودة في الكرة الأرضية لا تكفّ عن الإشعاع إلاّ إذا هبطت درجة الحرارة إلى الصفر . ودرجة الصفر هي الدرجة التي عندها تتوقّف حركة الجزيء في المادة .

وبفضل هذه الأشعة يستطيع الإنسان رؤية كلّ شيء في الظلام مستعيناً بالمنظار المجهّز بالأشعة فوق البنفسجية ، وهو منظار لا يحتجب عنه شيء . وقد دلّت التجارب على أن الأشعة التي تنبعث من النباتات النضرة والأجسام الحيّة للإنسان والحيوان تفوق في مقدارها الأشعة المنبعثة من

---

(١) تبيّن للعلماء من رحلات الفضاء والتجارب العلمية أن الفضاء الخارجي مشحون بقوى وطاقات هائلة من الذرّات المؤينة (المعروفة علميا اسم البلازما) واهتدوا إلى حزام هائل من الأشعة الرهيبة يحيط بالكرة الأرضية على طبقتين ، وقد عرف علميا باسم (حزام فان آلن) ، وتتألف هذه الأشعة من (الكترونات) و(بوزيترونات) مشحونة ، وهي تتحرك بسرعة هائلة بالاضافة إلى أشعة (غاما) و(الاشعة الكونية) التي تخترق الاجسام مهما يكن سمكها أو طبيعتها . (راجع « العلوم الطبيعية في القرآن » ليوسف مروة ص ١٧٠ ١٧٦) .

النباتات أو الحيوانات الميّتة . (وممّا يُذكر أن هذا المنظار يُستخدم في جبهات القتال ليلاً لمعرفة تحرّكات العدّو وآلياته) .

وعند علماء الفيزياء أو المقصود بدرجة الصفر في البرودة هو هبوط درجة البرودة إلى ١ , ٢٧٣ درجة سنتيغراد أو ٦ , ٤٥٩ فهرنهيت . غير أن هؤلاء العلماء لم يستطيعوا الوصول إلى هذه الدرجة من البرودة في المعامل الضخمة التي أقيمت للأغراض العلمية ، وإنما استطاعوا الوصول بدرجة البرودة إلى ٢٢٠ درجة تحت الصفر مقيسةً بميزان الحرارة المئوي (سنتيغراد) . وبعد وصولهم إلى هذا الحدّ الهائل من البرودة ، يواجهون عقباتٍ كثيرةً في سبيل الهبوط بدرجة البرودة إلى ما بعد ذلك . وصفوة القول إنّهم لم يستطيعوا الوصول إلى درجة البرودة المطلقة ، أي الصفر ، لكي يتبينوا آثار التوقّف الكامل لحركة الجزيء في الأجسام ، وهل يؤثر هذا التوقف في الذرّة أو لا .

وفي حين تتّصل التجارب العلميّة على المادّة وتستمرّ وتُميط اللثام عن كل جديد وغريبٍ في هذا الكون ، يبدو أن النظرية القائلة بأن الوجود هو المادّة اللامتناهية ، وأن ما يبدو في أعيننا كالخلاء هو مجال أشعاع المادّة ، هي نظرية غير بعيدة عن الواقع ، وخليقٌ بالعلماء أن يتأمّلوها ويتابعوها .

وللعالم الفيزيائي المعاصر إسحاق ازيموف[1] الذي ولد في روسيا وهاجر إلى الولايات المتحدة ، نظريّة علميّة عن المكان تجدر الإشارة إليها .

يقول أزيموف إنّ « المكان هو المادّة وإشعاعها » ، وإن المادّة الأصلية هي نواة الذرّة أو النواة المجتمعة ، وإنّ الأمواج المشعة الصادرة من هذه

---

(١) الواقع أن أسم هذا العالم اسم عربي فهو اسحق عظيم أوف وهو المسلمين الروس (المترجم) .

النواة يزيد ضغطها ووزنها باقترابها من النواة ، وينقص بابتعادها عنها ، دون أن يقلّل ذلك من سرعتها .

ويمكن تشبيه النواة بمصباح ينشر الضوء في ما حواليّه . فإذا ابتعدنا عنه ، قلّ الضوء دون أن تقلّ سرعته (وسرعة الضوء هي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية الواحدة) . بل إنّنا إذا ابتعدنا عن المصباح حتى لم نعد نرى ضوءه ، ظلّ الضوء موجوداً ومحتفظاً بسرعته المعتادة بتحرّك وينتشر حول المصباح . وهو لا يصل إلينا لأنَّ لأعيننا وآذاننا وحاسة اللمس عند الإنسان قدراتٍ معيّنة لاستقبال الموجات لا تتعدّاها ، فإن ابتعدنا عن المصباح المضيء في الدار حتى غاب نوره عن أعيننا ، فنوره باقٍ ، وهو ينطلق بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ، كما قلنا قبلاً ، وإن كانت عيوننا لا تدركه حتى ولو انحنى في أثناء سيره .

وكان الاعتقاد السائد في الماضي أنَّ موجات الضوء تسير في اتجاهٍ مستقيم ، غير أن التجارب الحديثة برهنت على أنَّ هذه الموجات قد تنحني إذا ما اعترضتها أجرام ذات قوة جاذبيّة شديدة ، كما برهنت على أن نور المصباح متى ابتعد عن الكرة الأرضيّة انحنى أمامها الضوء الساطع ، تجذب الضوء إليها ؟ إنَّ الرد في علم الفيزياء هو : لا ، وهو ردٌّ يحيّر العلماء الذين يتساءلون قائلين : كيف تعجز الشمس بقوة جاذبيتها الفائقة عن اجتذاب ضوء المصباح إليها في حين أنَّ الضوء ينحني عندها ؟ .

نعم ، إنّ لكلّ نجمٍ قوة جاذبية تتناسب مع جرم هذا النجم ، وأجرام الشمس هي على درجة من الكثرة تقلّ تلقاءها أجرام المنظومة الشمسية بأسرها ، إذْ أنّ مجموع أجرام المنظومة الشمسيّة يعادل أربعة عشر بالمائة من واحد من المائة من جرم الشمس . أي إنّنا إذا قسّمنا أجرام الشمس إلى مائة وحدة ، ثم جمعنا أجرام النجوم والسيارات الأخرى في المنظومة

الشمسية ، لوجدنا أنها تساوي ١٤٪ من كل وحدة من وحدات جرم الشمس المائة .

وينبغي ألّا يكون هناك لَبْسٌ في فهم الجرم ، إذ هو يختلف عن الحجم ، فجرم الجسم يقاس بالوزن أو بالحس ، وكلما ثقل وزن جسم كَبر جرمه ، وكلما كَبر جرم جسم ما ، ازدادت قوة جاذبيته ، ولأن اجرام الشمس كثيرة ومتكاثفة ، فجاذبيتها أقوى وأشدّ .

ومع ذلك ، فالشمس لا تجذب موجات الضوء المنبعث من مصابيحنا ، ولكّنها تجعلها تنحرف عن مسارها . وسبب ذلك أنّ للضوء سرعة قدرها ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وبهذه السرعة الفائقة ينطلق الضوء قاطعاً مسافات شاسعة ، ماراً من الشمس إلى كرة شمسية أخرى ، حتى يصل إلى مجموعة النيازك التي يطلق عليها اسم « كوتوله » .

وقد أطلق الفلكيون هذا الاسم على مجموعة من الشهب والنجوم التي تراكمت أجرامها وتزايدت قدرة جاذبيتها بحيث أن الضوء لا يستطيع تجاوزها ، فيصل إليها وينجذب نحوها على الفور . والأجرام التي تضمّها مجموعة « كوتوله » متراكمة بكثرة يتعذر تصوّرها .

وسبب تراكم الأجرام في هذه المجموعات النيزكية هو أنّ لذرّاتها نواة ، ولكن ليس لها الكترون . ومعروفٌ أن الذرّة هي أصغر جزء في المادة ، وأنها تشبه فضاءً خالياً كالمنظومة الشمسية تماماً ، وهناك نواة ، وهي الجزء الجوهريّ في الذرّة ، والباقي فضاءٌ خالٍ تدور فيه الإلكترونات حول النواة.، تماماً كما تدور السيّارات حول الشمس في منظومتنا .

ولو أُزيل الفاصل بين الإلكترون والنواة بحيث تبقى النواة وحدها ،

لأصبح جرم الكـرة الأرضية ككـرة اللعب ، أمّا وزنها فيسـاوي وزن الكرة الأرضية .

فالذرّات في المجموعات المسمّاة « كوتوله » فقـدت فضاءَهـا الخالي ، وفقدت الإكترونات أيضاً ، ولم تبق فيها إلا النوى المتراكمة المندمج بعضها في البعض الآخر بحيث يتألّف منها جرم متراكم واحد ، ولو حدث هذا في الكـرة الأرضية مثـلاً ، لكان وزنها معـادلاً لـوزن كـرة اللعب ، ولأن قـوة الجـاذبية تتنـاسب مع الجـرم ، فلهذه المجمـوعات جـاذبية كبيـرة لا تسمح لشعاع الضوء بتجاوزها ، وهذا هو سرّ إظلام هـذه المجموعـة ، ذلك أن الضوء يفقد موجاته حولها بسبب انجذابها نحوها .

ويقـول إسحق أزيموف أن الـطريق ـ أي المكان ـ لا وجـود له ، وإنَّ الضوء هو الذي يُوجد المكان ، وإنَّ أشعَة الضوء وموجاته هي المكان .

فمن رأي هـذا العالم الفيـزيائي الـروسيّ الأصل أنّ المكـان ليس له وجود أو حقيقة ، إلى أن ينطلق فيه الضوء ، وعندئـذ يتسبب الضوء نفسـه وبأمواجـه في إيجاد المكـان ، ولو سـألنا عن مقـدار المسافـات التي يقطعهـا الضـوء ، أو عن مقدار المسـافات التي يُـوجدهـا ، لأجاب علماء الفيـزيـاء قائلين : لا نهاية لذلك . ولأضافوا أن موجات الضوء تظل تتذبذب وتقطع المسافات إلى أن تتحوّل إلى مادة .

وثمـة سؤال آخر يعلن للبـاحث هو : كيف يُستـطاع تحويـلُ الضوء (ضوء المصباح مثـلاً) من طاقـة إلى مادة ؟ إلى هـذا اليوم ، لم يُـوفّق علم الفيزياء للاهتداء إلى جوابٍ عن هذا السؤال ، ولو حدث في أيـة لحظة أن اهتدىَ العلم إلى جوابٍ عن هذا السؤال ، لقطع بذلك مائة ألف سنة من التقدم في غمضة عين .

ففي هذا السؤال يتمثل سـر الأسرار في الفيـزياء ، بـل سر الخليقـة

وسر الوجود ، فكيف السبيل إلى تحويل الطاقة إلى مادة ؟

لقد نجح العلم في تحويل المادة إلى طاقة ، وأصبح هذا أمراً مألوفاً نرى منه ألواناً شتى ليلاً ونهاراً في المصانع والطائرات والسفن والسيارات والمنازل ، وحتى في الجسم البشري الذي تتحول فيه المادة إلى طاقة أما تحويل الطاقة إلى مادة ، فهو أمر ما زال متعذراً حتى الآن ، ولا نعرف تعليلاً لحدوثه في الكون .

والشمس ظاهرة من أبرز ظواهر الخليقة الماثلة أمام أعيننا . وما يحدث في الشمس نفسها هو أن الطاقة لا تنقلب إلى مادة ، وإنّما المادة تنقلب إلى مادة أخرى ، ذلك بأن عنصر الهيدروجين في الشمس ينقلب إلى عنصر الهليوم ، فيتسبب ذلك في توليد حرارةٍ شديدةٍ .

وإلى هذا اليوم لا يعرف العلماء كيف وُجدت الشمس ، وقُصارى ما قيل في هذا الباب لا يعدو النظريات الافتراضية التي تفتقر إلى البرهان والإثبات .

وصفوة القول إن إسحق أزيموف وهو كما قلنا عالم فيزيائي معاصر يعمل أستاذاً في جامعات أميركا ـ يُنكر وجود المكان ولا يرى حقيقة له ، ويقول إن ما نراه ونحس به هو المادة أو أمواجها وأشعتها ، وإن إحساس البشر بالمكان سببه الأشعة المنبعثة من المادة .

فإن كنت جالساً في غرفة أو في مكتب وشعرت بأنك جالس في مكان ، فسبب ذلك أن هناك أمواجاً وأشعة تُحيط بك وتكتنفك ، وإن انعدمت انعدم شعورك بالمكان .

ولكن ، هل من المستطاع وقف هذه الأمواج ، فنفقد بالتالي شعورنا بالمكان كما يقول أزيموف ؟

علم الفيـزياء يقـول في الردّ عـلى هـذا التسـاؤ ل : لا ، لأن أمـواج الضـوء تحيط بنا وتكتنفنـا حتى في الليالي المـظلمة وإنَّ لم نـر الضوء ، ولأن أمواج الصوت تتحرك من حولنا حتى في أهدأ الأجواء ، ولأن بعضها يصل الينا ويعبر من أجسامنا .

ولـو انقطعت المـوجات جميعـاً ، فموجـات الجاذبيـة لا تنقطع في أي وقت حتى في المنـطقة الخـارجة عن نـطاق جاذبيـة الأرض ، وهي جـاذبيـة يتعـرّض لها رواد سفن الفضـاء في الجو ، ولكن التـوازن الذي تحـدثه مـع سرعة السفن المنطلقة هو الذي يحول دون سقوطها .

وليس صحيحاً الاعتقاد بأن للسفن الفضائيـة في الداخـل أو الخارج مناعةَ من قوة الجاذبية .

ذلـك لأن من حقائق علم الفيـزياء أن قـوة الجاذبيـة مرتبـطة بالمـادة ارتباطاً من شأنه انتفاء المادة تماماً إذا جرّدت من هذه القـوة ، ولو انقـطعت موجات الجاذبية لما بقي على قيد الحياة كائن حيّ ، ولا بقي في الدنيا جسم جامد ولو للحظة واحدة .

أوردنا في ما تقدم خلاصةً للنظريـات التي قال بهـا علماء الفيزيـاء في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بشأن الزمان والمكان .

فإن عرفنا بعد ذلك أن رجلاً جـاء قبل اثني عشـر قرنـاً ونصف قرن وتبنّى مثـل هذه النـظرية بشـأن المكان والـزمان ، أفـلا يستحق منا تقـديراً وإجـلالاً ؟ أو ليس هذا دليـلاً على أنـه ذا عقلية سبق بهـا عصره وعصـوراً أخرى كثيرة ، وأنه كان فذّاً في تفكيره الكاشف ؟

إنّ هـذا الرجـل هو جعفـر بن محمد الصـادق (ع) الذي عـاش في النصف الأول من القـرن الثاني للهجـرة ، وساق نـظريّاتٍ حـول الـزمـان

والمكان تتفق مع نظريات العلماء المعاصرين ، ناهيك عن أن تعريف الزمان والمكان لدى الصادق (ع) كان خِلواً من المصطلحات والمعادلات العلميّة الحديثة ، وكان مصوغاً في قالب سهل المأتى ، واضح المعنى .

ففي رأي الصادق (ع) أنَّ الزمان غير موجود بذاته ، ولكنّه يكتسب واقعيته وأثره من شعورنا وإحساسنا ، كما أن الزمان هو حدٌّ فاصلٌ بين واقعتين أو وحدتين .

وهو يرى أنَّ الليل والنهار ليسا من أسباب تشخيص الزمان ومعرفته ، وإنما هما حقيقتان مستقلتان عن الزمان ، يُضاف إلى ذلك أنَّ الليل والنهار ليس لهما طول ثابت ، فالليل يقصر في الصيف ويطول في الشتاء ، والنهار على عكسه ، وهما يتعادلان أحياناً .

وفي رأي الصادق (ع) أيضاً أنّ للمكان وجوداً تبعيّاً لا ذاتياً ، وهو يتراءى لنا بالطول والعرض والارتفاع ، ولكن وجوده التبعيّ يختلف باختلاف مراحل العمر ، ومن ذلك مثلاً أنّ الطفل الذي يعيش في بيتٍ صغيرٍ ، يرى بخياله وأحلامه أنّ فضاء البيت ساحة كبرى . ومتى بلغ هذا الطفلُ العشرين من عمره ، رأى هذه الدار مكاناً صغيراً جداً ، وأدهشه أنه كان يراها واسعةً رحيبةً في طفولته .

فللمكان ، بناءً على ذلك ، وجودٌ تبعيٌّ لا حقيقي ، وفي هذا اتّفقت آراء علماء الفيزياء في القرن العشرين مع رأي الإمام الصادق في القرن السابع الميلادي .

نظريّة الصّادق «ع» حول أسباب بعض الأمراض

ومن النظريّات التي قال بها الإمام الصادق (ع) وكشفت عن نبوغه العلميّ وإحاطته الواسعة بدقائق العلوم ، نظريّته المتعلقة بانتقال بعض الأمراض عن طريق الضوء من المريض إلى السليم .

ومؤدّى هذه النظرية أنّ هناك أمراضاً ينبعث منها ضوءٌ ، فإذا أصاب الضوء أحداً ، انتابته العلّة .

ولا بد من ملاحظة أنَّ هذا القول لا ينسحب على العدوى بطريق الهواء أو الميكروب ، لأنّ هذه الحقيقة لم تكنْ قد كُشفت بعد أيام الصادق (ع) ، وإنّما ينصب هذا القول على الضوء - وليس كل ضوء - بل الضوء الذي يشعه المريض ، فإذا أصابَ سليماً أمرضه .

وقد ذهب علماء الأحياء إلى أن هذه النظرية ضربٌ من الخرافة ، اعتقاداً منهم بأن العامل الرئيسي في انتقال المرض هو الميكروب أو الفيروس الذي ينتقل بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق الحشرات أو الماء أو الهواء الملوث .

وكان الاعتقاد السائد بين المطبّبين قبل اكتشاف الميكروب أن الرائحة

هي السبب الفعّال في انتقال المرض ، ولهذا صرفوا اهتمامهم إلى الحيلولة دون انتقال الرائحة من المريض إلى السليم . أمّا ما ذهب إليه الصادق (ع) من أنّ الضوء المشعّ المنبعث من المريض هو الذي يتسبّب في نقل العدوى ، فهو نظريةٌ لم يقل بها أحدٌ في أي مرحلةٍ من مراحل تاريخ الطبّ الطويل .

وظلّت هذه النظرية معدودةً من الخُرافات في رأي العلماء والباحثين إلى أن جاءت التجارب العلميّة المعاصرة معزّزةً لها ومُثبتةً لصدق آراء الصادق (ع) هذه .

ففي مدينة « نوو - وو - سيبيرسك »[1] الواقعة في الاتحاد السوفياتي مركزٌ من أهمّ مراكز البحوث في العلوم الكيميائية والطبيّة . وقد استطاع هذا المركز أن يُثبت للمرّة الأولى بأن هناك من الأمراض ما يُشعُّ ضوئاً ، وأنّ هذا الضوء قادر في حدّ ذاته ، ودون ميكروبٍ أو فيروس ، على إصابة الخلايا السليمة وإيقاع المرض بها .

أمّا الأسلوب الذي اتّبعه علماء مركز « نوو - وو - سيبيرسك » في إجراء تجاربهم فكان على النحو التالي :

تخيّر العلماء مجموعتين من الخلايا الموجودة في كائنٍ حيّ ، وراعوا فيها أن تكونا من نفس العضو ، كخلايا القلب أو الكلى مثلا ، ثم أجروا عليهما عملية تجزئة أو تحليل ، وتابعوا نتيجة ذلك . وقد تبيّنوا أن الخليّة

(١) عرفت هذه المدينة قديماً باسم « نوو - وو - نيكله يوفسك » ، ثم غُيّر اسمها في عام ١٩٢٥ إلى « نوو - وو - سيبيرسك » ، وهي تُعدُّ من المراكز العلمية والصناعية الهامة في مقاطعة سيبيريا الروسية . ويؤخذ من آخر إحصاء ورد في دائرة المعارف الجغرافية البريطانية أنّ عدد سكانها كان في عام ١٩٦٣ حوالي مليون نسمة (٩٩٠,٠٠٠ على وجه التحديد) .

تشعّ أنواعاً من « الفـوتون » ، (ومعروف أن ذرّة الضوء تسمى بالفوتون ، وهو أصغر جزء منه) وبفضل التقدّم العلميّ استطاعت المختبرات العلميّـة تجزئة الفوتون وإجراء تجارب علميّة عليه .

وبعـد إجراء البحـوث الدقيقـة على هـاتين المجمـوعتين من الخـلايا المتشـابهة والمختلفـة في الكائن الحيّ ، أدخلوا المـرض عـلى مجمـوعـةٍ منهـا ليتابعوا تأثير إشعاعه ، فوجدوا أن الفوتون يشعّ من الخلية المريضة أيضـاً ، وأن المرض يمنع الخلية من الإشعاع .

ثم انتقل العلماء إلى المرحلة الثانية من التجـارب ، فوضعـوا الخلايـا السليمة في حافظتين إحداهما من الكوارتز[1] والأخرى من الزجاج .

ومعروف أن من خواصّ الكوارتز مقاومته للأشعة ، فـلا تخترقـه إلاّ الأشعـة البنفسجية ، في حين أن من خواصّ الـزجاج العـادي أن فـوتـون أنواع الأشعة يخترقه ما عدا الأشعة فوق البنفسجية .

وقـد تبين العلماء بعـد انقضاء سـاعاتٍ عـلى الخـليات الموجـودة في الحافظتين أمام الخلية المريضـة أنّ ما كـان منها في حـافظة الكـوارتز أصيب بالمرض ، أما الخلايا التي كانت في الحافظة الزجاجية فقد بقيت سالمة .

وما دام الكوارتز يقاوم جميع أنواع الأشعة ما عدا الأشعة فوق البنفسجية ، وما دام الزجاج يقاوم الأشعة فـوق البنفسجية وحـدها ، فقـد تحقق من هـذه التجربـة أن الخليّة المـريضـة التي تصـدر منهـا أشعـة فـوق بنفسجيـة قـادرة عـلى نقـل المـرض إلى الخـلايـا السليمـة من خـلال هـذه الأشعة . أما الخلايا السليمة الموضوعة في الحـافظة الـزجاجيـة ، فلم تصل

(١) الكـوارتـز ، ويسمى أيضـاً السليكـا ، حجـر معـدني متبلور يكـثر في جبـال الأورال السوفيتية ، ويسمى النوع الأبيض منه بألماس الأورال .

إليها الأشعة فوق البنفسجية الصادرة عن الخلية المـريضة ، وبقيت محتفـظةً بسلامتها ، في حين أن الخلايا السليمة الموجودة في حافظة الكوارتز أصابتها العلّة لأن الكـوارتز لا يقـاوم الأشعة فـوق البنفسجية الصـادرة من الخلايـا المريضة .

وقد أُعيدت هذه التجارب على أمراضٍ مختلفة وعلى خـلايا متشـابهة ومختلفة طوال ربع قرن ، وبلغ عـدد التجارب التي أجـريت خمسة آلاف ، وذلك للتوصّل إلى رأيٍ علمي ثابت بالبرهان العلمي المتكرر .

وقـد تشابهت نتـائج هـذه التجارب ، ودلّت بصـورةٍ قاطعـة على أن الخلية المريضـة تنبعث منها أشعـة مختلفة ، منهـا الأشعة فـوق البنفسجية ، وأن الخلية السليمة إذا ما أصابتهـا أشعة فـوق بنفسجية صـادرة عن خلية مريضة ، انتقلت إليها نفس علّة الخلية المريضة .

ولم يحـدث في جميع التجـارب التي استمرّت خمسـاً وعشرين سنـة أن تجاوزت الخلايا السليمة والخلايا المريضة بحيث يقـال إن عدوى الميكـروب أو الفيـروس انتقلت من هـذه إلى تلك بـالاحتكـاك ، فنبت للبـاحثـين أن سبب انتقـال العـدوى هـو الأشعـة فـوق البنفسجيـة المنبعثـة من الخليّـة المريضة .

وإذا منعنا هذه الأشعة من الوصول من الخلايـا المريضـة إلى الخلايـا السليمة ، منعنا المرض من الانتقال من هذه إلى تلك .

ومن خـواص المضادّات الحيـوية أنها تقلّل من حـدة هذه الأشعـة ، فتشلّ قدرتها على نقل العدوى من الخلايا المريضة إلى الخلايا السليمة .

ويؤخذ من البحوث التي أجريت في هذا المركز العلمي السـوفيتي أن خـلايا جسم الإنسـان تصدر عن كـل منها أشعـة فوق بنفسجيـة ، كما أنها

تستقبل هذه الأشعة ، أي أنها ترسلها وتستقبلها وتنقل العدوى بسببها إذا ما انتقلت من خليّة مريضة إلى خليةٍ سليمة . أما إذا كانت الخلية سليمة ، فلا يترتب على انتقال الأشعة ضرر أو مرض .

كذلك ثبت أن الخلايا السليمة ، إذا ما مرضت بفعل التوكسين (السم)، أصبحت بدورها ناقلةً للعدوى بفعل الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة منها .

والتوكسين سمّ تولده عناصر وخلايا موجودة في جسم الإنسان ، ولكن مفعوله في الجسم يختلف عن مفعول الميكروبات والفيروسات . والإكثار من الطعام هو من العوامل الهامة في توليد التوكسين بكمياتٍ زائدةٍ في جسم الإنسان عند التقدم في العمر .

وقد ثبت من التجارب العلمية التي أُجريت ، وعددها خمسة آلاف تجربة ، أن الخلايا المريضة تنتقل منها العدوى إلى الخلايا السليمة بفعل الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الأولى ، كما ثبت أن الخلايا المريضة بالتوكسين تنقل المرض بدورها بفعل هذه الأشعة عينها ، دون انتقالٍ لأي ميكروب أو فيروس من الخلايا المريضة إلى الخلايا السليمة .

ولا ريب في أن النتائج التي أسفرت عنها هذه التجارب قد فتحت أمام علماء الأحياء والطب ميداناً جديداً يطرقونه لمعالجة الأمراض ، يتمثّل في اللجوء إلى إحدى طريقتين : إمّا الاهتداء إلى وسيلة تمنع انتقال الأشعة البنفسجية من الخلية المريضة إلى الخلية السليمة (كما هو الحال في انتقال الخلية المصابة بالسرطان إلى غيرها من الخلايا السليمة من طريق الأشعة فوق البنفسجية)، وإمّا بإكساب الجسم مناعة ، بحيث تستطيع خلاياه السليمة مقاومة هذه الأشعة الناقلة للعدوى .

وقد أُنعش هذا الكشف العلمي العظيم آمالا عريضة في إمكان

التوسل بهذا الأسلوب في معالجة الأمراض المستعصية كالسرطان وغيره . ومع أن العلماء يتفاءلون دائماً بقرب تحقيق المعجزات ، إلّا أننا نفضل دائماً انتظار ما تُسفر عنه التجارب العلمية المتصلة ، فهي وحدها التي تقطع بالنجاح أو بالفشل .

وثمة حقيقة لا ريب فيها ، عززتها طائفة كبيرة من العلماء والباحثين في المراكز العلمية الأخرى ، مؤداها أن الخلايا المصابة بأمراض مختلفة يشع كل مرضٍ منها نوعاً خاصاً من الفوتون يختلف عن غيره من فوتونات الأمراض الأخرى . والعلماء عاكفون على إعداد جدولٍ علمي يضم جميع أنواع الفوتونات والرقم الرمزي الخاص بكل نوع منها ، ولكن إعداده يحتاج إلى وقت طويل بالنظر إلى كثرة عدد الميكروبات والفيروسات وأنواع التوكسين (السم)، ومع ذلك ، فقد استطاعوا قبل الفراغ من هذا الحصر والإحصاء أن يشخّصوا كثيراً من الأمراض والفوتونات التي تشعّها وطرق علاجها .

وعلى سبيل المثال نذكر أن العلماء استطاعوا بعد كشف أسباب العدوى بميكروب الانفلونزا ونوع الفوتون الذي يشعّه وكذلك أشعته فوق البنفسجية ، أن يحددوا العلاج الكفيل بمنع سريان هذا المرض إلى الخلايا السليمة الأخرى .

وقد أُجريت تجارب علمية مماثلة في الولايات المتحدة الامريكية ، فجاءت نتائجها متفقةً مع ما انتهى إليه مركز الأبحاث السوفيتية ، كما وضع الدكتور جون أوت كتاباً في هذا الموضوع ونشرت المجلات الطبية والعلمية نتائج هذه البحوث .

سُقنا هذا العرض لندلّل على أن العلم الحديث قد جاء مؤكداً للنظرية التي دعا إليها الإمام الصادق (ع) في منتصف القرن الثاني

للهجرة ومؤدّاها أن الضوء المنبعث من مرضٍ ما يتسبب في إصابة الغير بالمرض ، وهي النظرية التي اعتبرت يومها من الخرافات البعيدة عن الواقع ، فقد أقام العلم الحديث البرهان على أن الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الخلايا المريضة تتسبب في نقل الأمراض إلى الخلايا السليمة . أما الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس فهي لا تصيب الإنسان أو الكائنات الحيّة بالمرض إلاّ إذا وصلت إلى جسم الإنسان والحيوان دون أن تمرّ من الهواء ، أي دون أن يفصل بينها وبين الكائن الحيّ عائق مثل طبقة الهواء ، ولولا هذه الطبقة الهوائية العازلة ، لهلكت الكائنات الحية . وصفوة القول ، إن التجارب العلمية قد جاءت مؤكّدة لنظرية الإمام الصادق (ع) بعد ألف ومائتين وخمسين سنة .

على أن موضوع انتقال عدوى بعض الأمراض من الجسم المريض إلى الجسم السليم قد اهتدى إليه الإنسان من قديم ، فقد جاء في ورقةٍ من أوراق البردي المصرية القديمة ، التي يرجع تاريخها إلى ١٥ قرناً قبل الميلاد والتي يحتفظ بها المتحف الفرنسي ، أن رجال فراعنة مصر منعوا المسافرين في سفينةٍ من النزول إلى الساحل لأنهم كانوا مرضى ، وخيف من نقلهم العدوى إلى الأصحّاء .

وتثبت هذه الوثيقة التاريخية حقيقتين ، أولاهما أن النقل البحري كان مزدهراً في مصر القديمة بين المدن المتناثرة على ضفتي النيل والبحرين الأحمر والأبيض ، وثانيتهما أن الطب كان متقدماً في مصر القديمة في هذه الفترة السحيقة التي ترجع إلى ٣٥٠٠ سنة مضت .

فقد ثبت عند الناس من قديم أن بعض الأمراض ينتقل من المعتلّ إلى السليم ، أي أن هناك طائفةً من الميكروبات التي تنقل العدوى .

أما وقد نجح التجريب العلمي في أثبات نظرية الإمام الصادق

(ع) من أن الأشعة فوق البنفسجية التي تنبعث من الخلية المريضة تتسبب في اعتلال الخلايا السليمة ، فهل يمكن قياس فعّالية هذه الأشعة ؟ وهل يجوز القول بأن الأمراض التي تظهر في ناحيةٍ دون أخرى ، أو الأمراض التي تقع مرة واحدة أو مصادفةً ، إنما هي أمراض انتقلت من خلايا مريضة بفعل الأشعة فوق البنفسجية ؟ إن الرد على هذه التساؤلات ، بما فيها قياس مفعول الأشعة الناقلة للعدوى ، مازال أمراً غير مقطوع به .

صحيح أن العلم الحديث عرف أن الفيروس لا يكاد يتخذ مكانه في الخلية حتى يشرع في التكاثر والانتشار بسرعةٍ فائقة ، وأن المضادات الحيوية أو غيرها من العقاقير تساعد على قتل الجراثيم والفيروسات في جسم الإنسان ، ولكن العلم الحديث ما زال يجهل أشياء كثيرة ، منها مثلاً سبب إصابة الخلايا بالشيخوخة . ولو عُرفت علّة هذه الشيخوخة وعُولجت في الخلايا ، لانتفت الشيخوخة من حياة الإنسان .

ومن الثابت والمقطوع به لدى العلماء الأمريكيين والروس أن الفوتون الموجود في الخلية المريضة ـ وهو جزء صغير من الضوء ـ إذا انبعثت منه أشعة فوق بنفسجية ووقعت على خلية أخرى سليمة ، لتسببت في إصابتها بالمرض .

وللإيضاح نقول إنه إذا تصورنا أن الجرثومة (الميكروب) هي في حجم البالون ، كان الفيروس في حجم حبّة السمسم بالنسبة إليه . ولكن هذه الحبة الصغيرة بالنسبة للميكروب تحمل معها عدوى المرض إلى الخلايا السليمة .

وربّما كان تعليل ذلك أن الفوتون يحمل معه جرثومةً صغيرة جداً من المرض ، وأن هذه الجرثومة تتسبب في اعتلال الخلية السليمة ، وربما نجح العلم في القريب في تبيان كيفية انتقال المرض من الخلية المريضة إلى الخلايا

السليمة من خلال الأشعة فوق البنفسجية ، والعلم الحديث كفيل بكشف الغوامض جميعاً .

ولا تقتصر النظريات العلمية الكاشفة للإمام الصادق (ع)، ولا سيما في الفيزياء ، على ما أوردناه في هذا البحث حتى الآن ، بل إن له نظريات هامة أخرى أكدّتها التجارب العلمية الحديثة .

ومن هذه النظريات مثلاً قوله إن لكل كائن موجود وجوداً ذاتياً كائناً مضاداً له ، ما عدا الله ، ولكن الضدّين لا يتصادمان ولا يجتمعان ، ولو اجتمعا أو تصادما لكانت في ذلك نهاية العالم .

وهذه النظرية هي بعينها النظرية الحديثة القائلة إن للمادة نقيضاً أو مضادّاً (anti- body) وقد قطعت هذه النظرية شوطاً بعيداً في سبيل إثباتها بالتجريب العلمي .

والعلماء في البلدان المتقدمة عاكفون اليوم على البحث في مضادات العناصر المختلفة ونقائضها رغبةً في التحقق منها[1] .

والفرق بين المادة ومضاد المادة أو نقيضها يتحصّل في أن المادة في العناصر المادية تتركب ذرّاتها من نواة مركزية موجبة تدور في فلكها إلكترونات سالبة ، في حين أن ذرات المادة المضادة تتألف من نواةٍ سالبة تدور في فلكها إلكترونات موجبة ، أي أنها تماثلها ولكن بصورة عكسية تماماً .

---

(١) من مؤدى هذه النظرية أن لكل مادةٍ نقيضاً أو مضاداً ، وأن المواجهة بين المادة ونقيضها تنتهي بفناء المادة . ويبدو من البحوث التي أجراها العلماء في مختبرات كالهام في انكلترا وبروكهافن في الولايات المتحدة وكارلسروه في ألمانيا الغربية أن هذه النظرية صحيحة . وهناك اعتقاد بأن المادة ونقيضها قد خلقهما الله معاً عندما أوجد هذا الكون ، وأن للإثنين أصلاً واحداً وأنهما يتطرّوان تطوراً واحداً راجع « العلوم الطبيعية في القرآن » لحسين مروة ص ٢٢٢ .

ولم تجر حتى الآن تجربة يُراد منها تحقيق مواجهة بين ذرّات المادة وذرات مضادّها ، ولا تُعرف بالتالي نتيجة مثل هذه المواجهة ، وهل يسفر التصادم بينهما عن انفجارٍ أو عن أي عواقب أخرى ما زال أمرها في طي الغيب .

والحديث عن وقوع انفجارٍ نتيجةً لهذا التصادم لا يعدو أن يكون رأياً شبيهاً إلى حد كبير بالرأي النظري الذي كان يقول به العلماء حول شطر نواة ذرة عنصر الأورانيوم قبل صيف عام ١٩٤٤ عندما فجّرت أمريكا نواة الذّرة للمرّة الأولى ، وحسمت بالقنبلة الذرية الحرب العالمية الثانية ، إذ كان العلماء في ذلك الوقت يتحدثون عن إمكان حدوث سلسلة من الانفجارات المتصلة والمتعاقبة في عناصر الأرض إذا ما أمكن تفجير نواة الذرة ، أي إحداث تفجير نووي ، ولكن التفجير الذي أحدثته أمريكا انتهى دون أن ينتقل إلى بقية العناصر في الكرة الأرضية .

صحيح أنه قد أُجريت تفجيرات أخرى كثيرة حتى الآن، سواء في الولايات المتحدة أو في غيرها ، ولكن هذه التفجيرات كانت محدودة ، ولم تنتقل إلى سائر العناصر في الكرة الأرضية ، ولكن التفجير النووي شيء ، والتفجير الذي يحتمل أن يحدث نتيجة لتصادم المادة ومضادها شيء آخر .

فالتفجير النووي أو الهيدروجيني يحوّل جزءاً صغيراً من المادة إلى طاقة ، ويُبقي الجزء الأكبر عاطلاً فلا يتحول إلى طاقة[1] .

---

(١) وفقاً لقانون تحويل المادة إلى طاقة ، تحتسب الكتلة بالغرام ، ويُقاس مربع سرعة الضوء بالسنتيمتر ، أي السرعة التي بها يقطع الضوء مسافة سنتيمتر واحد . وبعد تحديد هذا القياس يُضرب في مربعه ، ثم يضرب حاصل الضرب في وزن الكتلة مقيسة بالغرام ، والناتج هو مقدار الطاقة .

وتقاس الطاقة بمقياس آخر يطلق عليه اسم « ايرك » ، والإيرك هو القوة التي تتحصل من كتلة غرام واحد في سنتيمتر واحد من سرعة الضوء في ثانية واحدة . ولو أردنا معرفة =

ويؤخذ من معادلة أينشتين الذرّية أن الطاقة تساوي الكتلة مضروبةً في مربع إلى فناء العالم ، فقد استولى القلق والخوف الكبيران على علماء الفيزياء الذين صنعوا القنبلة الذرّية الامريكية وفجّروها لأول مرة في عام ١٩٤٤ خشية أن تحلّ بالعالم كارثة ماحقة .

واليوم يقول علماء الفيزياء الذين يدرسون احتمالات اصطدام المادة بمضادها إنّ هذا التصادم سينتهي بتحويل الاثنين إلى طاقة خالصة . ويذهب هؤلاء العلماء إلى أن اصطدام كيلو غرام من المادة بكيلو غرام من مضادها كفيل بتوليد طاقة تفني الكرة الأرضية إفناءً تاماً وتحوّلها إلى غاز شديد الحرارة ينتشر في المنظومة الشمسية بأسرها .

ولكن البروفسير آلفون ، وهو أستاذ للفيزياء بجامعة « لوند » السويدية ، عارض هذه النظرية قائلاً إن الأمر سينتهي بالإنسان إلى استغلال الطاقة المتحصّلة من اصطدام المادة بمضادها وتسخيرها في أغراضه الصناعية باعتبارها طاقةً لا تنفد . في حين أن الطاقة التي يمكن توليدها من البرق ومن شطر نواة اليورانيوم ومن الهيدروجين ومن مساقط المياه وحركات البحار هي طاقة لا تحلّ مشكلة الإنسان ، ويعزّز هذا العالم رأيه بقوله إنّ الطاقة المتولّدة من اصطدام مائة كيلو غرام من المادة ومضادها ، تكفي حاجات البشر من الطاقة في الكرة الأرضية بأسرها في سنةٍ كاملة .

= الطاقة التي تنبعث من كيلو غرام ، أي ألف غرام من مادة معينة ، لضربنا النتيجة السابقة في ألف ـ هذا طبعاً إذا تحوّل الكيلو غرام كله إلى طاقة . (المترجم) .

وحتى نعرف مقدار ذرّة الهيدروجين وحجمها ، تكفي الإشارة إلى أن وحدات الكتلة الذرّية تقاس بوحدة الهيدروجين ، وتعتبر ذرّة الهيدروجين وحدة للقياس ووزنها ١,٦٦ جزء من مليون مليار مليار جزء من الغرام ، وكثافة نواة الذرّة تبلغ مائة مليون طن لكل سنتيمتر مكعب .

(راجع كتاب الدكتور يوسف مرّوة ص ١٩٥)

ولكن كـان كل مـا يُقال عن عـواقب اصطدام المـادة ومضادهـا رجماً بالغيب ، لأن هذا لم يتحقق بالتجريب العملي ، فإن البروفسير آلفون يرى أن مثل هذا التصادم ـ إن تحقق ـ لن يولّد إلا طاقةً خالصة من جميع عناصر التلوث التي تفسد البيئة .

وقـد أطلق البـروفسـير آلفن عـلى الـطاقـة الحـاصلة من اصـطدام العنصـرين اسم (ماتـرجي » Materji في مقابـل « إنـرجي » Energy وهي الطاقة المولّدة من المادة .

ويؤخذ من الفروض النظرية لهذا العالِم أنـه لو حـدث اصطدام بـين ٥٠٠ غرام من المادة و٥٠٠ غرام من مضاد المادة لتولّـدت من ذلك حـرارة قدرها مـائة مليـار درجة (أي مـائة ألف مليـون درجة) ، وليس في العـالم مصدر يمكنه إعطاء البشرية هذا القدر من الحرارة ، علماً بـأن حرارة مـركز قرص الشمس لا تزيد عن عشرة ملايين درجة .

ويقول البروفسـير آلفن في الرد عـلى التساؤ ل : أفيستـطيع الإنسـان إخضاع هذا القدر الهائل من الحرارة وتسخيـره في قضاء مـطالبه ؟ إن هـذا ممكن إذا ما استطعنا إحداث تفجـير جزئي في عمليـة تصادم العنصـرين ، تماماً كما أن التفجير الذي يحدث في نواة الذرّة هو تفجير جـزئي أو ناقص . وقد تقدّم أن جزءاً فقط من المادة هو الذي يتنـاوله التفجـير الذّري ويحـولّه إلى طاقة ، أما القدر الأكبر من المادة فيبقى دون تفجير ويذهب هباء .

ويذهب البروفسـير آلفن إلى أن المانـع من إحداث تفجـير بين المـادة ومضاد المادة هو مانـع اقتصادي ، لأن التجـربة الأولى ستكلّف مـا يتفاوت بين عشرة مليـارات وخمسة عشـر ملياراً من الـدولارات ، وهو مبلغ طـائل تنوء به ميزانيات الحكومات والمؤ سسات .

ولو تمّت هذه التجربة ، لأمكن بسهولة توليد الطاقة من هذا المصدر ، وإذا كان العلماء اختاروا اليورانيوم من دون العناصر الأخرى في التجارب التي قاموا بها لتفتيت نواة الذرة ، فأرجح الآراء أن عنصر الهليوم هو الذي سيختار دون سائر العناصر لإجراء تجارب اصطدام المادة بمضادّها ، وسبب ذلك أن علماء الفيزياء في الاتحاد السوفيتي قد اكتشفوا مضادّ الهليوم ، ولعلهم يعدّون لإحداث مواجهة بين الهليوم وهذا المضاد .

نظرية الصادق (ع) بشأن أشعة النجوم

ذكرنا ـ في ما سبق ـ أنه لو قلّ أن يكون هناك موضوع علمي وليس للصادق (ع) رأي ذو وزن فيه .

وقد درسنا حتى الآن بعض النظريات التي طلع بها والتي تشهد له بأنه كان ذا عقلية علمية مرتبة ، ولا تتوافر أمثال هذه العقليات إلّا لأفذاذ العباقرة .

وللصادق كذلك نظرية تتعلق بضوء النجوم من مؤداها أن بين النجوم التي نراها في الليل ما هو أضخم من الشمس ، وأن شمسنا تعتبر بالقياس إليها صغيرة الحجم ضئيلة الضياء .

واليوم ، وبعد مضّي اثني عشر قرناً ونصف قرن ، أثبت العلم صحة نظرية الإمام الصادق (ع) ، إذ تبين للعلماء أن هناك مجموعات من النجوم السواطع تتضاءل تلقاء حجمها وضيائها الشمس نفسها .

ويطلق على هذه النجوم (المجرّات) اسم (الكوزرز) الواحدة منها كوزار Quasars[1] ، وبعضها يبعد عن الأرض بمقدار تسعة آلاف مليون

(١) اختصرت لفظة الكوزار Quasars من عبارة انجليزية طويلة هي Quasi Stellar redio

(أي تسعة مليارات) سنة ضوئية . وما يصل إلى المراقب الفلكية اليوم من الأمواج الضوئية الصادرة عن هذه المجموعات يقطع المسافة الشاسعة بين هذه المجموعات وبيننا في تسعة آلاف مليون سنة ضوئية .

وهناك مراقب راديو تلسكوبية ضخمة ترصد هذه النجوم والأنوار الساطعة المنبعثة منها حتى في النهار ، منها مرقب (آرسي بوئه) في جزيرة (بورتوريكو) والذي يبلغ قطره ثلاثمائة مترا .

ويساوي الضوء المنبعث من بعض هذه الكوازر ضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرة ، (أي ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) وهو رقم ليس فيه خطأ أو شطط .

ووحدة قياس الضوء التي يستند إليها علماء الفلك في قياس ضوء النجوم هي ضوء الشمس ، وللمرء أن يتصوّر الضخامة المتناهية لبعض المجموعات من الكوازر إذا كان ضوؤها يعادل ضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرّة ، كما ذكرنا ، فينحط ضوء الشمس أمامها ويصبح كضوء شمعة صغيرة .

ورغبةً في رصد هذه المجرّات الضوئية الضخمة التي اكتشفت المجرّة الأولى منها في سنة ١٩٦٣ م (وهناك أكثر من مائتي مجرّة قد اكتشفت حتى الآن) فكّر العلما في صنع مرقب فلكي سعة دائرته ثلاثون ألف متر (ثلاثون كيلو متراً) .

وبالنظر إلى استحالة صنع مرقب (راديو تلسكوب) له هذه السعة ،

---

sources ومعناها مصادر راديوية شبيهة بالنجوم . (راجع كتاب « أوراق علمية » للدكتور فؤاد صرّوف ص ٣٥٩) .

بدأ العلماء يفكرون في صنع مرقب كهربي له هوائيات قوية ترتفع على شكل حرف Y بحيث تكون المسافة بين كل رأس من رؤوس هذا الحرف واحداً وعشرين كيلو متراً . أما الهوائي فيتنقّل بين المحاور الثلاثة ويتّم التحكّم فيه إلكترونياً ، ويبلغ طول الهوائيات الثلاثة ٢١ كيلو متراً ، ولها قدرة على الرصد كما لو كانت سعة المرصد ثلاثين ألف متر ، ويتم توجيه هذا الجهاز إلى الكوازر لمشاهدتها بمزيد من الدقة .

وقد اعتاد الفلكيون منذ القرن الثامن عشر الميلادي على اكتشاف كتل ضوئية في السماء ، وكانت المسافة السحيقة التي تفصل هذه الأجرام المضيئة عنّا من الأمور المألوفة التي لا تثير دهشة العلماء آنذاك .

ولكن ، لمّا رأى علماء الفلك مجموعة الكوازر البعيدة في عام ١٩٦٣ م مستعينين بمرقب (راديو تلسكوب) آرسي بوئه في بورتوريكو ، استولت عليهم الدهشة لأنها تبعد عنا بمقدار ٩ مليارات سنة ضوئية ، في حين أن العالم اينشتين كان يعتقد بأن قطر العالم ثلاثة مليارات سنة ضوئية .

ولكي تستطيع الأذهان إدراك مدى ضخامة هذه المسافة الشاسعة ، نذكر أن الضوء يحتاج إلى سنة كاملة لكي يقطع بسرعته الفائقة مسافة ٩٥٠٠ مليار كيلو متر . فإن أردنا أن نعرف مقدار المسافة الحقيقية بين مجرّات الكوازر والأرض ، ضربنا ٩٥٠٠ مليار سنة في ٩٥٠٠ مليار كيلو متر .

وبغض النظر عن ضخامة هذه المسافة التي يتعذّر على العقل تصورها ، فإن مما يزيد في حيرة علماء الفلك أن مجرّات الكوازر تطلق ضوءاً ساطعاً يساوي ضوء الشمس ١٠ آلاف مليار مرة ، وحتى الآن لم يكتشف العلماء

كَنه هذه الكوازر والعناصر التي تتركّب منها والتي تمكّنها من توليد كلّ هذه الحرارة والطاقة العجيبة .

ويقول البروفسير آلفون الذي مرّ ذكره إن المصدر الوحيد في الكون الذي يمكنه توليد مثل هذه الطاقة هو المادة إذ تنفجر بعد اصطدامها بمضادها ،ولو نجح علماء الذرة في الاتحاد السوفييتي مثلاً في تفجير عنصر الهليوم بعد اصطدامه بمضادّ الهليوم ، لاهتدى العالم إلى مصدر للطاقة لا نفاذ له ، ولهان على العلماء معرفة سرّ الحرارة والطاقة المنبعثة من مجرّات الكوازر .

ومع انقضاء ٢٩ عاماً(*) على التفجير النوويّ الأول الذي تم في الولايات المتحدة الأميركية ، لم يستطع علماء الذرّة تفجير نُوى ذرّات العناصر والأجرام الأخرى ، ما عدا اليورانيوم والبلوتونيوم (والبلوتونيوم يُستخرج من اليورانوم)، فهم لم يستطيعوا تفجير نواة ذرّة الهيدروجين ، أما الطاقة التي أمكن توليدها من الهيدروجين ، فقد ولدّت لا من شطر نواة ذرّته كما هو الحال في اليورانيوم والبلوتونيوم ، بل من ادغام عناصرها بعضها ببعض .

وإذا كان العلماء الذرّيون قد توصّلوا إلى كشف مضادّ الهليوم ، فإنّهم لم يوفّقوا حتى الآن إلى كشف مضادّ لعناصر أخرى كالأوكسجين أو الأوزوت (النتروجين) مثلاً .

ومعروف أن الحديد هو من العناصر المتوافرة في كل مكان ، ولكن علماء الذرّة لم ينجحوا حتى الآن في أحداث تفجير نوويّ في ذرات الحديد ، مع أن نظرية تفجير نواة الذرة التي قد طُبقت بنجاح على

(*) عند صدور هذا الكتاب بالفرنسية .

اليورانيوم والبلوتـونيوم مفـروض أنها تنطبق كـذلك عـلى الحديـد والنحاس والرصاص والزنّك (الخالصين) وغيرها من العنـاصر ، لأن تـركيب ذرّات هذه العناصر شبيه من حيث قابليته للشطر بتركيب ذرّات اليورانيوم ، ومع ذلـك لم تستطيـع الدول الحـائزة للطاقـة الذرّيـة إحداث هـذا التفجير حتى الآن .

ثم إن المـرقب الفلكي (الراديـو تلسكوب) لم يـرصد أشعـة النجوم وحـدها ، وإنمـا رصد كـذلك الجـزئيات المتنـاثرة في الفضـاء الرحيب حتى بلغت الأنواع التي كشفت منها حتى الآن أكثر من ثلاثين جزئياً . وتتكّون الأحمـاض الأمينيـة أو البـروتينيـة من قسم من هـذه الجـزئيـات ، بمعنى أن عناصر خلايا الكائن الحيّ موجودة في الجزيئات المتناثرة في الفضاء .

ويؤخذ من وجود هذه الجزيئـات في الفضاء أن وجـود الإنسان عـلى الكـرة الأرضية لم يكن أمـراً عارضـاً ، وإنما هـو مرتبط بـالوجـود الشـامـل العام .

ويسوغ لنا اليوم أن نقول باطمئنان وثقة إن الأرض كانت في بـادىء الأمر عارية من كل أثر للحياة لأنها كانت جرمـاً منصهراً ذا حـرارة شديـدة تستحيـل معهـا الحيـاة ، فلما مـالت الأرض إلى البـرودة ، انتقلت إليهـا الجراثيم الحيوية المبعثرة في الفضـاء اللاّمتنـاهي ، وأوجدت الخلّيـة الحية ، وخاصة الجزيئات الخمسة التي أطلقت عليها أسماء (أوراسيل ، كـوآنين ، أوهنين ، سيتورين) وهذه بدورها أوجدت الأحماض الأمينية والبـروتينية في الأرض ، ومن جملتها الخلايا الحيّة للحيوان والإنسان . ويُعـزى الفضل في هذا الكشف العلمي الضخم إلى المراقب الفلكية (الراديو تلسكوب) .

وإلى وقت قريب ، كانت المراقب الفلكية ترصد النجوم ، وتقف من خلال طيفها على العناصر المكّونـة لها ، وتستنتـج درجة حـرارة كلّ نجم ،

ولكنّها لم تكن قادرةً على رصد الجزيئات الموجودة في الفضاء ، ولكنّ الراديو تلسكوب الفلكي قد نجح في كشف هذه الجزيئات التي فيها جرثومة الحياة ، فكان هذا انجازاً كبيراً منه .

وإذا كانت الحياة قد وُجدت على الكرة الأرضية لا بمحض الصدفة ، ولا باعتبارها امراً عارضا ، ففي الوسع القول بأن هناك حياة وكائنات تعيش في الكواكب الأخرى الشبيهة بالكرة الأرضية ، ولعلّها سبقت الكرة الأرضية في نشأة الحياة عليها بآلاف الملايين من السنين ، لأن هذه الكواكب سبقت الكرة الأرضية إلى الوجود بآلاف الملايين من السنين .

ولا يُستبعد أن تكون الكائنات الحيّة التي تعيش في هذه الكواكب قد نجحت من آلاف السنين في حلّ المشكلات المعقدة التي ما زالت تنوء بالبشر ، وإنْ كان القدم لا يُعدُّ في حدّ ذاته مقياساً للكفاءة والعلم . وهناك اعتقاد بأن البشر عاشوا على الكرة الأرضية قرابة مليوني سنة ، ولكنهم لم ينطلقوا في النشاط العلمي إلا من عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف سنة .

ويقول العلماء في يومنا الحاضر إن البشر ليسوا الكائنات الوحيدة التي تعيش في هذا الكون ، لأن هناك كائنات حية تعيش في ملايين من السيّارات الأخرى ، وربما كانت أكبر ذكاء وأنبه عقلاً وأنشط عملا من الكائنات البشرية . وسيظل الأمل يداعب الإنسان في إمكان تحقيق اتصال بهذه الكائنات ذات يوم والاستفادة مما قد يكون لديها من علوم وتجارب . وخير وسيلة متاحة حتى الآن لتحقيق هذا الاتصال هي الأجهزة الراديو تلسكوبية الشديدة الحساسية .

ونعود إلى الإمام الصادق (ع) وإلى نظريته القائلة إن لبعض النجوم ضوءاً هو من الشدّة بحيث يتضاءل أمامه ضوء الشمس . وها هو العلم الحديث قد برهن على صدق نظرية الإمام الصادق (ع) ، ودلّل على أن لبعض النجوم من الأشعة ما تضؤل أمامه الشمس وأشعتها ، أفلا يُستخلص من ذلك أن الإمام الصادق (ع) الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني الهجري كان عبقرياً في المباحث العلمية ؟

وثمّة سؤال قد يعنّ للباحث هو : أين تقع مجرّات (الكوازر) التي يبعد بعضها عن الكرة الأرضية بمسافة ٩ آلاف مليون سنة ضوئية ؟ هل تقع في مركز الكون أو في أوله أو في نهايته ؟

ثم لنتأمل في قُرص الشمس الذي يقوم كل أربع وعشرين ساعة بتحويل أربعمائة مليار طن من الهيدروجين إلى الهليوم لنشر الضياء والدفء في الكرة الأرضية والسيّارات الأخرى التي تدور حولها ، والذي لن يتوقف عن نشر الضياء والدفء إلى ١٠ مليارات من السنين الأخرى . أليس عجيباً أن تكون هذه الشمس ضئيلة جداً أمام مجرّات (الكوازر) الساطعة الضوء ؟

فإن كان لشمسنا هذا القدر الهائل من الطاقة والقدرة ، وإن كان ينتظرها عمر ممتد هذا مقداره ، فكم يكون عمر مجرّات الكوازر التي تبعد عن الكرة الارضية مسافة ٩ آلاف مليون سنة ضوئية ؟ أغلب الظنّ أن عمرها يزيد عن ألف مليار سنة .

وما دامت في العالم شموس أخرى كمنظومتنا الشمسية ، فمن مؤدى ذلك القول عقلاً بأننا لا نعيش في عالم واحد ، وإنّما هناك عوالم كثيرة يتألف من مجموعها الكون الأكبر .

وقد ثبت لعلماء الفلك أن بعض النجوم ينطفىء ضوؤه وتنتهي حياته ، حتى ولو لم يستطع الفلكيون حصر هذه النجوم . وثبت لهم أيضاً أن للإجرام السماوية والمنظومات الشمسية أعماراً ، وأن عمر بعضها يزيد على ١٥ مليار سنة ، وأن الشمس مثلاً ما زال باقياً في عمرها ١٠ مليارات سنة ، وأن مجرّات الكوازر عمرها ألف مليار سنة أو أكثر ، وهذا كله يقطع بأن هناك عوالم كثيرة أخرى في هذا الكون .

وقد سبق للإمام الصادق (ع) أن قال إن الكون لا ينحصر في عالمنا وحده ، وإنّما هناك عوالم أخرى ، وها قد جاء العلم الحديث مبرهناً على هذه النظرية ، وأقام الأدلّة على أن هناك آلافاً من العوالم والمنظومات الشمسية الشبيهة بعالمنا ومنظومتنا الشمسية ، وأنها تفنى وتزول ما عدا مجرّات الكوازر ، فهي باقية على الدوام .

وقد قسّم الإمام الصادق (ع) العالم إلى قسمين هما : العالم الأكبر والعالم الأصغر ، ومعروف أن هناك عالم أوسط لم يذكرها الصادق (ع) اعتقاداً منه بأن ذلك من نوافل القول . فالأمر كله نسبي ، وفي الوسع اعتبار هذه العوالم الوسطى عوالم كبرى أو صغرى ، وكل عالم يعتبر أكبر بالقياس إلى العوالم الأصغر منه ، أو يعتبر أصغر بالقياس إلى العوالم التي تكبره . فتقسيم الصادق هو إذن تقسيم شامل لعوالم الكون كلها .

وعندما سئل الصادق (ع) عن عدد العوالم في كل قسم ، قال إنها كثيرة ، ولا يعلم ذلك إلا الله ، وهي حقيقة أثبتها العلم الحديث .

فالذي لا ريب فيه أن هناك أعداداً كبيرة من المنظومات الشمسية والنجوم والنيازك والمجرّات في الكون ، وهي تعزّ على الحصر ولا يُعبَّر عنها بأرقام حتى ولو كانت أرقاما فلكية .

ويقول العالم اليوناني أرشميدس الذي عاش قبل الميلاد بثلاثة قرون أن عدد الذرّات المبعثرة في العالم هو عشرة مضروبة في نفسها ٦٣ مرة ، وإن الذرّة هي أصغر أجزاء المادة ولا تقبل التجزئة ، ولهذا سميّت بالجزء الذي لا يتجزأ .

وفي مطلع القرن العشرين جاء إدنجتون (العالم الفيزيائي البريطاني المتوفي سنة ١٩٤٤ م) فقال إن مجموع الذرّات في العالم ١٠ مضروبة في نفسها ٨٠ مرة .

وعندما طلع ادنجتون بهذه المعادلة الرياضية لحساب عدد الذرّات ، كان علماء الفلك يعتقدون أن عدد الاجرام الضوئية والنيازك والشهب في السماء يصل إلى مليون .

وعندئذٍ لم يكن مرصد (بالومر) الأمريكي قد شيّد بعد ، وهو المرصد الذي قرَّب ضوء المجرّات بمقدار ألفي مليون سنة ضوئية ، فأصبحت رؤ يتها بالعين البشرية ممكنة ، ولا كانت المراقب الراديو تلسكوبية الشديدة الحساسية قد اخترعت .

ولو أن العمر امتدّ بادنجتون إلى يومنا هذا ، ورأى بأم عينيه المجرّات الضوئية والكوازر ، لأعاد النظر قطعاً في معادلته بأرقامها الشديدة التواضع .

والكون الذي عرفه علماء الفلك والفيزياء في عام ١٩٠٠ م يعتبر صغيراً ، بل ضئيلاً بالنسبة للكون الذي يعرفه علماء اليوم . وليس من المبالغة في شيء القول بأن الكون في عام ١٩٠٠ كان بمثابة فنجان ماء بالنسبة لمحيطات المياه التي عرفناها عن الكون في يومنا هذا .

وبعد كشف المجرّات الضخمة المسمّاة بالكوازر ، ظهرت نظرية

أخرى مؤدّاها أن هذه الكوازر تمثل التخوم الخارجية للكون ، وأن عالمنا هذا الذي يحتاج إلى ٩ آلاف مليون سنة ضوئية ليصل إلى الكوازر هو البداية لفضاء أوسع تعجز الأجهزة الراديو تلسكوبية المتاحة لنا الآن عن الوصول إليه ، فلا قِبَل لها باستقبال أشعة النجوم أو العناصر الموجودة في ما وراء الكوازر . وإلى هذا اليوم ، لم يتسنَّ لنا رصد المجرّات التي تلي الكوازر في موقعها منّا .

وبناءً على هذه النظرية ، فهناك ما مجموعة مائة ألف مليون من الأجسام الضوئية والمجرّات والشهب ، ولكلٍّ منها عشرات الآلاف من ملايين الشموس ، وهذه جميعاً ترسل أشعتها إلى المراقب الكهربائية ذوات العدسات الكاسرة والمرايا العاكسة .

وليست هذه الاجرام من عالمنا الحقيقي ، لأن حدود عالمها يبدأ من مجرّات الكوازر وما وراءها ، وطبيعي إذن أن يكون ضوء مجرّات الكوازر مساوياً لضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرة .

وحتى يُستطاع توليد كمية الضوء والأشعة التي تنبعث من الشمس كل أربع وعشرين ساعة ، فلا بد من توافر مائة مليار طن من الهيدروجين المركّز أو المجَزّأ . فما هي يا تُرى كميّة الهيدروجين المجزّأ والمركّز التي تحتاج إليها مجرّات الكوازر كل أربع وعشرين ساعة لكي تولّد هذا القدر الأسطوري من الضوء ؟ وكم يكون مقدار الأشعة التي تصدر عن اصطدام النقيضين : المادة ومضادّ المادة ؟

ونستطيع بحسبةٍ بسيطة أن نصل إلى الأرقام الفلكية الخيالية التالية : فإذا ضربنا اربعمائة مليار طن في عشرة آلاف مليار ، كان حاصل الضرب رقم ٤ وأمامه ٢٧ صفراً ، وهو رقم لا يمكن لفظه أو عدّه بسهولة .

فإذا كانت مجرات الكوازر تولّد من الطاقة المشعّة عشرة آلاف مليار ضعف لما تولّده الشمس في كلّ أربع وعشرين ساعة ، جاز إذن اعتبارها مركز العالم ، وحقَّ أن يُقال إن العالم يبدأ من هذا المركز . ولكن لأن علماء الفلك والفيزياء لا يستطيعون رصد المجرّات التي تقع خلف مجرّات الكوازر بأجهزة الراديو ـ تلسكوب المتاحة حالياً ، فلا سبيل إلى إحصاء عدد المجرّات أو المجموعات الشمسية الموجودة في العالم ، ناهيك بالمجرّات والأجسام المبعثرة في جميع العوالم المحيطة بنا . ومن هنا تتضح صعوبة المحاولات التي قام بها العالمان أرشميدس وادنجتون لإحصاء الاجرام ، كما تتّضح خطورة الاعتماد على هذه الاحصاءات .

وهذا يؤكد ما قاله الإمام الصادق (ع) من أن العوالم الصغيرة والكبيرة لا يَعرف عددها إلاَّ الله ، والفرق بين العالم الكبير والعالم الصغير عند الصادق هو (فرق في الحجم لا في الكتلة) ، وهذه أيضاً نظرية أثبتها علم الفيزياء الحديث .

وقد مرّ بنا أننا لو ملأنا الفضاء الخالي الموجود بين الإلكترونات ونواة الذرّة ، لكان حجم الكرة الأرضية مساوياً لحجم بالونة اللعب ، أما وزن هذه البالونة فيساوي وزن الكرة الأرضية ، وقد ضربنا المثل بالبالونة لقُربها إلى الأذهان ، وربما كان الحجم أصغر حتى من البالونة . ولا بد من التذكير بأن الكرة الأرضية موجودة في الفضاء في حالة عدم وزن بفعل الجاذبية ، بل ليس من المبالغة في شيء القول بأن وزن الكرة الأرضية في الفضاء مماثل لوزن ريشة النعام . وهذا القول ينطبق لا على الكرة الأرضية وحدها ، بل على جميع السيّارات التي تدور حول الشمس ، وجميع الاجرام الأخرى التي يدور بعضها حول البعض الآخر في الفضاء الفسيح ، فقانون الجاذبية يجعل هذه الأجرام جميعاً في حالة عدم وزن .

وتذهب نظرية الصادق (ع) إلى أن لكل ما في العالم الأصغر شبيهاً في العالم الأكبر ، ولكن على ضخامةٍ في الحجم وسعة ، وأن لكل ما في العالم الأكبر شبيهاً في العالم الأصغر ، ولكن على قلةٍ في الحجم . ومن هنا يُستطاع تحويل العالم الأصغر إلى عالم كبير ، والعالم الأكبر إلى عالم صغير .

ونحن حين نستمع إلى هذا الكلام منقولاً من ملفات القرون الماضية ، نحسُّ وكأننا نُصغي إلى حديث عالم فيزيائي في عصرنا الحاضر ، أو كأنّنا نقرأ كتاباً في علم الفيزياء الحديث ، مع أنَّ هذه النظريات سيقت قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن .

ولقد سُئل الصادق (ع) : متى خُلق العالم ؟

فكان ردّه : إن العالم خلقه الله ، ولا سبيل إلى تحديد زمانه أو وقته .

ولأنَّ الشيعة تعتقد بإعجاز الأئمة ، فهي تؤمن بأن إمامها الصادق (ع) لو أراد أن يُميط اللثام عن هذه الحقيقة ، لكشف السرَّ بفضل علم الإمامة[1] ، وهو العلم المطلق بالمفهوم الأوسع ، كما سبق أن أوضحنا .

---

(١) ذكرنا في ما مرّ رأي الشيعة في الأئمة ومصدر علمهم ، وقد أورد الشيخ المفيد (قده) فصلاً في كتابه « أوائل المقالات » حول هذا الموضوع سمّاه : القول في معرفة الأئمة بجميع الصنايع وسائر اللغات جاء فيه :
أقول إنه ليس يمتنع ذلك منهم ، ولا واجب من جهة العقل والقياس ، وقد جاءت أخبار عمّن يجب تصديقه بأن أئمة آل محمد (ص) قد كانوا يعلمون ذلك ، فإن ثبت وجب القطع به من جهتها أي من جهة هذه الأخبار على الثبات ، ولي في القطع به منها أي من هذه الجهة نظر ، والله الموفق للصواب ، وعلى قولي هذا جماعة من الإمامية ، وقد خالف بنو نوبخت رحمهم الله ، وأوجبوا ذلك عقلاً وقياساً ، ووافقهم فيه المفوّضة(*) وسائر الغلاة . . .

(ص ٣٨ ـ « أوائل المقالات »)

(*) المفوضة فرقة من غلاة الشيعة تفردت عن الشيعة عامةً بقولها في محمد (ص) والأئمة من =

وتعلّل الشيعة امتناع الصادق (ع) عن كشف أسرار الخليقة وغيرها من الأسرار المجهولة ، بأنه لم ير في ذلك مصلحة للناس ، أما البعض الآخر فيقول إن الصادق (ع) لم يبخل بعلمه على الناس ، ولكن هذه الموضوعات تخرج عن نطاق علم الإمام ، لأنها من علم الله ، وهو يستأثر بها دون العباد جميعاً ، بما فيهم الإمام الصادق نفسه .

وللإمام الصادق (ع) نظرية علمية هامة أخرى ، هي نظرية (انقباض العالم وامتداده) فهو يقول إن العوالم الموجودة لا تبقى على حالٍ دائمٍ من الأحوال ، فهي تتسع تارةً وتنقبض أخرى . وفي بادىء الأمر ، اعتبر علماء الفلك هذه النظرية كغيرها من نظريات الصادق (ع) ، ضرباً من الخيال غير الواقعي ، فلما وافى القرن الثامن عشر الميلادي ، أُقيمت المراصد ونُصبت المراقب الفلكية الضخمة ، وشاهد العلماء أجرام المنظومة الشمسية بل وسواها من الأجرام خارج المنظومة الشمسية . وجاء من بعده القرن التاسع عشر الذي تمكّن العلماء في منتصفه من رصد أشعة النجوم ومعرفة العناصر التي تتألف منها هذه الأجرام ، ثم جاء القرن العشرون وتحقق في مطلعه أن الأجسام الضوئية القريبة من منظومتنا الشمسية يمكن رصدها بمزيد من الدّقة ، وانها تبتعد عنّا ثم تنتشر في الفضاء ، وهو الكشف الذي توصّل إليه الأب (إيه لمتر) الأستاذ اليسوعي في جامعة بروكسل البلجيكية والعالم الفلكي الكبير ، والذي ضمّنه تقريراً علمياً أرسله إلى مراكز الرصد الأخرى طالباً من الفلكيين مساعدته في تعزيز هذا الكشف أو تصحيحه ، فأكّدته بعض المراصد الأوروبية والأمريكية وقالت

- آل بيته (ع) ان الله تفرّد بخلقهم خاصة لم فوّض إليهم خلق العالم بما فيه ، وجعل إليهم أمر الخلق والرزق وجميع الأفعال الواقعة في الكون .

إن بعض المجرّات والأجسام الضوئية القريبة من الشمس تبتعد عنها وتنتشر في الفضاء .

ولكن قبل أن يتوصّل (إيه لمتر) وزميله البريطاني (إدنجتون) إلى نظرية محققة ، قامت الحرب العالمية الثانية ، وتقطّعت أسباب الاتصال بين المراكز العلمية وشعوب العالم ، فتعثّر البحث في موضوع المجرّات والأجسام الضوئية إلى عام ١٩٦٠ عندما تأكّد أن المجرّات والأجسام الضوئية المحيطة بالمنظومة الشمسية تتحرك وتنأى عنها .

وما زال البحث جارياً لمعرفة الحال بالنسبة للمجرّات والأجسام الأخرى ، كمجموعات الكوازر وهل تتحرك بدورها وتبتعد عن مدارها أم لا ، وتُعزى صعوبة التوصّل إلى نتائج قاطعة في هذا الشأن إلى أن هناك مسافات ضوئية شاسعة تفصلنا عن هذه المجرّات فأيّ تغيير يحدث في الكوازر من حيث انعدام أشعتها أو غيابها ، إنما يصل خبره إلى الكرة الأرضية بعد ٩ آلاف مليون سنة ضوئية ، وهي المسافة التي تفصل عالمنا عن هذه الكوازر ، كما سبق القول .

ولكن الأمر الذي تحقق منه العلم الحديث هو أن الكتل الضوئية المحيطة بمنظومتنا الشمسية تتحرّك وتبتعد عنها ، وهو ما يؤكد نظرية الإمام الصادق (ع) القائلة إن العالم المحيط بمنظومتنا الشمسية يتمدّد ويتسع ، وإن كنا لا نعرف بعد منذ متى بدأ هذا التمدد والاتساع بسبب ابتعاد الأجسام الضوئية عن منظومتنا الشمسية .

وقد أكد العالم الفلكي (إيه لمتر) المذكور آنفاً من رصده للأجسام والمجرات الضوئية أكد حدوث هذا الاتساع والتمدد ، كما أكدته الأبحاث التي أُجريت عن مقدار ابتعاد هذه الأجسام عن منظومتنا الشمسية إلى يومنا

هـذا . وكلّ هـذه المعلومات تتعلق بـالطبـع بالمجـرات والأجسام الضـوئية المحيطة بمنظومتنا الشمسية والتي تصل أشعتها إلى أجهزة مراصـدنا ، ولكن ليس لدينا أي معلومات دقيقة عن المجرّات والأجسام الضوئية الأخرى التي تُحيط بغيرها من المنظومات والتي يستعصي على أجهزتنا الحالية رصدها .

وقد سبق الحديث عن الأجسام المظلمة التي تمتص أشعة الضوء عند سقـوطها عليهـا فتنقبض وتتقلص ، وهذه تؤكـد بـدورهـا نـظريـة الإمـام الصادق (ع) بشأن انقباض أطراف العوالم الأخرى[1] .

---

(١) ذكـرنا في مـا سبق أن الضوء يتـألف من فوتـونات (ضـوئيات) مـادية نـاتجة عن تفـاعل إلكترون سالب ببوزيترون موجب ، فيتأثر بالتالي بالمجال المغنطيسي وينحـرف فيه ، كـما أنـه ينكسـر وينحـرف إذا مـا انتقـل من وسط إلى آخـر ، وإذا مـا خـرج من مجـال غـير مغنطيسي إلى مجال مغنطيسي . وقد استطاع علماء الفيزياء في أوائل هذا القرن إثبات أن للضوء ضغطاً ووزناً ، وأن له طبيعة ثنائية (جسمية موجّية) في آن واحد . وهذه حقائق علميّـة أثبتتها الأرصـاد الفلكية والتجـارب الدقيقـة التي أجريت في المختبـرات الـذريـة والبصرية ، فضوء النجم الذي يمر بالقرب من الشمس ينحرف بمقـدار ١,٧٤ ثالثـة من قوس الدائرة . وقد سبق القول بأن هناك أنجماً لهـا مجال مغنـطيسي كبير بحيث تسـتطيع جعل شعاع الضـوء ينحرف بمقـدار ٩٠ درجة . فـإذا مرّ الضـوء بهذا المجـال المغنطيسي اختفى ، أي انجذب بفعل الجاذبية ولم يستـطع الإفلات أو الإنعكـاس ، ومن ثمّ يتابـع سيره . ومعنى هذا أن هناك أنجماً وكواكب لا قِبَلَ لنا برصـدها ، حتى ولـو كانت قـريبة منـا ، بسبب أن الضوء الـذي نستطيـع رؤ يتها بـواسـطتـه ، لا ينعكس منهـا متى سقط عليها ، ولا ينفلت منها إذا مرّ إلى جانبها .
ويقـول العلماء إن هناك أجسـاماً لهـا كثافـة ضخمـة تصـل إلى ١٠٠ مليـون طن في كـل سنتيمتر مكعّب ـ أي كثافة المادة النووية فيها ـ ومع ذلك تستحيل رؤ يتها أو رصدها لأن هناك قوةً جاذبية شديدة تمتص أشعة الضوء السـاقطة عليهـا ، فلا تنعكس إلى العـين أو إلى أجهزة الرصد والقياس .
فمن المعقول إذن أن تكون هناك شموس وكواكب ونجوم قريبة منّا وفي متناول مراصدنـا ومراقبنا الفلكية ، ولكننا لا نراها ولا نشعـر بها ، لأن حجمهـا وكتلتها وكثـافتها هي من النـوع الحرج الـذي يمتص الضوء ولا يعكسـه . ولو فـرضنا مثـلاً أن هناك نجـماً حجمه كحجم الشمس ، أي ١,٤٣٧ × ١٠ أسّ ١٨ كيلومتـراً مكعبـاً ، أي ١,٤٣٧ مليـار =

ولكن الاتساع والانقباض يحدثان شيئاً فشيئاً ، ويستغرقان زمناً مديداً جداً ، ومعروف أن الأجسام المظلمة (كوتوله) هي أجسام تكوّنت بعد أن أخذت ذرّاتها تفقد إلكتروناتها شيئاً فشيئاً ، ثم تراكمت النُّوىَ بكثافةٍ وانقبضت مكوّنةً هذه الأجسام .

ففي حين تتباعد الأجرام في جانب من العالم ، تتقارب في جانب آخر مكونة هذه الكتل الكثيفة .

وتنتهي المادة إلى موت حقيقي عندما تصطدم بالأجسام المظلمة الكثيفة ، وتفقد إلكتروناتها وتغدو جزءاً منها فتنتهي حركتها ، أي أن المادة تنتهي من حيث الظاهر عندما يحدث التقاءٌ بينها وبين الأجسام المظلمة ، وتبقى نواتها بعد اندماجها بغيرها مفتقرةً إلى إلكتروناتها .

وتتراكم هذه الأجسام المظلمة وتتكاثف بدرجة تزيد بمئات آلاف المليارات عن المواد المتراكمة المعروفة لنا والموجودة في الأرض .

وصفوة القول إن علمي الفيزياء والفلك المعاصرين يؤكدان نظرية الإمام الصادق (ع) المتعلقة بانقباض العوالم واتساعها (تمدّدها) .

التفكير الهندي :

حتى القرن الثامن عشر الميلادي ، لم يكن الأوروبيون يعرفون شيئاً عن الفكر الديني والفلسفي في نصف القارة الهندية إلّا ما تعلق منه بالمسلمين لاحتكاكهم بهم في الحروب الصليبية ، وقبل ذلك في فتوحات المسلمين لشرقي أوروبا وغربيّها .

= كيلومتر مكعب ، وله كثافة تزيد ٤٠٠,٠٠٠ مرّة عن كثافة الشمس ، فإننا برغم هذا لا نستطيع رؤيته .

(راجع « العلوم الطبيعية في القرآن » ليوسف مروّة ، ص ١٩٥)

وشهد القرن الثامن عشر ، وبعده القرن التاسع عشر ، بداية حركة الترجمة في أوروبا ، فنقلت إلى لغاتها الكتب الدينية والفلسفية الهندية القديمة ، وبذلك عرف الأوروبيون معالم الفكر الديني والفلسفي للهند القديمة . ومن جُملة أصول المعتقدات الدينية والفلسفية الهندية أنَّ العالم يعيش مرحلة نشاطٍ ويقظة ثم ينتقل منها إلى مرحلة ركودٍ وسُبات . وفي فترة اليقظة تتسع الدنيا إلى آفاق لا تخطر على بال إنسان ولا تُعرف لها حدود أو بداية أو نهاية ، وفي هذه الفترة يعمّ العالم الرخاء فتكثر فيه جميع المواد من نباتات وأشجار وحيوانات من جميع الألوان والأنواع ، وتستمر فترة الاتساع مئاتٍ من آلاف السنين ، وفي أثنائها تزداد العناصر والمواد والكائنات الحيّة من نبات وحيوان تكاثراً وتوالداً وتضاعفاً .

وبعد انقضاء فترةٍ لا يُعرف مداها ولا يتكهن أحد بزمانها ، تبدأ حركة الانبساط والتوسع في الكون في الخمود ، وتكفّ المواد والنباتات والحيوانات عن التكاثر ، ويبدأ ما هو موجود منها فعلاً في التناقص والفناء ، وينقبض العالم حول مركزه . وتستمر هذه الفترة (أي فترة الانقباض) مئاتٍ من آلاف السنين أيضاً ، هي بدورها ، فلا يُعرف مداها ، ولا يرجم أحدٌ بموعد انتهائها .

وعندئذٍ ، ينتهي العالم إلى فترة من الركود التامّ ، فيمحّي كل أثر من آثار الحياة أو المواد أو العناصر ، ويعيش العالم في سُبات لا يعرف أحد مداه ، فقد يمتد إلى مئات الآلاف من السنين .

وبعد انقضاء هذه الفترة ، يعاود العالم نهوضه من سُباته ، ويبدأ من جديد في التمدد والاتساع ، وتدبّ فيه الحركة والحياة ، وتكثر الموادّ ، وتتوالد الحيوانات والنباتات ، ويعود العالم إلى ما كان عليه من سعةٍ في أول الأمر .

ولكن كل ما يظهر في اليقظة الثانية للعالم يختلف عما كان فيه من قبل ، تستوي في ذلك المواد والنباتات والحيوانات . فمن الطبيعي أن يختلف إنسان هذه الفترة عن إنسان العالم السابق ، ومن الطبيعي أيضاً أن يكون أرقى منه وأفضل ، لأن كل يقظةٍ تحمل معها قفزة جديدة إلى الأمام فتتحسن جميع العناصر في العالم . فاليقظة تعني التجديد والتحسين ، ولولا ذلك لبقي العالم في انحطاطه وفساده وانتهى بفنائه ، بحسب هذه العقيدة الهندية القديمة .

وهكذا يزداد الإنسان تكاملاً وسموّاً وارتقاءً مع كل يقظةٍ جديدة وميلاد جديد للعالم ، لأن الإنسان ـ حسب هذه العقيدة الهندية ـ لا يموت في فترة الانقباض والركود ، شأن المواد والعناصر الأخرى في الكون ، بل تذهب روحه في رحلة عامرة بالسعادة الأبدية . ومتى استردّ العالم نشاطه ويقظته بعد فترة الركود والسُبات ، عاد الإنسان إلى الظهور وقد ازداد تكاملاً وارتقاء وسمواً .

ذلك بأنَّ من أركان العقيدة الهندية القديمة أن روح الانسان حيّةٌ ولا تخضع لقانون الركود الذي يسري على العالم ، فالمواد والعناصر الأخرى تموت وتنتهي متى حلت بالعالم فترة السُبات ، أما روح الإنسان فتبقى حية في جنّة الأرواح .

ويلوح أن حُبَّ النفس أو الذات هو مصدر هذه العقيدة ، ولكن لو دققنا النظر ألفينا أن القائلين بهذا الرأي قد وضعوا الروح في منزلة تختلف عن منزلة المواد والعناصر الأخرى . لأن الروح ليست مادّة من المواد في رأيهم ، فهي بالتالي لا تخضع لقانون العدم والفناء ، وتبقى خالدةً بعد موت الإنسان عندما ينتقل إلى العيش في ما وراء هذا العالم المنظور .

تلك كانت عقيدة الأمم القائلة بالحياة الأخرى أو القيامة ، ابتداء

من قبائل الزنج في قلب إفريقيا وانتهاءً بالشعوب والأمم التي تعتنق الأديان السماوية ، فالروح باقية لأنها شيء غير المادة والمادة تفنى ، أما الروح فخالدة كونها عنصراً غير مادي .

مما تقدم ، يتضح لك أن عقيدة انبساط الكون وانقباضه كانت سائدة في الهند القديمة ، وهناك صور دينية هندّية تمثّلها .

وسواء أكان الإمام الصادق (ع) هو المبدع لهذه النظرية أم أنها كانت موجودة قبله في الهند القديمة ، فإن الكشوف الحديثة في علمي الفيزياء والفلك تثبتها .

وربما تعرض جزء من العالم ـ وليس العالم بأسره ـ للانقباض والتمدد، وهذا يؤكد ما قاله الإمام الصادق (ع) من أن في الكون عوالم كثيرة ، منها ما يجنح إلى الانقباض ، ومنها ما يميل إلى التمدد والانبساط ، أما العالم الذي ينقبض فليس فيه للمادة أثر .

وقد عرفنا أن المادة تتكون من ذرات ، ولكل ذرة فلك تدور فيه الإلكترونات جول النواة ، فإن فقدت الذرة عامل الحركة داخل فلكها ، لم تعد تعتبر من السواد .

إن الأجسام المظلمة (كوتوله) التي تتراكم فيها نواة الذرة قد تفسر لنا عقيدة قدماء الهنود القائلة بأن العالم تعتريه حالة ركود وسبات ، فهل تدب الحياة في هذه الأجسام كما يقوله الهنود ؟

إن الرد على هذا التساؤل يجيء من جانب علم الفيزياء الذي يؤكد أن هناك استحالة في عودة الحياة إلى الكتل التي تراكمت فيها النوى بكثافة حتى لم يعد هناك فضاء بين ذراتها ، وحتى إن الذرات قد فقدت حركتها نهائيا .

نظرية الصادق "ع" بشأن البيئة

لم يعرف عصر الامام الصادق (ع) من الصناعات إلا ما كان يدوياً تقليدياً ، ولم تكن الصناعة الحديثة قد عُرفت في ذلك الحين ، وكانت عملية صهر الحديد والفولاذ تتم داخل أوان كروية صغيرة على نار الحطب ، وهذا لا يخلق مشكلة خاصة بتلوث البيئة .

وحتى لو استخدمت في صهر الحديد والفولاذ كميات من الفحم الحجري بدلا من الحطب فإن حجم هذه العملية لم يكن بالقدر الذي يؤثر في تلويث البيئة .

وعندما شرعت المانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا في انتاج الحديد والفولاذ في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي ، ثم تلتها دول اوروبية أخرى ، لم تكن هناك شكوى من تلوث البيئة بفعل هذه المصانع التي كانت تستخدم الفحم الحجري في صهر المعادن ، والتي كان دخانها يتصاعد من المداخن طوال العام دون توقف .

فإذا كانت هذه الدول لم تشك من التلوث ، ولديها صناعة ضخمة للحديد والفولاذ وقودها الفحم الحجري ، فكيف وعصر الصادق (ع)

الذي لم يعرف هذه المصانع الضخمة أصلاً ولا عرف حتى الفحم الحجري ؟ ومع ذلك ، فقد كان الإمام بعيد النظر نافذ الفكر ، فقال ـ وكأنه يرى العالم في القرن العشرين وقد ضج بالشكوى من تلوث البيئة ـ إن على الإنسان ألا يلوث ما حوله لكي لا يجعل الحياة شاقة له ولغيره .

ولم يُعن العالم بموضوع البيئة إلا من نحو ٣٠ سنة عندما ألقيت القنبلة الذرية الأولى على اليابان ولوّث إشعاعها المنطقة المحيطة بمكان الانفجار ، وصارت أرواح الناس مهددة بأشد المخاطر ، ولم يكن هذا الانفجار هو الانفجار الوحيد الذي حدث في العالم ، بل إن الدول الصناعية الأخرى اللاهثة وراء حيازة السلاح النووي ، قامت بدورها بإجراء انفجارات ذرية في الجو والبحر والبر ، وما زالت تجري التجارب على هذا السلاح وغيره من أسلحة التدمير الشاملة . ومع انتشار مصانع الطاقة الذرية ، وما يتخلف عنها من نفايات سامة ، تلوثت البيئة تلوثاً بعيد المخاطر بفعل المواد المصنعة .

ولعبت المصانع الضخمة في أوروبا وأمريكا دوراً كبيراً آخر في تلويث مياه الأنهار والبيئة ، لأنها كانت تلقي بنفاياتها في الأنهار الجارية ، مثل نهر الرون في أوروبا الغربية ، فقتلت الأسماك وغيرها من الحيوانات التي كانت تعيش في مياهه ، وتعرضت بحيرات المياه العذبة في أمريكا الشمالية لمصير مماثل ، والمحيطات نفسها باتت متعرضة لمخاطر هذا التلوث ، سواء بفعل المواد المشعة التي تدفن نفاياتها فيها ، أو بفعل النفط الذي تقذفه السفن أو يتدفق من ناقلات النفط الغارقة ، وصارت العوالق البحرية (البلانكتون) التي تعيش في المحيطات معرضة للفناء ، لا سيما وهي تعيش قريبا من اليابسة .

ومن فوائد هذه العوالق البحرية أنها تولد حوالي ٩٠ في المئة من

الأوكسجين المنتشر في الأرض ، وإن فتك بها التلوث ، هبطت نسبة الأوكسجين إلى ١٠ ٪ ، وهو ما لا يفي بحاجات التنفس للإنسان والحيوان والنبات ، مما يهدد الحياة نفسها ، وينذر بانقراض نسل الحيوان والنبات .

وهذه النتيجة ليست مجرد نظرية علمية تحتاج إلى الاثبات ، وإنما هي واقع فعلي . فبسبب تلوث المحيطات يتناقص عدد العوالق البحرية في كل سنة ، وسينخفض عددها إلى النصف بعد خمسين عاماً ، مع ما يترتب على ذلك من انخفاض الأوكسجين في الأرض بنسبة مماثلة .

ومعنى هذا ، أن الطفل الذي يولد اليوم ، والذي تكتب له الحياة إلى أن يبلغ الخمسين من عمره ، سيتنفس وقتذاك وكأنه يتسلق جبال الهملايا دون الاستعانة بجهاز أوكسجين أو كأنه يعاني من اختناق أو ذبحة صدرية ، وهذا ينطبق أيضا على الحيوانات .

وإذا رغب امرؤ بعد خمسين سنة في إشعال عود ثقاب أو موقد الطهي ، لوجد صعوبة في ذلك لعدم توافر القدر الكافي من الأوكسجين في الهواء ، هذه حقيقة مرة وليست بخرافة .

ويقول العالم الفيزيائي اسحق ازيموف (اسحق عظيم أوف) إن أمراض الذبحة الصدرية تضاعفت في أمريكا ثلاثمائة مرة منذ عام ١٩٥٠ ، وهو يعزو ذلك إلى انخفاض كمية الأوكسجين في جو الأرض نتيجة لتناقص العوالق البحرية في المحيطات .

ويتكهن هذا العالم الفيزيائي بانقراض الأرض بعد مائة عام إذا استمر هذا الوضع ، ويومئذ ، تنقرض أيضا الحيوانات التي تعيش في البحار والمحيطات ، لأنها تحتاج بدورها إلى الأوكسجين ولو عاشت في عمق الأعماق .

ومما يذكر أن السفن المبحرة من غرب افريقيا متجهة إلى امريكا الجنوبية تمر بمنطقة واسعة تقدر بحوالي ألفي كيلو متر مربع (٢٠٠٠)، تتجمع فيها النفايات ومواد النفط ، وتظل طافية ، فلا يبتلعها الماء ، ولا تجذبها اليابسة . وقد تكونت هذه « المزبلة » البحرية ـ وما هي بالوحيدة في العالم ـ بفعل تيارات الماء والرياح . وهناك « مزبلة » أخرى بالقرب من جزيرة غُوام في المحيط الهندي ، حيث تحتفظ امريكا بقاعدة بحرية جوية كبيرة . وتشمل هذه « المزبلة » مساحة عريضة تقدر بآلاف الكيلو مترات المربعة ، وبسببها تم الفتك بحياة جميع العوالق البحرية (البلانكتون) في هذه المنطقة .

ومعنى هذا أن تلوث المحيطات والبحار يعرض الإنسان لخطر أشد من الخطر الناشيء عن تلوث اليابسة وعن الغبار النووي . ومعروف أن هناك ما يسمى بـ « ميزان الرعب »، وبمقتضاه ينشأ نوع من التعادل أو التوازن بين الدول الحائزة للسلاح النووي ، فتمتنع دولة ما عن استخدامه خوفا من أن تستخدمه ضدها دولة أخرى ، ولكن إلى متى يستمر هذا التوازن ، وهل يظل قائماً إلى قرن آخر من الزمان ؟ وهناك قذائف أخرى للتدمير الشامل لم تستخدم في الحرب العالمية الثانية من جانب الدول المحاربة مثل الغازات السامة وقذائف « دم دم » التي تنفجر في جسم الإنسان وفي الهدف معاً ، وهناك غيرها من الأسلحة الكيميائية .

والمؤكد أن تلوث المحيطات بهذه السرعة يهدد حياة البشر ، بل يقضي عليها وعلى حياة الكائنات البحرية الأخرى . فإن استمر هذا الوضع خمسين سنة ، واجه الإنسان مشقة كبرى في استنشاق الهواء نظراً لعدم توافر القدر الكافي من الأوكسجين ، وأصبح حاله كحال من وقع في قبضة شرير يبتغي ازهاق روحه بكلتا يديه خنقاً .

وطبيعي أن الإنسان الذي يشق عليه التنفس لن يستطيع إنجاز أي عمل أو القيام بشيء نافع ، كما هو شأن إنساننا اليوم ، فيقل انتاجه وتضيق دائرة معارفه ، ويتصرف ببطء نتيجة للقصور الذي يعتري خلايا المخ ، ولنا أن نتصور معلماً أو طالباً في قاعة الدرس يعانيان ضيقاً في لتنفس ، فكيف للأول أو يشرح دروسه وللثاني أن يستوعبها ؟ وتتكرر هذه المشكلة عينها مع المزارع في حقله والعامل في مصنعة ، وهلم جرا .

وقد أجرى علماء جامعة (هارفارد) الامريكية تجارب على الأرانب لمعرفة التطورات التي تطرأ عليها متى قلت كمية الاوكسجين في الجو الذي تعيش فيه، فتبينوا أن عجز الأوكسجين عن الوصول الى خلايا المخ بالقدر الكافي يقلل من كفاءته ونشاطه الطبيعيين ، ويجعله يقصر في أداء وظيفته المعتادة وهي إصدار الأوامر الى سائر أعضاء الجسم، لتستجيب له على الفور.

ولكي ندرك الى أي مدى يتأثر الانسان في حياته اليومية بعدم استنشاق القدر الكافي من الأوكسجين ـ وهو الأمر الذي سيحدث بعد خمسين عاماً إذا ما انقرض قسم كبير من العوالق البحرية التي تعيش في المحيطات ، كما قدمنا ـ فلنتصور حالة عامل فني في مصنع للسيارات يريد استخدام مفك ، وهي عملية تتم اليوم بتلقائية سريعة لتنبه خلايا الذهن . ولكن الذي يقل حظه من الأوكسجين يصاب بخمول في الذهن ، فيتأخر العقل في إصدار أوامره إلى اليد لتناول المفك ، وتتأخر اليد في أداء الوظيفة المطلوبة منها ، وهكذا تستغرق هذه العملية وقتاً أطول مما تستغرقه في الوقت الحالي . فإن أراد سائق سيارة الحد من سرعتها لتلافي حادثة في الطريق ، أدى بطء العقل في إصدار أوامره إلى القدم للضغط على الفرملة إلى الاجهاز على حياة الشخص الذي رغب السائق في تفادي إصابته .

ونفس الشيء ينطبق على الطيار الذي يهم بالاقلاع من مطار قاصداً مدينة بعيدة . فإذا تأخر المخ في إصدار أوامره إلى الأعصاب لتحرك الآلات الخاصة بالاقلاع ، ولو للحظات ، لأدى ذلك إلى خلل في عملية قيادة الطائرة ، ينجم عنه أوخم العواقب ، كانفجار الطائرة أو ارتطامها ومقتل كل من عليها ، بما فيهم قائدها .

وكذلك فإن قلة وصول الأوكسجين إلى جسم الانسان من شأنها التأثير لا في كفاءة خلايا المخ وحدها ، بل في سائر الأعصاب أو الأعضاء أيضاً ، وكلها تتلقى أوامرها من المخ ، فتعجز الأذن والعين وسائر الحواس عن القيام بوظائفها بالكفاءة السابقة ، كما تفقد الذاكرة قدرتها على تسجيل الأحداث واختزانها ، وقل نفس الشيء عن الوظائف الحيوية جميعاً .

ومن عوامل تلوث البيئة المواد المشعة التي تتخلف عن محطات توليد الطاقة النووية ، وقوامها نفايات ناتجة عن عملية شطر نوى ذرات اليورانيوم والبلوتونيوم ، وعن توليد الطاقة النووية بصورة مستمرة ، ناهيك عن أن هذه المحطات النووية هي في حد ذاتها خطر داهم يهدد البيئة بالتلوث .

ومع أن المتبع عادة عند بناء محطات الطاقة النووية مراعاة اتخاذ جميع التدابير الكفيلة بمنع تسرب المواد النووية الخطرة أو انفجار المستودعات التي يحتفظ فيها بهذه المواد ، فإن الخطر ماثل دائما في احتمال انفجار مستودع الركام النووي (وهو المستودع الذي يحتفظ فيه باليورانيوم والبلوتونيوم بالاضافة إلى الجرافيت) والذي يمد محطات توليد الطاقة والحرارة بالوقود النووي اللازم لهذه العملية .

ولو حدث مثلاً أن انفجر مستودع الركام النووي لمحطة توليد الكهرباء بالطاقة النووية الواقعة في جنوب بريطانيا ، لتلوثت البيئة

بالاشعاع المميت على مسافة مائة ميل (١٦٠ كيلو مترا)، ولانعدمت الحياة تماماً في هذه المنطقة ومات كل ما فيها من البشر والحيوان والنبات ، وجفت الأنهر والبحيرات ، ولأدت الحرارة الشديدة الناتجة عن هذا الانفجار إلى هدم العمارات والمباني الواقعة في دائرة قطرها ٥٠ ميلا حول المحطة .

هذا مجرد احتمال ، ولم يحدث شيء منه حتى الآن في محطات توليد الكهرباء بالطاقة النووية ، ولكن هذا الانفجار يصبح حتمياً إذا ما وقع خلل في « الفرامل » المتحكمة في انطلاق الطاقة النووية (وتتمثل هذه الفرامل في الوقت الحالي في مادة الجرافيت) أو إذا ما أشرفت هذه المادة على النفاد .

والمأمول ألا تتعرض أي دولة من الدول الحائزة للطاقة النووية لمثل هذا الحادث المهلك .

وثمّة مشكلة هامة تواجهها الدول الحائزة للطاقة النووية تتمثل في كيفية التخلص من النفايات الذرية المشعة الشديدة الخطورة . وعلماء الذرة والفيزياء مشغولون بالتفكير في اختيار مناطق مأمونة يدفنون فيها هذه المواد دفعا لشرورها وحماية للبيئة من التلوث .

وقد اتجه تفكيرهم في بادىء الأمر إلى دفن هذه النفايات في أعماق المحيطات بعد وضعها في أوان محكمة آمنة ، ولكنهم تبيّنوا ان الضغط الشديد لمياه المحيطات على النفايات المدفونة في القاع قد ينتهي به الأمر إلى تحطيم هذه الأواني ، فتنتشر المواد المشعة في الماء ، وتهدد كل مظهر من مظاهر الحياة في المحيطات ، من أسماك وحيوانات أخرى وعوالق بحرية (بلانكتون) .

واضطر العلماء ، تلقاء هذا الاحتمال المنذر بأشد المخاطر ، إلى

البحث عن مدافن اخرى مأمونة للنفايات الذرية ، واتجه التفكير بعد رحلة الانسان إلى القمر إلى دفن هذه النفايات على سطحه ، ولكن هـذا الأمر لم يتحقق لاعتبارات ثلاثة هي :

أولا : أن المحيطات النووية المولدة للطاقة الكهربائيـة مملوكة في دول أوروبا واميركا لمؤسسات اهليـة غير حكـومية ، وهي مؤسسـات تفتقر إلى الامكانيات المالية الهائلة اللازمـة لنقل هـذه النفايـات إلى القمر والتخلص منها بدفنها هناك ، (وتستثنى من ذلك المراكز النووية في الاتحاد السوفييتي ، والدول الشيوعية الأخرى لأنها مملوكة للدولة) .

ثـانيا : انـه ليس ثمة سبيـل للاطمئنـان إلى ان الصـواريـخ الحـاملة للنفايات ستصل سالمة إلى سطح القمر ، دون أن تتعرض لحـادث يفجرهـا في الهواء أو يسقطها على الأرض قبل انفلاتها من نطاق الجاذبية الارضيـة ، وهو ما يؤدي إلى تلوث الجو والارض بصورة مباشرة .

ثالثا : ان من شأن هذا الأمر نقل التلوث إلى القمـر نفسه ، ولئن لم تعرف عواقب هـذا التلوث على سكـان ارضنا ، فـالمؤكد أن تلويث القمـر من شـأنه اقفـال الباب امـام الانسان في مـا لـو حـاول استثمـار القمـر في المستقبل ، لأن ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعا شديداً في القمر في خلال النهار مع ضعف الجاذبية فيه يؤديان إلى انتشار المواد المشعة السامة وتلوث سـطح القمر بأسره فلا يغدو صالحا لأي حياة ، دع عنـك ان عدم وجـود هواء في القمر يجعله غير صالح لحياة البشر عليه .

وهكذا انصرف الانسـان عن التفكير في دفن هـذه النفايـات الذريـة الخـطرة في مكان مـأمون نـاء عن البشر دفعـا لشرورهـا المؤكدة المتمثلة في اشعاعاتها الخطرة .

ألم يكن الامام الصادق (ع) بصيرا بالعواقب عندما نصح الانسان بعدم تلويث بيئته دفعا للاضرار والمشكلات التي يتعرض لها ؟

ولننظر إلى مثل اليابان ، لنرى فيه صدق نظرية الصادق .

ومعروف ان اليابان خسرت الحرب العالمية الثانية مع دول المحور ، وخرجت منها مهيضة الجناح كسيرة الاقتصاد حتى ان معدل دخل الفرد لم يكن يزيد في السنة (أي في ١٢ شهراً) عن ثلاثين دولاراً ، ولكن اليابان استطاعت بإنهاض اوضاعها الاقتصادية ان ترفع دخل الفرد حتى وصل معدله في عام ١٩٧٢ إلى خمسة آلاف وخمسمائة دولار اميركي في السنة .

ولم تلبث اليابان أن أخذت تغزو العالم بإنتاجها الصناعي الذي توسعت فيه توسعاً كبيراً ، حتى استطاعت أن تنافس الصناعة الاميركية ، في عُقر دارها . ولنذكر مثالا واحداً ، هو إن الولايات المتحدة التي تتصدر الدول الصناعية في انتاج الدراجات البخارية قد صارت تشتري ٩٠٪ من جميع عدد الدراجات المستخدمة فيها من اليابان ، فبين كل عشرين ألف دراجة بخارية مباعة في اميركا ١٨ ألف دراجة صنعت في اليابان .

ولنذكر مثالا ثانيا وهو ان المانيا الغربية التي تتقدم دول العالم الصناعي في صنع اجهزة الراديو والتليفزيون قد أصبحت بدورها هدفا لغزو الصناعة اليابانية حتى أصبح ٩٩٪ من اجهزة الترانزستور المباعة في المانيا يابانية الصنع .

وها نحن نرى اليابان متقدمة في صناعات السيارات والكمبيوتر والاقمشة المصنوعة من الالياف الصناعية (السليلوز) وفي صنع السفن واجهزة الراديو والتليفزيون واجهزة التصوير والدراجات النارية وهلم جرا ، ولعلها تحتل المنزلة الثانية بعد أميركا في هذه الصناعات .

وبرغم كل هذا ، وبرغم تقدم اليابان الصناعي وارتفاع دخل الفرد فيها ارتفاعا كبيراً ، فقد أهملت أسباب الوقاية من تلوث البيئة ، واصبحت اليوم تعاني من مشكلات التلوث ما يهدد سلامة أهلها ، وما لا مثيل له في البلدان الصناعية الأخرى التي وقت نفسها من أسباب التلوث .

وأدى تلوث البيئة في اليابان إلى امراض خطيرة لم يعرفها الطب منذ أيام أبي الطب (الحكيم ابقراط اليوناني) وإلى هذا اليوم ، ومعروف أن ابقراط اعدّ احصاءا للامراض والاوبئة التي تصيب البشر سمى فيه اربعين الف مرض ، وأوضح آثارها وطرق علاجها ، ولكن الأمراض التي ظهرت في اليابان نتيجة لتلوث البيئة لم يرد لها ذكر ضمن الامراض التي عرفتها البشرية من قبل .

ومن جملة هذه الامراض النادرة مرض يسميه اليابانيون .(إيتائي إيتائي)[1] لأن المصاب به يتألم ويئن مردداً هذه التأوهات .

ويُعزى سبب هذا المرض إلى انتقال كمية كبيرة من مادة (الكادميوم إلى الجسم البشري ، وهي مادة تنتشر حول المصانع وتلوث الأرض والماء والهواء) .

ومن أمارات هذا المرض الاحساس بألم شديد في جميع عظام الجسم ، ومن عواقبه اصابة العظم بالضعف العام الذي يجعله هشا قابلا للكسر بسهولة ، ولا وجود لهذا المرض النادر من أمراض العظام إلا في اليابان ، صحيح أن الطب في تاريخه القديم وإلى يومنا هذا قد عرف انواعا من امراض تحجر العظام في الانسان ، فتغدو هشة قابلة للكسر ، إلا أن

(١) عبارة « إيتائي إيتائي » يقابلها عندنا تأوه المريض بقوله « آه آه » .

النوع الياباني الذي يسمونه « إيتائي إيتائي » هو نوع فريد من هذه المجموعة من الأمراض .

وقد ظهر مرض آخر اشد خطورة من « إيتائي إيتائي » في جزيرة كيوشو ، وهي احدى الجزر الكبيرة في اليابان (البالغ عددها ٤٠٠ جزيرة) فأودى بحياة عدد كبير من سكان هذه الجزيرة ، وما زال خطره ماثلا يهدد غيرهم من السكان .

ومن آثار هذا المرض اضعاف البصر إلى درجة العمى ، وإضعاف الاعصاب والعضلات إلى درجة تحلّلها وافقادها لكل قدرة . ويُعزى السبب في ظهور هذا المرض إلى انتشار المواد الزئبقية في الماء والهواء بالقرب من المصانع التي تستخدم عنصر الزئبق ، وانتقالها إلى الانسان عن طريق الماء والهواء .

ويعرف الطب القديم أن الزئبق يؤدي إلى العمى ، وكان الأطباء في القرنين السابع عشر والثامن عشر يستخدمونه في علاج مرض الزهري ، فلما تبينوا أن لاستخدامه موضعياً آثاراً جانبية أخرى ، كفوا عن التوسل به في العلاج ، باستثناء بعض حالات الأمراض الجلدية أو الاحتراق ، ومع مراعاة قدر كبير من الاحتياط .

وإلى جانب هذين المرضين الجديدين اللذين عرفتهما اليابان ، تزايدت أمراض ضيق التنفس والاختناق نتيجة لتلوث البيئة أيضا .

وإذا كان العالم الفيزيائي اسحق ازيموف قد عزا أسباب مرض ضيق التنفس في أمريكا إلى قلة الاوكسجين المتوافر في الهواء ـ كما سبق أن ذكرنا ـ فإن هذا المرض نفسه قد انتشر في اليابان نتيجة لتلوث الجو بفعل الغازات والأدخنة المتصاعدة من المصانع .

واليابانيون شعب معروف بحبه لجمال الطبيعة وتفننه في تنسيق الزهور والحدائق ، وباعتقاده بأن المناظر الطبيعية في اليابان هي أجمل المناظر في العالم ، ولكنه يعترف اليوم بأن تلوث البيئة قد أضر بالطبيعة ضرراً شديداً وأفقدها مظاهر جمالها وحسنها .

وقد أشرنا في ما سبق إلى أن الشعب الياباني قد استطاع في الثلاثين سنة الأخيرة (أي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وإلى عام ١٩٧٣) أن ينهض بحياته الصناعية والاقتصادية على الرغم من افتقاره إلى الثروات الطبيعية ومنابع الطاقة المتوافرة في الدول الأخرى ، وإنه استطاع بهذا الجهد أن يصبح ثالث شعوب العالم غنى بعد الولايات المتحدة وروسيا دون أن يعتمد في ذلك على نفط أو حديد أو فحم حجري . ولكن الصناعة اليابانية التي نجحت في غزو العالم ، تسببت في اليابان نفسها في تلويث البيئة وفي قيام مشكلات كثيرة ، مما جعل اليابانيين يفكرون في عزل المجمعات الصناعية عن المدن والمناطق الآهلة بالسكان ، وقد وضعوا فعلاً الخطط اللازمة لتحقيق ذلك في موعد غايته عام ٢٠٠٠ م .

وتتحصل الخطة اليابانية في إنشاء مدن ومجتمعات حديثة لا يزيد عدد سكانها عن مئتي ألف نسمة ، وتزويدها بجميع المرافق والتسهيلات العصرية ، وتقام إلى جانب هذه المدن وحدات صناعية تتخذ فيها جميع الاحتياطات اللازمة لوقاية البيئة من آثار التلوث بالغاز أو بالنفايات المتخلفة عن المصانع ، وذلك بتجهيز مداخنها ومنافذ نفاياتها بمصاف معدة خصيصا لهذا الغرض .

لقد انتبه إنسان اليوم إلى خطورة التلوث على البيئة ، سواء أكان موضعه الأرض أو الهواء أو المياه في البحار أو الأنهار ، ولكن عبقرية الإمام الصادق (ع) هدته قبل ألف ومائتي عام إلى خطورة هذا التلوث ، فنصح

القوم بألّا يعمدوا إلى تلويث الوسط الـذي يعيش فيه النـاس ، أي تلويث البيئة بلغة هذا العصر . ومن عجب أن الآريـين القدامى فـطنوا إلى أهميـة اجتناب تلويث الأرض والماء في وقت لم تكن لديهم فيه مصانع أو معامل ، فكيف تنبهوا إلى هذا الأمر ، ومن أين جاءتهم الفكرة ؟

يـذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن الثقـافة التي تحصلت للبشـريـة هي تراث لمدينة عظيمة قديمة كانت على وجه الأرض ثم تدهورت لأسباب شتى ، وإن الانسان قد اكتسب الشيء الكثير من هذا التراث الحضاري ، ومن جملته اهتمامه بالارض والهواء وحرصه على عدم تلويثهما .

وقـد اهتمت الشعوب الآريـة ، التي يسميها الاوروبيـون بالشعـوب الهندية ـ الأوروبية ، بالمحافظة على البيئة واجتناب كل مـا يلوثها منـذ زمن بعيد .

ويقـول الباحث الفـرنسي « ماريجـان مـولـه » أن الشعـوب الهـنديـة الأوروبية هي أول الشعوب التي قامت بمد مجـاري الفضلات تحت الأرض حرصاً على عدم تلويث سطحها ، وحدا بهم وسواسهم من تلويث الارض إلى الامتنـاع عن دفن المـوتى فيهـا ، وإحـراق جثثهم في مكـان نـاء عن العمران ، أو وضع موتاهم في مكان مرتفـع على الجبـال أو التلال أو فـوق جدران يبنونها ، وتركها إلى أن تجف فلا يبقى منها إلا العـظام التي توضـع بعد ذلك في كهف أو في غرفة .

ولم يعـرف دفن الموتى عنـد الشعـوب الآريـة إلا في فتـرات تـاريخيـة متأخرة محاكاة لأقوام أخرى[1] ، وبصورة خاصـة في أزمنة الحـروب أو عند ظهور الأوبئة المعدية .

---

(١) يقول المستشرق الأمريكي أولم ستيد أستاذ تاريـخ الشرق بجـامعة شيكـاغو (المتـوفي عام ١٩٤٥ م) إن ملوك الدولة الاكمينية في إيران دفنوا جميعا في مقابر من الرخام والأحجـار=

وعندما غزا الاسكندر المقدوني الهند ، رأى أن الهنود يحرقـون أجساد القتـلى ، فدهش من هـذا التصرف واستفسـر منهم عن أسبابـه ، ثم كتب بذلك تقـريراً إلى أستـاذه أرسطو ، فـأصبحت رسالتـه وثيقة تـاريخية هـامة تصور عادات الهند وتقاليدها في الحرص على طهـارة الأرض ونقائهـا . ومما جاء في هذه الـرسالـة قولـه : (سألت الهنـود : لم تحرقـون جثث الموتى ولا تدفنونها ؟

فأجابوا : إذا دفناها ، تلوثت الأرض ، وهو ما يتعارض مع تقاليد ديننا .
ثم سـألتهم : إذا كـان المـوتى يلوثـون الأرض ، فلم دفنتم جثث الجنـود وأحرقتم جثث الضباط
فـأجابـوا : إن أجسـاد الجنـود لا تنجس الأرض ، عـلى النقيض من جثث الضباط والأمراء التي تنجسها بشدة) .

وأضاف الاسكندر إلى هذا قوله في الوثيقة عينها : (أحسست بـأنهم إن دفنوا الضباط والأمراء ، لم يؤدوا لهم واجب التكريم والاحتـرام بالقـدر الكافي والمناسب) .

وقـد اهتم أرسطو بهـذه الرسـالة اهتمـاما جعله يـدرجهـا في كتـابـه (الاورغـانون)، وهـو الكتاب الـذي تناول فيـه مسائـل المنطق ، والـذي تساءل فيه في معرض الحديث عن المـوت عما إذا كـان من الأفضل إحـراق جثث الموتى كما يفعل الهنود .

= المزدانة بـالنقوش ، منهـا قبر قـورش وقبر داريـوش الكبير ، في حـين أننا لا نجـد مقبرة واحدة لملوك الدولة الساسانية ، مع أنها أقرب إلينا من دولة الاكمينيين ، ذلك لأن الموتى في عهد الدولة الساسانية كانوا يوضعون على مرتفعات إلى أن تجففها الشمس .
وفي هذا المقام نذكر أن المستشرق (جورج كامرون) هو أول من كشف أبجدية الكتابات الاكمينية وترجم آلافا منها ، وبفضل الجهود التي بـذلها في هـذا الشأن ، أصبحنـا نعرف الكثير عن تاريخ إيران القديم .

ولقد كان من ديدن الشعوب الهنديّة الأوروبيّـة أن تحرص عـلى عدم تلويث البيئة في وقتٍ لم تكن قضية البيئة قد أصبحت الشغل الشاغل لدول العالم جميعاً ، ولم يكن تعداد سكان أيّ مدينةٍ في العالم يزيـد على مـائة ألف نسمة . ولئن لم تتوافر لدينـا معلومات وافيـة عن عدد سكـان مدن فـارس والهنـد في القديم ، فقـد سجّلت لنا كتب التـاريـخ أن مـدينـة منف،وهي العاصمة المصـرية القـديمة قبـل الميلاد بـألفي عام كـان عدد سكّـانها مائـة ألف ، وكان عمر هذه المدينة وقتئذ ألف سنة .

ويقول الصينيّون إن مدينة بكين كان يسكنها في عام (٢٠٠٠ ق.م.) الفين قبل الميلاد خمسمائة ألف نسمة ، ولكنّ هذا القول يفتقر إلى أيّ سند تاريخيّ ، وليس في تاريخ الصين آثـار تدلّ عـلى صحّته ، وطبيعيّ أن هـذا الرقم على فرض صحته لا يُعدّ شيئاً بالقياس إلى عـدد السكّان في عـواصم العالم ومدنه الكبيرة اليوم .

وأيّـاً كـان الأمـر ، فـإنّ الفيلسـوف الأخـلاقي الصيني الشهـير (كونفوشيوس) قد أمر إتباعه بالنظافة وعـدم تلويث البيئة ، وكنفـوشيوس قـد ولد في عـام ٥٥١ وتوفي في عـام ٤٧٩ قبل الميـلاد ، وكانت الشعـوب الهنديّة ـ الأوروبيّـة قد عـاشت قبله بمئات من الحقب ، بـل بآلاف منهـا . وليس من المعروف على وجـه اليقين متى بـدأت هجرة الشعـوب الآريّة إلى الشـرق ، فمن المؤ رخين من يقـول إن هجرتهم بـدأت قبل الميـلاد بثلاثـة آلاف سنـة ، ومنهم من يقول إنها بـدأت قبله بألفـين من السنـين ، ولكن هذه التقديرات هي ضرب من الحدس والتخمين ، والفرق بينها لا يتجاوز خمسين سنة أو مائة .

ومهما يكن الأمر ، فعنـدما أسـدى كونفـوشيوس نصـائحه ومـواعظه تلك لأتباعه ، كان قد مرّ على استيطان الشعوب الهنديّة ـ الأوروبية في هذه

المضبة وقت طويل ، ولا يُستبعد أن يكـون الزعيم الـدينيّ ، الذي عـاش عمـره بين الشعـوب الآريـه. قـد تعلّم منها ونقـل من تقاليـدها احتـرامها للأرض والبيئة وحرصها على العيش في وسط طاهر غير نجيس .

ولم تصبح قضية منع التلوّث ـ كما ذكرنا ـ قضيةً عالميّة إلا بعد الحرب العالمية الثـانية ، وهي اليـوم قضية تستـأثر بعنـاية الـدول والهيئات الـدولية باعتبارها قضيّة ملحّةً لا تقبل الارجاء والتأجيل .

النيّة والعمل في رأي الإمام الصادق "ع"

سُقنا في ما تقدم طائفةً غير قليلة من الآراء والنـظريّات العلميّـة التي قال بها الإمام جعفر الصادق (ع) ودلّ بها على أنه كان ذا عبقريةٍ فريـدةٍ في هذه الميادين . ولكن عبقريّته لم تقتصر على هذه الميادين ، بل شملت أيضاً الميادين الانسانية والاجتماعية التي رفدها بآراء وأفكـار أيديـولوجيـة أنارت الـطريق أمام البشـرية . وخليقٌ بنـا أن نتأمـل لنقف على أوجـه التجـديـد والعمق فيهـا ، ولندرك كيف سبق الكثيـرين من الأيديـولـوجيـين العـظام الذين عرفهم العالم منذ القرن السابع عشر الميلادي .

يقول الإمام الصـادق (ع) إن عمل الإنســان ينبغي أن يجيء مطابقـاً لعقيدته ومتّفقاً معها ، وإن عقيدة المرء ينبغي أن ترجع إلى تفكيـره الخاصّ وإرادته الخالصة .

ويقول أيضاً ان الإنسان وُلد صادقاً أميناً ، ولم يُخلق ليكذب أو ليـأتي بعمل يُخالف عقيـدته ، إلاّ أن البعض ينحـرف إلى الكذب ، ويعمـل على خلاف عقيدته[1] .

---

(١) ورد عن الإمام الصادق (ع) قـوله : يـولد كـل مولـود على الفـطرة إلى أن يهوده أبـواه أو ينصرّاه وفي رواية اخرى (إلا أن أبويه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه) .

ويقول كذلك بأن الطفل لا يعرف الكذب ولا يعمل إلاّ ما يُمليه عليه قلبه وعقيدته ، فإن أحبّ أحداً انجذب إليه ، وإن كره أحداً نأى عنه ، وإذا أحبّ شيئاً مدّ يده إليه ، وإنْ كره شيئاً لم تقو يده على حمله . وهذا كلّه دليل على أن المرء صادق بطبيعته ، وأنَّ عمله يتّفق أصلاً مع تفكيره .

ولكن الملاحظ أنَّ المرء إذا بلغ مبلغ الرشد ، اختلفت أعماله عن عقيدته ورأيه ، وحلّ الكذب محلّ الصدق ، ولو عند البعض من الناس .

ويقول المشتغلون بعلوم الأحياء إن الإنسان الأوّل لم يكن قادراً على الكلام ، ولم يكن بالتالي قادراً على الكذب أو على إتيان عمل يخالف رأيه ومعتقده ، وما مكّنه من الكذب ومخالفة الضمير إلاّ اعتياده الكلام بعد ذلك .

ولم يكن هناك خلافٌ بين الوضع الاجتماعي للإنسان الأوّل والوضع الاجتماعي للحيوان ، فإنْ أحبَّ أحدهما نظيره عايشه وائتلف معه ، وإنْ كرهه دبّ بينهما النزاع والقتال .

وكان الإنسان الأوّل شبيهاً بالحيوان من حيث أنّه لم يكن يستطيع الظهور بمظهر يخالف ما يُبطن ، فلمّا نطق وتكلّم، عرف الكذب ، وعرف كيف يُظهر خلاف ما يُبطن ، وينطق بما لا يعتقد .

صحيح أن ارتقاء البشريّة وحضارتها بدءاً مع الكلام وقدرة الإنسان على نقل أفكاره ومشاعره إلى الغير والإصغاء إلى تجارب الآخرين وأفكارهم للاستزادة من المعلومات والتجارب ، ولكنّ المؤكد كذلك أن الكلام والنطق كانا أداةً للكذب والرياء .

ويقول الكاتب الدنمركي المعاصر (بالو وان مولر) إن الإنسان لم

يعرف في بدء نشأته أمـرين يتعلقان بحيـاته ، همـا الكذب والمـوت . ولهذا الكاتب رواية عنوانها « موت هـابيل » تُعـدُّ عند الأدبـاء من الآثار النفيسـة المعاصرة . وقد صوّر فيها بخياله البارع مأساة موت هابيل ، وكيف أن آدم وحوّاء كانا يعتقدان في باديء الأمر بأن ابنهما هـابيل نـائم ، فلما طال نـومه أكثر من يومين ، ودبّ البلى في جسـده ، واجتمعت الطيـور لنهش جثته ، تنبّهـا إلى موتـه على الـرغم من أنّهما جرّبـا من قبل مـوت الحيـوانـات عنـد صيدها .

وكان الفيلسوف البلجيك العالم (مترلينك) المعـروف بآرائـه الماديّـة يقـول إن الصورة التي يـطبعها نجم وقـع شعاعُـه على لُجَّـةِ ماء قبـل مئات الملايين من السنين لا تفنى ، فكيف بالإنسان ؟ وكان مترلينك يحضر بنفسه جلسات تحضير الأرواح ويـردّد قائـلاً : ما دام الإنسـان لا يعرف الفنـاء ، فلعـل ما يبقى منـه بعد مـوته يـظلّ مرتبـطاً بأهله وعشيـرتـه الأحيـاء عـلى الأرض .

وإلى ما قبل القـرن الماضي ، كـان الفقراء في دول أوروبـا كإسبـانيا وايـطاليا وفـرنسا ، يـطوفون في الشـوارع والأزقّة في ظـلام الليـل مـردّدين بصوت مرتفـع (أيها النـاس ، إنَّ موتـاكم في انتظاركم ، وهـم بحـاجةٍ إلى طعام وشراب ، فارحموا موتاكم) . فكان الناس يتصدّقون عليهم بالطعـام والشـراب ، وكان النسـاء الـطّيبـات المؤمنـات يعـطين الفقـراء كـأسـاً من الشراب ظنّاً منهنّ بأن ذلك يروي غليل المتوفى .

وما زالت عادة التصدّق على أرواح الموتى سائـدةً في فرنسـا وإيطاليـا وإسبـانيا ، ممـا يدلّ عـلى أن القوم في هـذه البـلاد يعتقـدون بـالحيـاة بعـد الموت ، ولولا ذلك لما تصدّقوا .

وهناك اعتقاد شائع في بعض الدول المتقدّمة بأن إطعام الفقراء والمساكين كفيل بتخفيف حدّة العطش والجوع عند الموتى من أقرباء المتصدّقين .

وذكرنا في ما سبق إن الإمام الصادق (ع) يرى أن الإنسان يولد مفطوراً على الصدق والأمانة ، ويتصرّف وفقاً لما يعتقده ، كما قلنا إن الإنسان الأوّل لم يعرف الكذب ، وإنْ اختلف العلماء في تاريخ نشأة الإنسان الأوّل اختلافاً شاسعاً ، ففي رأي بعض العلماء أن الإنسان كان موجوداً على الأرض من ستين مليون سنة ، وفي رأي غيرهم أن عمر الإنسان على الأرض أقصر من ذلك بكثير ، وأنه وُجد منذ أربعة ملايين أو خمسة ملايين سنة فقط كما يقول بعض آخر إن الإنسان وُجد في الدهر الثالث من عمر الكرة الأرضية ، أي في الفترة التي انقرضت فيها الديناصورات (الحيوانات الضخمة) التي أدّى تحلل أجسامها تحت الأرض الى تكوين بحيرات النفط الشاسعة في أنحاء شتّى من العالم .

وقد عُثر في الصين على هيكل عظمي بشري موغل في القدم ، والعلماء عاكفون على دراسته لمعرفة عمره ، وبالتالي تحديد عمر الإنسان على الأرض ، فإن ثبت أن عمر هذا الهيكل العظمي ستون مليون سنة ، جاء ذلك معزّزاً لرأي العلماء القائلين إن الإنسان الأوّل نشأ على الأرض في الدهر الثالث من عمرها ، وهي الفترة التي اتخذت فيها الأرض شكلها الحالي ، بعد ما انقطعت منها السيول الهائلة المستمرّة والأمطار الغزيرة والأنهار العاتية ، وانتظمت فيها سلاسل الجبال والسهول والوديان الحالية .

فالإنسان قد استقرّ على الأرض بعد اجتيازه مرحلة الحلقة

المفقـودة(١) ، وكان يمشي عـلى أربـع دون أن ينـطق أو يتكلّم ، بـاستثنـاء أصواتٍ تصدر منه هي أقرب إلى الصـراخ والصياح ، وكـان الإنسان الأوّل بـطيء الحركـة فصار لقمـة سائغـة للحيوانـات الضاريـة تفتك بـه قبل أن يتمكّن من الإفلات منها .

وكان جسمه مُغطّى بشعر كثيف يشمله من هـامة الـرأس إلى أخمص القـدم ليقيـه وقـدة الحـر وشـدّة البـرد ، ولكنّ هـذا الشعـر كـان مـرعى للحشرات من قمل وبراغيث ، ممّا كان يضطره إلى حكّ جلده طول الوقت وتفلية شعره من هذه الحشرات .

أمّـا الهمّ الآخـر الـذي كـان يشغـل الإنسـان الأوّل ، فهـو الأكـل والشرب . وكان طعامه الـوحيد هـو الحشائش والنبـاتات الخضـراء ، دون اللحم ، ولقلّة السعرات الحرارية (الكالوري) في النباتات ، كان الإنسان الأوّل لا يكفّ عن الأكل لإحساسه الدائم بالجوع . ولأنـه كان يمشي عـلى أربع ، فقد كانت يداه من الضعف بحيث لا تقويان على الإمساك بالأشياء كما هو حالها اليوم . وكان يقطف الثمار بفمه ، شأنـه شأن البهـائم ، وقد ظلّ الإنسان الأوّل على هذا الحال ملايين من السنين حتى تطوّرت أعضاؤه واتّخذت شكلها الحالي .

---

(١) يقول العالم البريطاني دارون إن هناك حلقةً مفقودةً بين القـرد والانسان وقـد مضت عليها دهور سحيقة . ولكن العلماء لم يكتشفوا حتى الآن الهيكل العـظمي لهذه الحلقـة المفقودة بما يثبت صحة ما ذهب إليه دارون ويجعلهم منه حقيقة مقبـولة . ومن أسبـاب الشك في نظرية دارون أن شكل الإنسان كثير التنوع في السحنة واللون والعنصر .

ولم يتـأت للعلم الحـديث حتى اليـوم أن يقف عـلى سـرّ التغييـرات التي طـرأت عـلى « جـرثومـة » الإنسان في حيـاته الأولى ، وأدّت إلى مـا نراه اليوم من اختـلاف في اللون والمعـالم الخارجيـة . وهذا هـو الذي دعـا بعض العلماء إلى القول بـأن الإنسـان الأبيض والأسود قد جاء كل منهما إلى الأرض من عالم مختلف عن الآخر .

ويقول المفكّر المعاصر (مارشال مكلوهان) إنّ أسباب رقيّ الإنسان وانتقاله الى مرحلة الحضارة أنّه على أربع في بداية نشأته ، فأدّى المشي على الرجلين واليدين إلى تقسيم المخ الى نصفي كرة وتقوية خلاياه وتنشيط الذاكرة والقدرة على الحفظ ، وهي العوامل التي كانت سبباً رئيسياً في انتقال الإنسان إلى مرتبة التمدن .

ويقول هذا المفكر : لو حدثت كارثة طبيعية أو حروب عالمية وأطاحت بكل مظاهر التراث العلمي والثقافي الذي توارثناه جيلاً بعد جيل ، ولم يبق أحدٌ على قيد الحياة من حفظة التراث وذاكريه ، وبقي الأطفال الصغار وحدهم في هذا العالم ، فالمؤكد أن هؤلاء الأطفال سيتحوّلون إلى الهمجية والتوحش وحياة الغابات التي كان يحياها إنسان ما قبل الحضارة ، ما داموا يعيشون منقطعين عن أي حضارة يسلكون بموجبها في الحياة .

أمّا عالم الاجتماع الكندي المعاصر (شواليه) فمن رأيه أن الإنسان الأول كان يمشي على أربع فأدى هذا إلى جعل شطري المخّ يمارسان مهمّة القيادة ، وبفضل نشاط المخ بكامله أي بشطريه انتقل الإنسان إلى مرحلة الحضارة ، وفي هذه المرحلة بدأ الانسان يستعين بإحدى يديه اليمنى أو اليسرى بصورة مستمرة ، مُهملاً اليد الأخرى التي باتت عاجزةً عن النهوض بما تنهض به اليد النشطة ، وكان إنسان ما قبل التاريخ يتميّز بجهله للكذب وعجزه عن إظهار ما يخالف رأيه ورغبته .

فكأن الكذب كان من نتائج الحضارة . والغريب أن الإنسان المتحضر يكذب ، ثم يسنّ القوانين الأخلاقية التي تسفّه الكذب والرياء وتستهجنها ، ولكنّ قوانين السلوك شيء أو احترامها شيء آخر .

والملاحظ في عالمنا اليوم ، أنَّ المجتمعات البشريّة في قلب القارّة الإفريقية أو في جزر أقيانوسية وهي التي لم تصل بعد إلى مرتبة الحضارة العصرية تقول الصدق ولا تعرف الكذب والرياء . بل إنّ دافيد ليفنجستون الذي اكتشف منابع النيل في إفريقيا ورسم الخريطة الجغرافية للقارّة الإفريقية ، والذي كان يُوافي الجمعيّة الجغرافية الملكيّة البريطانية بمذكّرات وخرائطه ، قد كتب يقول : (إن الإفريقيين السود لم يعرفوا الكذب ، ولا هم قادرون عليه إنْ طُلب منهم ذلك) إلا أن ذلك كان حتى منتصف القرن التاسع عشر ، أي قبل أن تقع هذه القارة السوداء تحت سيطرة الاستعمار الغربي .

وقد أبدى الدكتور ليفنجستون معارضةً شديدةً لتجارة الرقيق ، وبذل كلّ جهدٍ ممكن للحيلولة دون قيام التجّار العرب من الأفارقة بتصيّد أبناء السود في القارّة وبيعهم في أوروبا وأمريكا ، وقد أقدم ليفنجستون على رفع العلم البريطاني في تنجانيقا ، وطلب من السود أن يقولوا لآسريهم من البيض إنهم من رعايا بريطانيا لينجوا من البيع في سوق النخاسة ، ولكنّهم أبوا أن يكذبوا ، ولم يستطيعوا حمل أنفسهم على قول ما ليس بصحيح .

وكان مناوئو الدكتور ليفنجستون يقولون في الطعن عليه إنّه لم يقصد برفعه العلم البريطاني على تنجانيقا تحرير السود ، بل قصد تمكين البريطانيين من استعمار هذا الجزء وأجزاء أخرى من القارّة الإفريقية .

وممّا يُذكر أن أخبار الدكتور ليفنجستون انقطعت بعد وصوله إلى قلب إفريقيا ولمدّة عشر سنوات ، ممّا حدا بجريدة (نيويورك هيرلد تربيون) إلى إيفاد الصحفي المغامر ستانلي لتقصّي آثاره[1] ، فذهب ستانلي

(١) ستانلي هو الذي كشف شلّال فيكتوريا الذي يقوم على نهر النيجر ، وله كتاب هامّ عن رحلته الإفريقية وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية وطُبع بالحجر في بداية عصر الدستور في إيران ، وهو كتاب جغرافي كبير الفائدة . (المترجم) .

إلى إفريقيا مرّتيْن ، في المرة الأولى للبحث عن الدكتور ليفنجستون ، وفي المرّة الثانية استصحب معه قافلةً كان هو مرشدها وقاضيها . وممّا رواه ستانلي في مذكّراته أنَّ واحداً من السود قتل زميلاً له ، فمثل أمامه للمحاكمة ، وقضى عليه بالموت ، ولكنّه قال للقاتل إنه على استعداد لتخفيف الحكم عنه إذا ما تعهّد بمسالمة الناس وعدم العودة إلى القتل ، فكان ردّ الزنجي : (ولو أطلقتم سراحي فلن أكفّ عن قتل زملائي الآخرين) ، ويعلّق ستانلي على هذا بقوله إن هذا الزنجي لم يعرف الكذب ولم يستطع أن يخفي نيّة القتل حتى ولو كان ذلك طلباً للنجاة .

ولكن ، ما أن دخلت هذه القبائل الإفريقية وبلادها حظيرة الحضارة المعاصرة ، حتى عرفت الكذب والنفاق وصارت تتوسل بهما .

أمّا الإمام الصادق (ع) فكان يُبغض الكذب والنفاق ، ويوصي تلاميذه بأن تكون أقوالهم مطابقةً لنيّاتهم ، وأن تكون عقيدة المسلم عقيدةً يرفدها العقل والخيال ، فيؤمن الإنسان بعقله وقلبه وخياله ظاهراً وباطناً دون كذب أو نفاق . وكان يحضّ أصحابه على اجتناب النفاق والرياء في جميع أعمالهم وفي كلّ الظروف ، ضارباً المثل بآبائه الكرام الذين استشهدوا في سبيل الذياد عن العقيدة ، ولم يضعفوا أو يتخاذلوا تلقاء أيّ ضغط أو تهديد .

الفلسفة والحكمة والفرق بينهما
في رأي الإمام الصادق "ع"

كان الإمام جعفر الصادق (ع) إماماً في المذهب وحكيماً وفيلسوفاً وأديباً في عصره ، وكانت علوم الدين والحكمة والفلسفة والأدب تدرّس في مدرسته .

وللإمام نظريّة في الفرق بين الفلسفة والحكمة ، مرّ عليها حتى الآن ما يزيد على ألف ومائتي سنة ظهر في أثنائها عشرات من الفلاسفة والحكماء في الشرق والغرب ، ولكنّ أحداً منهم لم يضع تعريفاً لكلّ من الحكمة والفلسفة أجمع من التعريف الذي وضعه الإمام الصادق (ع) .

ففي رأي فلاسفة الإغريق القدماء أنّ كلّ معرفةٍ تدخل في نطاق الفلسفة .

وفي رأي رجال مدرسة الإسكندرية ، التي كان لها شأن عظيم في تقدّم العلوم والفلسفة ، أن الحكمة والعلم شيءٌ واحدٌ ، بدليل أنهم كانوا يُطلقون اسم الحكمة على كلّ علمٍ وفنّ ، بما في ذلك الطب الذي كان يُعدُّ باباً من أبواب الحكمة[1] .

---

(١) وإلى وقت قريب كان الطبيب عندنا يدعى بـ (الحكيم) ، فإن كان أجنبياً وُصف بأنه « حكيم صاحب » .

وعند القدماء أنّ الفلسفة هي ينبوعٌ تتفرّع منـه جميع العلوم ، ولهـذا سمّوها بعلم العلوم ، لأنَّ الفيلسوف كان متضلّعـاً من جميع علوم زمـانه ، في حين أن الطبيب مثلاً لم يكن يدّعي الإلمام بالفلسفة .

ويقول الأديب الفيلسوف الفـرنسي المعاصـر (جان دولا كـروا) إن اليونان كانت في القديم تعدّ الأدب والفنّ من أبواب الفلسفة ، وإنّ الشعر والموسيقى والرسم والنحت وصنـع التماثيـل تستلهم صورهـا وزبدتهـا من الفلسفة . وفي عهدٍ متأخّر ، فُصل الأدب والفنّ عن الفلسفة .

ولأن العلوم الأساسية جميعاً كانت داخلة في نـطاق الفلسفة ومتفـرّغة منها ، فلم تكن ثمة ضرورة للتفريق بين العلم والحكمة .

ساد هذا التفكير إلى عصر الإمام الصادق (ع) الذي وجده تفكيـراً قـاصراً ، فـوضع تعـريفاً من شـأنه تحـديـد إطـارٍ مستقـلّ لكـلّ من العلم والفلسفة ،فيتميّز أحدهما عن الآخر .

صحيـحٌ أنّ للعلم في يومنـا الحاضـر تعريفـاً جـامعـاً يحـدد وظـائفـه ومجالاته ، ويقرّر له الاستقلال عن الحكمة ، ولكنّ مناداة الصادق (ع) في عصره باستقلال العلم عن الحكمة كانت دعوةً ثوريّةً بمعنى الكلمة بمقاييس تلك الأيّام .

وقـد قسّم الصادق (ع) نـظرّيته بشـأن تعريف العلم والفلسفـة إلى شقينّ ، فقال في الشق الأوّل إن العلم يـوصّل المرء إلى نتيجةٍ واقعيـةٍ حتى ولو كانت صغيـرةً ومحدودةً ولكنّهـا نتيجة حقيقيـةً فعلًا ، أمّـا الفلسفة فـلا توصّله إلى نتيجة ما .

وبهذا التعريف أصـدر الصادق (ع) حكـماً قاطعـاً واضح السمـات على حقيقة الفلسفة وحصيلة من يشتغلون بها على مدى العمر .

وبعبارة أخرى إن الصادق (ع) استدار وكأنّه يخاطب المشتغلين بالفلسفة في العالم وقال لهم : إنَّ أبحاثكم ومجادلاتكم بعيدة عن الحقيقة والواقع ، فلا أنتم بها تنتفعون ، ولا تنفعون بها غيركم ، ولا فائدة من تحصيلها سواء لكم أو لغيركم .

والمعروف في ماريخ الفلسفة أنّ الذين أنكروا نظّريات الفلاسفة أو شكّكوا فيها عرّضوا أنفسهم لعداوة أولئك الفلاسفة وأتباعهم ، ولو استخفّ أحدٌ بصاحب أرضٍ أو ضيعة ما لجلب على نفسه عداء هذا السيّد ، تماماً كما لو استخفّ بثقافة مثقف أو رأي مفكّر ، لأن كلّ صاحب فكر أو ثقافة أو علم فخور بما عنده ، ولا يرتضي أن تلقى بضاعته استخفافاً من الغير وفي التاريخ رجالٌ وُصفوا بالعدل والحقّ ، ولكنهم ضاقوا بكلّ من حاول الاستخفاف بقدرهم العلميّ .

مثال ذلك أنَّ مالكاً بن أنس ، مؤسّس المذهب المالكي من مذاهب السنة ، وأحد الأئمة الأربعة في الدين الإسلامي مع الشافعي وأبي حنيفة وابن حنبل كان معروفاً بزُهده وعلمه وتقواه في المدينة ، فلمّا شاعت نظريّة الصادق (ع) بشأن الفلسفة وعدم جدواها ، قصده واحدٌ من تلاميذه وأصحابه الأقربين ، وهو إبراهيم الغزّي ، وقال للإمام مالك إنّ ما يدرّسه من الحكمة والفلسفة عديم الجدوى ، فتألّم مالك ـ وهو من هو ثقةً وعلماً وفضلاً ـ من تجريح الغزيّ له واستخفافه بعلمه وفضله ، وامتنع ـ كما تقول الرواية ـ عن مقابلته إلى يوم وفاته . وقد وقعت وفاة مالك ابن أنس في سنة ١٧٩ للهجرة عن عمر ناهز ٨٦ عاما .

فإذا كان الإمام التقيّ (مالك بن أنس) قد ساءه أن يستخفّ أحدٌ بفضله أو يقلل من أهمية علمه ، فكيف بسائر الناس ؟

وقد اعترض الفيلسوف الفرنسي المعاصر (جان دولا كروا) على نظريّة الصادق (ع) ، وقال إن نظريّة الصادق (ع) كانت تسوغ في الأذن لو أنّه قال إن الفلسفة لا جدوى منها اللّهم إلاّ إذا وطأت للعلم وكانت تمهيداً له ومُقدّمة ، ومتى أفضت الفلسفة إلى العلم ، كان جدواها كبيرةً ونفعها جزيلاً .

فمن رأي هذا الباحث الفرنسيّ أن الفلسفة بمفردها عديمة الفائدة ، لأنّها كالنظرية المجرّدة التي لا تُفضي إلى شيء ، أمّا إذا أفضت إلى العلم حيث التجربة والتطبيق فعندئذ تثبت جدواها العمليّة ويؤكد التطبيق صدقها .

وهناك معادلات وقوانين علمية طلع بها علماء بارزون ، ولكنّها بقيت معادلاتٍ وقوانين مجرّدة لا نفع منها إلى أن دخلت مرحلة التطبيق العلمّي .

وها قد انقضى حوالي أربعمائة سنة على القوانين الفلكية التي انتهى إليها العالم الألماني (كبلر) بشأن حركة السيّارات حول الشمس ، وانقضى ما يقرب من ثلاثمائة سنة على قانون الجاذبية الذي اكتشفه (نيوتن) ولكن أحداً من علماء الفيزياء والفلك لم يحاول أو يشكّك في صحة هذه القوانين الثابتة ، إلى أن أطلق الروس أوّل سفينةٍ فضائية في عام ١٩٥٧ ، فتحقّقت بفضلها قوانين كبلر ونيوتن التي استعين بها في تنظيم هذه الرحلة الفضائية ، وازداد انتفاع الإنسان بها في إطلاق المحطّات الفضائيّة والأقمار الصناعية وتثبيتها في الجوّ ، للاستعانة بها في الاتّصالات اللاسلكية والبثّ التليفزيوني في أنحاء العالم ، ولمتابعة التغييرات الطارئة في الجوّ من حرارةٍ وبرودةٍ ، ومعرفة اتّجاهات الرياح والأعاصير والأمطار والثلوج ، والتقاط صور جغرافيّة للكرة الأرضية .

وكانت الحكمة من جملة الدروس التي يعلّمها الإمام الصادق (ع) في مدرسته ، ممّا أثار في الخاطر سؤالاً هو : كيف يقوم الصادق (ع) بتدريس الحكمة في مدرسته في حين أنه يقول بعدم جدواها وفائدتها ؟ وكيف يحمل طلّابه ، وهو الإمام والقائد الديني المترفّع عن الزلل ، على دراسة مادّةٍ يرى فيها أنها مادّة لا تفيد في الحياة العملية ؟ .

ولابد للردّ على هذا التساؤل من النظر إلى الشقّ الثاني من نظريّة الإمام (ع) بشأن العلم والحكمة ، كما لا بدّ أن آراء الصادق (ع) بشأن الحكمة والعلم لا تنصرف إلى الدين أو المذهب ، فالذي لا شكّ فيه أن الحقيقة في نظر الإمام (ع) هي الله وحده ، وهي حقيقةٌ ينبغي تنزيهها عن كل نقاش.

يقوم الشقّ الثاني من نظرية الإمام الصادق (ع) على محور الحكمة والعلم ، وفيه يقول إنّ العلم لا ينظر إلى حقيقةٍ مطلقة ، ولكن الفلسفة قادرة على ذلك .

جاء في الشقِّ الأول من نظريّة الإمام الصادق (ع) إن العلم يُميط اللثام عن الحقائق حتى ولو كانت صغيرة ، فكيف يقول في الشقّ الثاني من نظريته بأن العلم لا ينظر إلى حقيقةٍ مطلقةٍ ، بينما الفلسفة قادرة على ذلك ؟ أليس هناك تعارض بين هاتين النظريّتين ؟ .

يقول الصادق (ع) إنّ العلم يكشف الحقيقة ، ولكنّه إنْ عجز عن كشف الحقائق الكبرى فلا يُعجزه أن يدرك الحقائق الصغيرة المحدودة . ومع ذلك ، يحدث أحياناً أن يعجز العلم عن إدراك كُنه الحقيقة بسبب وجود تلك الحقيقة وجوداً مادياً .

وللتمثيل على ذلك نقول إن العين ترى كل شيء ، ولكنّها مع ذلك

لا ترى نفسها مع إنّها موجودة وتؤدي وظيفتها دون أن تدرك ما هو الهدف من مشاهدتها للأشياء وما هي الفائدة من ذلك .

أمّا الفلسفة ، فإنّها وإنْ لم تصل إلى حقيقةٍ قاطعةٍ ، فهي تتطلّع إلى معرفة الحقيقة المطلقة ، وبالتالي معرفة سبب خلق العالم والبشر ، وكُنه الخالق ، ومصير الإنسان ، ونهاية العالم .

وقد مرّ على هذا القول إثنا عشر قرناً ، وما زال إلى يومنا الحاضر قولاً سديداً في التفرقة بين العلم والفلسفة، فالعلم عاجز إلى يومنا الحاضر عن معرفة الحقيقة المطلقة وتبيّن نهاية المطاف ، وهو لا يعرف من أين تجيء الحقيقة ولا إلى أين تذهب . صحيح أن العلم ميزانٌ دقيق يزن كلّ شيء ، ولكنّ حيلته بعد كلّ الجدّ والبحث تقف عاجزةً أمام الحقيقة المطلقة . أمّا الفلسفة فقادرة على الردّ على هذه التساؤلات وتوضيح العلل والأهداف ، والبحث في خاتمة المطاف ، على الرغم من أن الفلسفة لم تصل إلى حقيقةٍ واحدةٍ في كلّ تاريخها الطويل .

يلوح من هذا التعريف أن الإمام جعفراً الصادق (ع) يضع الحكمة في منزلة مقدّمة على العلم ، لأن العلم لا يستهدف الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، في حين أن الحكمة تهدف إلى ذلك وتجتهد في بلوغه ، وما الحقيقة المطلقة إلاّ الله جلّ جلاله .

فبعد ما تفرغ الفلسفة من تناول القضايا الهامّة ، تصل إلى السؤال الجوهريّ ، وهو : ما هي حقيقة الله ؟ وما هو الهدف الحقيقي من الخليقة ؟ وما هو مصير هذا العالم ؟.

ويتحصّل من هذا أنّ الصادق (ع) كان يرى أن للحكمة فضلاً في هداية الإنسان إلى معرفة الله ، بينما العلم قاصر عن القيام بهذا الدور ، اللّهم إلاّ إذا قادنا العلمُ إلى المعرفة الشاملة التي تدخل الحكمة بدورها في

إطارها . هذا مع أنّ الصادق (ع) كان إماماً في الدين ، وكان يرى أن الدين هو أفضل السبل للتوجّه إلى الله ومعرفته ، لا الحكمة ولا الفلسفة .

ومعروف إن المسلمين في القرن الأوّل الهجري لم يُعْنُوا بالحكمة ضمن المعارف الإسلامية ، ولا كانت الحكمة أصلاً أو فرعاً من الدين الإسلامي طوال القرون المتعاقبة ، إلّا أن علماء المسلمين انتفعوا بالحكمة في إثبات الآراء الدينية في قضايا الألوهية وما وراء الطبيعة ، واستشهدوا بها في مباحثهم اعتباراً من القرن الثاني الهجري ، ممّا يصحّ معه القول بأن النهضة العلميّة والعمرانية للمسلمين وتقدّمهم المادّي قد بدأت كلّها من هذا القرن .

وممّا ساعد على قيام الوسط العلمّي وامتداد الحركة الثقافية ، اختلاط العرب بشعوب غير عربية ، ووقوفهم على ثقافات الشعوب والأمم الأخرى .

وعلماء المسلمين الذين حاولوا التوسّل بالفلسفة في بحث أصول التفكير الإسلامي ، أو بالأحرى الاستفادة من قوانين المنطق ومسائل الفلسفة في إثبات الآراء الدينية ودعمها ، هم واضعو علم الكلام في الإسلام ، وعلم الكلام معناه الفلسفة الإسلامية ، أو التوسّل بالفلسفة في فهم الدين الإسلامي .

وقد حدا هذا بالمسيحيين إلى تقليد المسلمين من حيث التوسّل بالفلسفة في شرح الدين المسيحي ، وذلك عندما احتكّوا بالمسلمين في الحروب الصليبيّة التي استمرّت طوال قرنين ، وعندما نُقلت مؤلفات المسلمين إلى اللغة اللاتينيّة (وهي اللغة العلميّة التي كانت سائدة في أوروبا) وعندما وقف المسيحيون على أركان الفلسفة الإسلامية ، أي علم الكلام .

ولولا الحروب الصليبية التي هيّأت لأوروبا أن تحتكّ بالشرق ، لبقيت سادرةً في جهلها للعلوم والثقافات الإسلامية إلى القرن السابع عشر ، وهو القرن الذي بدأ فيه غرس كثير من أشجار الفاكهة الشرقية في أوروبا، وكان من المنطقي أن تنتقل ثقافة الشرق إلى أوروبا مع انتقال هذه المزروعات .

وعندما نُقلت آثار العلماء المسلمين إلى أوروبا ، وقف بعض علماء الغرب المسيحيّ على الفلسفة الإسلامية ، وحاولوا من خلالها ربط الفلسفة بالمسيحية ، ومن هنا جاء استلهامهم لمبدأ ثنائيّة الجسم والروح من علماء المسلمين .

ومن أكثر فلاسفة الغرب تأثّراً بالفلسفة الإسلامية ، الفيلسوف الفرنسي مالِبْرانش[1] (١٦٣٨ ـ ١٧١٥م) الذي كان من أتباع مدرسة ديكارت المعروفة باسم (كارتيزيان) .

وكانت فلسفة ديكارت قد انتشرت في أوروبا انتشاراً واسعاً ، واكتسبت احترام المثقّفين في كلّ قطر ، وأصبحت مذهباً فلسفياً شهيراً قبل وفاته عام ١٦٥٠ م .

وتنهض فلسفة ديكارت على أساس الشكّ في كلّ شيء ، ومن أقواله المأثورة : إن كل شيء قابل للشكّ إلاّ نفسه .

وما دام ديكارت كان يشكّ في كلّ شيء ، فمن الطبيعي أن يشكّ حتّى في الدين المسيحي وحتّى في وجود الله .

كان هذا التوضيح ضرورياً ليعرف القارىء مدى تأثير الفكر

---

(١) مالبرانش Malebranche(١٦٣٨ ـ ١٧١٥ م) فيلسوف فرنسي أنكر أمكان اتصال العقل بالمادّة ، وقال إن الحسّ والخيال في الإنسان ليسا منه وإنّما من الله ، واعتبر فكرة النظام أساساً للأخلاق ، له كتاب اسمه (طلب الحقيقة) .

الإسلامي في أوروبا الغربيّة ، حتى إن مالبرانش الديكارتي تحوّل من المذهب (الكارتيزي) إلى التأثر بالفلسفة الإسلامية .

أمّا ديكارت[1] ، فحسبنا في الإشارة إلى أثره في توجيه الفكر الأوروبي أن نذكر أن الناس أصبحت تعرفه فيلسوفاً ، ونسيت أنه كان أستاذاً للرياضيات ، وضابطاً في الجيش وله طائفة من القوانين التي وضعها في الرياضيات والضوء اشتهرت باسم (القوانين الكارتيزيانية)، ولا يعرف خبرها إلّا المشتغلون بالرياضيات والفيزياء ، إذ إن شهرة ديكارت في الفلسفة قد غطّت على شهرته في المجالات العلمية الأخرى.

وقد انجذب مالبرانش إلى أسلوب ديكارت وتفكيره ، واستهوته فلسفته منذ الصغر ، فوضع كتاباً أسماه (طلب الحقيقة) نسج فيه على منوال أسلوب ديكارت الفلسفي . وكان قصده من وضع هذا الكتاب التوسّل بالفلسفة في شرح التفكير المسيحيّ بأسلوب ديكارتيّ ، ولكنّ القارىء المتمعّن لهذا الكتاب يلاحظ بوضوح أن مالبرانش كان في منهاجه وأسلوبه متأثراً بالفلسفة الإسلامية والمتكلّمين المسلمين أكثر من تأثره بمنهاج ديكارت .

فالمتكلّمون الإسلاميّون يرون في مجاراتهم للتفكير الإسلامي أنّ الإنسان مركّب من مادّة وروح ، وأنّ المادّة ـ وهي الجسم ـ تفنى وأمّا الروح فباقية إلى الأبد، وأنّ الروح تحلّ في جسم الإنسان وتصبح جزءاً مندمجاً فيه مدى أيّام

---

(١) رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) فيلسوف رياضي فرنسي ورد التعريف به في هامش سابق ، وتقوم فلسفته على الوصول إلى الحقيقة عن طريق الشك استناداً إلى الحدس والأستقراء ، بادئاً بالصغريات ومنتهياً بالكبريات، وقد ترك آثاراً بعيدة في الفكر الغربي بنظريّاته الهندسيّة والفيزيائية فضلاً عن الفلسفية . وله كتاب مشهور عنوانه (مقال في المنهج) من أقواله المشهورة : (أنا أفكر إذن موجود) ، وهي باللاتينية : (Cogito , ergo sum) (المترجم).

حياته على الأرض ، فلما تدركه منيته تغادره الروح إلى حيث تبقى حيّةً إلى الأبد ، وفي رأيهم أنّ خصائص الروح بعد الممات لا تتغيّر ، فتظلّ محتفظةً بجميع ما كانت عليه من صفاتٍ في حياة الجسم ، كما تحتفظ بالشعور والإدراك اللّذين كانا لها في الحياة البشرية ، دون أن تحتاج إلى غذاء أو كساء .

وخليقٌ بالذّكر أنَّ المتكلّمين المسلمين يختلفون كذلك في كُنْهِ الروح وفي بقائها على قيد الحياة ، فمنهم من يقول إنّها باقية إلى الأبد مع فقدانٍ لخصائص الشعور والإدراك التي كانت لها في الجسم الحيّ ، ومنهم من يقول إن الروح تحافظ على الشعور والإدراك وتعليل هؤلاء لهذا القول أنّ روح الإنسان مسؤولة عند ربّه وعليها تقديم الحساب في يوم القيامة ، فإنْ فقدت إدراكها وشعورها لم تستطع النهوض بهذه المهمّة في اليوم الآخر .

وثمّة حقيقةٌ لا ريب فيها هي أن جميع المتكلّمين والفلاسفة من المسلمين الذين اجتهدوا في التوسّل بالآراء الفلسفية لشرح الدين ، قد حرصوا على اجتناب كلّ ما يتنافى مع أصول الدين الإسلامي ، ومن هنا اعترفوا ببقاء الرّوح ، لأن يوم المعاد الذي تُقام فيه دينونة البشر هو من أصول الدين ، ولا تعارض من وجهة النظر الفلسفيّة بين قبول يوم المعاد وبقاء الروح خالدة .

وكلّ من يؤمن بالإسلام يؤمن بيوم المعاد باعتباره أصلاً من أصول الدين ، ويؤمن ببعث الجسم والروح مرّةً أخرى لتقديم الحساب ، فإنْ كانت الأجساد تعرّضت للفناء والعدم ، فالله قادرٌ على إعادتها إلى ما كانت عليه .

ولكن ليس هناك إجماع بين الفلاسفة على الاعتقاد بعودة الجسد إلى هيئته الأولى يوم القيامة ، ولا عجب أن يقول بعض الفلاسفة بأن الجسد

ينحلّ وينعدم ، وأنَّ العظام بصلابتها تغدو رميماً بفعل الأيّام ، وأنَّ ذرّات التراب المتخلّفة عن الجسد المنحلّ تتناثر في الجوّ ومياه الأنهار وتصبح جزءاً من كائناتٍ وعناصر أخرى في العالم ، وهكذا تتواصل عمليّة التحلّل والاستحالة ، إلى أن يفقد جسد الإنسان جميع خصائصه ، ويتغيّر تغيّراً تامّاً بمرور القرون والأزمنة[1] ، ولكنَّ الفلسفة ترتضي الحجج القائلة ببقاء الروح ، لأنّها تدرك أنَّ الموادّ والكائنات لا تنعدم ، وأن المادة لا تفنى ، وأنَّ روح الإنسان خالدة بعد الموت ، وهي التي تُهيّىء للإنسان عودةً في يوم المعاد .

فلمّا جاء المتكلّمون المسلمون ، أكّدوا أنَّ الروح باقية ، ووفّقوا في هذا بين الفلسفة والدين متوسّلين إلى إثبات أصول الدين لا بالقواعد الدينيّة نفسها بل بالقواعد الفلسفيّة ، على أنَّ هناك متكلّمين وفلاسفة آخرين من المسلمين تنكّبوا السبيل إلى التوفيق بين النظريتين الدينيّة والفلسفيّة ، فاتّهموا بالإلحاد والزندقة .

وصفوة القول إنَّ الفلاسفة المسلمين (المتكلّمين) يؤكّدون أنَّ الإنسان يتألّف من جسدٍ وروح ، وأنَّ قوام حياته رهن بالتجانس والاتّحاد بين هذين العنصرين ، وطالما ظلّ هذا الاتّحاد قائماً ظلّ الإنسان متمتّعاً بالحياة ، فإنْ انقطع انقطعت معه الحياة وحلّ به الموت ، وبحلول الموت يستقلّ كل من الجسد والروح بمصيره ، فيبلى الجسد ويدبّ فيه دبيبُ الفناء ، أمّا الروح فتبقى خالدة .

وفلاسفة الكلام عند المسلمين لا يحاولون إقامة البراهين على أنَّ

---

(١) يردّ القرآن الكريم على هذه الأقاويل في الآية ٧٨ و٧٩ من سورة يّس حيث يقول : ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ، قلْ يُحييها الذي أنشأها أوّل مرة ، وهو بكل خلق عليم ﴾ .

الـروح باقيـة خالـدة ، ولا يبحثون في أصلهـا وعنصرهـا ، وقُصـاراهم أن يقولوا إنَّ الروح من أمر الربّ(*) ، وهو الذي يكتب لها البقـاء والخلود كما أنّه جلّ وعلا خالد .

فإذا عدنا إلى (مالبرانش) الذي استهواه المنهج الديكارتي في التفكير بـادىء ذي بـدء ، وجـدنـا أنــه يسلك مسلك فـلاسفــة المسلمـين ويتبنّى آراءهم ، فيقول إنَّ الإنسان يتـألف من جسدٍ وروح ، وإنَّ حيـاة الإنسان رهنٌ باجتماع الرّوح والجسد واتّحـادهما معـاً ، وإنَّ هذا الإتّحـاد هو السبب الرئيسيّ للحياة والحركة ، وإنَّ انفصام الوحـدة بين الـروح والجسد يُفضي إلى الموت وإلى فناء الجسد ، وينصرف كلّ من العنصرين إلى حيث يستقـل عن الآخر .

وعنـدمـا حـاول مـالبـرانش أن يتـوسّـل بـالفلسفــة في فهم الـدين المسيحيّ ، كـما فعل علماء المسلمـين ، درس آراءهم الفلسفية والعقـائديـة ووقف على سلامتها ، وحذا حذوها .

(*) كما جاء في القرآن الكريم : الآية ٨٥ من سورة الاسراء : ﴿ ويسألـونك عن الـروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

الشكّ واليقين عند الإمام الصّادق "ع"

منـذ أن عُني فلاسفـة الإغريق في أقـدم العصور بمسـائل الفلسفـة ، وإلى يـومنا هـذا ، وهناك قضيّـةٌ شاغلةٌ لاهتمـام الفلاسفـة والمفكّرين هي قضيّة الشكّ واليقين وماهيتّها ، وهل ثمّـة أمل في أن يـرتقي الإنسان إلى مرتبة تنفي منه الشكّ ، وهـل الفرق بـين الشك واليقـين هو مجـرّد خلاف ظاهري ؟

يقول الإمام جعفر الصادق (ع) وقوله صحيح ، أنّ الشك مصدره الجهل ، فإنْ كنّا على يقينٍ من نتيجة معادلةٍ رياضيّةٍ مـا ، لم يخامـرنا شـكّ من حولها ، أمّا إنْ افتقرنـا إلى هذا اليقـين بالنسبـة لقاعـدة في علم النفس مثـلاً ، لم يكن هنـاك مفـرٌّ من الشـكّ فيهـا ، فمسـائـل النفس شيء ، والقواعد الرياضية مثل ٢ × ٢ = ٤ شيء آخر . فالأولى تفتـح الباب أمـام الاستثنـاءات والحالات الشـاذّة والقـوانـين غـير الثـابتـة فيـرتـاب المـرء في نتائجها ، أما الثانية فلا خلاف عليها ولا هي تحتمـل شكّاً ، ومعـروف أنّ الأفراد يتباينون ويختلفون ، ويستقـلّ كلّ منهم بصفـاتٍ وخصائص خلقيّـة ونفسيّة تُغاير ما لدى الغير منها، فيؤدّي هذا الوضع إلى استحـالة التّـوصل

إلى قواعد نفسيّة عامّة تنطبق على الناس جميعاً مهما اختلفت مشاربهم وأمزجتهم ونشأتهم وصفاتهم .

والمتأمل لأوضاع الجنس البشري ، يرى أنَّ الناس تختلف من حيث اللون والعنصر والعرق والأصل والمنبت والقوميّة ، وتختلف إلى جانب ذلك من حيث الأتّجاهات الفكريّة والسياسيّة والخصائص النفسيّة ، فإنْ تحقّق الوفاق والوئام في مجتمع ما بين جميع أفراده برغم اختلافهم ، فما ذلك الاّ لأنَّ أفراد المجتمع ، ولا سيما الضعاف منهم ، قد احسّوا بضرورة التكيّف في سلوكهم وتصرّفاتهم مع السلطة القائمة التي تملك القدرة على الوفاء بمطالب هؤلاء الأفراد والمحافظة على حقوقهم .

ولو نظرنا إلى الأسرة الواحدة باعتبارها وحدة المجتمع ، لوجدناها تفتقر إلى التطابق التام في الآراء والسلوك بين أفرادها ، وهم أقرب الأقرباء ، لأنَّ لكلٍّ من الأب والابن ، والأمّ والبنت ، والزوج والزوجة شخصيّته الخاصّة التي تستقلّ بميولها وآرائها ومزاجها ورغباتها وما إلى ذلك .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى العالم النفسيّ الفرنسي (هنري برجسون) الذي عاش في النصف الأوّل من القرن العشرين ، واكتسب شهرة عالميّة بسبب تجاربه العلميّة ، وفي رأي هذا العالم أنَّ نظريات علم النفس تصدق على القبائل التي تعيش على الفطرة والبداوة أو التي هي في طريقها إلى التمدّن ، أكثر من انطباقها على غيرها من الأقوام .

يقول برجسون إنَّ تفكير أفراد القبيلة البدائية في أيّ موضوع يتشابه بل يتطابق ، لأنَّ معلوماتها محدودة وحاجاتها محدودة أيضاً . ومتى ارتقى الإنسان واتّسعت دائرة ثقافته ومعلوماته ، اتّسعت أيضاً دائرة احتياجاته ومطالبه .

وقواعد علم النفس الموضوعة على أساس المقومات النفسية لقبيلةٍ بدائيّة يمكن باطمئنان تطبيقها على كلّ فردٍ من أفراد هذه القبيلة ، ولكنّ هذه القواعد لا تصلح لأفراد القبائل الأخرى .

ومع ذلك ، فلا سبيل إلى إنكار القواعد العامّة لعلم النفس ، ولا إلى القول بانطباق هذه القواعد انطباقاً عامّاً على كلّ حالةٍ وفي كلّ موقف .

واليقين عند الإمام الصادق (ع) هو علم ما لا يتطرّق إليه الشكّ أو الريبة ، وهو أصلٌ من أصول الدين الإسلامي لأنَّ مصدره هو الله جلّ وعلا . يقول الإمام (ع) إنَّ الله واحد ، وهو خالق كل شيء ، وهو مدبّر العالم ومسيّره وفقاً لإرادته . ومن يُنكر وجود الله ، برهن على جهله المركّب ، وكان كالأصم الأبكم الذي لا يسمع ولا ينطق ولا يستطيع استخدام قدراته الفكريّة للوصول إلى معرفة الله ، ولا هو بقادر على أن ينتفع بتجارب الغير في معرفة الخالق ، وحياته لا تخرج عن حدود الأكل والشرب والنوم وإشباع الغرائز دون التّطلع إلى أيّ هدفٍ سام وهؤلاء لا يسعون لفهم شيء ، وينطبق عليهم حُكم القرآن الكريم « إنْ هم إلاّ كالأنعام ، بل هم أضلّ سبيلاً »[1] .

فقد خلق الله الكائنات الحيّة ومنها الإنسان وخصّ كلاً منها بما يختلف فيه عن سواه ، وهيّأ له أسباب البقاء والتناسل إبقاءً عليه من الانقراض ، وخلق بعلمه وقدرته حيواناتٍ تطيق الحرّ الشديد في البراري والصحاري ، وأخرى تتحمّل البرد القارص مهما اشتدّ ، ومن الحيوانات ما ينام بقدرة الله وحكمته طوال أشهر الصيف في المناطق المتجمّدة دون أنْ يحسّ جوعاً أو عطشاً ودون أن يتأثّر وزنها أو صحّتها بهذا البيات ، والغريب في أمر هذه الحيوانات أن قلبها ينبض عادةً خمسة آلاف مرّة في

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤٤ .

الساعة ، ولكنّه ينبض في فترة البيات التي تمتدّ إلى ستة أشهر أو سبعة وستين أو سبعين نبضةً في الساعة ، نراه ينخفض عدد أنفاسه في فترة البيات الشتوي إلى ٢٥ مرّة في الساعة .

فإنْ أنت دنوت من هذه الحيوانات في نومها ولمست أجسامها ، لوجدتها باردةً كالثلج ، في حين أنَّ الحياة سارية فيها ، وأنها لن تلبث أن تستيقظ من بياتها عند مجيء الربيع .

أمّا الإنسان ، فلو هبطت درجة حرارته إلى نصف درجة الحرارة الطبيعية لأدركه الموت ، ولكنْ من حِكَمِ الله في خَلْقه أنّه يُبقي الحيوانات على قيد الحياة ستّة أشهر أو سبعة وأجسامها باردة كالثلج في فترة البيات(١) .

ولكن الجاهل الذي عميت بصيرته وبصره لا يرى هذه الآيات الماثلة أمامه من صُنع ربّه .

وكما خلق الله حيواناتٍ تعيش في الأجواء الباردة ، خلق حيوانات أخرى تعيش في الأجواء الحارة كالجمل مثلاً الذي يقطع الصحراء والفيافي آكلاً العشب اليابس والشوك ، متحمّلاً العطش وقلّة الماء ، ويحمل راكبه ليلاً ونهاراً إلى أن يقع على مورد ماء ، وهناك من الأنعام ما لو أكل العشب الجافّ لاحتاج إلى شرب كميّات كبيرة من الماء ، وإنْ لم تجد الماء هلكت .

هذه هي قدرة الله الذي منح الجمل طبيعةً تجعله يتحمّل الحرّ

---

(١) درجة حرارة الإنسان الطبيعية هي ٣٧ درجة بمقياس سنتيغراد ، فإنْ هبطت إلى ٢٤ أو دون ذلك مات .

أما حيوانات المنطقة المتجمدة التي تنام طوال الصيف فتصل درجة حرارتها إلى ثلاث درجات فوق الصفر بمقياس سنتيغراد ، وهذا لا يختلف كثيراً عما قاله الإمام الصادق عليه السلام . (المترجم) .

والعطش في جوٍّ لا يُطيقه لا إنسان ولا غيره من الحيوانات .

ولو ضلّ الإنسان طريقه في الصحراء وترك لناقته اللجام ، لقادته إلى نقطة الماء ، لأنَّ الناقة تُحسُّ برطوبة الماء من مسافاتٍ بعيدة ، وتهتدي إليه بهذه الحاسّة الرهيفة التي هي من تدبير الله لكي يكفل لـ (سفينة الصحراء) العيش في القفار . وفي استطاعة الجمل ادّخار الماء ثلاثة أيام وأكثر ، وخاصّة إذا أدرك أنّه سيجتاز الصحراء المقفرة .

فالإمام الصادق (ع) كان على حقّ عندما قال إنّ وجود الله لا يُنكره إلاّ مَنْ كان ذا جهل مُركّب . أمّا من تسلّح بسلاح العقل والفهم ، ولو في حدودٍ معيّنة ، فلا يشكّ في وجود الله .

وللإمام (ع) نظرية حول العالم ونظامه لا تختلف عن نظريّات علماء الفيزياء في هذا العصر ، مع أنَّه قال بها قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن .

يقول الصادق (ع) في عرض نظريته إنّك إذا شاهدت حوادث طارئة كالطوفان والسيل والزلازل وما إلى ذلك من الظواهر الطبيعيّة في العالم ، فاعرف أنَّها ليست دليلاً على أنّ العالم فَقَدَ نظامه ، لأنّ هذه الحوادث تتبع قواعد ثابتة ، ولا تقع حادثة صغيرة أو كبيرة إلاّ وهي في حسابٍ عند الله .

وعلماء اليوم الذين يخضعون للقواعد الرياضية والفيزيائية دون سواها من الغيبيّات ، يقولون بهذه النظريّة عينها . أفلا يستحقّ الإمام جعفر الصادق (ع) إكباراً لعلمه وفضله ، وهو قد نادى بهذه النظرية قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن ؟

فالزلازل والطوفانات وهياج البراكين وما إليها هي في رأي علماء الفيزياء والجيولوجيا ظواهر طبيعية تخضع لقوانين تنظيم الكون ، ومن يعتبر

الزلازل حادثاً غير عاديّ يجهل قوانين الجيولوجيا التي تحدّد أسباب حدوث الزلازل .

وقبل وقوف العلماء على القوانين الفيزيائية والجيولوجية التي تتحكّم في الظواهر الطبيعية ، كان الاعتقاد السائد طوال آلاف من السنين أنّ التغيير المفاجىء في الجوّ أو وقوع هذه الظواهر دليلٌ على أنّ خللاً قد أصاب نظام الكون ، إذ ليس من المعقول مثلاً أن تهبط درجة الحرارة في الصيف بصورةٍ مفاجئة أو أن ترتفع في الشتاء بغتة .

أمّا اليوم ، فقد أصبح في وسع العلماء أن يتغلّبوا على عامل المفاجأة في الظواهر الطبيعية ، لقدرتهم على التكهّن بالأحوال الجوّية قبل أسابيع وشهور .

ولا تختلف الزلازل في طبيعتها عن سائر التغييرات الجوّية المفاجئة ، ولو عرف الإنسان القانون الذي يحكم حدوث الزلازل ، عليه التكهّن بوقوعها زماناً ومكاناً .

وكان الصادق (ع) يقول لتلاميذه إنّ الذي يراه الناس ويحسبون أنّه دليل على خللٍ في نظم الكون ، إنما يخضع لقوانين ثابتة لا تقبل التغيير .

ويؤكد جميع الفلاسفة أنّ للكَوْن قواعد وأوضاعاً لا تقبل التغيير ، وأنّ ما يحسبه الإنسان تغييراً أدّى إلى زلزالٍ أو طوفان هو ناموسٌ طبيعيّ من وضع الله ، فالله قد خلق الكون بجميع أوضاعه ونظمه وحركاته وحوادثه ، ووضعِ نواميس ضابطة لذلك ، فكلّ حركات الكون خاضعة لهذه النواميس التي هي في سابق علم الله .

ويقول هؤلاء الفلاسفة إن التغييرات التي تطرأ على القوانين البشريّة ناتجة عن جهل الإنسان وضعفه ، وما دام الإنسان عاجزاً عن التكهّن بما

ستكون عليه أوضاعه الاجتماعية أو الفردية ، فهـو يضع القـانون ليـومه ، ويغيّره متى قضت مصلحته بذلك .

ولئن كان الله قد وضع للكون قوانينه في لحظةٍ واحدةٍ ، فهي بفضـل علم الله وقدرته قوانين أبديّة سرمديّة ، وهذا ينطبق أيضاً على القوانين التي أتى بهـا الأنبيـاء والمـرسلون من عنـد الله بـوحي من الله وإلهـامٍ من عنـده تعالى .

وجميع الفلاسفة ، مَنْ كانوا يؤمنون بـالله منهم ومن كانـوا ماديـينّ ، يقولون بثبات القوانين التي تتحكّم في الكَون وعدم قابليّتها للتغيير .

فهناك الفيلسوف الملحد (مترلينـك) الذي يؤكّـد بدوره ثبـات هذه القـوانين ، فيقـول : لو انهدم العـالم فجـأةً ، وسقـطت الشمس والنجـوم وآلاف المجرّات والنيازك والمجموعات الضوئيّة وغيرها ، فهذا الخراب ليس حادثاً مفاجئاً أو غير متوقّع ، وإنّما قد حدث طبقاً لنظام كـونيٍّ معيّن ، ومن وقف على هذا القانون استطاع أن يحدّد زمان وقوع هذا الخراب .

والوحيد بين المفكّرين في القديم الذي تنبّـه إلى ثبات قـواعد الكـون ونُـظمه هـو الإمام جعفـر الصادق (ع) ، بـل إنّ الاعتقـاد السـائـد عند القدامى هو أن كلّ قاعـدة في الكون قـابلة للتغيير ، وأرسـطو نفسه اعتبـر الاعتقاد بتغيير الكون ونظمه وقواعـده جزءاً من أسـاس تفكيره الفلسفيّ ، ممّـا أكسب هذا الاعتقـاد تقبّلاً وشيـوعاً بـاعتباره أمـراً لا يقبل المنـاقشـة أو الجدل .

يقول أرسطو إنّ العالم مُركَّب من جزأين ، هما المادّة والصورة ، وهما غير قابلتـين للتجزئـة أو الحلّ ، ولا بـدّ لكي تنطبق الصـورة مع المـادّة من وجـود حركـةٍ وتغيير ، ولـولا الحركـة لما اتّخـذت المـادّة شكلهـا الحقيقي ، فالحركة تلازم التغيير وتستلزمه ، والتغيير يلازم قوانين الكون .

وظلّت هذه النظريّة إلى النصف الأوّل من القرن السابع عشر الميلادي أساساً من أسس التفكير الفلسفيّ الأرسطيّ ، ولم يحاول أحدٌ من الفلاسفة التشكيك فيها ، إلى أن جاء الفيلسوف ديكارت (١٦٥٠ م) فأقام الدلائل على بُطلان جوانب منها .

كان أرسطو تلميذاً لأفلاطون ، ولكنّنا لا نعرف على وجه اليقين آراء أستاذه أفلاطون في إمكان تغيير قوانين الكون ، والمعروف أنَّ أفلاطون بثَّ آراءه على هيئة محاورات بقيت للأجيال المتعاقبة ، ولكنّنا لم نعثر فيها على شيء عن إمكان تغيّر قوانين العالم ، وهذا طبعاً لا يقلّل من أهمية آرائه وسيظلّ هو على الدوام من أعظم مفكّري العالم القديم ، وسيظلّ أسلوبه الخطابي الفنيّ الرائع مستأثراً بإعجاب الدّارسين جيلاً بعد جيل .

وإلى عصر ديكارت ، كان الفلاسفة يعتقدون أنَّ قوانين الكون غير ثابتة وأنّها عُرضةٌ للتغيير .

ومنذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي ، وعلماء الفيزياء والفلك عاكفون على اكتشاف كلِّ مجهول من أمر هذا الكون ، وقد برز في طليعة العلماء والباحثين في هذه الفترة (كوبر نيكوس) و (كبلر) و (غاليليو) و (نيوتن) . وباتّساع نطاق الحركة العلميّة وأبحاث هؤلاء العلماء ، أدرك الجميع أنَّ الكون أكبر بكثير ممّا هو يتوهّمه القدماء في القرون السابقة .

وفي القرن التاسع عشر ، اكتشفت مجرّات أخرى خارجة عن نطاق المنظومات والكتل الضوئية في عالمنا هذا ، وتبيّن أنّ كلّاً من هذه المجرّات يحتوي على منظومات شمسيّة أخرى . ورصد العلماء حركات الشهب والنجوم ، واعترفوا بأنَّ العالم يخضع لنظام علميّ دقيق لا تتأثّر حركته بانفجار يقع في شمس ، أو شهاب يسقط في طرف من أطراف هذا الكون العظيم ، أيْ أنَّ حدوث انفجارٍ أو تلاشٍ في بعض الشموس إنّما يخضع

بدوره لقوانين الكون الثابتة ، ولا يؤدّي بالتالي إلى إحداث اضطراب أو خللٍ في حركة المنظومات الكَونيّة الأخرى .

واعتباراً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر وإلى النصف الأول من القرن العشرين ، أفضت البحوث العلميّة المتّصلة إلى اهتداء الإنسان إلى العالم الأصغر وهو عالم الذّرة فعرف إنَّ هناك قوانين أخرى ثابتة تخضع لها الذّرة ، وهي قوانين لا تتعطّل ولا تتوقف ولو للحظةٍ واحدةٍ ، ففي الذّرة نواة ، ولها إلكترون يدور حول فلكها ثلاثة كاتربليون مرّة كل ثانية[1] ، ولا يحول حادث أو طارىء دون استمرار هذه الحركة .

ففي ذرّة الحديد مثلاً ، يدور الإلكترون ثلاثة كاتربليون مرّة في كل ثانية حول نواتها المركزيّة ، وإذا وُضع الحديد في بوتقةٍ حاميةٍ لصهره ، لم تتوقّف حركة الإلكترون في الدوران حول نواة الذّرة حتى ولو ارتفعت درجة الحرارة إلى درجةٍ يتحول معها الحديدُ إلى غاز سائل . والسبيل الوحيد للحيلولة دون دوران الإلكترون حول نواة الذرّة هو السعي لتفجير نواة الذرة وطرد الإلكترون منها ، فيبحث عن نواةٍ مركزيّةٍ أخرى يدور في فلكها .

والقانون الذي يُنظّم دوران الإلكترون حول نواة الذرة هو نفس القانون الذي يجعل الأرض تدور حول الشمس ، والشمس حول المجموعة التي تُعرف علمياً باسم (الجاثي على ركبتيْه)[2] ، والتي بِدورها حول المجرّة ، وتدور المجرّة حول مركز آخر غير معروف لنا ، ولكنّ حركتها مؤكّدة ، وإنْ كان عُمْر الشمس كلّه لا يكفي لحساب حركة

---

(١) يكتب هذا الرقم الفلكيّ بوضع خمسة عشر صفراً إلى يمين الرقم ٣ . (المترجم) .

(٢) تُسمّى هذه المجموعة الكوكبية في اللغات الأوروبية بكم هيركوليس Hercules (المترجم) .

هذه الأجرام والمدّة التي تستغرقها مجموعة (الجاثي على ركبتَيْه) في الدوران حول المجرّة .

وفي هذا يُقال إنّه ليست هناك أدلّة على وجود الله أقوى من الأدلةَ المستمدّة من علم الفلك بكل أرقامه الّلا نهائية وقواه الّلا محدودة ، ومن شأن إدراك القوانين الحقيقيّة الكونيّة الثابتة أن يتحدّث العلماء بقدرة الخالق وعظمة وجوده وصنيعه .

ولا يسع المرء إلاّ أن يدهش لما يقوله العلماء تخميناً من أنّ عمر الأرض هو خمسة مليارات من السنين ، ومع ذلك فالمدّة التي يقدّرها العلماء لدوران المجرّة حول مركزها مرّةً واحدة هي ٢٥ ألف مليار سنة .

بل أين هذه الأرقام من الذين يقولون إنَّ عُمْر العالم عشرة آلاف سنة ، وإنّ عُمْر الإنسان على الأرض ستة آلاف سنة ؟ لا ريب في إنَّ الحقيقة التي تتضح من طول المدّة التي تستغرقها المجرّة في الدوران حول مركزها هي أنَّ عُمْر المنظومة الشمسيّة والكرة الأرضية أكبر بكثير ممّا كان العلماء يتصوّرونه حتى مطلع هذا القرن . ذلك لأن التفكير الذي كان سائداً إلى مطلع القرن العشرين هو أن المجرّات المتناثرة في الفضاء هي أجرامٌ ثابتة لا تتحرّك ، في حين أنّه قد ثبت من الناحية العلميّة أنَّها تتحرّك وتدور ، وأنَّ لها حركةً وضعيّةً كذلك (الحركة الانتقالية مع الحركة الوضعية) .

والرقم الذي ذُكر لدوران المجرّة حول مركزها هو رقم افتراضيّ لا علميّ ، ولا بدّ لاحتساب مدّة دوران المجرّة حول مركزها من معرفة مسيرة المجرة وحدود الدائرة التي تدور حولها

ولقياس مدى اتّساع هذه الدائرة ، لا بدّ من معرفة طول قوس

الدائرة لإمكان الاستعانة بالقـواعد الهنـدسيّة في استخـراج محيط الدائـرة ، ولو عاش المرء خمسمائة مليون سنة أخرى لعجـز عن أن يحدّد مـدى امتداد القوس الواحد من أقواس محيط الدائرة التي تدور حولها المجرّة ، ليستـطيع بعد ذلك احتساب الدائرة كلها .

وحتى الآن لم تستطع الأجهزة الحديثة للرّصد تعيين عدد المجموعات الضوئية ومجرّات الكون ، ولكن يقال بالتخمين إنَّ عددها مائة مجرّة ، وهـو رقم لا يثق فيه أحدٌ من علماء الفلك .

والسبب الرئيسي في إيراد أرقام غير مؤكّدة هو ضعف أجهزة الرصد الكهرضوئية المستخدمة في رصد جميع السيّارات والمجرّات في الكون ، فإن أعظم أجهزة التلسكوب الموجودة اليوم في العالم لا تستطيـع رصد الأجـرام السماويّة إلى مسافة ٩ مـلايين سنـة ضوئيـة ، ولكن أغلب الظنّ أن يتمكّن الإنسان من رصدها هي وأجرام ومجـرّات مجهولـة أخرى إذا مـا وُفِّق لصنع جهاز للرصد أقوى منه وأدقّ مئات المرّات .

والسبب الآخر هو أنَّ المجـرّات التي اكتشفها الإنسـان حتى الآن إنّما تقف في طريق المجرّات الواقعة وراءها ، فتحول دون رؤ يتها ورصدها .

ومنـذ أن اكتشف الإنسان مضـادّ المادة ظهـرت نظريّـة تقول بـوجود كونٍ آخر له من السعة مثل كوننا هذا ، أو لعلّه أوسـع منه ، وهـو كَوْنٌ لا يُحسّ الإنسان بوجوده وقد ذهب القـدماء كـذلك إلى أنَّ لكـلّ إنسانٍ تـوأماً ولكنّه لا يراه .

وعالم مُضادّ المادة عالم لا شكّ في وجوده ، ولكنّ الإنسان عاجزٌ حتى الآن عن رصده ومشاهدته بالاستعانة بالأجهـزة المتاحـة ، وما دام الإنسـان عـاجزاً عن رؤ يـة هذا العـالم ، فهو بـالتالي عـاجز عن تـوضيـح صـورتـه

واستخلاص القوانين الفيزيائيّة أو الكيميائيّة المتعلّقة به (أي بهذا العالم المضادّ للمادة) ، وما إذا كان بشبه كوننا أو يختلف عنه . إلّا أنَّ هناك فروصاً لا تعدو أنْ تكون نظريّات وتكهّنات تخمينية ، وهي في حقيقتها ضربٌ من الأساطير التي لا تُعززها البراهين ، كأسطورة حروب السفن الفضائية و الحروب التي تشنّها الكائنات التي تعيش في الأجرام السماويّة على سكّان كوكَبنا هذا من بني آدم ، وإنْ كُنَّا لا ننكر أن بعضاً من هذه الأساطير قد تحقّق نظيرها في ما بعد .

وعلى سبيل المثال نذكر أنَّ الكاتب الإنجليزي (روبرت كلارك) (المتخصص في كتابه 'لقصص العلمية) نشر عام ١٩٤٨ م كتاباً تحدّث فيه عن قمر صناعيٍّ استقر في سماء لندن بارتفاع ستة وثلاثين ألف كيلو متر ، ولأنَّ دورته حول الأرض كانت تستغرق أربعاً وعشرين ساعة ، أيْ نفس المدّة التي تستغرقها الأرض في الدوران حول نفسها ، فقد استقرّ في سماء لندن بصورةٍ دائمة .

فإذا عرفنا أنَّ الأقمار الصناعيّة لم تُطلق في الجوّ إلّا في عام ١٩٥٧ م ، فمعنى ذلك أنَّ الخيال الروائي لروبرت كلارك قد سبق الواقع العلميّ ، أيْ أنَّ أساطير كلارك وخيالاته الرومانتيكية قد تحوّلت إلى حقيقةٍ علميّةٍ بعد ذلك بقليل .

ففي مناسبة احتفال العالم بالسنة الجيوفيزيائية الدوليّة ، قام الاتّحاد السوفييتي في الرابع من أكتوبر عام ١٩٥٧ م بإطلاق أوّل قمرٍ صناعيٍّ إلى الفضاء ، واسمه (سبوتنيك) ، وكان يزن ٨٣,٦٠٠ كيلو غرام .

ولكن لم يفكّر لا الروس ولا سواهم في صُنع أقمارٍ وسفنٍ فضائيّةٍ عملاقة ، ولا فكّروا في إطلاق قمرٍ صناعيٍّ يصل إلى ارتفاع ٣٦ ألف كيلو متر ثم يدور حول الأرض ويستقرّ في نقطةٍ معيّنةٍ في الفضاء إلّا في عام

١٩٦٩ عندما أطلق الروس هذا القمر إلى تلك المسافة بعينها واستقرّ فعلاً في نقطةٍ معيّنة .

واليوم (أي في عام ١٩٧٢ الذي أعدّ فيه هذا الكتاب في أصله الفرنسي) تُوجد ثلاثةٌ من الأقمار الصناعية المستقرّة (Sattlite) في مراكز ثابتة في الجوّ وهي تستقبل البرامج التليفزيونية والمكالمات الهاتفية من جميع أنحاء العالم وتنقلها إلى جميع أنحاء العالم .

وممّا يُذكر أنّ الكاتب الإنجليزي روبرت كلارك ، الذي هداه تفكيره الروائيّ إلى حقيقة الأقمار الصناعيّة ، وهي الحقيقة التي تأكدت علميّاً بعد ذلك بواحدٍ وعشرين عاماً ، لم يدرس علوم الفضاء في أيّ جامعة ، ولا كانت له دراسات جامعية ، لأنّه توقّف عند المرحلة الثانوية ، كما أنّ من غير المتصوّر أنه كتب روايته الموسومة « ٣٦ ألف كيلو متر » من قبيل التّخيل المجرّد ، وأنّ هذا الخيال قد تحوّل بمحض المصادفة إلى حقيقةٍ علميّةٍ تتمثّل في « تلستار »[١] وهو القمر الصناعيّ الذي يدور مع دورة الأرض ويستقرّ في الجو على بعد ٣٦ ألف كيلو متر من الأرض .

ومن هنا اهتمّ العلماء الروس بما كتبه روبرت كلارك ، وأبدوا اهتماماً مماثلاً بكتابات العلماء في الغرب ، وكذلك بالروايات والقصص التي تصدر في العالم الغربيّ ، إذ ثبت من التجربة أنّ كثيراً من النظريّات التي سيقت في قالب روائيّ خياليّ قد تحوّلت في ما بعد إلى اكتشافٍ علميٍّ أو اختراع علمي .

وهذا يدعونا إلى شيءٍ من الإطمئنان في كتابات الروائيين التي تدور

(١) تلستار لفظة ذات مقطعين ، يعني مقطعها الأول الاتصال عن بعد Tele ويقصد به الاتصالات التليفونية والتلغرافية والتليفزيونية واللاسلكية ، ويعني المقطع الثاني القمر . والمقصود بها أنها تمثل قمراً يتوسل به في تحقيق هذه الاتصالات من على مسافات بعيدة .

حول مضادّ المادة ، فليس من المستبعد أيضاً أن تتحوّل تلك النظريّات إلى حقائق علميّة إمّا باكتشاف العالم المسمّى بمضادّ المادّة ، وإمّا باكتشاف عالم مشابهٍ له .

ومن مُقتضى العقل والمنطق ، والعقل نعم الحاكم ، أنَّ هذا الكون بكلّ أبعاده وآماده إنّما يخضع لقوانين ثابتة لا تتغيّر ، ولولا ذلك لتغيّر العالم أو تبدّد ، ولأنقرض كلّ ما عليه . فلا بُدَّ من التسليم بصحّة ما ذهب إليه الإمام جعفر الصادق (ع) من أنَّ هذا العالم خاضعٌ لنظامٍ ثابتٍ من لدن عليم حكيم ، ونرى أنّ علمي الفلك والفيزياء يؤكّدان هذه النظريّة أكثر من أيّ علم آخر .

ومن أبرز علماء الفيزياء في النصف الأوّل من القرن العشرين (الأمير دوبروي[1]) الفرنسي الذي ظفر بجائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٢٩ ، والذي أخرج طائفة من الأعمال العلميّة الرصينة ، وهو أوّل من أثبت أنَّ الإلكترون هو من الأمواج .

إن عالِم الفيزياء يختلف عن الفيلسوف ، فالأوّل يدقّق في نظرياته ويقيم عليها البراهين بتجاربه العملية ، أمّا الثاني فيسوق ما يتراءى له من آراء وأفكار مجرّدة .

والطبيعة عند عالم الفيزياء هي الموجودات والكائنات ، وفي مذهب (دوبروي) أن في الطبيعة أمراً واحداً لا يتغيّر ولا يتبدّل ، هو القانون (الناموس) ولو أتيح للبشر ذات يوم أنْ يصنعوا أجهزةً تلسكوبيّة أدقّ من الأجهزة الحاليّة ، لاستطاعوا رصد الأجرام السماويّة التي تبعد عنّا مسافة مائة مليار سنة ضوئية والتي تعتبر جزءاً من هذه الطبيعة .

---

(١) يُكتب إسم هذا العالم باللغة الفرنسية (دوبروكلي) ويُحذف حرفا الكاف واللام عند النطق . (المترجم) .

يقول علماء الطبيعة إنّ الشيء الذي لا يُوجد في الطبيعة لا يوجد أصلاً ، ولا يقول العقلاء بوجوده ، لأن العقل لا يقول بوجود مالا وجود له ، فإن قبل العقل وجود شيء ما ، كان دليلاً على وجوده وبقائه.

والأمير دوبروي يقول بأنّ كلّ من في الطبيعة يتغيّر إلّا القانون ، فهو وحده الثابت .

وثمّة يعرض للذهن سؤال هو : ماذا لو فني العالم ، هل تبقى القوانين والنظم المتحكّمة فيه آخذة مجراها ؟

وفي الردّ على هذا نقول إنّ من الأصول المقطوع بها في الفيزياء أنّ المادّة لا تزول ولا تفنى ، ولكنها تتغيّر وتتّخذ أشكالاً متباينةً وتصير من هيئةٍ إلى أخرى .

فالتساؤل حول إمكان فناء العالم لا يستقيم من ناحية الفيزياء ، لاستحالة انعدام المادّة وفنائها ، فالصحيح أن يقال أنّ العالم يتغيّر من صورةٍ إلى أخرى ، وهو حتّى في هذا التغيّر يخضع لقوانين ثابتة لا تقبل التغيير .

ومن هنا يمكن القول بأنّ هذا العالم الفيزيائي الكبير والحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء قد أكّد نظرية الإمام الصادق (ع) التي ساقها قبل ألف ومائتين وخمسين سنة والتي يقول فيها إنّ قوانين الكون ونظمه ثابتة لا تتغيّر .

في رأي الصادق "ع"
أنّ الإنسان يعمل على تقصير عمره

من النظريّات البارعة الكبيرة الأهميّة التي ساقها الإمام جعفر الصادق (ع) نظرية تدور حول عُمْر الإنسان . فمن رأيه أنّ الإنسان خُلق لكي يعمّر طويلاً ، ولكنّه يتسبّب في تقصير عمره بنفسه ، ولو أنّ كل إنسان اتّقى ربه وأدّى الفرائض وعفّ عن المحرّمات ولم يسرف في المآكل والمشرب وذلك كما أمر به القرآن الكريم ، لاستمتع بحياةٍ أطول .

ولا ريب في أنّ عُمْر الإنسان يتوقّف ، بعد مشيئة الله ، على أمرين ، هما : العناية بالصحّة والاعتدال في الطعام .

وفي القرن الأوّل الميلادي ، كان معدّل عُمْر الإنسان في روما ٢٢ سنة لا غير ، وذلك بسبب نقص أسباب الرعاية الصحيّة[١] ، ولأنّ طبقة

(١) صوّر المؤرّخ الفرنسي المعاصر « جيروم دو كاركوبي تو » المتخصّص في تاريخ روما القديمة عاصمة الروم وشوارعها الممتدّة وعماراتها الفخمة وأقواس النصر فيها (وعددها ٣٧) وحمّاماتها العامة ، وما فيها من دور للعرض والمسرح والخمّارات والفنادق ، وقال إنّ المراحيض والمباول لم تكن تقام في هذه المدينة العظيمة .

ولم تكن المدن الأوروبية الأخرى أحسن حالاً من روما ، ولا أنظف منها ، فإلى ما قبل الحرب العالمية الثانية ، لم تكن تجد في بيوت باريس مراحيض ، وكانت النفايات تنقل في أوعيةٍ إلى خارج الدار . وقصر فرساي العظيم ، الذي كان يعيش فيه إلى جانب الأسرة

الأشراف وسُراة القوم كانوا يفرطون في المأكل إلى درجة التقيؤ ، وكان عامّة الناس يقلدون الأشراف في ذلك .

وكانت تُلحق بقاعات الطعام قاعة خاصة بالتقيؤ يُطلق عليها إسم (ووميتوريو) ليتطيع الآكلون في قصور الأشراف إفراغ ما أكلوه فيها ، سواء بوضع الأصابع في الفم أو بتناول دواء مسهّل ، وذلك لإفراطهم في تناول الطعام إلى حدٍّ قاتل .

وفي اوائل القرن العشرين الميلاديّ ، كان معدّل العُمْر في بريطانيا وفرنسا خمسين سنة ، لأنَّ الأوضاع الصحيّة وأساليب التغذية تحسّنت تحسناً كبيراً عمّا كانت عليه . أمّا اليوم ، فقد أصبح معدّل العُمْر في أوروبا ثمانياً وستّين سنة للذكور وثمانياً وسبعين للإناث .

والسؤال الذي يفرض نفسه اليوم هو : لو استطاع الإنسان التغلّب على مرض السرطان والسكتة القلبية والجلطة والأمراض الأخرى التي تنتاب القلب ، فهل يرتفع معدّل عمره فوق المعدّل الحالي ؟

ممّا يؤسف له أنَّ الردَّ على هذا السؤال ليس بالإيجاب ، لأن من أهمّ أسباب إطالة العُمْر مراعاة القواعد الصحيّة في كل شيء ، ولا سيّما في المأكل والمشرب ، في حين أنَّ التغلب على هذه الأمراض المستعصية لن يزيد المعدل الحالي لعمر الإنسان بأكثر من سنتين . ولو استطاع الإنسان أن يتغلب على هذه الأمراض جميعاً ، لبقيت له أمراض الشيخوخة والهرم

= المالكة الفرنسية عشرة آلاف من الموظّفين والخدم ، لا يحتوي على مراحيض أو دورات مياه . ولكنَّ بلدية باريس أرغمت السكان بعد الحرب العالمية الثانية على بناء مراحيض ودورات مياه في المنازل ، ومدت شبكة المجاري المعروفة باسم « باجو » .

راجع مجلة « مرآة التاريخ » الفرنسية : Miriore de L'Histoire, , Tom 101, Anné 25 .

التي عزّ على الإنسان حتّى اليوم أن يعالجها على بساطتها . فإن أصيب الشيخ بمرضٍ بسيطٍ كالبرد والالتهاب الداخلي والحصبة وأمراض الرئة ، لكانت كفيلة بالقضاء عليه .

وتلوث البيئة هو من العوامل التي تؤيد نظرية الإمام الصادق (ع) ، وهو ظاهرة خطيرة في بعض المناطق ، قليلة الشأن في مناطق أخرى . وقد قامت منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة بدراسة أوضاع بعض المدن الأمريكية والمكسيكية من حيث التلوث ، وانتهت في تقريرها إلى أنّ التلوث في بعض هذه المدن يفسد الهواء بحيث أن سكان هذه المدن إذ يتنفسون هواءها ، فكأن الواحد منهم قد دخن كميةً من السجاير تملأ علبتين في كل منهما ٢٠ سيجارة ، ولم يكفوا عن التدخين ليلاً أو نهاراً ، وكما أن لتدخين أربعين سيجارة في اليوم أثراً غير صحيٍّ في جسم الإنسان ، فكذلك استنشاقه للهواء الملوّث يُفسد صحّته بنفس القدر .

ومن العوامل التي تضر بالصحة الضوضاء والأصوات المزعجة ، وقد ثبت من الناحيّة العلميّة بأن للصوت المزعج أو الضوضاء أثراً سيّئاً في سلامة الإنسان وهدوء أعصابه .

ومنذ فترة والمهندس الفرنسي (كامي روجرون) الذي صمّم بناء السفينتين الفرنسيتين البحريتين « ريشيليو » و« جان بار » قبل الحرب العالمية الثانية ، عاكف على دراسة آثار الأصوات المزعجة والضوضاء في صحة الإنسان ، وفي رأيه أنّ لهذه الأصوات تأثيراً في جسم الإنسان يُساوي تأثير الأكسجين في الحديد ، فكما أنّ الأكسجين يُصيب الحديد بالصدأ والتآكل ، فكذلك الضوضاء تصيب الجسم بالعلّة والمرض ممّا يختزل من عُمْر الإنسان ، وهو يرى أنّ أفضل البيوت التي تُقام في المدن هي البيوت التي تركب فيها عوازل تحول دون وصول الضوضاء إلى

داخلها ، مع مراعاة خفض أصوات الراديو والتليفزيون داخل البيوت منعاً لإزعاج السكان .

ويُضيف (كامي روجرون) إلى ذلك أنه بالنظر إلى أنَّ الضوضاء في المدن آخذة في التزايد ، ولا سبيل يحول دون تزايدها ، فلا بد من إنشاء منازل من الأبرق (الخرسانة المسلّحة) تحتوي على عوازل تمنع نفاذ الصوت إلى داخلها ، وقد توافرت هذه الخرسانة العازلة في أسواق الولايات المتحدة ، وفي رأي هذا الخبير أنّنا إذا ما استطعنا بناء البيوت بكاملها من هذه الموادّ ، فلا بُدّ من إنشاء غرفة واحدة أو اثنتين بعد تجهيزهما بالعوازل ليستطيع المرء الإخلاد إلى الراحة فيهما والبُعد بأعصابه عن كل ضجيج وعجيج .

ومرض العُصاب ـ وهو ضَرْبٌ من الجنون ـ يُعزَى في بعض أسبابه إلى الآثار السيئة للضوضاء ، فمن خصائص الضوضاء أن تُتلف الأعصاب وتتسبّب في انهيار عصبّي أو جنونٍ مفاجيء حتّى لمن رأينا فيه بشاشة وجه وهدوء أعصاب .

ومن الآثار السيّئة للضوضاء إحساس المرء بالتعب والإرهاق ، ثمّ جنوحه إلى الكسل ، والعزوف عن العمل دون أن تكون هناك أسبابٌ عضويّة أخرى أدّت إلى هذه الظواهر ، والمصاب بالملل والإرهاف لا يدري لهما سبباً ، ويعجز الطبيب عن تشخيص أي علّة عضويّة أدّت اليهما .

وفي رأي روجرون أنَّ الضوضاء تؤدّي، فضلاً عن الإجهاد والإرهاق العصبّي ، إلى تقصير العُمْر ما بين خمس سنين وعشر .

كما ومن المؤكد أيضاً ـ أنَّ للتغذية السليمة دوراً فعّالاً في إطالة العمر ، في حين أنَّ سوء التغذية ـ أو الأنيميا ـ يتسبّب في تقصير عُمْر

الإنسان ، والأنيميا هي عارضٌ من عوارض الحياة الميكانيكيّة العصريّة .

نتنهي من كلّ ما تقدم إلى أن العلماء المعاصرين قد أثبتوا بصورة علمية صدق نظريّة الإمام جعفر الصادق (ع) القائلة بأنَّ في وسع الإنسان أنْ يعمّر طويلاً لولا أنه يعمل بنفسه على تقصير عُمْره ، ففي ظلٍّ الحياة الميكانيكيّة العصريّة التي فشت في أوروبا وامريكا ، حلّت الموادّ الصناعية محلّ المواد الغذائيّة الطبيعية ، وأصبح الإنسان يتناول أطعمةً مجهزة من مواد كيميائية ومركبة ، ممّا أضرّ بالصحة ، وأدّى إلى تقصير العُمْر .

فرعاةُ البقر والفلاحون في امريكا كانوا يعيشون في الماضي على تناول الطعام الطازج كاللبن ومنتجاته واللحوم ، آخذين هذه المواد الغذائية مباشرة من الماشية التي يرعونها ، فاشتهروا بأعلى معدّلٍ للعُمْر ، حتّى لقد كانوا يعيشون في المعدّل إلى ثمانين عاماً أو خمسة وثمانين ، ولكن المعلبات والمياه الغازية والمشروبات المصنوعة التي تتألف من الحلوى والمواد الكيميائية ، أصبح رعاة البقر والفلاّحون ومربّو المواشي يتناولون هذه الأطعمة والمشروبات كغيرهم في الولايات المتحدة .

وبعد ما كان رعاة البقر يصارعون الثيران ويقومون على رعي الماشية وهم على ظهور الخيل ساعاتٍ طويلةٍ مهما طعنوا في السنّ ، أصبحوا اليوم بل اعتباراً من الخمسينات من العمر ، يشكون من سوء التغذية وإمراض المعدة والقلب وترسّب حامض اليوريا وآلام المفاصل والعضلات وما إلى ذلك من الأمراض المُقْعِدة عن العمل والمبدّدة للحياة السعيدة ، في حين أن راعي البقر البالغ من العمر خمسين عاماً كان يعتبر في مطلع هذا القرن من الشباب ويزاول حياةً كلّها نشاط وحيويّة وحركة ، وإلى أوائل هذا القرن لم يكن يعرف سكان ولاية آلاسكا في شمال أمريكا الأمراض والأوبئة التي كانت فاشية في مناطق أخرى وكان أهل آلاسكا يحتفظون بأسنانهم كاملةً

إلى أنْ يبلغوا السبعين أو الثمانين من العمر ، لأنّهم كانـوا يتناولـون الغذاء الطبيعيّ ويؤدّون عملهم اليوميّ بكل نشاط دون اعتماد على الآلة .

وكـان الـطعـام المـألـوف في آلاسكـا اللبن والحليب ولحم الـوعـل[1] وكميّات كبيرة من السمك الذي يصيده السكّان في الأنهر وعند السواحل ، وكان منهم مَنْ يقوم برعي حيوان الوعل مع غيره من الحويانات .

وهناك كتابٌ عن تربية الوعل القـطبي وضعه المؤلّف الأمـريكي ألن رويس أوتس (الـذي تخصص في حياة شعـوب آلاسكا وتـاريخها وتـوفيّ في عـام ١٩٦٠م) وقد قـال في كتـابـه هـذا إنّـه رأى بنفسـه في خـريف عـام ١٩٣٥م قُطعاناً من الوعـل تهاجـر من المناطق الشمـالية ، واستمـرّت هذه الهجرة خمسة أيام ، وكان اصطكاك قـرون القطيـع بعضها بـالبعض الآخر يُحدث صوتاً كهزيم الرعد ، ومع ذلك فإنَّ الإنسان القطبي كان قـادراً على استئناس هذا الحيوان القويّ البنية وتربيته والاستفادة بلبنه ولحمه .

ويقـول هذا الكـاتب إنّـه ليس في منـطقـة آلاسكـا طبيب ، ولـو أمَّ الأطباء هذه الولاية لما وجدوا فيهـا عملاً مـريحاً لأن النـاس عمومـاً أقويـاء قليلو المرض ، وعُمْر الرجل والمرأة يصل في المعدّل إلى تسعين سنـةً للرجل ومائة للمرأة .

وقد نُشر هذا الكتاب في عام ١٩٣٥ .

---

(١) الوعل : تيس الجبال ، وله قرنان مُحدَّبان كالسيف .

الرَّضَاعَة السَّلِيمَة
في رأي الإمَام الصَّادِق «ع»

من مظاهر عبقرية الإمام الصادق (ع) رأيه في الرضاعة السليمة ، وتوجيهه الأمهّات إلى إرضاع الطفل وهو راقد إلى الناحية اليسرى من أمه . وطوال قرون ممتدّة ظلّت الحكمة من هذه النصيحة خافيةً على الكثيرين ، الذين كانوا يعتبرونها تدخّلاً في ما لا يعنيه ، وتزيداً لا لزوم له .

وعندما سئل الإمام محمّد بن إدريس الشافعيّ ، الذي ولد بعد وفاة الصادق (ع) بعامين (أي في سنة ١٥٠ للهجرة في مدينة غزّة وتوفي في القاهرة في عام ١٩٩هـ) عن رضاعة الطفل ، وهل الأسلم أن يرضع الطفل وهو راقد إلى الجانب الأيمن من أمّه أو إلى جانبها الأيسر ، ردّ قائلاً : لا فرق بين الأيمن والأيسر ، وللأمّ أن تُرضع طفلها كما تشاء وبالأسلوب الذي يُشعره بالراحة .

ورأى البعض أنّ الإمام جعفراً (ع) قد خالف ما جرت عليه الأمهّات من وضع الطفل في الناحية اليمنى عند إرضاعه ، وأنّ من الأكرم للأم وللطفل أن يكون في ناحية الميمنة عند الرضاع .

وهكذا خفيت الحكمة من هذه النظرية في الشرق وفي الغرب ، حتّى

في عصر النهضة والتجديد ، ولم يقع أحدٌ على الفوائد المرتجاة من تطبيقها عمليّاً عند الرضاعة .

وفي القرن الثامن عشر الميلادي وهو عصر النهضة والتجديد ، أنشئت جامعة كورنيل[1] في ولاية نيويورك (والتي يُعزى الفضل في تأسيسها إلى عزرا كورنيل الذي عانى في صغره عناءً شديداً من مشكلات الرضاعة ومتاعبها) ومن هنا اعتزم أن يُلحق بالجامعة مستشفى ، وأنْ يُلحق بالمستشفى معهداً لدراسة مُشكلات الرضاعة والطفولة .

ولمّا استكملت الجامعة مرافقها ، بدأ هذا المعهد في دراسة كلّ ما يتعلق بالطفولة والرضاعة ، حتّى أصبح من أهمّ المؤسّسات العلميّة المتخصصة في شئون الطفل في العالم .

وقلّ أن تجد موضوعاً يتعلّق بالطفل أو بالرضاعة إلاّ وقد وَفّاهُ هذا المعهد دراسةً وبحثاً وخرج فيه بأسلم النتائج العلمية . وقد يندهش المرء إذا عرف أن هذا المعهد عُني كذلك بدراسة اللوحات الزيتيّة التي رسمها كبار الفنّانين للأطفال والتي تقتنيها المتاحف الرئيسية ، ولوحظ أن معظم هذه الصور كانت تمثّل الأمّ حاملةً طفلها من الناحية اليسرى . ذلك أنَّ عدد الصور التي دُرست كان ٤٦٦ صورة ، تبينّ أن ٣٧٣ صورة منها تمثّل أمهّات يحضنّ أطفالهن إلى الناحية اليسرى ، في حين أنَّ ٩٣ صورة كان الطفل فيها محمولاً من الناحية اليُمنى ، أي أن ٨٠٪ من الصور الموجودة في المتاحف ، والتي تمثّل الأمومة ، قد أظهرت الطفل محمولاً من الناحية اليسرى .

---

(١) تأسست جامعة كورنيل المشهورة في ولاية نيويورك في عام ١٨٦٥م بفضل أريحية المثري عزرا كورنيل الذي وقف جميع ممتلكاته وثرواته على هذه الجامعة ، ومات معدماً .

وفي ولاية نيويورك عدد من مراكز الولادة ورعاية الطفل التابعة لمؤسسة كورنيل الجامعية للأطفال ، وكلّها توافي المعهد العلميّ للجامعة بالتقارير والملفّات الطبية الخاصّة بالأطفال والأمهات لدراستها .

ويُؤخذ من التقارير التي أرسلت إلى هذا المعهد العلميّ في فترة غير قصيرة أن الطفل في أيّامه الأولى يكون أهدأ وأقل بكاءً لو نام إلى الجانب الأيسر لأمه ، أما إنْ نام إلى الناحية اليمنى ، فهو يستيقظ في فتراتٍ قصيرة متقطعة وينخرط في البكاء .

ويُلاحظ أنَّ هذه الدراسة تتناول الأطفال البيض والسود دون تفرقة ، وقد برهنت في جميع الحالات على أنَّ الطفل ، سواء أكان أبيض أو أسود أو هندياً أحمر ، يجد مزيداً من الراحة والهدوء إذا رقد إلى الجانب الأيسر لأمّه .

وقد أنفقت جامعة كورنيل وقتاً طويلاً في بحث هذا الموضوع إلى أنْ تمّ اكتشاف الأشعة التي يَسرَّت على الأطبّاء رؤية الجنين في رحم أمّه وتصويره ، وتُعرف باسم (هولوجرافي) وقد تبيّن من استخدام جهاز (هولوجرافي) أنَّ ضربات قلب الأمّ تُحدث أمواجاً تنتشر في جسمها وتصل إلى سمع الطفل . وبعد أنْ عرف الأطبّاء هذه الحقيقة ، رغبوا في معرفة الآثار التي تظهر في الطفل عند توقّف ضربات قلب الأمّ ، ولا سيما لأنَّ توقّف نبض قلب الأمّ كان معناه الموت للأم وللطفل معاً ، ومن ثَمَّ أجرى الأطبّاء تجارب على الحيوانات المُرضعة ، فتبيّن لهم أن إيقاف نبضات قلب الحيوان الحامل ينعكس على جنينه على الفور ، وهي نتيجة تحقّقت من التجارب التي أجريت على فصائل شتّى من الحيوانات ، وقطع الأطبّاء بأن توقّف قلب الأم يؤثّر تأثيراً مباشراً في الجنين ، وبوفاة الأمّ ، يموت الجنين بدوره ، لأنَّ الجنين يتغذّى من الشريان الأورطي المتصّل بقلب الأمّ

ويتأثر بنبضات قلبها ، ولو توقّف هذا النبض لانقطع الغذاء عن الجنين ولمات في بطن أمّه .

وقد استنتج الأطبّاء من هذه التجارب أنَّ الجنين لا يعتاد سماع ضربات قلب أمّه وحسب ، بل إنَّ حياته ترتبط أيضاً بهذه الضربات وبالدفء الذي تُشيعه ، فإنْ توقّفت الضربات انقطع الغذاء عن الجنين ومات .

ولأنَّ الطفل قد اعتاد على سماع ضربات قلب أمّه منذ ما كان جنيناً في الرحم ، فهو يرتبط بأمّه ويتعلّق بها ويشعر بهدوءٍ وراحةٍ بالقرب من نبضات قلبها ، وهذا هو السرّ في أنَّ حمل الطفل من ناحية الأمّ اليسرى يجعله أكثر اطمئناناً وهدوءاً ، وهو ما يفتقر إليه الجانب الأيمن للأمّ .

ولولا جهود المعهد العلميّ الجامعيّ الذي أسّسته جامعة كورنيل في دراسة أوضاع الطفل ومشكلاته الصحيّة والنفسيّة وأسباب الرعاية السليمة التي تُتاح له في أيّامه الأولى ، لما عرفنا أهميّة النظريّة التي ساقها الإمام جعفر الصادق (ع) في هذا المقام ، ومؤدّاها أنَّ الرضاعة السليمة تقتضي من الأمّ توسيد طفلها إلى جانبها الأيسر لا الأيمن .

وقد ارتأى مركز الولادة ورعاية الطفل التابع لجامعة كورنيل تجهيز جميع فروعه ووحداته بجهازٍ يُوضع في غرفة الأطفال الحديثي العهد بالولادة ، ومهمّته بثّ صوتٍ شبيهٍ بنبضات قلب الأمّ ، وزوّدت أسِرَّة الأطفال بجهازٍ مهمّته نقل صوت هذه الضربات إليهم .

ومعروفٌ أنَّ قلب الشخص البالغ السليم يدقّ عادةً مرة في الدقيقة ، ومن التجارب التي أجريت على الأطفال زيادة عدد نبضات القلب إلى ١٢٠ نبضة في الدقيقة ؛ فكان من أثر ذلك انزعاج الأطفال

وارتفاع عقائرهم بالبكاء ، فإنْ أعيدت النبضات إلى وضعها الطبيعي ، وهو ٧٢ دقة في الدقيقة ، كفّ الأطفال عن البكاء . وقد جُرِّبت هذه التجربة وأعيدت في مراكز الرضاعة مرّاتٍ كثيرةٍ، فكانت نتيجتها واحدة .

وهناك تجربة أخرى أجريت على الأطفال الرضّع ، فقد وُضعت مجموعةٌ منهم في غرفةٍ بها جهاز يقلّد ضربات قلب الأمّ بحيث يسمعه الأطفال ، ووُضعت مجموعةٌ أخرى في غرفةٍ يخيّم عليها الهدوء ، وليس فيها جهاز كهذا . فاتّضح للأطبّاء إن الأطفال الذين تضمّهم المجموعة الأولى ، وهم الذين يسمعون صوت النبضات ، يزيد وزنهم بسرعة تفوق سرعة الوزن لدى أطفال المجموعة الثانية .

وقد قام الدكتور (لي سولك) وهو طبيبٌ متخصّص في طبّ الأطفال في معهد كورنيل الجامعي بجولةٍ حول العالم لدراسة التقاليد التي تجري عليها الشعوب والأمم في إرضاع الطفل ورعاية الطفولة ، وكتب في تقريره يقول إنّه رأى في مناطق شتّى من العالم أمّهات يحتضنّ أطفالهنّ في الجانب الأيسر ، وذلك أثناء نهوضهن بأعمالهن أو عند عبور الطرق .

كما لاحظ أنّ معظم الأمّهات اللائي يحضنّ أطفالهنّ من الناحية اليمنى هن عسراءات (أي يستخدمنَ من أيديهنّ اليُسرىَ) .

وممّا قاله الدكتور (لي سولك) في تقريره إنّه سأل عدداً من الأمّهات عن سبب حملهنّ لأطفالهنّ من الناحية اليسرى وإرضاعهن لهم في هذا الوضع ، فلم تستطع الأمّهات تعليل ذلك ولا خطر ببال إحداهنّ أن تقول للدكتور سولك بأنّ الطفل يأنس بسماع صوت القلب عندما تحمله أمّه من الناحية اليسرى ، وهو الصوت الذي ألفه منذ أن كان جنيناً في الرحم .

وروى الدكتور سولك أنّ بعضاً من الأمّهات قُلنَ له إنّ أطفالهنّ

يستيقظون في جُنح الليل ويبكون طلباً للطعام ، ولا يجدون مشقّةً في الاهتداء في الظلام إلى الثدي الأيسر دون مساعدة من الأم ، ولم تستطع الأمّهات تعليل هذه الظاهرة ، فقام الدكتور سولك من ناحيته بتعليلها ، قائلاً لهن إنّ الطفل يهتدي إلى الثدي الأيسر بسماعه ضربات قلب الأمّ ، ولا تعليل سوى ذلك لهذه الظاهرة .

حركة الموجودات
في رأي الصادق (ع)

للإمام جعفر الصادق (ع) نظرية باهرة أخرى تتعلّق بحركة الأجسام ،مؤداها أنّ لكلّ شيءٍ حركةً ، وإنْ كان من الجماد ، ولكنّ أعيننا لا ترى هذه الحركة .

وإذا كان هذا الرأي قد بدا غير معقول في أيّام الصادق (ع) فهو قد أصبح اليوم حقيقةً علميّةً مقرّرة لا سبيل إلى الشكّ فيها ، إذْ قد ثبت علميّاً بأنه لا يُوجد جسم أو عنصر في العالم إلاّ وله حركة ، وأنَّ من المستحيل تصوّر جسم معدوم الحركة .

وهذا الرأي الذي ساقه الإمام الصادق (ع) قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن ، هو من مبتدعاته التي سبق بها عصره ، وقد أضاف إليه قوله إنَّ توقّف الحركة معناه موت بني البشر ، وقال أيضاً إنَّ الحركة تستمرّ حتى بعد الموت ، ولكنّها تتّخذ شكلاً آخر . ولولا الحركة ، لما بليت الأجسام وصارت رميماً .

ولا يُحسُّ الإنسان بمرور الزمن ولا يدرك كنهه إلاّ من خلال الحركة ، فإنْ توقّفت الحركة في الكون فقدنا الإحساس بمرور الزمن .

ومن هـذا القبيـل عينـه إحسـاسنـا بـالمكـان ، إذْ أنّنـا نستمـدّ هـذا الإحساس من الحركـة ولولاهـا لما استـطعنا معـرفة الأبعـاد الثلاثـة وتعيين المكان .

وهنـاك نوعـان من الحركـة المستمرّة داخـل كل جسم جـامـد ، همـا الحركة داخـل الذّرة ، وقـد سبق الحديث عنهـا في الفصول المتقـدّمة حيث أوضحنا أنّ الالكترون يدور في فلك نواة الذّرة ثلاثة كاتربليون مـرّة في كلّ ثانية ، والحركة المتعلقة بذبذبات واهتـزازات الجزيئـات ، فالجـزيء في كلّ مادّة يهتزّ اهتزازات يتفاوت عددها بين الصفر وعشرة تريليـون مرّة في كـلّ ثانية تبعاً للبرودة أو الحرارة أو عند انتقال من حالةٍ إلى أخرى[1] .

يصف الكـاتب المسرحي الفـرنسي مولـر الذي أسسّ « الكـوميـدي فرانسيز » بطل إحدى مسرحيّاته بقوله « إنه بلا حركة ، ولكنّه حي » ، أي أنَّ الدهشة عرته إذ وجـد شخصاً حيّـاً ولكنه منعـدم الحركـة ، ولكنّ هذه الملاحظة السـاخرة من جـانب مولـر لا تثير السخـرية في يـومنا هـذا ، لأن الحركة موجودة ومستمرّة في الإنسان وفي الأشياء حتى بعد الموت ، كما أثبت ذلك العلم الحديث ، وهو هو نفسـه الذي قـال به الإمـام جعفر الصـادق (ع) عنـدما أكّـد أن الحركـة باقيـة وأنَّ الإنسان وكـلّ الأشياء سـائـرة إلى الخالق الفاطر وأنَّ الإنسان بـاقٍ ما بقي الـدهر ، وإن كـانت ذرّات جسمه تتغير وتتحوّل إلى طاقةٍ دون أن تفقد الحركة التي تلازمها وتتحرّك معها .

---

(١) ينبغي عدم الخلط بين الجـزيء والذّرة ، فـالجزيء هـو أصغر جـزء في المادة ، ولـه جميع خواصها الفيزيائية والكيميائية ، بحيث أن تقسم الجزيء يفقده هذه الخـواص ، ويتألف الجزيء من عدد من الذرات ، وعند اهتزاز الجزيئات يتحول جامدهـا إلى سائـل ثم إلى غـاز ، وكلما زيدت الأجسـام دفئاً أو حـرارة زاد عدد اهتـزازات الجـزيئـات في الجسم . (المترجم) .

ويقول الإمام الصادق (ع) إنَّ كلّ شيء يرجع إلى الله وينجذب إلى خالقه .

كانت هذه النظرية تُعتبر إلى عهدٍ قريبٍ فكرة عرفانيّةً ونظريةً فلسفيّةً لا نظرية علميّةً ، فقد فسّر العرفاء المسلمون الغاية من مصير الإنسان بأنها الرجوع إلى الله .

وبمرور الزمن ، ووقوف العرفاء المسلمين على آراء الملل الأخرى ، طرأت لهم فكرةٌ جريئة أخرى بشأن يوم المعاد أو الرجوع إلى الله مؤدّاها ـ كما سبق أن أوضحنا ـ أن المخلوق يرجع إلى الخالق ويتّحد به ، وقد عُرفت هذه الفكرة باسم « وحدة الوجود » وشاعت لدى العرفاء في الشرق والغرب ، فلمّا جاء الفيلسوف الهولندي البرتغالي الأصل اسبينوزا(١) ، أرسى نظريّته الفلسفيّة على أساس وحدة الوجود .

ومحصّل فكرة وحدة الوجود أنّ جميع ما في الكون من عناصر وكائنات ، ومنها الإنسان ، إنّما هي مظهرٌ من مظاهر وجود الله . وبانتشار مؤلّفات اسبينوزا في منتصف القرن السابع عشر الميلادي ، انتشرت هذه الفكرة في الغرب بعدما كانت منتشرة كفكرة عرفانيّة في الشرق .

وقد تعرض اسبينوزا للتكفير واتّهامه بالهرطقة ، فجُمعت كتبه من المكتبات والمطابع ، وانصرفت عنها ذور الطباعة خوفاً من سطوة السلطات الدينية وبطشها .

---

(١) اسبينوزا Spinoza فيلسوف يهودي هولندي من أصل برتغالي ولد عام ١٦٢٣ م وتوفي عن أربعة وخمسين عاما سنة ١٦٧٧ م . ولما شاعت نظريته حول وحدة الوجود ، فهجرته أسرته ، وأصبح وحيدا وهو في حوالي الأربعين من عمره ، فاضطر إلى الاشتغال ببيع الخضر والفاكهة ليقيم أوده ، وقد نصح بالتوبة والرجوع عن عقيدته الفلسفية لكي يعود إلى منصبه العملي في الجامعة فرفض وعاش في خصاصة إلى أن مات .

ومع أنَّ حرّية الرأي والبحث التي دعت إليها مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) قد أخذت تنتشر في ربوع الشرق ، فإنَّ دُعاة نظرية وحدة الوجود لم يجرؤ وا على المجاهرة برأيهم السافر ، لأنَّ الخلفاء والحكّام كانوا في بعض الأحيان يوقعون عقوباتٍ صارمةٍ على الداعين إلى هذه الفكرة ، فَمَن نجا منهم من مصير القتل لم ينج من تكفير العلماء ورجال الدين ، وصار شأنه كالمصاب بالجذام الذي يفرّ منه الناس ، بل شرّاً من ذلك ، لأن المصابين بالجذام كانوا يودعون في دار للرعاية خارج المدينة بعيداً عن المجتمع ، وكانت تخصّص لهم في بعض الأحيان مزارع يعيشون فيها بمنأى عن الناس ، حيث يزاولون حياتهم الطبيعية .

أمّا الذين يُحكم عليهم بالتكفير ، فهؤلاء لم يكونوا يجدون شفقةً من أحد ، ولا كانوا يُؤتمنون على عملٍ يرتزقون منه ، فإنْ كان الكافر تاجراً قاطعة الناس ، وإنْ كان ذا حرفة لم يجد من يستعين به في أي مهمّة ، فإنْ خرج من بيته ضايقه الناس حتى يضطر في آخر الأمر إلى الاعتزال أو ترك الدار أو الهجرة إلى حيث لا يعرفه أحد .

وتلقاء ذلك ، كان من الطبيعي لدعاة فكرة وحدة الوجود أن يتحدّثوا عنها لا تصريحاً بل تلميحاً وبرموز وإشارات وعبارات ملتوية لئلاّ يُفتضح أمرهم ويكون جزاؤ هم التكفير على أيدي رجال الدّين .

ومن هنا توسّلوا إلى التعبير عن المعاني العرفانيّة والصوفيّة باستخدام مصطلحات مادّية مثل الخمر والخمّار والساقي والكأس والحبيب والمُدامة والشراب وما إلى ذلك ، وانتقلت هذه المصطلحات إلى الشعر الذي نظمه الصوفيّون ، فأصبح لهذا الشعر من المعاني الظاهرة ما يختلف عن معانيه الباطنة التي يدركها الصوفيّون والعرفاء وحدهم ، وبهذه الكيفيّة استطاعوا أن يجتنبوا توجيه تُهمة الكفر إليهم ، وأن ينجوا من عقاب الحكّام .

والمعروف أن التفكير الصوفي أخذ ينمو وينتشر في المجتمع الإسلامي منذ القرن الثالث للهجرة ، وكان الصوفيّون والعرفاء في هذه الفترة يؤوّلون كلام الصادق (ع) ومؤدّاه أنَّ كلَّ شيءٍ منجذبٌ إلى ربّه وخالقه ، بأن المقصود منه هو اندماج الوجودين في وحدةٍ واحدة ، في حين أنَّ جعفراً الصادق (ع) لم يؤمن بوحدة الوجود ، ولا قال بها ، وكان من رأيه أنَّ الإنسان هو صنيع الخالق ومخلوقه طبقاً للعقيدة الإسلامية ، لأنّ الله هو خالق كلّ شيء ، وكلّ شيء راجع إليه .

وعندما وُضعت للعلوم تعريفات خاصّة بكلٍّ منها في عصور متأخّرة ، اعتبرت الفلسفة والعرفان من جملة هذه العلوم ، وعُدَّت نظرية الإمام الصادق (ع) القائلة بأنّ كلَّ شيء منجذب إلى ربّه بأنها نظرية عرفانيّة لا علميّة .

وقد أثبتت العلوم في يومنا هذا أنَّ نظريّة الصادق (ع) قريبةٌ من الحقيقة العلمية الملموسة ، وإن كان من السابق لأوانه أن نقطع بأنَّ جميع الأشياء منجذبة إلى شيء واحد (أو بعبارة الصادق : كلّ الأشياء منجذبة إلى الله) .

ومن الثابت أنَّ الموجات التي تنطلق من الإلكترون تتجه إلى ناحية واحدة ، ولا تتبعثر في كل اتجاه إلا إذا كانت للموجات خاصيته مغناطيسية فعندئذٍ تكون الموجات كهرطيسية وتنتشر في كل اتجاه وهذه الموجات الكهرطيسية هي التي تستخدم في البث الإذاعي والتلفزيوني . والمثال الحي على أن الألكترون ينطلق في اتّجاه واحد ، هو عقرب البوصلة الذي نراه إلاّ متجهاً ناحية الشمال حيث يوجد المجال المغنطيسي للقطب الشمالي .

والبوصلة اختراع اهتدى إليه المسلمون[1] وانتفع به في الرحلات البحريّة انتفاعاً عظيماً ، ولولاه لما استطاع البحّار البرتغالي فاسكودو جاما أنْ يتّجه من رأس الرجاء الصالح في جنوب افريقيا إلى الهند ، ولما استطاع كريستوف كولمبوس الإيطالي أن يكتشف أمريكا في هذه الفترة عينها ، ولما استطاع ماجلّان البرتغالي أن يطوف بسفينته حول العالم ويثبت كرويّة الأرض بطريقة علميّة .

وما زالت البوصلة إلى هذا اليوم جهازاً من أهمّ الأجهزة في السفن والطائرات والنفّاثات الجوّية ، صحيح أنّ الطائرات تظلّ على اتّصال دائمٍ بأبراج المراقبة في المطارات ، ولكنّها مع ذلك لا تستطيع الاستغناء عن البوصلة .

والبروفيسور (داش) الأستاذ بجامعة واشنطن الأمريكية وهو من أبرز علماء الفيزياء والفلك في الولايات المتحدة الأمريكية ، قد وضع نظريّةً عمليّةً بشأن الكون لو أقيمت عليها البراهين التجريبيّة لجاءت معززة لنظرية الصادق (ع) بشأن انجذاب الأشياء أو رجوعها إلى الخالق .

ومعروفٌ أن شُغل العلماء الشاغل منذ القرن التاسع منصرفٌ إلى محاولة تحديد معالم الكون وتحديد الحركة التي تجري فيه ، ولكن الأمر حتى الآن لا يعدو كونه نظريّات مجرّدة .

وقد استطاع العلم أن يُثبت صحّة بعض النظريّات المتعلّقة بالكون والكائنات ، مثل قانون دوران السيارات حول كرة الشمس وما إلى ذلك ،

---

(١) يُعزى اختراع البوصلة إلى الصينيين في عام ٢٦٣٦ ق.م. ، ولكن المسلمين نقلوها من الصين وأدخلوا عليها تحسينات واستخدموها ، ثم أخذها الأوروبيون من البحارة المسلمين ، ولهذا اشتهر هذا الجهاز في أوروبا بأنه من صنع المسلمين . (دائرة المعارف البريطانية) .

واكتشفت هذه القوانين في معظمها قبل القرن التاسع عشر الميلادي .

ولكن كل ما قيل حتى اليوم عن هيئة الكون وحركاته (باستثناء ما تمّ رصده بالمراقب الفلكية) لا يخرج عن نطاق النظريّات المجرّدة .

ومن ذلك مثلاً أنَّ نظريّة النسبيّة لأينشتين لم تثبت بالتجريب العمليّ إلّا ما يتعلّق بانحراف شعاع الضوء عند اقترابه من كتل الجاذبية أو اصطدامه بها .

ويذهب مؤيّدو نظريّة النسبيّة لأينشتين إلى أنَّ هذه النظرية إنّما تستند إلى معادلةٍ رياضيّة ، وأنّ المعادلات الرياضيّة لا سبيل إلى الشكّ فيها (كالقول مثلاً بأنَّ حاصل ضرب ٢×٢ هو ٤ ، أو أنَّ حاصل قسمة ٢٠ على ٥ هو ٤) ، ولكنّ المعادلات الرياضية شبيهة إلى حدّ كبير بميزان القبّاني ، فإذا تعادلت كفّتا الميزان ، ثبت الشاهين في وضع عموديّ عند خطّ الوسط ، لا يميل يمنة ولا يسرة ، دليلا على أنَّ الكفتين متساويتان ، ولكنَّ وقوف هذا المؤشر عند خط الوسط ، وإنْ دلّ على تساوي الكفّتين ، لا يدلّ على الوزن الذي تحمله كلّ كفّة منهما ، ولا على السلعة الموضوعة في هذه الكفّة أو تلك ، وهل هي من الفحم أو من الذهب .

وقد عاشت النظريّات الرياضيّة وهي تتمتع بتصديق الناس وثقتها ، واعتبرت نظرية أينشتين حقيقةً ثابتةً لا تقبل الشكّ . ومع ذلك ، فقد تبيّن بعد اختراع أجهزة الرصد الكهرضوئية أنّ هناك أجراماً سماويّةً تبعد عن الكرة الأرضيّة بمسافة ٩ آلاف مليون سنة ضوئية في حين أن أينشتين حسب قطر العالم بثلاثة آلاف مليون سنة ضوئية .

وكما سبق أن ذكرنا ، فإنّ علماء الفلك الأمريكيين عاكفون على صُنع جهازٍ راديو تلسكوبي جديد قوامه ٢٧ هوائياً راديو تلسكوبيّاً ، على هيئة

حرف Y في اللغة الإنجليزية ، وبين كل طرف من أطراف هذا الحرف مسافة ٢١ كيلو متراً ، ولهذا الجهاز مجالٌ تعمل فيه الهوائيّات الراديو تلسكوبية قطره ٣٠ كيلو متراً .

وعند إستكمال هذا الجهاز لا يستبعد أنْ تتغيّر جميع النظريّات الخاصّة بالكون ، إذْ سيكون في مقدوره رصد عوالم أوسع ممّا أمكن رصده حتّى اليوم .

والأمر الذي لا شك فيه ، هو ما ذهب إليه أينشتين من تحديد قطر الكَوْن ليس صحيحاً ، إذْ أنَّ العلم قد أثبت خلاف ذلك .

ومحصَّل نظرية البروفيسور (داش) أستاذ الفيزياء والفلك المذكور بجامعة واشنطن ، أنَّ أجهزة الرَّصد الراديو تلسكوبيّة قد غيّرت المعارف البشريّة بشأن النجوم ، إذْ تبيّن للعلماء أنَّ هناك أجراماً سماويّةً من نوع المجرّة تتحرّك في اتّجاه نقطةً ما بسرعةٍ تفوق سرعة الضوء ، وأنَّ منها ما تفوق سرعته سرعة الضوء بخمسة وتسعين مرّة[١] .

وتتحرّك هذه الأجرام كيفما اتّفق ، ممّا يؤكّد أنّها لا بُدّ أنْ تلتقي في نقطة الهدف ، ويصطدم بعضها بالبعض الآخر . وليس من سبيل للتكهّن بما يمكن أن يؤدّي إليه هذا التصادم ، وهل يولّد طاقةً أو طوفاناً من الأمواج يضطرد ويمضي إلى نهاية الكون ، وهل تنشأ عن هذا التصادم عوالمُ أخرى تخضع لقوانين خاصّة بها .

ولم يحدّد البروفيسور (داش) لا زمان تصادم هذه الأجرام التي

---

(١) إنَّ السرعة التي تفوق سرعة الضوء بخمسة وتسعين مرة تساوي ٢٨٥ ألف كيلو متر في الثانية ، وهي سرعة لا يسع مادّة أو جسماً أنْ ينطلق بها إلا إذا كان ضرباً من ضروب الموجات . (المترجم) .

تنطلق بهذه السرعة الفائقة ولا مكانه ، ولا استطاع أن يبين خط سير هذه الأجرام لسبب بسيط هو أنّها تنحرف أمام الكتل ذات الجاذبيّة الشديدة التي تجذبها إليها . ولكنّه قال إنَّ المدارات التي تسير فيها هذه الكتل تتّسع بحيث يصعب على أجهزة الكمبيوتر تحديد اتّجاهها أو مقارنة بعضها بالبعض الآخر أو تحديد نقطة التقائها .

فإن صحّت هذه النظريّة ، وكانت هناك فعلاً كتل لها قوّة جاذبية شديدة تعترض سير المجرّات ، فمعنى ذلك أنّ هذه الكتل تتكوّن من مادةٍ لتستطيع التمتّع بهذه القدرة الفائقة على الجاذبية .

بقيت مشكلةٌ في هذه النظرية ، وهي أنَّ المجرّات أجرام وعناصر مادّية ، فكيف يتأتّى للمادة أنْ تتحرّك بهذه السرعة ؟ .

يقول (داش) إنَّ الأجرام السماويّة التي تنطلق بهذه السرعة هي من الحالة الرابعة للمادّة التي تُعرف باسم (البلازما)، أما الحالات الثلاث الأخرى التي كانت معروفةً من مدّة غير قصيرة فهي الحالات الجامدة والسائلة والغازّية ، وقد أضيفت إليها هذه الحالة الرابعة وهي (البلازما) .

ومع ذلك ، يقول علماء الفيزياء إنَّ البلازما لا تستطيع بدورها أنْ تنطلق بهذه السرعة ، وإلاّ فقدت كيانها ، وتحوّلت إلى موجات .

يُؤخذ ممّا تقدّم وفقاً لنظرية البروفيسور (داش) أنَّ الأجرام السماويّة الشديدة البُعد عن منظومتنا تسير بسرعةٍ فائقةٍ نحو نقطة غير معلومة لنا ، وهذا يدل على أنَّ المجرّة أو المجموعة التي تضمّها منظومتنا الشمسيّة والمجرّات الأخرى تسير بدورها في اتّجاه تلك النقطة عيْنها .

فإنْ أمكن تأكيد هذه النظريّة ، برهنت بطريقةٍ عمليّةٍ على صدق

نظرية الإمام جعفر الصادق (ع) القائلة إنَّ كلَّ شيءٍ منجذب إليه ، وكلّ شيءٍ يرجع إلى الله . بينما البروفيسور (داش) يقول إنَّ كلَّ شيءٍ مُنجذبٍ إلى نقطةٍ واحدةٍ أو مركز واحد .

فلا فرق بين نظريّة داش (لو ثبتت علمياً) ونظريّة الصادق (ع) إلاّ في العبارات والألفاظ ، فالانجذاب في رأي الصادق (ع) هو انجذابٌ إلى الله ، وهو في رأي داش انجذابٌ إلى مركزٍ واحد(*) .

وتختلف نظرية (داش) عن نظرية (آبه لمتر)(١) الأستاذ بجامعة لوون ببلجيكا التي تتعلّق بسعة الكون ، وقد سبق عرضها في الفصول المتقدّمة ، ومؤدّاها أنَّ الأجرام والمجرّات السماوية تنطلق في اتّجاه السعة الكونيّة . ومعروفٌ أن الفترة التي عاش فيها (آبه لمتر) قبيل الحرب العالمية الثانية كان حظّها من المراصد الفلكية ، الأجهزة الاعتياديّة التقليديّة ، إذْ أنَّ المراقب الراديوتلسكوبيّة وأجهزة الكمبيوتر لم تكن قد لعبت بعد دورها الضخم في عصر الفضاء ، وفي رصد الأجرام البعيدة ، وحساب سرعة حركتها ، وحلّ المعادلات الرياضية المعقّدة بدقّة وسرعة . وكان علماء الفلك والرياضيّات في ذلك الوقت يستخدمون عقولهم في إجراء العمليّات الحسابيّة المتعلّقة بالفضاء وبسرعة السيارات التي تدور فيه .

ومع أنه قد أصبح من الميسور الآن متابعة حركة الأجرام السماويّة وحساب سرعتها بالأجهزة العصرية المتقدمة، ومع أن بين أيدي العلماء

(*) الله سبحانه وتعالى في رأي الصادق ـ عليه السلام ـ ليس له مكان محدد فهو في كل مكان ولا يحده حد ولا يوجد في مكان فما من مركز لله سبحانه . . .

(١) آبة لمتر عمل قبل الحرب العالميّة الثانية أستاذاً للرياضيات والفلك بجامعة لوون في بلجيكا . (المترجم).

فعلا نظريـة (داش) المتعلقة بحـركة العـالم صوب مـركز معـينّ، إلا أننا لا نستطيع إنكار نظرية (آبه لمتر)، كما أن نظر ية (داش) لم تتحقق علميـا حتى الآن.

وتشمل نظرية (داش) هذه على نقطتين غامضتين، هما:

أولا : كيف يتأتى للمادة أن تتحرك بسرعة تفوق سـرعة الضـوء ٥٤ مـرة؟ فالـرد أن المجرّات التي تسـير بهذه السـرعـة ليست مـادة، وإنمـا هي بلازما كما يقول علماء الفيزياء.

وثانيا: مـا هو المـركز الـذي تتجه صـوبه هـذه السيارات في سيـرها السـريع؟ إن البـروفيسور (داش) لم يـورد شيئـاً يـوضّـح بـه هـذه النقـطة الغامضة.

فـإنّ كانت الجـاذبيـة التي تتحكم في منـظومتنـا الشمسيـة تتحكم في العالم الخارجي عن هذه المنظومة، فالذي لا ريب فيه أن المركز الـذي تتجه جميع الأجرام والمجرات صوبه هو مركز مادي له جاذبية عـظيمة قـادرة على اجتـذاب المجرات والأجـرام السمـاويـة إليـه. وإلى يـومنـا هـذا، لم يتسنّ لأجهزة الرصد الدقيقة اكتشاف هذا المركز المادي الذي تتناهي قوّة جاذبيتـه عن التصور. ومما يزيد الأمر صعوبة أن صاحب النظرية لم يعين هذا المـركز الجاذب الذي تتجه إليه الأجرام والمجرّات.

الإمام جعفر الصادق (ع)
في دروسه

كان الإمام جعفـر الصادق (ع) من أكـثر الاساتـذة حلماً وصبراً في إلقاء دروسه على طلابه والإصغاء الى تعليقاتهم واستيضاحاتهم، والرد عـلى استفسـاراتهم ومناقشتهم. وإلى جـانب دروسه اليـومية التي كـان يُلقيها في

مسجد النبي (ص) ولا تنقطع حلقاتها المنتظمة، فقد درج بعد كل درسٍ على أن يفسح صدره لطلابه من سائل أو ناقدٍ أو مستوضح، وكان لا يترك سؤالا إلا بعد أن يستوفيه جواباً، مهما استغرق ذلك من وقت، ولو كان ذلك على حساب وقت الراحة أو وقت تناول الطعام في داره، فإن طالت الجلسة، بعث بمن يجيء إليه ببعض الطعام من بيته ليتناوله بزهده وبساطته.

ولأنه كان يفسح للأسئلة وقتا كافيا، فقد كان يرجو طلابه ألا يقاطعوه في أثناء القاء دروسه، وأن يرجئوا كل ما يعنُّ لهم إلى ما بعد الفراغ من الدرس.

وكان من عادة الإمام الصادق (ع) أن ينتهي من دروسه عند حلول موعد صلاة الظهر، فيؤم الناس للصلاة ثم ينصرف الى داره.

وما أكثر المناقشات التي دارت في مسجد النبي (ص) بين الإمام وبين طلابه أو مخالفيه في الرأي، أو بين فريق من الطلاب وبين فريق آخر منهم.

ومن ذلك مثلاً ما رواه صاحب (أصول الكافي)[1] نقلاً عن محمد بن اسحاق، قال :

سأل عبد الله الديصاني هشاماًبن الحكم قائلاً :

ـ ألَكَ رَبٌّ ؟

فقال : بلى .

قال : أقادر هو ؟

---

(١) أورد صاحب (اصول الكافي) في باب التوحيد صورةً من مناظرات الإمام مع أحد الملحدين سمّاه (أبا شاكر)، وهو عبد الله أبو شاكر الديصاني الملحد وقد نقلنا الحوار بنصّه وفصّه من هذا الكتاب، فضلاً عن أنه ورد في غيره من كتب الحديث . (المترجم).

قال : نعم قادر ، قاهر .

قال : أيقدر أن يُدخل الدنيا كلَّها في البيضة ، فلا تكبر البيضة ولا تصغر الدنيا ؟

قال هشام : النظرة . (أي أعطني مهلة).

فقال له : قد انظرتك حولاً . ثم خرج عنه .

فركب هشام إلى أبي عبد الله (ع)، فاستأذن عليه ، فأذن له . فقال له : يا ابن رسول الله ، أتاني عبد الله الديصاني بمسألةٍ ليس المعوّل فيها ألاّ على الله وعليك .

فقال له أبو عبد الله (ع): عمّاذا سألك ؟

فقال : قال لي كيت وكيت .

فقال أبو عبد الله (ع): يا هشام كم حواسّك ؟

قال خمس .

قال : أيها أصغر ؟

قال : الناظر .

قال : وكم قدر الناظر ؟

قال : مثل العدسة أو أقّل منها .

فقال له : يا هشام فانظر أمامك وفوقك ، وأخبرني بما ترى .

فقال : أرى سماءً وأرضاً ودوراً وقصوراً وجبالاً وأنهاراً .

فقال له أبو عبد الله (ع): إنَّ الذي قدر أن يُدخل الذي تراه العدسةَ أو أقلّ منها قادرٌ أن يُدخل الدنيا كلّها البيضة ، لا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة .

فأكبّ هشام عليه ، وقبّل يديه ، ورأسه ، وقال : حسبي يا ابن رسول الله ، وانصرف إلى منزله ، وغدا عليه الديصاني فقال له : يا هشام ، إنّي جئتك مسلّماً ولم أجئك متقاضياً للجواب .

فقال له هشام : إنْ كنت جئت متقاضياً فهاك الجواب . فخرج الديصاني عنه حتى أتى باب أبي عبد الله (أي الصادق (ع))، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فلمّا قعد قال له : يا جعفر بن محمد ، دلّني على معبودي .

فقال له أبو عبد الله (ع): ما اسمك ؟

فخرج عنه ولم يخبره باسمه . فقال له أصحابه : كيف لم تخبره باسمك ؟

قال : لو كنت قلت له (عبد الله) لكان يقول من هذا الذي أنت له عبد .

فقالوا له : عُد إليه ، وقُل له يدللك على معبودك ولا يسألك عن اسمك ، فرجع إليه قائلاً :

يا جعفر بن محمد ، دلّني على معبودي ولا تسألني عن اسمي .

فقال له أبو عبد الله (ع): اجلس ، وإذا غلامٌ له صغير في كفّه بيضة يلعب بها .

فقال له أبو عبد الله (ع): ناولني يا غلام البيضة ، فناوله إيّاها .

فقال له أبو عبد الله (ع): يا ديصاني ، هذا حصن مكنون له جلد غليظ ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق ، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة ، وفضّة ذائبة ، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضّة الذائبة ، ولا الفضّة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة ، فهي على حالها ، لم يخرج منها خارج مصلحٌ فيخبر عن صلاحها ، ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها ، لا يدري للذكر خُلقت أو للأنثى ، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس ، أترى لها مُدبِّرا ؟

قال : فأطرق الديصاني مليّاً ، ثم رفع رأسه فقال : أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّك إمام وحجّة من الله على خلقه ، وأنا تائب ممّا كنت فيه .

مناظرات الإمام الصادق (ع)
مـع الملحدين

مناظرات الإمام (ع) مع الملحدين :

ولـلإمـام الصـادق (ع) منـاظـرات علميّـة كثيـرة مـع الملحــدين والزنادقة ، منهم من كان يأتيه ويسـأله سؤال استفهـام واسترشـاد ، ومنهم من كان على عناده وسابق رأيـه . وفي كلتا الحـالتين ، كـان الصادق (ع) يستقبلهم بصدرٍ رحب وحلم عظيم ووجه باشّ ، فكم من مُعارض ومُلحد جاءه وخرج من عنده مقتنعاً مسترشداً ، وكم غيرهم خرج من مجلسـه وهو متمادٍ في غيّة وجهله ، ولكنّ الكلّ يكنّ له الاحترام والتبجيل .

رُوي أنّ ثلاثةً من الـدهريّـة اتّفقوا عـلى أن يعارض كـلّ واحدٍ منهم ربـع القرآن ، وكـانوا بمكّـة ، وتعاهـدوا على أن يجيئـوا بمعارضتـه في العام القابل[1] .

وكـان من هؤلاء الثلاثـة عبـد الكـريم بن أبي العـوجـاء ، وهـو من الملاحدة المشهـورين الذي اعتـرف بدسّـه الأحاديث الكـاذبة عـلى أحاديث النبي (ص) .

وكـان ابن أبي العوجـاء في بدايـة أمره مـوحّداً مؤمنـاً حسن السيـرة والسلوك يتردّد على مدرسة الحسن البصـري ، فلمّا انحرف عن التـوحيد ، اعتزل حوزة الحسن البصري .

وانتهى أمره بالقتل لأنه ملحد ، قتله محمد بن سليمان عامل الكوفـة من قبل المنصور العباسي .

---

(١) المناقب لابن شهر آشوب .

كان ابن أبي العوجاء يوماً هو وعبد الله بن المقفّع في المسجد الحرام ، فقال ابن المقفع : ترون هذا الخلق ، وأومأ بيده إلى موضع الطواف . ما منهم أحد أوجب له اسم الانسانية إلا ذلك الشيخ الجالس ، يعني أبا عبد الله جعفراً بن محمد (ع)، أمّا الباقون فرعاع وبهائم .

فقال ابن أبي العوجاء : وكيف أوجب هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء ؟ .

فقال : لأنّي رأيت عنده ما لم أره عندهم .

فقال ابن أبي العوجاء : لا بدّ من اختبار ما قُلت فيه منه .

فقال له ابن المقفّع : لا تفعل ، فإنّي أخاف أن يُفسد عليك ما في يدك .

فقال : ليس ذا رأيك ، لكن تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك اياه هذا المحلّ الذي وصفت .

فقال ابن المقفّع : أمّا إذا توسّمت عليّ ، فقم إليه وتحفّظ من الزلل ، ولا تثن عنانك إلى استرسال فيسلمك إلى عقال .

فقام ابن أبي العوجاء إلى الصادق (ع)، فلما رجع منه قال : ويلك يا ابن المقفّع ، ما هذا ببشر ، وإنْ كان في الدنيا روحانيّ يتجسّد إذا شاء ظاهراً ، ويتروّح إذا شاء باطناً ، فهو هذا .

فقال له : كيف ذلك ؟

فقال : جلست إليه ، فلمّا لم يبق عنده أحدٌ غيري ، ابتدأني فقال : إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء ، وهو على ما يقولون ـ يعني أهل الطواف ـ فقد سلموا وعطبتم ، وإنْ يكن الأمر كما تقولون وليس هو كما تقولون ، فقد استويتم وهم .

فقلت : يرحمك الله ، وأيّ شيء نقول ، وأي شيء يقولون ؟ ما قولي وقولهم إلا واحد .

فقال : وكيف يكون قولك وقولهم واحداً ، وهم يقولون إنَّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً ، ويدينون بأن للسماء إلهاً وإنّها عمران ، وأنتم تزعمون أنَّ السماء خراب ليس فيها أحد .
قال : فاغتنمتها منه ، فقلت له : ما منعه إن كان الأمر كما يقولون أن يظهر لخلقه يدعوهم الى عبادته حتّى لا يختلف فيه اثنان .

ولَمَ يحتجب عنهم ، ويرسل إليهم الرسل ، ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به ؟

فقال لي : ويلك كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك ، نشوّك[1] بعد أن لم تكن ، وكبرك بعد صغرك ، وقوّتك بعد ضعفك ، وضعفك بعد قوّتك ، وسقمك بعد صحّتك ، وصحتك بعد سقمك ، ورضاك بعد غضبك ، وغضبك بعد رضاك ، وحزنك بعد فرحك ، وفرحك بعد بغضك ، وبغضك بعد حبك ، وعزمك بعد إنابتك[2] ، ورغبتك بعد رهبتك ، ورهبتك بعد رغبتك ، ورجاؤك بعد يأسك ، ويأسك بعد رجائك ، وخاطرك لما لم يكن في وهمك وغروب ما أنت معتقده عن ذهنك .

وما زال يعدّ عليّ قدرته التي هي في التي لا أدفعها ، حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه[3] .

ودخل ابن أبي العوجاء على الصادق (ع) يوماً فقال : أليس تزعم أنّ الله تعالى خالق كلّ شيء ؟.

---

(١) نشأ في نسخة اخرى .
(٢) الإنابة : الرجوع . وفي نسخة أخرى أبانك ، وفي نسخة اناءتك وهي الإبطاء .
(٣) « الكافي » كتاب التوحيد منه ، باب حدوث العالم وإثبات المحدث .

فقال أبو عبد الله (ع) : بلى .

فقال : أنا أخلق .

فقال له : كيف تخلق ؟

فقال : أحدث في الموضع ، ثم ألبث عنه ، فيصير دواب ، فكنت أنا الذي خلقتها .

فقال أبو عبد الله (ع) : أليس خالق الشيء يعرف كم خلقه ؟

قال : بلى .

قال : أفتعرف الذكر من الأنثى وتعرف عمرها ؟ فسكت ابن أبي العوجاء .

ثم إنه عاد في اليوم الثاني إلى الصادق (ع) فجلس وهو ساكت لا ينطق .

فقال له أبو عبد الله (ع) : كأنك جئت تُعيد بعض ما كنّا فيه .

فقال : أردت ذلك يا ابن رسول الله (ص) .

فقال أبو عبد الله (ع) : ما اعجب هذا ، تنكر الله وتشهد أنّي ابن رسول الله (ص) :

فقال : العادة تحملني على ذلك .

فقال له الصادق (ع) : فما يمنعك من الكلام ؟

قال : إجلال لك ومهابة ، ما ينطق لساني بين يديْك ، فإني شاهدت العلماء ، وناظرت المتكلّمين ، فما تُداخلني هيبة قطّ مثلما تُداخلني من هيبتك .

فقال الصادق (ع) : يكون ذلك ، ولكن أفتح عليك سؤالاً ، ثم أقبل عليه فقال له :

أمصنوع أنت أم غير مصنوع ؟

فقال له ابن أبي العوجاء : أنا غير مصنوع .

فقال له الصادق (ع) : فَصِف لي لو كنت مصنوعاً كيف كنت تكون ؟

فبقي عبد الكريم مليّاً لا يحير جواباً ، وولـع بخشبةٍ كـانت بين يـديه وهو يقول :

طـويل عـريض ، عميق قصـير ، متحـرك سـاكن ، كـلّ ذلـك من صفـة خلقه .

فقال له الصادق (ع) : فإنْ كنت لم تعلم صفة الصنعة من غيرها ، فاجعل نفسك مصنوعاً لما تجد في نفسك ممّا يحدث من هذه الأمور .

فقال له عبد الكريم : سـألتني عن مسألـة لم يسألني أحـدٌ عنها قبلك ، ولا يسألني أحدٌ بعدك عن مثلها .

فقال له أبـو عبد الله (ع) : هَبْـكَ علمتَ أنَّك لم تُسـأل في ما مضى ، فـما علمك أنك لم تُسأل في ما بعد ؟ على أنّك يا عبـد الكريم نقضت قـولك ، لأنَّك تزعم أنَّ الأشياء من الأولّ سواء ، فكيف قدّمت وأخّرت ؟

ثم قال : يا عبد الكريم أنزيدك وضـوحاً ؟ أرأيت لـو كان معـك كيس فيه جواهر ، فقال لك قـائل : هـل في الكيس دينار ؟ فنفيت كـون الدينـار في الكيس ، فقال لك قائل : صفـ لي الدينار ، وكنت غير عالم بصفته ، هل لك أن تنفي كون الدينار في الكيس وأنت لا تعلم ، قال لا .

فقال أبو عبد الله (ع) : فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس ، فلعلّ في العالم صنعةٌ من حيث لا تعلم ، لا تعلم صفة الصنعة من غير الصنعة .

فانقطع عبد الكريم ، وأجاب بعض أصحابه ، وبقي معه بعض .

فعـاد في اليوم الثـالث فقـال : إقلب السؤال ، فقـال أبـو عبـد الله (ع) : سَلْ عمَّا شئت .

فقال : ما الدليل على حدوث الأجسام ؟

فقـال (ع) : أنّي مـاوجدت صغيـراً ولا كبيـراً إلاّ وإذا ضم إليـه مثله صـار

أكبر ، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى ، ولو كان قديماً ما زال ولا حال ، لأنَّ الذي يزول ويحول يجوز أن يُوجد ويبطل ، فيكون بوجوده بعد عدمه دخولٌ في الحدث ، وفي كونه في الأولى دخوله في العدم ، ولن تجتمع صفة الأزل والعدم في شيء واحد .

فقال عبد الكريم : هَبْكَ علمت بجري الحالين والزمانين على ما ذكرت ، واستدللت على حدوثها ، فلو بقيت الأشياء على صغرها ، من أين لك أن تستدلّ على حدوثها ؟

فقال الصادق (ع) : إنّما نتكلّم على هذا العالم الموضوع ، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر ، كان لا شيء أدلّ على الحدث من رفعنا إيّاه ووضعنا غيره ، ولكن أجبت من حيث قدّرت إنّك تلزمنا وتقول : إنَّ الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنّه متى ما ضُمّ شيء منه إلى مثله كان أكبر، وفي جواز التغيير عليه خروج من القدم، كما بان في تغيير دخوله في الحدث أن ليس وراءه يا عبد الكريم ، فانقطع ابن أبي العوجاء.

ولما كان في العام القابل ، التقى الإمام في الحرم ، فقال له بعض شيعته إن أبي العوجاء قد أسلم .

فقال الصادق (ع) : هو أعمى من ذلك ، لا يسلم ، فلمّا بصر بالصادق (ع) قال : سيّدي ومولاي .

فقال له الإمام (ع) ما جاء بك إلى هذا الوضع ؟

فقال : عادة الجسد وسُنّة البلد ولنبصر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة .

فقال له الصادق (ع) : أنت بعد على عتوّك وضلالك يا عبد الكريم .

فـذهب يتكلّم ، فقال لـه الإمام (ع) : لا جـدال في الحج ، ونفض رداءه من يده ، وقال :

إن يكن الأمـر كما تقـول ، وليس كـما تقـول ، وهـو كـما نقـول ، نجـونـا وهلكت[1] .

وسأل ابن أبي العوجاء الصادق (ع) يوماً في تبديل الجلود في النار .

فقال : ما تقـول في هذه الآيـة : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدّلنـاهم جلوداً غيرها ﴾[2] ؟

هَبْ هذه الجلود عصت فَعُذِّبت فما بال الغير يُعذَّب ؟

قـال أبو عبـد الله (ع) : ويحـك هي هي ، وهي غيـرهـا ، قـال : أعقلني هـذا القول ، فقـال له الصـادق (ع) أرأيت أنّ رجلاً عهـد إلى لبنة فكسرها ثم صبّ عليها الماء وجبلها[3] ثم ردّها إلى هيئتها الأولى ، ألم تكن هي هي وهي غيرها ، فقال : بلى أمتع الله بك[4] .

الموت والفناء في نظر الصادق (ع)

يعتقد سواد الناس ، ولو من النـاحية السـطحيّة ، أنَّ المـوت حقيقة تدلّ على أنّ الحياة عبث ، ولا طائل من ورائها ، وانه دليل على بطلان كلّ شيء ، كما أنّ هناك من يعتقد أنّ الموت عقوبة ظالمة للعباد .

ولكنّ الواقع أنّ الموت يؤديّ وظيفةً هامة بالنسبة لـلإنسان والحيـوان والكـائنـات الحيّـة ، ولـولاه لانقـرض نسـل الإنســان ولضـاقت الأرض بسكّانها ، ولاعتدى القوي على الضعيف .

---

(١) توحيد الصدوق ، باب حدوث العالم .

(٢) الآية ٥٦ في سورة النساء .

(٣) أي طبعها ولينّها .

(٤) البحار (٤ : ١٤١) .

إلى هذا إلمح الإمام الصادق (ع) في الدروس التي كان يُلقيها على بعض طلّابه .

وقد ذكرنا ذلك بالعالم الشهير (ألكسيس كاريل) مؤلّف كتاب (الإنسان ذلك المجهول) الذي بذل جهداً كبيراً لاستقصاء أسرار الموت وأسبابه عساه يحول دون وقوع هذه الأسباب ، ولكنّه انتهى بأن ندم على هذا الجهد ، وانصرف إلى أعمال علميّة أخرى .

وقد جاء في دائرة معارف (كولومبيا) الأمريكية في ترجمة (ألكسيس كاريل) بأنه كان ذا شخصيتين ، لكلّ واحدةٍ منهما اتّجاهها الخاص ، وكأنَّ بينهما صراعاً أمّا الشخصية الأولى فهي شخصيّة العالم المفكر الذي وكده وضع حد للموت ، وأمّا الشخصية الثانية فشخصية مفكر فيلسوف هاله ما رآه من العالِم المفكّر فحثّه على أن ينصرف عن البحوث التي يُجريها للتخلّص من الموت ، وفي هذا الصدد ، توجه شخصيّة الفيلسوف حديثها إلى شخصيّة العالِم قائلةً : لِمَ كلّ هذا السعي في سبيل إطالة أعمار مجموعة من الناس ، دأبها الأنانيّة وحبّ الذات وإنزال الظلم بالآخرين وتكديس الثروات ، ولو كان سبيلها إلى ذلك إراقة دماء أقوام آخرين ؟ أفلا يدرك العالِم المفكّر أنَّ قيمة الإنسان تُقاس لا بطول العمر بل بنوعيتّه وبما يُنتجه من فكر ، وأنّ رجلاً واحداً يتحلى بالقيم الإنسانية ويقدّم العون للآخرين ، خيرٌ من مئات وآلاف جافتهم الإنسانية وتجرّدوا من القيم .

وقد كُتب الفوز في هذا الجدال بين قوة العلم وقوة الفيلسوف (إلكسيس كاريل) الفيلسوف الحكيم ، ومن هنا انصرف كاريل عن مباحثه الدائرة حول إطالة عمر الإنسان .

ومع ذلك ، خلّف كاريل بعض النظريّات ، منها نظريّة تقول إنّ حقن الشيوخ بدمّ الشباب من نفس الفصيلة كفيل بإطالة أعمارهم وتبديد

آثار الشيخوخة ، ولهذه النظريّة قيمتها ووزنها لدى علماء الأحياء حتّى الآن .

وجديرٌ بالذكر أنَّ ألكسيس كاريل كان أوّل طبيب جرّاح نجح في إجراء عملية فتح شريان القلب وترقيعه في ثلاث دقائق ، فلا غَرْوَ أن يفوز بجائزة نوبل في الطبّ ، هذا وقد توفي كاريل عام ١٩٤٤م .

وقد دار حديث عن الموت بين الإمام جعفر الصادق (ع) وواحدٌ من تلاميذه ، واستصوبت أن أورده بنصه كما رواه المفضّل بن عمر ، وهو من أخلص تلاميذ الصادق (ع) .

المجلس الرابع :

قال المفضّل[1] : فلمّا كان اليوم الرابع ، بكرت إلى مولاي ،

---

(١) أبو عبد الله المفضل بن عمر الجعفي الكوفي ، وُلد في أواخر القرن الأوّل الهجري في الكوفة ، وعاصر الإمام الباقر (ع) ، ثم اتصل بالإمام الصادق (ع) ، وبعده بالإمام موسى الكاظم (ع) ، وأخذ عنهما الحديث والرواية ، واستقى الكثير من الأحاديث والعلوم من مدرسة الصادق (ع) ، ونظم وألف عدداً من الكتب ممّا أخذه عن الإمام وهي :

١ ـ كتاب الإهليلجة ، وهو من إملاء الإمام الصادق (ع) على المفضّل (وقد ذكرها المجلسي في المجلد الثاني من كتابه « بحار الأنوار » في باب التوحيد مع الشرح والبيان) .

٢ ـ كتاب كنز الحقائق والمعارف ، ويسمى أيضاً كتاب التوحيد . طبع مستقلاً عدة مرات .

٣ ـ الوصية .

٤ ـ كتاب ما افترض الله على الجوارح من الإيمان .

٥ ـ كتاب الإيمان والإسلام .

٦ ـ كتاب علل الشرائع : وقد ذكر النجاشي في رجاله كتابين آخرين ، وهما كتاب (أعمال اليوم والليلة) ، وكتاب (بدء الخلق والحث على الاعتبار) ، وأغلب الظنّ أنّ هذا هو نفس كتاب التوحيد .

وكان المفضل بالإضافة الى مكانته العلمية موضع ثقة الإمام والجميع ، وكان وكيلاً =

فاستؤذن لي ، فأمرني بالجلوس ، فجلست ، فقال عليه السلام : مِنّا التحميد والتسبيح والتعظيم والتقديس ، للاسم الأقدم والنور الأعظم العليّ العلاّم ذي الجلال والإكرام ، ومُنشيء الأنام ، ومُفني العوالم والدهور ، وصاحب السرّ المستور ، والغيب المحظور ، والإسم المخزون والعلم المكنون .

وصلواته وبركاته على مُبلّغ وحيه ، مؤدّي رسالته ، الذي بعثه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ليهلك من هلك عن بيّنة ، ويحيى من حيَّ عن بيّنة ، فعليه وعلى آله من بارئه الصلوات الطّيبات ، والتحيّات الزّاكيات الناميات ، وعليه وعليهم السلام .

الموت والفناء وانتقاد الجهّال وجواب ذلك :

م وقد شرحت وقد شرحت لك يا مفضّل من الأدلّة على الخلق ، والشواهد على صواب التدبير والعمد في الإنسان والحيوان والنبات والشجر وغير ذلك ، ما فيه عبرةٌ لمن اعتبر . وأنا أشرح لك الآن الآفات الحادثة في بعض الأزمان التي اتّخذها أناسٌ من الجهّال ذريعةً إلى جحود الخلق والخالق ، والعمد والتدبير ، وما أنكرت المعطّلة والمنافية من المكاره والمصائب ، وما أنكروه من الموت والفناء .

وممّا ينتقده الجاحدون للعمد والتقدير للموت والفناء ، فإنّهم يذهبون إلى أنّه ينبغي أن يكون الناس مخلّدين في هذه الدنيا ، مبرّئين من هذه الآفات ، فينبغي أن يُساق هذا الأمر إلى غايته ، فينظر ما محصوله .

أفرأيت ، لو كان كلّ من دخل العالم ويدخله يبقون ، لا يموت أحدٌ

= للإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام ، وتوفي سنة ١٨٣هـ قال الكاظم (ع) فيه : أما إنّ المفضّل كان أنسي ومستراحي . (المترجم) .

منهم ، ألم تكن الأرض تضيق بهم ، حتّى تعوزهم المساكن والمزارع والمعائش ، فإنّهم والموت يُفنيهم أولاً فأولاً ، يتنافسون في المساكن والمزارع ، حتى تنشب بينهم في ذلك الحروب وتُسفك فيهم الدماء ، فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون ، وكان يغلب عليهم الحرص والشره وقساوة القلوب ، فلو وثقوا بأنّهم يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله ، ولا أفرج لأحد عن شيء من أمور الدنيا ، كما قد يملّ الحياة من طال عمره ، حتى يتمنّى الموت والراحة من الدنيا . . .

فإن قالوا : إنّه ينبغي أنه يرفع عنهم المكاره والأوصاب حتّى لا يتمنّوا الموت ولا يشتاقوا إليه ، فقد وصفنا ما كان يخرجهم إليه من العتو والأشر ، الحامل لهم على ما فيه فساد الدنيا والدين .

وإنْ قالوا : إنّه كان ينبغي ان لا يتوالدوا لكيلا تضيق عنهم المساكن والمعائش .

قيل لهم : إذا كان يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله تعالى ومواهبه في الدارين جميعاً ، إذن لم يدخل العالم إلا قرن واحد ، لا يتوالدون ولا يتناسلون . . .

فإن قالوا : إنّه كان ينبغي أن يُخلق في ذلك القرن الواحد من النّاس مثل ما خُلق ويُخلق إلى انقضاء العالم .

يُقال لهم : رجع الأمر إلى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعائش عنهم ، ثمّ لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون ، لذهب الأنس بالقرابات وذوي الأرحام والانتصار بهم عند الشدائد ، وموضع تربية الأولاد والسرور بهم ، نفي هذا دليل على أن كل ما تذهب إليه الأوهام ـ سوى ما جرى به التدبير ـ خطأ وسفه من الرأي والقول.

ولعلّ طاعناً يطعن على التدبير من جهة أخرى فيقول : كيف يكون

ها هنا تدبير ، ونحن نرى الناس في هذه الدنيا ان القوي يظلم ويغضب ، والضعيف يظلم ويُسام الخسف ، والصالح فقير مبتلى ، والفاسق مُعافى موسع عليه ، ومن ركب فاحشةً أو انتهك محرماً لم يعالج بالعقوبة .

فلو كان في العالم تدبير ، لجرت الأمور على القياس القائم ، فكان الصالح هو المرزوق ، والطالح هو المحروم ، وكان القويّ يمنع من ظلم الضعيف ، والمنتهك للمحارم يُعالج بالعقوبة .

فيقال في جواب ذلك : إنَّ هذا لو كان هكذا لذهب موضع الإحسان الذي فضّل به الإنسان على غيره من الخلق ، وحمل النفس على البرّ والعمل الصالح احتساباً للثواب وثقةً بما وعد الله عنه ، ولصار النّاس بمنزلة الدّواب التي تُساس بالعصا والعلف ويلمح لها بكلّ واحدٍ منهما ساعةً فساعةً فتستقيم على ذلك ولم يكن أحدٌ يعمل على يقينٍ بثواب أو عقاب ، حتّى كان هذا يُخرجهم عن حدّ الإنسية إلى حدّ البهائم ، ثم لا يعرف ما غاب ، ولا يعمل إلاّ على الحاضر من نعيم الدنيا ، وكان يحدث من هذا أيضاً أن يكون الصالح إنّما يعمل للرزق والسعة في هذه الدنيا ويكون الممتنع من الظلم والفواحش إنّما يكفّ عن ذلك لترقّب عقوبة تنزل به من ساعته ،حتى تكون أفعال الناس كلّها تجري على الحاضر ، لا يشوبه شيء من اليقين بما عند الله ، ولا يستحقون ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها ، مع أنّ هذه الأمور التي ذكرها الطاعن من الغنى والفقر والعافية والبلاء ليست بجارية على خلاف قياسه ، بل قد تجري على ذلك أحياناً .

فقد ترى كثيراً من الصالحين يرزقون المال لضروب من التدبير ، ولكيلا يسبق إلى قلوب النّاس أنّ الكفّار هم المرزقون ، والأبرار هم المحرومون ، فيؤثرون الفسق على الصلاح ، وترى كثيراً من الفُسّاق يعالجون بالعقوبة إذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى

أنفسهم ، كما عولج فرعون بالغرق وبختنصّر (نبوخذ نصّر)[1] بالتيه وبلبيس بالقتل .

وإن أمهل بعض الأشرار بالعقوبة وأخّر بعض الأخيار بالثواب إلى الدار الآخرة لأسباب تخفى على العباد ، لم يكن هذا مما يبطل التدبير ، فإنّ مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض ولا يبطل تدبيرهم ، بل يكون تأخيرهم ما أخّروه وتعجيلهم ما عجّلوه داخلاً في صواب الرأي والتدبير ، وإذا كانت الشواهد تشهد وقياسهم يوجب أنَّ للأشياء خالقاً حكيماً قادراً ، فما يمنعه أن يدبّر خلقه ، فإنّه لا يصلح في قياسهم أن يكون الصانع يهمل صنعته إلّا بإحدى ثلاث خلال ؛ إمّا عجز وإما جهل وإمّا شرارة ، وكلّ هذا محالٌ في صنعته عزَّ وجلَّ وتعالى ذكره . وذكر أن العاجز لا يستطيع أنْ يأتي بهذه الخلائق الجليلة العجيبة ، والجاهل لا يهتدي لما فيها من الصواب والحكمة ، والشرّير لا يتطاول لخلقها وإنشائها . وإذا كان هذا هكذا ، وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يدبّرها لا محالة ، وإنْ كان لا يُدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه ، فإنَّ كثيراً من تدبير الملوك لا تفهمه العامّة ولا تعرف أسبابه ، لأنّها لا تعرف دخيلة الملوك وأسرارهم ، فإذا عرف سببه وجد قائما على الصواب والشاهد المحنة[2] .

تلك كانت نظرية الصادق (ع) بشأن الموت وحكمته ، وكانت له نظريات أخرى في الحركة والوجود أوردناها في ما سبق ، وكلها تشهد له بنفاذ النظرة ، وصفاء المذهب ، وسلامة المنطق ، وجلاء البصر والبصيرة ،

---

(١) كان بختنصّر أعظم ملوك الكلدانيين ، امتد ملكه في بابل من سنة ٦٠٤ إلى سنة ٥٦١ ق. م. وقد وصف بالقوة والبأس وجاء ذكره في التوراة كثيراً لأنه هاجم اليهود سكان مملكة يهوذا الصغيرة هجوما ساحقا وانزل بهم عقابا شديدا وأجلى أكثرهم إلى بابل ودمّر عاصمتهم أورشليم تدميراً كاملاً .

(٢) توحيد المفضل ص ١٦٦ ـ ١٧٥ ، طبع النجف المكتبة الحيدرية ١٩٦٩ م .

والقـدرة على استكنـاه حقائق الأشيـاء ، والاستعـداد التلقـائي لاستيعـاب فلسفة الحياة والكَون واستنباط ما استسرّ من خفاياهـا وما غفلت عنـه كبار العقول المفكّرة .

حقا ، لقد كـان الإمام جعفـر الصادق (ع) واحـد عصره ، وقمّـة القمم في علوم الدين والدنيا في عصور كثيرة ممتدة .

المـراجع

ثبت المراجع العربيّة

- أسد الغابة - لعلي بن محمد بن الأثير - دمشق ١٩٣٨ م .
- الإصابة - لأحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني - مصر ١٩٥٨ م .
- أصول الكافي - لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني (المتوفي سنة ٣٢٨ هـ) - ٤ أجزاء - المطبعة الحيدرية - طهران .
- الأغاني - لأبي الفرج الأصبهاني - مطبعة بولاق - القاهرة .
- الإمام جعفر الصادق (ع) - جواد مُغنية - بيروت - دار الأندلس - بيروت - سنة ١٩٥٦ م .
- الإمام جعفر الصادق (ع) - لعبد الحليم الجندي - دار المعارف - القاهرة .
- الإمام الصادق (ع) والمذاهب الأربعة - لأسد حيدر - طبع النجف الأشرف - ٤ أجزاء - ١٣٧٧ هـ .
- الإمام الصادق (ع) - لمحمد الحسين المظفر في مجلّدين - طبع النجف الأشرف .
- الإمام الصادق (ع) ملهم الكيمياء - للدكتور محمد يحيى الهاشمي -

بغداد ـ مطبعة النجاح ـ ١٩٥٠ م .
ـ الإنتصار ـ لعبد الرحيم بن محمد الخيّاط ـ القاهرة ـ ١٣٤٤ هـ .
ـ أنساب الأشراف ـ لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ١٩٧٤ م .
ـ أوائل المقالات في المذاهب والمختارات ـ لأبي عبد الله محمد بن محمد ابن النعمان المفيد العكبري البغدادي (المتوفي سنة ٤١٣ هـ) ـ تبريز ـ ١٣٧١ م .
ـ أوراق علمية ـ للدكتور فؤاد صروف ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ١٩٧٢م .
ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ـ للسيد حسن الصدر ـ طبع بغداد .
ـ تاريخ الفكر العربي ـ للدكتور عمر فرّوخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
ـ تاريخ المذاهب الإسلامية ـ للشيخ محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة .
ـ تاريخ اليعقوبي ـ لأحمد بن أبي يعقوب الكاتب المعروف بابن واضح الأخباري (المتوفي سنة ٢٩٢ هـ) ـ تحقيق السيّد محمد صادق بحر العلوم ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ١٩٧٤ م .
ـ تذكرة الأولياء ـ لفريد الدين محمد العطّار النيسابوري (المتوفي سنة ٦١٨ هـ) ـ تحقيق العلّامة القزويني ـ الطبعة الثالثة ـ طهران ١٣٣٦ هـ . ش .
ـ تذكرة الخواصّ ـ لسبط ابن الجوزي (المتوفي سنة ٦٥٤ هـ) ـ المطبعة العلمية ـ النجف الأشرف ـ ١٣٦٩ هـ .
ـ تهذيب التهذيب ـ لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني ـ طبع حيدر اباد ـ ١٣٢٥ هـ .

ـ جعفر بن محمد (ع) ـ لعبد العزيز سيّد الأهل ـ دار الشرق الجديد ـ بيروت ـ ١٩٥٤ م .
ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجريّ ـ لآدم ميتز ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة في مجلّدين ـ الطبعة الثالثة ـ مصر .
ـ الحكم الجعفرية ـ جمع عارف تامر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ ١٩٥٧ م .
ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة ـ للشيخ آغا بزرك الطهراني ـ طبع النجف الأشرف .
ـ شرح نهج البلاغة ـ لعبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي ـ طبع مصر ـ ١٣٢٩ هـ .
ـ شيخ المضيرة أبو هريرة ـ للشيخ محمود أبو ريّة ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٣٢٩ هـ .
ـ الصحيفة السجادية ـ بمقدمة للامام الشهيد السيد محمد باقر الصدر ـ طبع النجف الأشرف .
ـ طبقات ابن سعد ـ طبع بيروت ـ ١٩٥٧ م .
ـ عقيدة الشيعة ـ لدونالدسن ـ طبع القاهرة ـ ١٩٤٦ م .
ـ عقيدة الشيعة في الإمام الصادق وسائر الأئمة عليهم السلام ـ لحسين يوسف مكّي ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ ١٩٦٣ م .
ـ علل الشرائع ـ للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى ابن بابوية (المتوفي سنة ٣٨١ هـ) ـ المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف ـ ١٣٨٥ هـ .
ـ العلوم الطبيعية في القرآن ـ للدكتور يوسف مروّة ـ بيروت .
عيون أخبار الرضا (ع) لابن بابوية ـ تحقيق مهدي الحسيني اللاجوردي ـ قم المشرفة ـ ١٣٧٧ هـ .

- فرق الشيعة لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي (المتوفي سنة ٣١٧هـ) - طبع جمعية المستشرقين الألمانية - استانبول - ١٩٣١م .
- الفِصَل في الملل والنحل - لعليّ بن أحمد بن حزم - طبع مصر - ١٣٢١ هـ .
- فلاسفة الشيعة - لعبد الله نعمة - دار مكتبة الحياة - بيروت .
- الفهرست - لابن النديم - تحقيق رضا تجدد - طهران - مطبعة دانشكاه طهران - ١٩٧١ م (ويلاحظ أن رضا تجدد ضبط اسم مؤلف « الفهرست » بالنديم لا ابن النديم) .
- مروج الذهب - لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (المتوفي سنة ٣٤٦ هـ) - دار الأندلس - بيروت - ١٩٧٣ .
- مُسند جعفر الصادق (ع) - دار الفكر - بيروت - ١٩٥٠ م .
- المقالات والفرق - لسعد بن عبد الله الأشعري - طبع طهران - ١٩٦٣ م .
- مقدّمة ابن خلدون - لعبد الرحمن ابن خلدون - بيروت - ١٩٥٦ م .
- الملل والنحل - للشهرستاني - طبع القاهرة - ١٣٢١ هـ .
- مناقب آل أبي طالب - لأبي جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب (المتوفي سنة ٥٨٨ هـ) - قم المشرفة - إيران .
- وسائل الشيعة - لمحمد بن الحسن الحر العاملي - ٩ أجزاء - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩١ هـ .
- وفيات الأعيان - لابن خلّكان شمس الدين أبي العباس - طبع مصر - ١٩٤٩ م .